



موسوعة

# وصف مصر

وصف آثار جزيرة فيلة/أسوان  
و الشلالات/الفتيقين/كوم امبو  
ادفو/أسنا/أرمليت



٢٠

الجزيرة  
الفتيقين



تأليف علماء الحملة الفرنسية

مكتبة الاسكندرية  
٢٠٠٢

مكتبة الاسكندرية

وصف مصر

آثار العصور القديمة



# وصف مصر

وصف آثار جزيرة فيلة  
أسوان والشلالات  
الفتن - كوم أمبو - إدفو  
الكاب - إسنا - أرمنت

تأليف

علماء الحملة الفرنسية





**مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣**  
**مكتبة الأسرة**

**برعاية السيدة سوزان مبارك**

**موسوعة وصف مصر**

**إشراف : حسين البنهاوى**

**الجهات المشاركة:**

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

وصف مصر

الجزء العشرون

تأليف : علماء الحملة الفرنسية

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى:

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

---

## على سبيل التذكير:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلا بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتسم عطرها ربيعاً للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهداً ووعداً ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

---



## المقدمة

تتناول مجلدات وصف آثار العصور القديمة فى موسوعة «وصف مصر»، مدن مصر من الجنوب إلى الشمال بدءًا من فيلة ومرورًا بمدن مصر العليا والسفلى وانتهاءً بمدينة الإسكندرية، وما تحويه هذه المدن من آثار ترجع لمختلف العصور: الفرعونى واليونانى والرومانى والقبلى والعربى.

وجزيرة فيلة أو «أنس الوجود» - موضوع الفصل الأول من هذا المجلد - هى جزيرة صغيرة تتكون من خمس كتل جرانيتية ضخمة تتوسط مجرى النيل، وتقع على مسافة أربعة كيلومترات جنوب سد أسوان وقد غطاها طمى النيل بنسب متفاوتة.

واسم فيلة هو تحريف للاسم المصرى «بيلال» الذى يعنى «النهاية»، حيث إن الجزيرة تقع فى أقصى الجنوب على حدود مصر والنوبة، كما يطلق عليها أيضاً اسم «أنس الوجود» وهو اسم بطل قصة طريفة يتناقلها الأهالى.

وقبل بناء سد أسوان عام ١٩٠٢، كانت جزيرة فيلة من أجمل جزر المنطقة، وتكثر فيها الأشجار والورود والنخيل، بالإضافة إلى احتوائها على بقايا مجموعة رائعة من المعابد الضخمة التى تعد خير دليل على رقى القدماء فى فن المعمار، وترجع معابد جزيرة فيلة المقدسة إلى العصور الفرعونى واليونانى والرومانى واليونانى والرومانى، أى إنها تعمل ملابع الحضارات الثلاث.

ولعل أهم ما على الجزيرة من آثار هو معبد إيزيس الكبير، ويرجع تاريخ بنائه إلى عصر البطالمة فى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد حرص حكام مصر المتعاقبين سواء من البطالمة أو الرومان على إضافة جزء أو نقش لهذا المعبد، فقد تمتعت فيلة وجزيرة بيحة المجاورة بشهرة كبيرة فى العصرين اليونانى والرومانى بسبب ازدهار عبادة الربة إيزيس، وبالإضافة للآثار القديمة، تضم الجزيرة من العصر المسيحى بعضها نادر، وتتميز فيلة بوفرة النقوش الدينية التى تدور حول أسطورة إيزيس وأوزوريس وحورس.

وفى الفصل الثانى يتناول عند العلماء الفرنسيون مدينة أسوان التى تقع فى أقصى وادى النيل عند الصخور الجرانيتية، وكانت عاصمة للإقليم الأول من أقاليم مصر العليا، ولعبت دورًا كبيرًا فى التاريخ القديم، لا سيما فيما يتعلق بحماية مدخل مصر الجنوبى وإرسال الحملات التأديبية، وكمركز تجارى كبير لمنتجات بلاد النوبة وشعوب إفريقيا، هذا بالإضافة إلى أهمية محاجرها الجرانيتية فى إمداد الفنون المصرية القديمة بالمواد اللازمة.

ولعل أهم آثار أسوان هو معبد إيزيس الذى يقع جنوبى المدينة، وهو معبد صغير نسبيًا، قام ببنائه بطليموس الثالث والرابع، ولم يستكمل العمل به، وبقيت السور الكبير الذى أقيم لحماية الملاحة فى النيل ضد غارات القبائل النوبية، وربما كانت بدايته فى عهد الأسرة الثانية عشرة فى الدولة الوسطى.

ومن القطع النادرة ما يطلق عليه الأثريون اسم «المسلة الناقصة»، وتوجد فى المجر الشمالى مستقرة على الأرض لم تنزع من مكانها إلا أنها مصفولة من جوانبها الثلاثة الأخرى، ويقدر وزن هذه المسلة بحوالى ١٦٦٨ طنًا، ولو استكمل العمل فيها، لكانت من أضخم القطع الحجرية المنحوتة فى الحضارة المصرية القديمة.

وتأتى الفنتين بعد أسوان وهى جزيرة كبيرة تقع وسط مجرى النيل قبالة مدينة أسوان، ولا تقل أهمية عنها حيث لعبت هى الأخرى دورًا دينيًا وعسكريًا مهمًا، ويعتقد أنها أقدم من أسوان، وربما يرجع اسمها الأصل إلى شعار القبيلة

المصرية الأولى التى عاشت على الجزيرة وهو حيوان الفيل، وقد عرفت المدينة أيضاً باسم أبو - الفيل.

وتحوى الجزيرة - التى تمتد لمسافة ميل ونصف - أنقاض آثار مهمة تتمثل فى القلعة الحدودية والمعابد الكبيرة، لا سيما التى ترجع لمهد تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث وهيكल تراجان، والبوابة الجرانيتية التى قام ببنائها بطليموس الأول، بالإضافة لمقياس النيل الذى يقع فى طرف الجزيرة.

وتأتى مدينة كوم امبو وآثارها فى الفصل الرابع، ويعنى الاسم القديم لهذه المدينة «الذهبية»، وقد ذكرت فى النصوص القبطية باسم «انبو».

وتقع المدينة على مسافة ١٦٥ كيلومتراً جنوب الأقصر على الضفة الشرقية للنيل، وترجع شهرتها الأثرية إلى وجود المعبد المزدوج الشهير للمعبودين حورور وسريك، وقد استمر العمل فى بنائه وزخرفته مدة ٤٠٠ عاماً فى العصرين البطلمى والرومانى.

يعود تاريخ تأسيس المدينة لعصر الدولة الوسطى، إلا أن أوج ازدهارها يرجع لعصر البطالمة حيث قاموا بإنشاء عدد كبير من المحطات العسكرية على طول ساحل البحر الأحمر، كما كانت محطة لتجارة الأفيال الإفريقية والاعتناء بها.

وتلى كوم امبو منطقة جبل السلسلة التى تقع على بعد واحد وأربعين ميلاً شمالى أسوان وتزخر بالمواد الأثرية ذات الأهمية الكبيرة، وقد أطلق على هذا المكان اسم «خنثوي» فى العصور القديمة ثم «خلخل» أى الحاجز فى العصر القبطى ثم «سلسل» فى العصر الرومانى. وتشتهر هذه المنطقة باستغلال محاجرها لا سيما فى عصر الدولة الحديثة، كما نالت شيئاً من التقديس بسبب عبادة عدد من الأرباب الذين كان لهم ارتباط ما بنهر النيل مثل سويك التمساح وثالوث الشلال: خنوم وسانت وعنقت.

واستمر استغلال محاجر حيل السلسلة منذ عصر الأسرة الثامنة عشرة حتى آخر الأباطرة الرومان، وبالإضافة للمحاجر توجد آثار ومقابر على جانب من الأهمية على ضفة النهر الغربية من بينها المعبد الصخرى للملك حور محب.

وكانت آثار إدفو هي موضوع الفصل الخاص، وقد أطلق على المدينة في العصور القديمة اسم «دبو» أو «ادبو» بمعنى «بلدة الاقتحام»، وأصبح انبو في القبطية ثم إدفو في العربية، وقد رمز إلى معبودها الرئيسي ومقابر مصر كرمز للحماية ضد جميع الشرور.

وتمتعت إدفو بأهمية كبيرة حيث كانت عاصمة للمقاطعة الثانية من مقاطعات مصر العليا.

وأهم آثار إدفو هذا المعبد الذي كرس لربها حورس، وقد بدأ العمل في البناء الحالي في السنة العاشرة من حكم بطليموس الثالث عام ٢٣٧ قبل الميلاد، واستكمل عام ٢٠٧ ق م، وافتتح رسميًا عام ١٤٢ ق م بعد القضاء على الاضطرابات التي حدثت في مصر العليا، ثم أضيفت له أجزاء أخرى ونقوش، مما جعل إنجازَه يستغرق ١٨٠ عامًا، ويعد هذا المعبد أكمل المعابد الباقية. وكتب سان جيني عن آثار الكاب في الفصل السادس، وقد اشتق الاسم الإغريقي لمدينة نخب أو الكاب «اليثياسبوليس» من ارتباط الربة نخبث - التي تأخذ هيئة العقاب - باليثيا ربة النساء في المخاض، وتقع المدينة على الضفة الشرقية للنيل، وأغلب الظن أنها تمتعت بدرجة كبيرة من الرخاء الاقتصادي بفضل موقعها كمحطة على طريق القوافل القادمة من المناطق الفنية بالنحاس والذهب على في الصحراء الشرقية، وبرزت أهميتها منذ عصر الدولة الوسطى، وربما يرجع بناء السور الكبير الذي يحيط بها لهذا العصر، وتوجد في الزاوية الجنوبية الشرقية منه بقايا معبد ضخم كان مخصصًا لعبادة الربة نخبث. أما بقية المساحة، فهي خالية من المباني، ولذا فربما استخدمت كمعسكر حصين أو مكان لراحة وتأمين قوافل الذهب القادمة من الصحراء الشرقية.

أما جبانة الكاب، فتحوى مقابر صغيرة نسبيًا، أهمها من الناحية الفنية مقبرة بامري. أما من الناحية التاريخية، فتعد مقبرتا القائدين أحمس بن ابانا وأحمس بن نخبث بما تحويانه من نصوص من أهم الوثائق التاريخية عن الحرب ضد الهكسوس.

وتأتى إسنا وآثارها فى الفصل السابع وتقع المدينة على الضفة الغربية للنيل على بعد ٣٦ ميلاً جنوبى الأقصر، وكانت تسمى قديماً «تاسنت» ثم لاتوبوليس فى العصر اليونانى نسبة إلى سمكة قشر البياض التى كانت تقدر فى هذه المدينة.

ولعل أهم آثار إسنا هو المعبد الكبير الذى كرس لعبادة الرب خنوم أحد أرباب الخلق، وكان عادة ما يصور بهيئة بشرية ورأس كبش، ويطلق عليه أحياناً «الفخرانى» لأنه كان يشكل صورة الإنسان من الفخار.

ويرجع هذا المعبد أغلب الظن لعصر الأسرة الثامنة عشرة، إلا أن البناء الحالى يعود للعصر البطلمى وترجع زخارفه للعصر الرومانى، واستمر بناؤه فى الفترة من عام ١٨٠ ق م إلى عام ٢٥٠ ق م، وقد كان مغطى بعدد كبير من المنازل الحديثة تمت إزالتها.

تأتى بعد ذلك مدينة أرمنت التى كانت مقراً لعبادة رب الحرب المحلى مونتو فأطلق عليها «برمونتو» أى بيت مونتو وحرفت فى اليونانية إلى هيرومونثيس ثم أرمنت بالعربية، وتقع المدينة على مبعدة ٩,٥ ميلاً تقريباً من الأقصر على الضفة الغربية لنهر النيل.

وكانت لمدينة أرمنت أهمية كبيرة وقداسة دينية قبل ازدهار مدينة طيبة التى حلت محلها فى السيطرة على إقليم واست الجنوى، وعلى الرغم من أن عبادة آمون رب طيبة ظلت تدريجياً على عبادة مونتو رب أرمنت إلا أنه احتفظ بقداسة كبيرة كأحد أهم أرباب الحرب.

وتحوى للمعبد الذى شيدته كليوباترا لها ولابنها قيصر، ويبدو أنه كان كبير الحجم، إلا أن أحجاره استخدمت فى بناء مصنع السكر بالمدينة، بالإضافة إلى بقايا حمام رومانى وآثار قليلة لمعبد من العصر البطلمى.

وبالقرب من محطة أرمنت الواقعة على الضفة الشرقية للنيل، تقع قرية طود التى ربما كانت هى توفيوم القديمة، وقد أقيم فيها معبداً للرب مونتو لم تبق منه سوى أطلال.



كانت هذه هي الموضوعات الرئيسية التي يحويها هذا المجلد، بالإضافة إلى دراسات أخرى تناولت الجنادل الجنوبية وطرق استغلال المحاجر وتحليلات لغوية وفنية وتاريخية، وسوف يستشعر القارئ من خلال تصفح هذا الجزء المجهود الكبير والدقة التي بذلها العلماء الفرنسيون ليستطيعوا إنجاز هذا العمل بكل أمانة، وعلى الرغم من ذلك فقد جاءت أجزاء من الدراسات غير متخصصة، لا سيما تلك التي تتعلق بالجانب التاريخي والأثرى والدينى حيث كان علم الآثار فى مهده الأول.

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن ننظر بكل إعجاب إلى إنجاز هؤلاء العلماء الذين واجهتهم مصاعب عدة أهمها ظروف الحرب وانفلاق الأهالى.

والله ولى التوفيق

منى زهير الشايب

الهرم ٢٠٠٢/٣/٩

# الفصل الأول<sup>(\*)</sup>

## وصف جزيرة فيلة

بقلم الراحل : ميشيل أنج لانكريه

---

\* كانت منف أول عاصمة لمصر الموحدة منذ بداية الأسرة الأولى وحتى نهاية الدولة القديمة

(المراجع)



## المبحث الأول

### الطريق التي تؤدي من أسوان إلى جزيرة فيلة

إن شهادات المصور القديمة - التي تتفق مع استقراءات التاريخ الطبيعي ومع الوقائع التي تمت ملاحظتها مؤخراً - لا تترك أى مجال للشك فى أن أراضى الصعيد مصر، قد تشكلت فى عهد أقدم بكثير من العهد الذى شهد تكون أراضى الدلتا، ونمضى بذلك المدينتين اللتين كانتا على التوالى عاصمتين لمصر(\*)؛ طيبة وهى الأقدم لا تبعد عن الجنادل إلا بمقدار ٢٠٠ كم متر تقريباً<sup>(١)</sup>، أما منف التى أعقبتها - فهى - لا تبعد إلا بمقدار المسافة نفسها أو نحوها من شواطئ البحر. وعليه، فإن موقع هاتين المدينتين والعهد الذى أنشئت فيه، إنما يؤكد أن الدلتا أحدث تعميراً من الصعيد.

إذاً، فأغلب الظن أن آثار الصعيد - من بين هذا الكم الهائل من الآثار التى تغطى أرجاء مصر - أقدم من تلك الموجودة فى الدلتا. ولربما كان هذا دافعاً

---

\* نود الإشارة إلى أن الأصل الفرنسى للجزء الأول من وصف آثار المصور القديمة احتوى على مقدمة بقلم السيد فوربيه، وقد قام الراحل الأستاذ/زهير الشايب بترجمتها ونشرها فى الجزء الأول من نموس الدولة الحديثة، ولذا فلم تقدم هنا تجنباً للتكرار.

(١) أريعمون فرسفاً.

قوياً للبدء بدراسة الآثار المجاورة للجندال عند شروعا فى دراسة الآثار المصرية فى مجملها.

وعلى الرحالة الراغبين فى مشاهدتها أن يغادروا القاهرة مع اقتراب الاعتدال الخريفى. ففى هذه الفترة تكون مياه النيل قد غمرت جميع الجزر الرملية الصغيرة التى كانت - قبل قليل - تعوق الملاحة، وتكون الرياح الشمالية فى فترة هبوبها طوال النهار بقوة كافية لدفع المراكب فى النهر بسرعة كبيرة، هذا رغم سرعة جريان مياهه. ففى أقل من خمسة عشر يوماً، يكون هؤلاء الرحالة قد قطعوا قرابة<sup>(١)</sup> الالف كيلو متر، ووصلوا لمدينة أسوان الواقعة على الضفة اليمنى للنيل، على مبعده ٦٠٠٠ م<sup>(٢)</sup> شمال الجندال . وخلال هذه الفسحة القصيرة من الوقت، يكونون قد تمكنوا . على وجه السرعة - من القيام بزيارة يومية لهذه الآثار القديمة التى يشاهدوها ، عند عودتهم ، بأدق تفاصيلها. فهى موزعة على الجانبين وعلى مسافة قصيرة من ضفاف النهر. وبذلك ، فهى تظهر ، لزائريها المبحرين على صفحة النهر. وهكذا ، يكونون قد بلغوا أقصى حدود مصر، وأشبعوا فضولهم الأول برؤية كل شئ فى آن واحد، وإن كان الوقت لا يسمح بالتوقف للتمتع . وبهذا تصبح لديهم بالفعل بعض الأفكار العامة عن الطراز المعماري وعن فنونه المختلفة التى سيتولونها بالدراسة. وبوسعهم مقارنة اتساع المبانى الرئيسية وترتيبها وأشكالها.

إن مدينة أسوان ، الواقعة على الضفة الشرقية للنيل، هى آخر المدن السكنية المصرية، عند حد أحجار الجرانيت التى بزغت فى وسط النهر، لتؤذن بقرب الجندال ويوصل الملاحة إلى نهايتها . إلا أنه ، إذا ما تجاوزنا الجندال - هذا الحد الطبيعى لمصر - فسوف نرى جزيرة فيلة وقد غطتها الآثار المصرية. وقد كانت هذه الجزيرة تبعاً لليونانيين والرومان . كما احتلها الجيش الفرنسى بزعامة الجنرال بوناپرت.

---

(١) مائتا فرسخ .

(٢) خمسة أرباع الفرسخ تقريبا .

وتبعد هذه الجزيرة عن أسوان بمقدار ١٠ كم<sup>(١)</sup> . وعند مفادرتنا لأسوان الحديثة وعبورنا للمدينة القديمة الواقعة ناحية الجنوب منها على موقع مرتفع ، نهبط فى سهل صغير تبلغ مساحته قرابة ١٢٠٠ متر<sup>(٢)</sup> ينتهى عند النيل فى جهة الغرب. والطريق التى تخترق هذا السهل مستقيمة إلى حد ما ، ليس بسبب طبيعة أرضه بقدر ما هو بفعل حطام الجرانيت الناتج عن المحاجر وغيره من الركام المتناثر هنا وهناك. وإلى اليسار نجد أعداداً كبيرة من مقابر العرب التى يعود تاريخها إلى عهد الخليفة عمر أما إلى اليمين، فتجد بعض المآذن والقباب التى تعلو مقابر العصور الحديثة.

ويعد اجتياز هذا السهل الصغير ، ترتفع الطريق سريعاً بعض الشيء. وتحدها بها من جانب النيل بعض الأحجار التى تفصل تماماً بين هذا السهل وبين النهر. ومن الجانب الآخر ، نجد أولاً منافع كبيرة ، تبدو بمثابة حفر محفورة بأيدي بشرية ثم نرى فى مكان أبعد من ذلك محاجر الجرانيت. ثم لا نلبث - مع تقدمنا- أن نرى الطريق يهبط مرة أخرى، ونرى أنفسنا وسط تلال حجرية يخرج بعضها من وسط الرمال. أما البعض الآخر، فيأخذ شكل كتل حجرية مستديرة، موضوعة على الرمال أو ملقاة بعضها فوق بعض ومتراكمة فى تلال مرتفعة<sup>(٣)</sup>. بيد أنه فى وسط هذه الأحجار المتناثرة ، نجد ما يشبه الوادى الذى نستغرق ساعة ونصف فى قطعة قبل أن يؤدى بنا إلى الضفة المجاورة للجزيرة . وأرضية هذا الوادى متجانسة وصلبة وتغطيها الرمال الناعمة. وغالبية الأحجار المحيطة به من نفس هذا الجرانيت الأحمر شديد البريق عندما يكون مصقولاً ، والذى تحظى قطعه التى نقلت إلى أوروبا بإعجاب شديد منا. وهنا يظهر فى درجات ألوان أقل جمالاً فهو مغطى بطبقة بنية اللون، تراكمت عليه بفعل الزمن ، الذى عمل على إخفاء جميع النتوءات فيه وجعلته شبه أملس وأشكال هذه الحجارة غير منتظمة ومستديرة دائماً ولا تظهر فيها أية أطراف أو

---

(١) فرسخان.

(٢) ربع الفرسخ.

(٣) يبلغ طول بعض هذه الكتل الحجرية من ١٢ إلى ١٥ متراً (٣٦ إلى ٤٥ قدماً) فى كل اتجاه.

زوايا بارزة او قاطمة ولا كسور حادة تبرهن على أنها كتل حجرية مقطوعة من الجبال فتبدو كأنها شظايا منها . ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنها قد تعرضت للأحتكاك لفترات طويلة ، وهكذا ما تؤيده علامات القدم الظاهرة عليها .

ويذكر استرابون أن الطريق الفاصلة بين أسوان وفيلة كانت مستوية ويتم السفر من خلالها بواسطة عربة تجرها الدواب . ولم تزل هذه الطريق على حالها حتى يومنا هذا وكان من الممكن قطعها . لم يتغير شيء مطلقاً في هذه المدينة النائية ، منذ عهد أغسطس ، بل إننا لا نتنبأ بأى تغييرات أخرى أو بأى تحركات مستقبلية عدا تحركات الرمال التى تدفع بها الرياح بفعل هبوبها فيما بين الصغور . ومن المدهش أن الرحالة اليونانى لم يذكر شيئاً عن الحائط الطويل المشيد فى هذا الوادى . ومما لا شك فيه ، أنه كان فى ذلك المهد متهدماً بالكامل تقريباً وتغطيه الرمال حتى يصعب أن يلمحه أحد الرحالة فى سيره السريع وهو فى عربة . واليوم لا تزال بقايا هذا الحائط تبدو - للوهلة الأولى - بمثابة أكوام من الرديم على مسافات متباعدة ، ولكننا لو فحصناها عن كثب لوجدناها تتألف من الطوب النيبى الذى شيد به هذا الحائط .

وعند خروجنا من أسوان ، يكون الحائط إلى الشرق من الطريق ، ويقطعها عند منتصف الوادى ، وكذا على بعد مسافة قصيرة ، ثم يستمر فى الانحراف جهة الشرق لينتهى فى شمال السهل الصغير الممتد فى مواجهة فيلة . وفى الأماكن التى تقترب فيها الطريق من الحائط ، نجد أنفسنا أحياناً إلى الشرق وأحياناً أخرى إلى الغرب من هذا الحائط الذى تخترقه هكذا ، دون ملاحظته عن طريق فجوات تبلغ مئات عدة من الأمتار تفصل بين بقاياها .

ويبلغ سمك هذا البناء ما يقل قليلاً عن مترين<sup>(١)</sup> . أما ارتفاعه ، فيصل إلى نحو أربعة أمتار<sup>(٢)</sup> وأحياناً ما يزيد عن ذلك . ولكن ، رغم تلف الحائط عند قمته

---

(١) خمسة إلى ستة أقدام .

(٢) اثنا عشر قدماً .

، فمن السهل أن نرى توغله الجزئى فى الرمال بل إن الحائط مغطى تماماً فى الرمال من ناحية أسوان، وهو ما نستنتج من التل الرملى الذى يقسم الوادى طوليا فى هذا الموقع. أما الطوب الذى بُنى منه هذا الحائط، فهو مماثل للأنواع الأخرى من الطوب المصرى المستخدم فى بناء الأسوار الكبيرة للمعابد فى طيبة وفى عدد من المواقع الأخرى<sup>(١)</sup>.

وهذا الانسجام فى الخامات وبصفة خاصة على امتداد البناء، الذى كان يغطى الوادى بطوله، يعطى للحائط طابعاً مصرى صريحاً، ولا يمكن لنا أن نستنتج من حدس استرابون أن هذا الحائط لم يكن قائماً فى عهده. فيجب أن يعود هذا البناء إلى عهد بالغ القدم، كان يتمين على المصريين فيه حماية طريق فيلة من الجماعات التى تسكن قرب الجنادل، حيث إننا نعتقد أن أمن هذه الطريق كان الهدف الرئيسى لهذا الحصن؛ ففى الواقع لا ندرى إذا ما كنا سوف نجد بقايا أخرى له إذا ما تقدمنا فى النوبة أم لا. فلو كان الأمر يتعلق بحماية أسوان والدفاع عن مدخل البلاد فحسب، لكان من الممكن الاكتفاء بإغلاق الوادى عند بدايته إلا أن جزيرة فيلة كانت فى العصور القديمة - أحد أكثر المواقع المقدسة فى مصر. وكان الكهنة يذكرون فى تعاليمهم أن مقبرة أوزوريس كانت كائنة فيها، وهذا هو الدافع وراء تقديس هذه الجزيرة وجعلها قبلة للحجاج مثلها مثل المدينة القائم فيها قبر محمد.

وكان هذا الحائط، الذى كان يحظى - بلا شك - بالحراسة من مسافة إلى أخرى، يستخدم لحماية الطريق الفاصلة بينه الحجارة الواقعة على ضفاف

---

(١) لاحظنا - فى مواقع عدة من هذا الحائط - طرقات متنوعة لوضع الطوب. فهو إما موضوع عرضاً وفقاً للأسلوب المعتاد. وإما أن يكون هناك على التوالى صفان من الطوب فى وضع عرضى وصف من الطوب أفقياً أو أن يستبدل هذا الصف الأخير بصف آخر يكون الطوب فيه فى وضع مائل. إلا أن بعض سكان فيلة قد ذكروا لأحدنا أن هذا الحائط يستمر على الجانب الآخر للنهر هذا احتمال بعيد. وعلاوة على ذلك فهم يعتقدون أنه كان يتم وضع الأطفال ذوى السلوك السيئ خلف هذا الحائط لتلثمهم التماسيح. ولیمعزنا القارئ لأننا نورد فى هذا الجزء رواية من آلاف الروايات المسخيفة التى كان الناس الطيبون يجيبون بها عن أسئلتنا.



النيل وكذا لاتقاء مباغته الأعداء أو حتى مجرد اللصوص الذين كان بوسعهم الاعتداء على الأشخاص المسافرين على هذه الطريق.

وعلاوة على ذلك، استخدم المصريون هذا الأسلوب الدفاعي - الذى يبدو لنا اليوم زائدا عن الحاجة - لحماية أجزاء أخرى من أراضيهم. ونحن نعرف أن العديد من الأمم الأخرى القديمة قد طوقت بلادها بالكامل بينايات أعظم بكثير، إلا أن البناية التى تحتل مركز اهتمامنا متميزة للغاية حيث إنها قد شيدت فى مقاطعة بلا سكان وبلا مزروعات ولدوافع تبدو دينية بحتة .

ولا تزال طريق فيلة تحمل فى أيامنا هذه بعض آثار الورع القديم للمصريين من خلال النقوش الهيروغليفية المسجلة بطول هذه الطريق على العديد من الأحجار التى تحف بها . وهذه النقوش ليست محفورة فى مجملها فى الجرانيت فلقد تم الاكتفاء فى غالبيتها بإزالة الطبقة البنية والكشف عن درجة اللون الوردى المميزة للجرانيت غير المصقول. وهذا اللون الخفيف هو الذى يميزها على خلفية من الحجارة تميل إلى اللون البنى. فمنذ ألفى أو ثلاثة آلاف عام ، وربما أكثر- منذ أن تم نقش هذه الحروف - لم يتغير لونها قط، بل لم تغطيتها بعد هذه الطبقة الملساء والبنية التى يتركها الزمن وحده على الآثار. وإذا كانت هذه القرون الطويلة ليست كافية لأن تصيبها بموادى الزمن ، فكم من السنوات ينبغى لهذه الحجارة أن تنتظرها حتى يحدث ذلك!!!.

وعلى مقربة من فيلة ، يكون عدد النقوش أكبر مما هو عليه فى بداية الطريق وهى ترتفع كثيراً عن مستوى الأرض ، كما أن الحروف الهيروغليفية التى تؤلفها يصل ارتفاعها أحيانا إلى ما يقارب من المتر<sup>(١)</sup>. فهى كتابات لم يتم رسمها قط على وجه السرعة مثل تلك الخطوط التى ينقشها الرحالة غالباً على الآثار أو الأحجار التى يقومون بزيارتها لتسجيل أسمائهم وتاريخ مرورهم بها، فهذه النقوش لفنانين محترفين، وقد استلزم تنفيذها سقالات وأدوات خاصة ووقت طويل وبصفة خاصة تلك الأحرف المحفورة بعمق. ومما لا شك فيه أن

---

(١) ثلاثة أقدام.

هذه النقوش هي نتيجة إرادة وتصميم أكيدين، إذا ما وضعنا في اعتبارنا المكان الذى تشغله والحروف المؤلفة لها وكذا الشعب المتدين الذى قام بخطها ، فسوف نجد أنفسنا مدفوعين للنظر إليها كرموز مقدسة تدعو العقول إلى تبني الأفكار الدينية أو كتراتيل للحصول من الآلهة على الفوز والانتصار.

ولا نرى شجرة واحدة على طول الطريق الممتدة بين أسوان وفيلة، حيث إن الأرض شديدة الجذب والحرارة عالية . وفى الصيف ، ومع انتصاف النهار لا يكون هناك ظل واحد ولا ملاذ ضد وهج الشمس التى ترسل أشعتها المحرقة فتمسكهما الرمال والصخور، حتى أن هذا المكان يصبح أشبه بجحيم التى يخشاها حتى علماء الطبيعة بالبلاد ، علاوة على ذلك عندما نريد اختيار ساعات السير، فلا يمكن أن يقع اختيارنا إلا على الساعات اللاحقة لغروب الشمس حيث نقوم بالتجول فى هذا الوادى. فلقد جبت البلاد فى هذه الساعات الليلية التى كانت فيها السماء صافية والقمر ذو بريق وهاج حتى أن أجمل الليالى الأوروبية لتمجز عن مضاهاتها.

والحق أن السير ليلاً له من الهيبة والجدية اللتين تهيطان النفس للانطباعات العميقة، ولكن ما هو المكان الذى بوسمه إثارة مثل هذه الانطباعات القوية وإعادة الذكريات الماضية ؟ وقد استغرقنى التخيل، المنغم بالانفعال والسعادة والشك ، فى أننى فى أحد بقاع الأرض الأكثر تميزاً وفى أماكن تبدو أسطورية وأخذت تسمياتها \_ التى نرددها منذ الطفولة \_ معنى ضخماً بل شبه سحرى. كنت قد بلغت لتوى صخور الجنادل ، ومشارف الحبشة، وحدود الامبراطورية الرومانية، وكنت على وشك الدخول فى هذه الجزيرة التى كانت تضم فى الماضى مقبرة أوزوريس، التى دعت الى تقديسها ، والتى باتت مجهولة اليوم محراباً للديانة القديمة ، وأخيراً كنت أدنو من واحدة من تقسيمات كوكبنا التى لا تتغير وربما كانت خطوتى فى المنطقة الحارة بالفمل.

وفى غمرة أفكارى ، انتهت الرحلة بسرعة واضحة وأنبأنا خريف مياه النهر بنهايتها. ويقترب الوادى من النيل وهو ينحرف قليلاً جهة اليمين و يتخذ اتجاهاً مائلاً بمض الشئ يجعله ينتهى فى سهل رملى صغير تحيط به الحجارة من

ثلاثة جوانب وتلتحم من جانبها الأخير بضاف النهر عن طريق منحدر سهل -  
وعند دخولنا هذا المكان ، نرى فجأة جزيرة فيلة.

مشهد خلاب ، يسر الناظر عند خروجه من الوادى الجذب : آثار ضخمة  
تحيط بها الأشجار علاوة على مياه النهر والخضرة التى تزين ضفافه .

ولعل اللون الأبيض والأشكال المربعة للمباني التى تغطى جزيرة فيلة تجعلنا  
نميزها على الفور على الرغم من مساحتها المحدودة وسط العدد الكبير من  
الجبال الداكنة والصخور المستديرة التى تتخلل مجرى النهر وتحيط به . وتزرع  
بالجزيرة بعض شجيرات النخيل، وينمو عدد كبير منها على الضفة المقابلة عند  
سفح الصخور ، وهناك نرى أيضاً قطعاً صغيرة من الأراضى التى تزرعها بعض  
العائلات النوبية التى تقطن هذه المنطقة . ويتسبب نمو بعض الأشجار والقليل  
من الخضرة فى الحد من المظهر المجذب لهذا المكان وتلطيف الجو الحارق  
وسط هذا العدد الكبير من الصخور الجرداء المتجمعة .

ومما لا شك فيه أن هذا المظهر للجمال ، من الممكن أن نلقاه وسط أنهار  
أخرى كبيرة تجرى - مثل هذا النهر - وسط الكتل الحجرية . ولكن الذى يميز  
هذا المشهد دون سواء فهى تلك الآثار لا تزال قائمة لتشهد على أقدم شعوب  
العالم من خلال هذه النقوش المحفورة على الصخور ، التى يبدو أن هذا  
الشعب أراد من خلالها أن يتحدث إلى الماضى ، وهذه الأشياء إذ يعيدنا لقرون  
سحيقة ، تضى بهاء وسموا على اللوحة الجمالية التى ترسمها الطبيعة فى  
أكثر المواقع هيبة.

وبينما كنا ننتظر القارب الذى سيمبر بنا النهر، كنا نجوب بأبصارنا ضفافه  
لنتبين الجزيرة بكل جوانبها . وما لبثنا أن لاحظنا مبنى منعزلاً ومكشوفاً ، قائماً  
على أعمدة يعقبه كتلة هائلة من المباني وصفة أعمدة ومسلّة . أما ضفة النهر  
هذه ، التى كنا نتمجّل مفادرتها، فلم يكن فيها إلا أكواخ بسيطة للبرابرة<sup>(١)</sup>  
وأطلال بعض مقابر العرب . ولدى عبورنا النهر ، مررنا على مقربة بحجر ،

---

(١) فى مصر، يطلق اسم البرابرة على النوبيين الذين يسكنون المنطقة الواقعة بين الجنادل  
وإبريم.

يرتفع بين بقية الأحجار الأخرى حتى يصل بقمته إلى ما يزيد عن ستة عشر متراً<sup>(١)</sup> فوق مستوى المياه. وهو ينقسم فى جزئه العلوى إلى جزئين يمثل ما يشبه المقعد بدون ظهر وإن كانت مقاييسه بالغة الضخامة. ويرى فى الواقع سكان أسوان - الذين يملون غالباً كمرشدين للأجانب - قصصاً حول هذا المقعد وأنه كان يستخدم من قبل عمالقة ، إلا أنها قصص لا تتدرج فى إطار أى نسق تاريخى. وعلى كل ، فإن شكل هذا الحجر طبيعى، بيد أنه قد تمت ملاحظته منذ المهود القديمة، كما نعتت به من الخلف بعض درجات للارتفاع بمن يريد الجلوس على هذا المقعد. كما تحمل هذه الصخرة بعض النقوش بالغة الإتقان والعمق. تمثل أشكالاً بشرية برؤوس حيوانات ، هذا علاوة على العديد من النقوش الهيروغليفية الأخرى .

وأخيراً، رسونا فى المنطقة الشمالية من الجزيرة على بعد مسافة ما من المابد التى تقع كلها فى الجزء الجنوبى منها.

## المبحث الثانى

### نظرة شاملة على الآثار

إذا ما قمت بزيارة جزيرة فيلة من جديد وكان بصحبتي رفيق رحلة أرغب فى تعريفه بهذه الجزيرة، فسوف أذهب معه أولاً للجلوس على هذه الصخرة التى تشكل رأساً شاهقة عند الطرف الجنوبى للجزيرة، فمنه ، يستطيع الناظر أن يجول ببصره بسهولة ليشمل كل أرجائها . فهى تجمع بالآثار فى كل أجزئها، ومن نقطة المراقبة هذه نستطيع أن نرى معظمها. وعندها، يكون المبنى المنمزل على اليمين، وعلى الجانب الآخر، تكون هناك المسلة وصفة الأعمدة. أما المبد الكبير والآثار الرئيسية، فتكون فى مواجهتها. وفى شمالها نجد بعض الأكواخ من الطين، التى تصل بالكاد لارتفاع قامة إنسان وفيها يقيم السكان أو بالأحرى

---

(\*) خمسون قدماً تقريباً.

الملاك الحاليون. وتطوق الأحجار الجرانيتية آثار فيلة ، وهى كلها مشيدة من الحجر الرملى الذى لم يتأثر لونه بمرور الزمن بل إنه لا يزال يحتفظ، من الخارج، بلون فاتح .

ويعد إمامنا بمجمل هذه الأبنية ، توقفنا لتأملها عن قرب لبرهة ، فكان أكثر ما أثار دهشتنا هو حوائطها الشاهقة المنحدرة مثل جدران الحصون ، التى لا تشتمل على أية فتحات أخرى خلا الأبواب، وتشكل أسطح المعابد منخفضة كبيرة ونجد فوق أحدها قرية صغيرة، هذا علاوة على النقوش البارزة التى تغطى المساحة الكلية للجدران وأخيراً الطابع الحاد والفامض لهذه الآثار وصلاحياتها ومقاومتها المذهلة لتأثير الزمن.

ولكن لنقترب من هذه المباني ولندخل المعابد ونبدأ بالجنوبى منها وهو الأكثر قرىاً إلينا ،إنه مبنى صغير بأعمدة سقط العديد منها على الأرض وتوجد فى مقدمته مسلتان صغيرتان من الحجر الرملى واحدة منهما واقفة أما الأخرى، فلم نعد نرى منها إلا المكان الذى كانت تحتله.

ومن بين العديد من الأسماء اليونانية واللاتينية التى سجلت على مر العصور على المسلة وعلى بقايا جدار مجاور لها، نستطيع تمييز أسماء عدد من الملوك مثل بطليموس وغيره من الشخصيات التاريخية.

كما نجد ضمن النقوش أيضاً أسماء العديد من الرحالة الأوروبيين المحدثين وكذا أسماء بعض الفرنسيين الذين شاركوا فى الحملة الكبرى. وهكذا ، على مر العصور ، أراد البشر ربط أسمائهم بأشياء خالدة من بعدهم، تتحدث عنهم فى غيابهم.

ويمكن أن نحصى ٣٢ عموداً فى هذا الممر الطويل الذى يحف بالرصيف ويتجه إلى الشمال ناحية المعابد. أما تيجان الأعمدة ، التى تزينها زهور اللوتس و جريد النخيل ، فهى تختلف عن بعضها وبعض . وهذه الاختلافات التى لا يمكن تمييزها إلا عن كثب لا تخل من التجانس المام وتضفى بعضاً من التنوع. هناك العديد من الأعمدة المهدمة، ويعترض الطريق أحجار السقف والرديم

ولكن فى وسط هذه الأحجار التى لا تزال تحتفظ بلونها الأبيض وفى وسط الأعمدة التى ظلت تيجانها باقية على الرغم ، لم يتم الانتهاء منها ، يخيل إلينا أننا فى مبنى فى طور الإنشاء ، ولسنا نقف وسط الانقراض .

وهناك صفة أعمدة أخرى تشغل مساحة أقل من الصفة السابقة وتوجد فى المواجهة . ورغم أن أعمدتها ليست متوازية تماماً ، إلا أنها تشكل ممراً جميلاً عند مدخل المعابد حال اقترابنا منها . ومنها ندرك ، أنه عندما تكون كل الأعمدة قائمة وغير مغطاة بالرديم وتكون هناك أرض مستوية تسمح برؤية شاملة بعيداً عن أية منحنيات أرضية أو رديم أو أطلال أكواخ ، فإن مدخل المعابد يظهر بصورة مهيبة ورائعة ويتألف المدخل الأول من باب كبير وصرح ذى جزئين متماثلين قاعدتهما عريضة أكثر ضيقاً جهة القمة بسمك قليل وترتفعان الواحد بجوار الآخر على ناحيتى الباب المحصور بينهما . وهذه النوعية من الأبنية من مميزات المعمار المصرى ولم نجدها مقلده فى الطراز المعمارى فى أى مكان آخر ، ونطلق عليها اسم " البيلون " <sup>(١)</sup> . ويدعوننا موقع هذين الجزئين إلى الاعتقاد بأنهما تقليد لبرجين مربعين وضماً فى الأصل دفاعاً عن بابى المدخل ، كما أن ارتفاعهما والسلالم الداخلية المؤدية إلى قمتها تجعلان من السهل اعتبارهما بمثابة مرصدين ، خاصة عند شعب يعتمد دينه اعتماداً أساسياً على علم الفلك .

ويبلغ عرض الصرح الأول ٢٩ متراً وارتفاعه ١٨ متراً <sup>(٢)</sup> ، وهو أكثر مبانى الجزيرة ارتفاعاً ، إلا أن هناك ما هو أكثر ارتفاعاً منه فى أماكن أخرى ، حيث إن آثار فيلة تستمد ضخامتها من احتلالها لقسم كبير من مساحة الجزيرة ، إلا أنها صغيرة الحجم نسبة إلى آثار مصرية أخرى . أما هنا ، فهى تأخذ شكل نماذج مكبرة للأبنية المصرية . ويمكن أن تلاحظ على الصرح بعض من السمات المميزة

---

(١) اشتقت هذه الكلمة من كلمة يونانية استخدمها ديودور الصقلى فى وصف المعبد الجنائى لرمسيس الثانى وأساء المترجمون نقلها بكلمة أتريوم (الفناء الداخلى فى النزل الرومانى) وبداية ، يقصد بذلك الكلمة ، الباب الجزئين المصاحبين له . انظر ووصف أدق الفصل الخامس ، المبحث الثانى .  
(٢) ١١٨ قدماً .

لهذه النوعية من الأبنية : الكورنيش الذى يأخذ دائماً نفس الشكل والانحناء السفلية له التى يهبط على شكل لفافة على زوايا المبنى ، ويأتى فى المقام الأخير توزيع المناظر . فى الجزء العلوى من البوابة ، تمثل هذه النقوش آلهة جالسة ومن أمامها الكهنة يقدمون لها القرابين ويمثل كل مشهد ما يشبه اللوحة المنقوشة التى يفصل وبين سابقتها أو تاليتها خط من النقوش الهيروغليفية الرأسية.

وفى الصف السفلى ، تكون كل الأشكال واقفة ومقاييسها ضخمة<sup>(١)</sup>. وترى بعض الآلهة وهى تتلقى القرابين . والشريط السفلى من البوابة مزين بسيقان نبات اللوتس المقدس وبزهوره . وتحمل دعائم الباب والكورنيش زخرفة تأخذ شكل وزينة رمزية . وهكذا ، فإن هذه الصرح يحمل نقوشاً فى كل أجزائه. ورغم أننا لا نرى إلا واجهة واحدة لهذا المبنى، فإنها تقدم لنا بالفعل ما يزيد عن ٦٠٠ متر مربعاً<sup>(٢)</sup> من المساحة المنقوشة.

وهذه الوفرة فى النقوشات كبيرة للغاية. ورغم ذلك، فإنها غير مرهقة للمعين والخطوط المعمارية غير متقطعة وعلاوة على أن النظام الزخرفى ، وإن بدا جديداً ، فهو يسر ويمتّع الناظر إليه من الوهلة الأولى. وهذا مرجعه الترتيب الرائع لهذه الزخرفة وبساطة أوضاع الأشكال والطريقة المتجانسة التى تحكم انتشار النقوشات على مساحات الآثار، وأخيراً البروز القليل لهذه النقوشات ، الذى لا يترتب عليه أبداً لا ظلال على مساحات شاسعة ولا نور ساطع.

وأمام الصرح ، نرى مسلات وأسود من الجرانيت الأحمر محطمة ومنغطاة تقريباً بالرديم . والأمر متروك لخيال البشر حتى يقوموا بتخليصها من الرديم وإعادة وضعها على جانبيه مدخل البوابة وجعل هذا المدخل الأول للمعابد كما كان فى الماضى أبسط وأروع تشكيل معمارى تخيله البشر. ولكن الإعجاب ما يلبث أن يعقبه شعور آخر : ففى هذه الأماكن القديمة التى تركت فيها شعوب عديدة آثاراً شتى لمرورها فيها، نجد الانطباعات تتوالى وتتتبع مع كل خطوة.

(١) يبلغ ارتفاعها ٧م (٢١ قدماً).

(٢) ٥٤٠٠ قدماً مربعة.

ومع اقترابنا من البوابة ومن أطلال لبنايات محيطة بها جهة اليمين ، نرى العديد من الأسماء والعديد من النقوش اللاتينية الصغيرة المكتوبة عند مستوى اليد . ونحن نورد هنا ترجمة لاثني من هذه النقوش :

«أنا تريونيوس أوريكولا سكنت في هذه المكان»

«أنا ، نيمونيوس فالاسكنت هنا في عهد الامبراطور وعُينت قيصر قنصلا للمرة الثالثة عشرة»<sup>(١)</sup>.

وليس لهذه النقوش السريعة أى طابع رسمى أو أثرى فنحن لا نبحث فيها قط عن تاريخ حدث أو إهداء لمعبد ولكن عن شىء آخر مثير لفضولنا واهتمامنا ويجذبنا ويؤثر فينا وأعنى بذلك أن هناك رجلاً لم يعد له وجود منذ قرون طويلة مضت ولكنه يبدو وكأنه لا يزال يحدثنا . فلقد جاء مثلنا إلى هذه الأماكن ، وكان قريباً مثلنا وها هو ذا يكتب اسمه مثلما تكتب اسمك وربما كانت تعترية نفس المشاعر التى تعترينا اليوم . ونحن نجد لذة فى محاولة كشف الأفكار التى كانت تدور فى خلداه وها نحن أولاً قد عرفنا اسمه ، إذاً فما عساها أن تكون حرفته؟

ويذهب بنا الخيال إلى رؤيته بكامل هيئته وفى ملبسه وحتى فى الوضع الذى كان يتخذه وقت الكتابة . وأنا هنا أتخيله جندياً من الحامية الرومانية ظل لفترة طويلة بعيداً عن بلاده بسبب الحروب المستمرة ، وقد استحوذ على تفكيره ذكرى بلاده . وهنا يسرى عن نفسه فى ضيق المنفى ، وهو يأمل فى أن يتمكن فى يوم ما أن يقص على أهله وأقربائه أنه نقش اسمه على أكثر المعابد المصرية سحراً .

وعلى مقربة من هذه النقوش ، وأسفل باب الصرح ، نجد نقشاً آخر سيسجل - على مر القرون- أحد أبرز الأحداث فى عصرنا ، ألا وهو غزو مصر بقيادة الجنرال بوناپرت وهزيمة المماليك وتعقب الفريق دوساكس حتى فيما وراء الجنادال ودخول الفرنسيين منتصرين جزيرة فيلة .

---

(١) انظر الدراسة التى تتناول النقوش التى جمعناها من مصر ، بقلم السيد جومار .



وفى مكان أبعد من ذلك ، وبداخل المعبد ، نرى نقشاً آخر يرجع فى نفس هذا المعصر بنفس الأيدى تقريباً ، وهو يحدد بدقة باللغة الموقع الجغرافى للجزيرة<sup>(١)</sup> وهكذا ، فإن هذه الآثار ستكون شاهداً صادقاً على مرتبة الفرنسيين ومعارفهم ، وهذا الارتباط بين العلم والسلاح ، هذه الفكرة الرائعة التى لم يعد التاريخ يقدم نموذجاً لها ، لن تكون أقل أعمال هذا القائد قيمة وهو الذى لم يقدم على غزو دولة أصبحت همجية إلا من أجل إرساء الحضارة فيها .

وبعد مرورنا من أسفل الصرح الأول ، نرى صرحاً أخرى أصغر حجماً وأكثر تهدماً . والفناء الذى يفصل بينهما يأخذ شكل صالة أعمدة مؤلفة من صفتين ، واحدة على اليمين والأخرى على اليسار . وهذه الصفة الأخيرة جزء من معبد صغير ينفصل عن المعبد الرئيسى . وهنا ، كما هى الحال فى الصالة الأولى ، فإن الصفات ليست متوازية ، وهذا الخل فى التماثل يشير إلى أن مختلف الآثار فى الجزيرة لم يتم بناؤها قط فى الحقبة الزمنية نفسها كما أنها ليست متماثلة فى رسمها التخطيطى : فلقد شيدت على التوالى مع تماقب القرون .

أما الصرح الثانى ، فهو جزء من المعبد الكبير الذى سندخله أخيراً . وها نحن أولاً أسفل الرواق المؤلف من عشرة أعمدة . وهو مفلق من كل جوانبه ويدخل إليه ضوء النهار من الباب والسقف . وكل ما نراه من حولنا من أعمدة وجدران وأسقف مكسوة بالنقوش المطلية بمختلف الألوان . وفى الواقع فإنه من الصعب على المرء أن يلحظ هذه الألوان للوهلة الأولى فهى مغطاة بالفبار إلا أن تيجان الأعمدة التى بقيت كما هى على شكلها ملونة باللون الأخضر والأحمر والأصفر والأزرق بكل ما لها من زهاء وبهاء . وفى الأجزاء التى لا تنعم إلا بإضاءة خافتة تبدو الألوان باهتة ، كما لو كانت استخدمت فى الطلاء دون اللجوء إلى أى تدرج ، وهذا الخداع البصرى ناتج عن ظلال النقوش البارزة ، كما يزيد

---

(١) حدث بعض الأخطاء فى الأعداد التى سجلناها على الحائط ، وقد تم تصحيح هذه الأخطاء فى الجدول الذى يوجد فى نهاية دراسة السيد نويه التى تحمل عنوان «ملاحظات فلكية أجريت فى مصر» الدولة الحديثة ، النجلد الأول ، ص ١ .

الضوء القادم من أعلى من أثر هذا الخداع ، حيث ينتشر وتقل حدته ويهدأ بمروره على التوالي بين الأعمدة وصولاً حتى نهاية الرواق .

أليس من المدهش أن نعثّر في يومنا هذا على رسومات على هذه الدرجة من القدم؟ وإذا كانت الآثار المصرية قد صمدت على مدى هذه القرون الطويلة ألا يرجع ذلك إلى طبيعة المناخ وصلابة البناء إلا أنه ما من شيء يثنى من عزم الزمن؟ فرغم هذه الصلابة ورغم لطيف المناخ ، فإن هذا المعبد يحمل آثار التلف في الكثير من أجزائه. فلتنظروا إلى هذا العمود ولتروا كم من أجزائه قد أصبحت محطمة! حتى أن حالته قد تدعونا للاعتقاد أنه على وشك الانهيار. إلا أن هذا العمود من الداخل والواجهات الحجرية غير الظاهرة في البناء تبرز من أسفل الطلاء الذي يغطيها بعض أجزاء النقوش أو الكتابات الهيروغليفية الناقصة أو التالفة والتي لم يزل العديد منها يحتفظ بالألوان طلائه وهكذا، فإن هذا المعبد الذي نراه بالغ القدم ، مشيد من حطام مبنى أقدم منه، وعليه فإن هذه الأحجار وتلك الكتابات الهيروغليفية والألوان قد يكون عمرها ضعف عمر المعبد، ونتمساءل إلى أي عهد سحيقة ينبغى الرجوع للوصول إلى منشأ هذه الفنون والحضارة التي أنجبته؟ .

أما القاعات الداخلية، فهي معتمة تماماً، ولا تستقبل إلا قليلاً من الضوء عبر فتحات متناهية الصغر حتى أنه ينبغى على المرء التزود بالمشاعل إذا ما أراد الدخول فيها. ونحن نخترق ثلاث قاعات كبرى متتالية تؤدي إلى العديد من الحجرات الجانبية قبل الوصول إلى قدس أقداس المعبد الذي يقع في نهايته . وهنا يشم الزائر رائحة قوية ونفاذة بسبب الخفافيش، وهي الكائنات الحية الوحيدة التي تسكن الآن هذا المعبد . وتحمل القاعات الثلاثة وقدس الأقداس ومختلف حجرات المعبد الأخرى نقوشاً مماثلة لتلك الموجودة على البوابة. وتأخذ النقوش - البارزة قليلاً - شكل لوحات تحيط بها نقوش هيروغليفية، وهي تمثل في غالبيتها مشاهد دينية وقرايين واضحيات وتعاليم نستشف معناها الظاهري على الأقل، إلا أن هناك عدداً آخر منها يبدو شديد الغموض ويجعلنا يائسين من إمكانية الكشف عن معناها. أما الأسقف، فهي تحمل نقوشاً

مثلها مثل الجدران، حتى أنه يستحيل رؤية جزء واحد لا يحمل أى زخارف. وليس هناك حجر واحد فى المعبد لا تزينه نقوش دينية أو كتابات مقدسة أو مطلّى بمختلف الألوان. وأقل جزء فى المبنى، كان مقدساً، وكان يكفى إلقاء نظرة واحدة فيه لإثارة الانطباع الدينى فى نفوسنا. ومن الصعب أن ندرك إلى أى حد يمكن لشعب تغذية مشاعر الورع بصورة طبيعية وتتظاهر كل مؤسساته بل وفنونه الترفيهية لخدمة هدف واحد، أن يشعر بتأثير هذه العوامل مجتمعة.

وفى نهاية قدس الأقداس ، نرى كتلة جرانيتية مغطاة بالكامل بالنقوش . بداخلها نيشة مربعة تشكل ما يشبه القفص للصقر المقدس، ونحن نعلم أن جزيرة فيلة كانت تضم بين أرجائها معبداً لتقديس أوزوريس(\*) بصفة خاصة على صورة الطائر . وكم من البشر \_ من العصور القديمة \_ ابتهلوا إلى الإله بأدعيتهم الخالصة للوصول إلى هذه النيشة الفاضلة ولم يقتربوا منها إلا وقد تمكن منهم الوجل ! ولتتظروا اليوم إلى الإهمال الذى أصابها وإلى عزلتها حكم هذه الجدران سوداء ويفطيتها الفبار! ونحن لا نسير إلا وسط الأحجار والرديم الذى يعترض الطريق ويحول دون الدخول فى أكثر الأماكن إثارة لفضولنا وأعنى هذا الممر الضيق المقام فى عرض الحائط. ومما لا شك فيه أن هذا الممر هو الذى كان يدخل منه الكاهن عند تحدّثه إلى الإله وتلقّيه الوحي الألهى .

وفى إحدى هذه القاعات ، نجد سلماً يؤدي إلى سطح المعبد. وفيه لازلنا نجد ردماً وأكواماً من الرديم. لقد كان هذا السطح قرية صغيرة أنشأها البرابرة وسكنوها وهجروها. ومما لا شك فيه أن النوبيين من جزيرة فيلة قد اختاروا الإقامة على سطح هذا الأثر للدفاع عن أنفسهم ضد بعض الأعداء، وليس بفرض تجنب الفيضان حيث إنه لم يحدث أن غمر أعلى الفيضانات أرض الجزيرة.

ونحن نجد أيضاً منازل من الطين خارج جدران المعبد وعند جزئها السفلى . وهذه المنازل تفسد شكل الجزء الخارجى للمبنى وتخفى ارتفاعه الحقيقى، حيث إنها ليست مدفونة إطلاقاً أسفل أرض الجزيرة التى لم تشهد \_ منذ زمن بعيد \_

---

(١) صور المصريون الرب أوزوريس بهيئة بشرية فى أغلب الأحوال، أما الصقر فكان الصورة المثلى للرب حورس. (المراجع)

أى شكل من أشكال التعلية. وتقدم لنا الأبنية من الخارج، فى هذا المكان بالذات، ومع قرب انتصاف النهار مشهداً مميزاً مرجعه الجوار من المدار: فما إن ترتفع الشمس بمض الشئ حتى تلقى الكرائيش بظلال طويلة تهبط رويداً رويداً على جدران الآثار ومع قرب منتصف النهار ومع وصول حرارة الشمس إلى ذروتها حتى تغطى واجهات الأبنية - فى معظمها فى بظلال كبيرة وفى هذه الساعة ، يا له من هدوء يسود المكان فى قلب هذا القيطظ الهواء لا يتحرك بفعل أى ريح، فقط المياه فى مجاريها تتحرك قليلاً . وفى وسط هذا السكون العام، يخمد كل شئ إلا فضول الأوروبيين المتحدى لحرارة منتصف النهار، فى الوقت الذى يلتمس فيه علماء الطبيعة الملاذ والراحة فى أى مكان.

ويختلف المعبد الصغير، الذى تركناه جهة اليسار حال توجهننا من الصرح الأول للثانى، عن معبد أوزوريس اختلافاً كبيراً. وهناك صفة أعمدة تحيط بثلاثة من جوانبه ، ومن أمامه نجد رواقاً به أربعة أعمدة، وهو تفسير لشكل كل الأروقة المصرية الأخرى. ويختلف هذا الرواق عن غيره التى نقلناها عن اليونانيين أو الرومان فى أنها مغلقة جانبياً وأن كل أجزاء الواجهة (باستثناء الجزء الأوسط المفتوح حتى أسفل وهو الذى يمثل المدخل الوحيد) مغلقة بواسطة حائط حتى ثلث ارتفاعها وربما حتى منتصفه. وبهذا تتحول الأجزاء الخارجية - إذا صح القول - إلى نوافذ وينتج عن هذا الترتيب الذى كانت له بلا شك دوافعه فى الطقوس المصرية تأثيراً غامضاً بداخل البوابات، إلا أننا نجهل هذا الدافع تماماً ، حتى أن الرغبة الأولى التى تعترينا تتمثل فى رؤية حوائط هذه الأجزاء وقد أزيلت تماماً حتى نتمتع بكل ارتفاع الأعمدة التى لا تتميز بمقاييسها بالارتفاع الشديد .

وينبغى أن نقول إننا سرعان ما نتعود على عدم البحث مطلقاً عن أناقة الطراز المعمارى اليونانى فى نظيره المصرى. فهذا الأخير، أكثر جدية وكان يهدف إلى تحقيق الصلابة والاستمرارية . فنحن نجده بسيطاً فى جملة ، متنوعاً فى تفاصيله ومتجانساً فى كل أجزائه. ومن الواضح أن اليونانيين قد أقاموا طرازهم المعمارى على هذا الطراز، وكما استمدوا ديانتهم من مصر،

أخذوا منها أيضاً نظم المعابد . والمعبد الذى يثير اهتمامنا هنا هو من نوعية المعابد التى قلدها على وجه الخصوص . ولا يمكننا فى هذا الصدد أن نتجاهل فى التفاصيل المعمارية اليونانية تقليدها لعمارة وادى النيل، ويكفى أن نقارن تاج العمود المزين بجريد النخيل وتاج العمود الكورنيش الذى تحيط به أوراق نبات الأقتنة . الهيئة الرائعة لتاج العمود اليونانى مستمدة من المصريين وأياً كانت عبقرية قصة " كاليماك " فإن الاستعارة ظاهرة للغاية .

أما المعبد الصغير، فهو ليس أقل نقوشاً من معبد أوزوريس وأكثر الشخصيات تمثيلاً فيه إيزيس وإبنها حورس . ورأس حتحور منقوش نقشاً بارزاً على الواجهات الأربع لطبلية تيجان الأعمدة . وما من شك فى أن هذا المعبد كان مكرساً لإيزيس أو حورس أو للآلهتين معاً .

ولم يتعرض هذا المبنى الصغير لأى تلف، فهو يبدو جديداً تماماً . ومن المؤكد أنه قد شيد فى عهد لاحق لعهد بناء المعبد الكبير . ولكن من الصعب علينا أن نحدد بدقة فارق السنين من مجرد اختلاف الحالة التى عليها كل من المعبدین . فنحن لا نشعر - قط - بفارق آلاف السنين بين أثرين يبلغ عمر كل منهما بضعة آلاف من السنين وإن كانا لا يزالان بحالة جيدة .

وقد أدى التهدم المستمر للمنازل الطينية التى كان قد تم بناؤها تحت الرواق المعمد لمعبد إيزيس إلى ارتفاع الأرض بدرجة شديدة حتى أن الأعمدة قد غطيت فيها حتى ١/٢ ارتفاعها . ونحن نرى أيضاً بالخارج، فيما بين أعمدة الرواق بقايا جدران تقطعه وتشكل غرفاً منفصلة مختلفة المساحات : بعضها تم بناؤه من الطوب والبعض الآخر من حجارة تم الربط فيما بينهما بالجير . ومن المفترض أنها كانت تتمتع ببعض الصلابة، إلا أنها قد انهارت فى معظمها حتى أن رديمها يحول دون رؤية الجزء السفلى من الأعمدة . فهل هذه الأبنية بعيدة الشبه كلية بأكوخ النوبيين الطينية ، كانت هى نفسها المنازل التى شيدتها الحامية الرومانية؟ أو أنها كانت للمسيحيين الذين سكنوا طويلاً فى مصر المقابر والمعابد المهجورة؟

لقد تجولنا - على هذا النحو - فى المباني الرئيسية التى ترتبط فيما بينها فى تبعية متبادلة وهناك عدد آخر منها على سطح الجزيرة.

وعلى بعد بضعة أمتار من المعابد ، وعلى ضفاف الرصيف لا تزال هناك قاعة منعزلة وهى من بقايا مبنى أكثر المنشآت ضخامة. والنقوش التى تزينها متعلقة بموت أوزوريس ومن الغريب أن نجد تمثيلاً لهذه القصة المقدسة حيث من المعلوم أن الأساطير المصرية كانت تضع قبر أوزوريس فى جزيرة فيلة وتضم هذه القاعة أيضاً العديد من الأسماء ومن النقوش الكتابية ومن بينها عدد بالغ القدم. ونحن نلاحظ منها فى السقف، كتابة بالحبر الأحمر فى سطور عدة تضم حروفاً مجهولة. وقد رأينا على بعض الآثار الأخرى بالجزيرة نقوشاً كتابية يونانية ولاتينية علاوة على بعض آخر منها مكتوب بالحروف الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك نحن نجد أيضاً هنا أسماء وأحكاماً مكتوبة بالعربية. إن جزيرة فيلة تضم فى نقوشها عصوراً متعددة وشعباً مختلفة، ومن هذا المنطلق تمثل واحداً من أكثر المواضع المصرية إثارة للدهشة.

وهناك بضعة أبنية فى شمالى الجزيرة تتألف من رواسب غرين النهر. وبعض الأراضي الشمالية مزروعة فى بعض الأنحاء فهى الوحيدة التى لا نجد فيها رديماً. وفى وسط هذا الجزء من الجزيرة نرى جزءاً من جدار قائم ، وهو من بناء اليونان أو الرومان مزين بزخرفة ثلاثية الأخاديد من الطراز الدورى ومشيد من حطام بعض الآثار المصرية. وهناك مبنى روماني آخر، مجاور لهذا الأثر لم يتم الانتهاء منه البتة، ولكن يسهل التعرف فيه على قوس نصر صغير. والحيز الممتد بين هذا القوس والمعابد تشغله العديد من النباتات، وإن كانت لا تبدو من الآثار العظيمة ، فبعضها مهدم حتى مستوى الأرض، وتبدو بمثابة رسوم تخطيطية مرسومة على الأرض فحسب، والبعض الآخر لا نستتج وجوده إلا أسفل تلال من الحجارة والرديم ، إلا أننا ، لو واصلنا السير نحو الجنوب ، نجد أنفسنا أمام هذا المبنى المكشوف الذى يدهش الناظرين بمجرد رؤيتنا للجزيرة.

وأول ما يميز هذا المبنى هو لونه الناصع البياض، وأناقته. فالأعمدة التى تشكله متداخلة فى الحوائط حتى ثلث ارتفاعها مؤلفة بذلك صالة مربعة دون سقف ، يتم الدخول إليها عبر بابين متقابلين. وهذه الأعمدة ليست أكثر طولاً

من الأعمدة الموجودة فى المعابد الأخرى، وإن كان يملوها كتل حجرية مساوية لربع ارتفاعها مما يعطى مجمل المبنى طابعاً خاصاً يتناقض مع التناسب العادى للأثار.

وهذا المبنى لا يحمل أى نقوش إلا فى بعض أجزائه. ومن الواضح أنه لم يتم الانتهاء منه، ونحن نقف على عجل هذه الفرصة لدراسة أساليب المصريين فى نحت الأحجار وفى إعداد النقوش .

وهذا المبنى مثل غيره من مباني الجزيرة محاط ببضعة منازل من منازل البرابرة ، المشيدة بالقرميد النقيء أو من الطين. إلا أن هذا الأثر الجميل غير مغطى قط برديم المساكن المتهمة : فالأعمدة حتى قاعدتها، وهذا ما لا نجده إلا نادراً فى مصر، حيث إن الارتفاع السنوى للأرض واتهدم السريع للمساكن يغطيان شيئاً فشيئاً المباني القديمة حتى توارىها تماماً دون تدميرها.

وبعد تجولنا داخل الجزيرة ، تبقى لنا أن نزور من الخارج بناية مصرية تقع على الضفة اليسرى من النهر فى شرم بين الصخور . ونحن نجد هناك بقايا رصيف وأبعد بقليل بقايا باب وبعض الأعمدة. وهناك أحجار ورديم يحيط بهذه بقايا ، يعتقد أنها للمعبد الصغير. وتتكون الأرض المحيطة من رواسب غرينية للنهر، ورغم أن هذه الرواسب تقع بين الأحجار المارية إلا أن لها نفس خصوبة التربة المصرية. ويقوم البرابرة القاطنون فى الجوار بزراعتها حتى أن النخيل - الذى يمثل ثروتهم الحقيقية - يصبح فيها بالغ الروعة ومحصوله وفير.

ويقدم لنا النيل فى هذه البقعة مشهداً متناسقاً ، وعلى حد قول الرحالة وعلماء الطبيعة المحليين - إلى مسافة تزيد عن خمسين فرسخاً فى اتجاه النوبة - صخور قاحلة تجرى بينها مياه النهر ومن بينها وفى كل شرم ضحل ، نجد أسرة من أهالى النوبة وأحياناً أخرى قرية صغيرة تبعد لمساحة أراضى الجوار، ضيقة كانت أو ممتدة ويملك هؤلاء النوبيون الفقراء - الشرفاء والمتكشفون - القليل من الماشية ويعيشون من دخل صيد النهر ومن زراعات قليلة من الحبوب يباشرونها فى كل عام وكذا من بلخ النخيل. إلا أنهم لا يستهلكون إلا أقل القليل من هذه الفاكهة ويرسلون الفائض إلى وادى مصر الفنى. هذه هى

كل التجارة التى يمارسونها، وهذا هو أسلوبهم الوحيد للحصول على بعض الملبس أو تجديد الأدوات اللازمة للزراعة.

وكلما أمعنا أكثر التفكير فى فقر هذا البلد ، زاد تأملنا لتجرد صخوره وقلة المزروعات المحيطة به وكذا قلة سكان هذه البلدة التى كانت دائماً على ما هى عليه الآن. زادت دهشتنا لعمورنا فى جزيرة فيلة على أبنية تشهد على قوة الشعب الذى شيدها وهى التى تقترض أن سواعد كثيرة قد أسهمت فى تشييدها. وسوف تظل هذه الجزيرة الصغيرة مميزة على هذه الأرض ، وسوف تثير فضولاً فى محلة تجاه الشعب المصرى الذى جاء ليشيد معابداً هائلة الضخامة فيما وراء الجنادل ، فى وسط الصخور وهو الذى أقام أبنية يمثل هذا البهاء والروعة والثراء ودقة التنفيذ والإتقان فى بلدة شبه قاحلة كما لو كان يشيدها فى وسط عاصمة دولته.

إلا أن فكرتنا عن هذه الآثار المذهلة قد يشوبها القصور إذا ما اكتفينا بمحصلة النظرة الأولى. فإذا ما درسنا تفاصيلها وعقدنا مقارنات متعددة مع غيرها من الآثار، فسوف نستطيع الحصول على بعض القواعد العامة التى حكمت ترتيب هذه الأبنية واستيعاب بعض من أفكار هذا الشعب الذى شيدها. وفى النقوش بصفة خاصة، يمكن دراسة الدين وفهم بعض من عاداته وتقاليده. و يتمين علينا الآن أن ندرس فى كل معبد وفى كل مبنى، الطراز المعمارى ونلاحظ كل تفاصيله وكذا النقوش الموجودة عليه وهى التى لم نستطع إلا رؤيتها فحسب.

وهذا ما سوف نتناوله بالدراسة فى الأجزاء الآتية :

### المبحث الثالث: عن الجزيرة، وعن موقعها فى وسط النهر<sup>(١)</sup>

قبل الوصول إلى الجندل الأخير والدخول إلى مصر، يقسم النيل ، على مدى ما يزيد على الفرسخ من مجراه ، عدد كبير من الصخور التى تشكل تتابفاً من الجزر مختلفة الأحجام. إحدى هذه الجزر يطلق عليها اسم "جزيرة بيجه" ويبلغ

---

(١) لم ينه كاتب هذا الوصف إلا الفترتين الأخيرتين، وعليه، فلقد اعتدنا من الواجب علينا، عند نشر باقى مؤلفه، أن نسد الثغرات وأوجه الإغفال واحتراماً لذاكره، لم نسمح باى تغيير أو إضافة تذكر.



عرضها ما يزيد على نصف الفرسخ وتقسم النهر إلى فرعين رئيسيين : الأول في الشرق والثاني في الغرب . وفي هذا المكان يبلغ عرض النيل قرابة ٥٠٠٠ م<sup>(١)</sup> بين ضفتيه الأكثر تباعداً . وينحرف الفرع الشرقي، الذي يبلغ عرضه نحو ٢٥٠ متراً<sup>(٢)</sup> والذي يجري أولاً من الجنوب إلى الشمال، ليلحق بالفرع الثاني جهة الغرب . وفي هذا المنعطف للنهر، وفي وسط حوض مستدير الشكل، نجد جزيرة فيلة . ويبلغ طول هذه الجزيرة ٢٨٤ متراً<sup>(٣)</sup> أكبر عرض لها ١٢٥ متراً<sup>(٤)</sup> . أما محيطها، فهو ٩٠٠ متر<sup>(٥)</sup> . وتتغير هذه الأبعاد وفقاً لارتفاع مياه النيل أو انخفاضها . إلا أن المساحة المحصورة بين جدران الرصيف التي لم تفرمها المياه قط . لا تختلف كثيراً عن المساحة التي أعطيناها لتونا . فطولها يبلغ ٣٦٠ متراً . وعرضها ١٣٠ متراً . حتى أنه لا يلزمنا أكثر من نصف أو ربع ساعة للدوران حولها . وشكلها يميل إلى الانتظام وأكبر بعد لها يوجد من الجنوب إلى الشمال .

وخط طول جزيرة فيلة هو ٢٠ ٤٤ ١٦ ° اعتباراً من خط زوال باريس . أما خط عرضها، فهو ٢٤ ١ ٤٢ ° وهكذا، فإن هذه الجزيرة لا تقع قط في هذه المنطقة كما اعتقدنا ذلك طويلاً، بل إنها تبتمد عن المدار بمقدار نحو ١٤ فرسخاً . وحقيقة إن الوضع لم يكن دائماً كذلك، وهي واقعة في تلك المنطقة منذ قرابة خمسة آلاف عام حيث يمر المدار في أسوان . فتغير ميل مدار الشمس سوف يعيد الأمور يوماً إلى حالتها الأولى وتستعيد فيلة من جديد وضعها بين المدارين .

وتقع أسوان وفيله تحت خط الزوال نفسه تقريباً والمسافة الفاصلة بينهما في خط مستقيم تبلغ ثمانية آلاف وثلثمائة متر<sup>(٦)</sup> . وهي مسافة أقل قليلاً من فرسخين . ولما كانت الطريق الفاصلة بين أسوان وفيلة مستقيم تقريباً، فيمكن

(٢) ١٢٥ قامة .

(٤) ٦٨ قامة .

(١) فرسخ واحد .

(٣) ١٩٢ قامة .

(٥) ٤٥٠ قامة .

(٦) أربعة آلاف ومائة وخمسين قامة بين النقطتين الطرفيتين . من وسط أسوان وحتى وسط فيلة، تبلغ المسافة عشرة آلاف متر وهذا ما يتفق مع قول استرابون .

تقديرها بفرسخين بطريقة دقيقة للغاية. وهذه المسافة التى نفترضها تمثل نصف المسافة التى أشار إليها استرابون و جعلنا نشك فى أن هذه الجزيرة كانت بحق الجزيرة التى كان القدماء يطلقون عليها اسم فيلة . ولكن رغم إمكانية التغلب على هذه الصعوبة، كما سنرى ذلك فى الدراسات المتعلقة بالجغرافيا القديمة لمصر، هناك العديد من الظروف الأخرى التى لا تدع أى مجال للشك فى أن هذه الجزيرة التى نتحدث عنها هى بالتأكيد جزيرة فيلة الخاصة بالقدماء. فالأعداد الهائلة للأسماء والنقوش الموجودة بمختلف اللغات على الأبنية القائمة فى الجزيرة إنما تبرهن بالقدر الكافى أن هذه الجزيرة كانت مكاناً متميزاً يجتهد فى دخولها كافة الرحالة لترك أدلة كتابية على رحلاتهم إليها. زد على ذلك أن الكتاب لم يشيروا إلى أى مكان آخر أكثر أهمية من جزيرة فيلة فى البقعة الواقعة إلى الشمال من الجنادل .

علاوة على ذلك، فإن اسم فيلة مجهول تماماً فى البلاد فهذه الجزيرة يطلق عليها اسم جزيرة البريا (جزيرة المعبد) كما أشار الرحالة نوردين إلى الجزيرة نفسها تحت مسمى جزيرة الحيف.

وقبل الدخول فى مزيد من التفاصيل عن جزيرة فيلة وحتى نعطى فكرة كاملة عن موقعها، وسيكون من الملائم هنا أن نقدم وصفاً لضفتى النيل كما نراها من الجزيرة نفسها. إذا ما نظرنا جهة الشمال، فلن نستطيع أن نرمى أبصارنا بعيداً حيث يكون النيل منعطفاً جهة الغرب وتصل صخور الضفة اليسرى حتى صخور الضفة اليمنى. وعلى العكس من ذلك، إذا ما نظرنا إلى الجنوب فسوف نجد أن مجرى النهر مستقيم إلى حد كبير وهذا ما يمكننا من رؤية ما يزيد عن نصف فرسخ من مجرى هذا النيل القادم من النوبة الذى يأخذ طريقه متعرجاً عند سفح الصخور المرتفعة بمقدار يتراوح ما بين ٦٠ و ٨٠ متراً وتحف به مباشرة مما يشكل منظراً مهيباً وعظيماً.

أما الضفة الشرقية للنهر وهى التى نصل إليها ونحن قادمون من أسوان، فهى تأخذ شكل سهل رملى صغيراً بين الصخور والأرض التى تكشفها المياه سنوياً يتم زراعتها كما نرى، بمزروعات مختلفة مثل السنا والسنط العنبرى والمستحية

التي تنمو شيطانياً وتقدم لنا في كل فصول العام خضرة ملحوظة يزيد من وضوحها أن كل الأراضي المحيطة عارية تماماً منها. وينتهى هذا السهل الصغير في الغرب بكتلة هائلة من الصخور ترتفع من أمامها تلك الصخرة التي تحدثنا عنها من قبل والتي تأخذ شكل المقعد .

وعلى ارتفاع ما بين هذه الصخور الجرانيتية، وجدنا بقايا بعض الموميאות. ولما كنا لم نعلم نجدها إلا في المساء ونحن سائرون في طريق عودتنا إلى أسوان، فقد ترتب على ذلك عدم تمكننا من القيام بأى بحث عن هذه البقايا . وقد ساورنا الاعتقاد آنذاك أن بعض الفرنسيين قد سبقونا إلى زيارة هذا الموقع. ومن المثير للاهتمام حقاً أن نعرف ما إذا كانت هذه الموميאות محفوظة في تجويفات طبيعية أو في مقابر منحوتة بأيدي البشر. ولكن هذا احتمال ضعيف بسبب طبيعة الصخور. فنحن نعتقد بالأحرى أنها مدفونة في الرمال<sup>(١)</sup>.

وإذا ما تتبعنا انعطاف النيل المتوجه إلى الجنوب فسوف نلاحظ في السهل الصغير على مقربة من ضفاف النهر قرية نوبية صغيرة مأهولة ويحيط بها النخيل وبعض نبات السنط العنبري ثم بعض أنقاض لجدران مبنية بالجير وتمثل بقايا أحزمة بعض المسلمين الأجلاء، ثم قريتين صغيرتين مهجورتين ونبات السنط العنبري حتى نرى في نهاية المطاف الصخور وقد اقتربت من النهر لتنتهي بذلك السهل. ولكن، مع استمرارنا في التجول بأبصارنا في الضفة الشرقية نفسها، فسوف نرى على بعد  $\frac{1}{4}$  فرسخ إلى الشمال من فيلة قرية تبدو أكبر من سابقتها، وأهم ما يميزها تلك المنارة المرتفعة إلى حد ما والمطلية بالجبس وهي التي تظهر ناصعة البياض وسط الأحجار الجرانيتية.

وإذا ما تجولنا بأبصارنا في الضفة الغربية ونحن متوجهون من الشمال إلى الجنوب، فسوف نلاحظ فرجة صغيرة بين الأحجار مزروعة بالأشجار. في هذا

---

(١) لقد عدت ببعض الأنسجة الكتانية التي كانت تستخدم كلفائف لهذه الموميאות. وهي غير مشبعة بالقار ولكن بالنيطرون وفقاً لطريقة التحضير المعروفة والشائعة بين هذه الطبقة من المجتمع، وأهم ما يميزه الخشونة الشديدة للنسيج إذا ما قورن بطراوة الأنسجة الكتانية التي نجدها في مقابر طيبة.

المكان، توجد بعض الأنقاض مصرية الطراز وبعد ذلك لا نجد إلا أحجاراً على مرمى البصر، وعند منتصف الضفة وفي وسط الأحجار نرى منزلاً صغيراً يشبه الصومعة ويمتد أنه كان محلاً لإقامة أحد النساك.

ومن الصعب علينا اليوم أن نستوعب كيف يستطيع رجال ولدوا في بلاد مناخها معتدل وفي وسط خيرات وفيرة أن يفادروها إلى الأبد ويتركوا ذويهم وأصدقائهم وكل ما يربطهم ببلادهم ليأتوا هنا ويسكنوا هذه الأماكن المعزولة وينذوقوا أشد أنواع التقشف.

وفي الفترة التي ترتفع فيها المياه، لا تبرز جزيرة فيلة من فوقها إلا بمقدار بسيط، إلا أنه عند انخفاض مستواها، تتجاوز صفحتها بثمانية أمتار<sup>(١)</sup>. وترتفع صخور الجرانيت التي تتقدم لتشكل جزء من مجرى النهر عند الطرف الجنوبي بمقدار من أربعة إلى خمسة أمتار فوق الأرض<sup>(٢)</sup>. وتتألف الجزيرة في جزئها الجنوبي من أحجار جرانيت مواجهة لمجرى النهر ومن الجانب الآخر من رواسب تركها النيل خلف الأحجار. وقد أسهم عمل الإنسان بعد ذلك في إعطائها الشكل الذي نراه اليوم.

وقد أحاطت بالجزيرة جدار رصيف لازلنا نرى بقايا حتى اليوم بل ولا تزال أجزاء منه على حالتها الأولى. ويأخذ الجدار شكل بروز وهو مشيد من الحجر الرملي والأحجار منحوتة بعناية فائقة، وبشكل عام، فهو يتسم بطراز معماري جميل. أما فيما يتعلق بالأجزاء البارزة والفائرة، فيمكن أن يكون هناك دافعان لإقامتها: الأول يتمثل في الاستفادة من كل قمم الأحجار التي كان يمكن العثور عليها من أجل إرساء الأسس. والثاني يتلخص في إقامة ساحات ذات مساحات كافية أمام بضعة مباني تم تشييدها في وقت سابق.

وعلى كل، فمن المرجح أنه لم يتم إنشاء كل أجزاء هذا الحائط في نفس الفترة الزمنية وأنها قد تطلبت على فترات متباعدة بعض أعمال الترميم: وهذا

---

(١) ٢٥ قدماً.

(٢) ١٢ : ١٥ قدماً.

ما يفسر خطوطها الخارجية غير المنتظمة ولكن تجدر الإشارة في هذا المقام إلى خاصية تميز بناء بعض أجزاء الجدران التي تتقدم في النهر: وهو أن هذه الجدران بدلاً من أن تأخذ شكلاً مسطحاً فهي تظهر في شكل منحني أفقي يتجه تقمره ناحية الماء. وحقيقة، أن هذا التقعر ليس عميقاً ، بيد أنه ما من شك في أنه أقيم بهذا الشكل بدافع الصلابة حيث إن الجدران المشيدة بهذا الأسلوب تتميز بمقاومة العقدة للدفع الأفقي للأرض، ولكن هذا يفترض أن طرفي القوس كانا يمثلان نقطتي ارتكاز يمكن أن يقوموا أيضاً بمقاومة دفع العقدة، ومن المرجح أن هذين الطرفين كانا قائمين على الصخر مشيدين بعناية فائقة.

ومما لا شك فيه ، أن الفضول يجعلنا نكتسب مفاهيماً مؤكدة عن هذه الأبنية المائية التي شيدها قدماء المصريين وهي بنايات لا تزال تواجه في أوروبا الكثير من الصعوبات رغم تقدم علومنا. ولكن، كان يتعين إجراء حفائر عميقة والكثير من الأعمال الأخرى التي لم تكن الظروف تسمح بالشروع فيها. وعلى كل، فهذه الجدران المائلة التي أتحدث عنها هنا لا تجدها إلا في فيلة وعلى حد علمي لا أعرف بوجود مثل لها لا عند اليونانيين ولا عند الرومان.

أما شمالي الجزيرة بأكمله فقد كانت تشغله في الماضي أبنية لم يبق منها إلا أحجار ورديم. إلا أننا نرى فيه بعض المزروعات لأن تربته طميية فمن حول كوخين أو ثلاثة نرى نخيل البلح وعلى ضفاف النهر ما يشبه الحدائق المحاطة ببعض الأحجار المتراكمة التي تشكل سوراً . إلا أن الجزء الوحيد المخصص بالكامل للزراعة هو الأرض الموجودة عند سفح الرصيف والتي يغطيها الماء كل عام بفعل الفيضان. وفي هذه البقعة من الأرض ، نجد الذرة والفاصوليا مزروعتين بعناية ، إنها بحق حديقة الجزيرة.

وتحتل بعض المعابد جنوب غربي جزيرة فيلة . أما الجنوب الشرقي منها، فمقام فيه عدد كبير من منازل البرابرة به الكثير من الرديم. وإذا ما اعتقدنا فيما قاله استرابون من وجود مدينة فيلة ، فمن المعتقد أنها كانت قائمة في هذا

الموقع، ولكن ديودرو يقول إنه كان لا يسمح بدخول الجزيرة إلا للكهنة ، وهذا ما ينفي الاعتقاد في وجود مدينة في هذا المكان.

واليوم، لا يوجد في جزيرة فيلة إلا عدد ضئيل من السكان يتمثل في ثمانى أو عشر أسر. وهى تقيم في بضعة أكواخ قائمة بين المبنى الشرقى والصالة المؤدية من الصرح الأول إلى الثانى وكذا في بضعة غرف من هذه الصالة .

وعندما جاء الفرنسيون لدخول الجزيرة للمرة الأولى لقوا مقاومة هائلة من السكان حيث اجتمع ضدهم عدد كبير من برابرة جزيرة بيجة ومعهم أعداد غفيرة من أهالى الضواحي ، وعلى مدى أربعة أيام ، اعتقدوا أنهم منتصرون ولكن ما أن رأوا الفرنسيين وهم يأخذون طريقهم فى النهر حتى لاذوا بالفرار وعادوا إلى الجزيرة الكبيرة. ومنذ ذلك التاريخ ، عاد سكان فيلة إلى مساكنهم واستمروا فيها رغم زيارات الفرنسيين المتكررة، إلا أنهم كانوا قلقين من رؤية الفضول الذى كان يتم به استكشاف مبانى الجزيرة. وقد عاد بعض منا لثلاث مرات على التوالى مما دفع السكان إلى أن يعربوا عن انزعاجهم وأنه فى زمن المماليك كانوا يعيشون فى هدوء أكبر وأنه طالما عودتنا مرهونة بالمابد فسوف يدمرونها ولكنهم لم ينفذوا تهديدهم.

ويشتهر البرابرة فى كل أرجاء مصر بأنهم خدم مخلصون ؛ لذا يعهد إليهم بحراسة المحال التجارية ويستخدمون كبوابين . وهم معروفون بالطيبة وعاداتهم غاية فى البساطة. ويتميزون ببشرة سمراء وأن كانوا ليسوا زنوجاً، كما أنهم لا يحملون شيئاً من ملامح الزنوج. والحق ، أنه لا مجال هنا للحديث باستضافة عن هذه الأمة<sup>(١)</sup>. ولن أزيد فى حديثى عن موقع جزيرة فيلة، إلا شيئاً واحداً جديراً بالملاحظة، فالجزيرة يحيط بها - كما رأينا - سلاسل جبال شاهقة وصخور عارية تتوسطها الجزيرة لدرجة أن صدى الصوت يتردد مرات عدة. فأثناء الليل، يتولد عن الصرخة الواحدة خمس صرخات متميزة تماماً ويفصل فيما بينها فترات زمنية ملحوظة للغاية.

---

(١) انظر دراسة السيد كوستاز عن البرابرة، المجلد الأول من الدولة الحديثة.

## المبحث الرابع: عن المبانى المستخدمة كطريق للمعبد الكبير

حتى ننتهج فى وصف آثار فيلة نفس الترتيب المتبع فى بياننا عنها، فسوف نبدأ بأكثر المبانى جهة الجنوب لنقترب على التوالى من المعابد<sup>(١)</sup>.

كان المبنى الجنوبي يتألف من ١٤ وربما ١٦ عموداً مؤلفة صالة بلا سقف. ولم يبق الآن إلا بضعة أعمدة قائمة جهة الغرب وهى تدعم عتباً متهدماً وقد اختفى الكورنيش تماماً أما الأعمدة الأخرى فهى مدمرة بالكامل تقريباً ، حتى أننا لا نجد أى أثر للعمودين اللذين كانا يؤلفان الجانب الجنوبي. وهذه الصالة هى من أصغر الآثار المصرية حيث يبلغ قطر الأعمدة ٧٠ سنتيمتراً<sup>(٢)</sup> وارتفاعها ٤٧ نيسيمتراً<sup>(٣)</sup> شاملاً كل شئ<sup>(٤)</sup> .

ولن نتوقف فى هذا الصدد عند هيئته ، التى تبدو مشابهة لحد كبير لهيئة المبنى الشرقى والذى سنتحدث عنه بإسهاب ولن نركز أيضاً على تفاصيل أجزائه حيث سنجد مثلاً لها فى مبانى أكبر وعلى حالة أفضل. وأهم ما يميز هذا المبنى هو تاج العمود الذى لا نجد أوراقه الملساء فى أى مكان آخر، ولربما كانت أوراق الشجر هذه تقليداً لأوراق شجر الموز أو الغاب وربما لم يتم الانتهاء منها قط وأنه كان يستلزم قطعها. فى هذه الحالة لا يكون تاج العمود هذا بدون مثيل.

---

(١) رغم استخدامنا هنا لكلمة «وصف» فنحن لا نهدف إلى الحديث عن الآثار وفقاً للمعنى الذى نعطيه عادة لتلك الكلمة. أما الوصف الحقيقى للآثار، فنحن نجده فى مجلدات اللوحات: فأفضل وصف لتوزيع معبد ما لا نجده فى رسم تخطيطى تظهر زخارفه من خلال الرسومات والمناظر. أما الوقائع التى لا يمكن قط لرسم أن يشتمل عليها أو يعبر عنها والتي يهتم الاهتمام عليها وكذا الملاحظات والمقارنات التى يقيمها الرحالة وأخيراً، الإفتراضات المعقولة التى من شأنها تحديد الأفكار وإشباع العقل، كل ذلك نجده هنا ومنه تتألف الفقرات التالية. وبإلحاقه باللوحات سوف يكون لدينا معرفة كاملة عن آثار جزيرة فيلة.

اللوحات الواردة فى هذا الفصل وفى الفصول التالية من المجلد الأول للوحات الدولة القديمة.

(٢) قدمان وثلاث بوصات.

(٣) ١٤ قدماً وست بوصات.

(٤) المقاييس المذكورة فى هذه الدراسة تقريبية ولزيد من الدقة يستلزم الرجوع إلى اللوحات.

وأمام الصالة الجنوبية نجد مسلتين صفييرتين موضوعتين على جدار الرصيف الذى كان يمثل بالنسبة لهما قاعدة بالغة الارتفاع ، إحداهما سقطت فى النهر ولم نعد نرى منها إلا التجويف الذى كانت قاعدتها موضوعة عليه . أما المسلة الثانية ، فلا تزال قائمة بيد أنها مكسورة عند قمته . إلا أنه إذا ما افترضنا المقياس المعتاد بالنسبة للمسلات الأخرى ، فيرجح أن ارتفاعها كان نحو سبعة أمتار<sup>(١)</sup> . وهو بذلك يمثل أصغر المسلات التى رأيناها فى صعيد مصر . وهى منحوتة من الحجر الرملى<sup>(٢)</sup> . والوحيدة التى تم نحتها من هذه المادة . ولا تحمل المسلة أى نقوش هيروغليفية وهى الوحيدة التى رأيناها على هذا النحو . ونضيف إلى ذلك أنها كانت قائمة على قاعدة غاية فى الارتفاع فى الوقت الذى نجد فيه المسلات الأخرى على مستوى الأرض المحيطة تقريباً ويتمين على كل هذه الاختلافات أن تجعلنا نعتقد أن هدف إقامة المسلتين الواقعتين عند طرف الجزيرة مخالف للهدف الذى من أجله شيدت الآثار الأخرى المماثلة : وإذا ما لاحظنا أيضاً أنها موضوعة على مسافات غير متساوية من المبنى الجنوبي حتى تصبح فوق حائط الرصيف ، فسوف تتولد لدينا القناعة بأنها قد أقيمت بفرض الزخرفة الخارجية ، ويبدو واضحاً أنه قد تمت التضحية بالنظام الداخلى من أجل إقامتها . ومن هنا ندرك - فى الواقع - أنه لما كانه جزيرة فيلة تمثل إلى حد ما مدخل مصر من ناحية النوبة ، فقد كانت هناك رغبة فى تجميل مظهرها فى عيون القادمين من الأطراف العليا للنيل . ويبدو الصالة الجنوبية مبنية بتخطيط مماثل ، فمن الملاحظ أنه لا يوجد أى ارتباط بينها اليوم وبين المباني المحيطة ، فقط محورها الرئيسى يتفق مع منتصف الصرح ، وبينما تأخذ المباني الأخرى شكلاً مائلاً ، فإن هذا الصالة وحدها تأخذ مظهراً منتظماً أمام من يهبطون النهر ويزيد من انتظامه بشكل مميز مظهر المسلتين الآخرين .

---

(١) ٢٢ قدماً .

(٢) بسبب اللون هذا الحجر الرملى ، أعتقد بمضى الرحالة أن المسلة من الرخام الأبيض .



وعلى مقربة من هذه الصالة نجد بداية صفة من الأعمدة المكونة لرواق  
وهى التى تحف الضفة الغربية للنهر. وقد تهدم طرفها وعليه فمن المستحيل  
تخمين أين يوجد الطرف الشمالى. أما الطرف الجنوبي، فمن المرجح أنه كان  
يصل حتى الجدار الذى يمثل حد الجزيرة، وهو جدار لا يزال قائماً وفيه نرى  
فتحة كانت تسمح للأشخاص الموجودين أسفل صفة الأعمدة برؤية المراكب التى  
تسير فى النهر من بعيد.

ولا يزال ٣١ عموداً من أعمدة الرواق قائماً، هذا بخلاف العمود رقم ٣٢  
المحطم حتى منتصفه، حتى أن هذا الرواق يصل طوله إلى ٩٣,٢ متر. (١) وقد  
أصبحت العديد من أعمدته على وشك الانهيار. أما الأحجار التى بنيت بها هذه  
الأعمدة، فقد انفصلت بعضها عن بعض وتحركت من أماكنها. وتعمزى هذه  
التلفيات إلى سقوط الأحجار التى تكون دائماً بالغة الضخامة وهى التى تشكل  
الاعتاب التى تربط بين الأعمدة والأسقف، فعندما يحدث ما يجعلها تنفصل عن  
المبنى، فهى تسقط وتضرب الأعمدة بشكل مائل، محدثة خلافاً فى ترتيب  
الأحجار أو تسقطها أحياناً.

وقرب منتصف طول الرواق، نجد الفرجة بين عمودين أكبر مما عليه بين أى  
عمودين آخرين، وفى هذا المكان كانت ترتفع عضادات فى مواجهة الأعمدة  
وتؤلف فيما بينها باباً، وهذا ما يدفعنا بداهة للاعتقاد بأنه ما من شخص كان  
يمر بين الأعمدة الأخرى وأنه كان بهذا الدهليز جدران شعب كما نرى فى كل  
الأروقة المعمدة وفى كل صفوف الأعمدة الخارجية.

أما الأعمدة وكذا جدار الرواق الخلفى، فهى مغطاة بالكامل بالنقوش التى لم  
يزل بعض منها يحمل ألوانه القديمة. وهذا الجدار الذى يشكل خلفية الرواق  
هو نفسه حائط الرصيف ولما كان أساسه قد أقيم على الصخور، فلم يتمكنوا  
من إقامته فى خط مستقيم ولم يتكبدوا عناء إخفاء هذا الميب فى القسم  
العلوى من الجدار، وهذا ما يبدو أنه كان أمراً هيناً إلى حد ما. وقد نتج عن ذلك

---

(١) حوالى ٤٨ قامة.

أن حائط الرواق أصبح متعرجاً كما أن نفسه ، ويطوله ، يبنى بمرضاً متجانس . وهذا الإهمال يصدم أى أوروبى، إلا أن هذا المثال وغيره من الأمثلة الأخرى من النوعية نفسها ليست كافية حتى تجزم بأن أفكار التناظر والانتظام لم يكن لها بين المصريين ما تتمتع به بيننا اليوم. ولما كانت غالبية مبانينا تضم أشكالاً من عدم الانتظام، فهل ينبغى علينا أن نتردد فى الاعتقاد بأن عدم التناسب الذى كان يظهر فى بعض الآثار المصرية وراء ظروف خاصة كان من المستحيل التغلب عليها؟

يخترق الجدار العديد من النوافذ التى يبدو أنه لم يكن لها إلا هدفاً واحداً يتمثل فى التمكن من رؤية للنهر والصفة المقابلة للجزيرة. وهذه النوافذ صغيرة ومرتبطة بلا انتظام ولا تدخل فى نطاق الزخرفة وسمكها كان منقوشاً مثل باقى أجزاء الرواق<sup>(١)</sup>. وينبغى علينا الإقرار بأنها قد أقيمت فى نفس زمن إقامة المبنى ولم يتم شقها فى الجدران بعد تشييده مباشرة.

أما صفة الأعمدة المواجهة للصفة الأولى التى تحدثنا عنها لتونا، فهى تقريباً على حالها نفسها فلم يبق إلا العتب. أما الكورنيش، فهو ناقص بالكامل بل ربما لم يتم وضعه إطلاقاً. وفى حائط الخلفية، هناك ثلاثة أبواب يعتقد أنها كانت تؤدي إلى بضع غرف إلا أنه لم يبق منها أى أثر. ويمتد هذا الرواق بلا شك نحو الشمال. ويبدو أن هذا المكان كان مدخلاً لقاعة صغيرة مربعة الشكل لم تزل موجودة فى هذا الاتجاه. أما الطرف الجنوبي لصفة الأعمدة ، فهو لم يمتد مطلقاً أبعد من النقطة التى تراء فيها اليوم، فهو لم يزل ينتهى بجدار مرتفع به آخر عتب عمود. أما العمود الموجود فى امتداد الحائط والذى يمثل خلفية الرواق ، علاوة على العديد من الأبنية المحيطة، فهى غير كافية لإعطائنا إشارة إلى غرض استخدام هذه المباني أو حتى إلى الشكل الذى انتهت إليه.

ويبدو لى أيضاً من المستحيل العثور على الدوافع التى تبرر هذا الوضع غير المنتظم لصفة الأعمدة الثانية هذه . ولربما كانت هناك فى عهد إنشائها مبانٍ -

---

(١) مقتطف من يوميات رحلة السيد فيلوتو.

لم يمد لها وجود الآن وإن كانت آنذاك شامخة، بل ربما بالأحرى موضع لكثير من الاحترام الذى يحظر معه تدميرها - حالت دون اتخاذها لاتجاه آخر. ورغم أن هذا القصور فى التناظر بين صفتى كل من صفى الأعمدة يشير إلى أن بناءهما لم يكن فى الحقة نفسها، فإن كل الاستبطانات تدعو للاعتقاد بمكس ذلك. فصفتا الأعمدة مشيدان تبعاً لنفس النسب. ومنهدمان تقريباً بالدرجة نفسها وتركما من قبل مشيدهما على نفس حالة عدم الانتهاء.

يبلغ ارتفاع الأعمدة ١٠,٥ متر وقطرها ٠,٨ متر تقريباً. ولتيجان الأعمدة الارتفاع نفسه وتقريباً الشكل نفسه. إلا أن النقوش باللغة التنوع. واحد من أبسطها وأجملها يتألف من جريد النخيل حتى أنه لا يمكن تصور ما هو أروع من ذلك. فقد ربط النحات بين جريد النخيل وبين نسق البلح، وأعلى العمود يمثل شكل جذع النخلة نفسه، حتى أن صورتها تكون مكملتها تماماً فى هذا العمود مطلقاً لم يكن التقليد يمثل هذه الصورة من الوضوح والجمال. وهناك تيجان أعمدة أخرى مزينة بأوراق زهرة اللوتس فى شكل البراعم نرى أيضاً الزهرة المتفتحة هذا النبات المقدس.

إذاً، فالمعمار المصرى يقدم لنا هذا الطابع الخاص للغاية فى مجمله من رموز تحمل معنى مرتبطاً بها.

وتتميز رؤوس تيجان هذه الأعمدة بخصيصة أخرى وهى نظراً لأنها غير منتهية فى مجملها، فإنها تحيطننا علماً بكيفية قيام المصريين بوضع تصميمهما الأول. حيث كان يتم صقلها كما لو كانت باقية على شكلها هذا وتستخدم كتيجان أعمدة، والحق أن بعض هذه الرسومات الأولية يمكن أن يشكل تيجان أعمدة ذوقها مبتكر وطرازها نقى إلى حد كبير<sup>(١)</sup>.

وفوق تيجان الأعمدة هذه، نجد كتلا مربعة ترتكز عليها الأعتاب. ولهم كل الحق فى جمل هذه الأعتاب التى تتميز دائماً بمظهر به بعض الثقل - توضع

(١) لقد أخطأ الكثير من الرحالة فى هذا الشأن. انظر اللوحة رقم ٨، الشكل ١، ١٠ و ١١ و ٥ و ٨... إلخ، حيث يسهل التعرف على مختلف أساليب وضع التصميمات الأولية التى يستخدمها الفنانون لتنفيذ مختلف أشكال تيجان الأعمدة.

مباشرة على تيجان الأعمدة التى تتكون من أوراق الزهور ومن النقوش الدقيقة. والمصريون لم يخلوا قط بهذه القاعدة ومن المدهش أن اليونانيين لم يقلدوهم البتة فى ذلك، حيث لم يسفر ذلك عن أى أثر غير مستحب : فعلى العكس من ذلك لما كانت تيجان الأعمدة مبتعدة بعض الشيء عن الاعتبار ، فإن الخطوط الكبيرة لم يصادفها أى قطع، وهذا ما يمثل دائماً مصدراً جمالياً فى المعمار.

وأعمدة هذا الرواق مثل غيرها من الأعمدة المصرية تتناقص من القاعدة حتى تاج العمود بشكل متجانس ، وهذه هى التى نلاحظها فى الأعمدة الدورية القائمة فى اليونان فى أزهى عصور المعمار. وتتناقص الأعمدة وفقاً لخط منحني وتضخمها عند ثلث ارتفاعها تعود بنا إلى زمن كانت البساطة قد بدأت تنتهى فيه وتختفى .

وفيما وراء صفتى الأعمدة، نجد الصرح الكبير للمعبد وهو واحد من أهم الصروح بالجزيرة، وسوف نتحدث عنه بالتفصيل. ولنحدث أولاً بعض الشيء عن المسلتين، وكذا عن الأسدين الموجودين أمام هذا المدخل الأول للمعابد المتهدمة حالياً.

المسلتان مشيدتان من كتلة واحدة من الجرانيت الأحمر وتحمل كلتا الواجهتين عموداً من النقوش الهيروغليفية - كما نرى ذلك فى عين شمس - وهاتان المسلتان، رغم أنهما تفوقان بمقدار النصف تلك الموجودة عند طرف الجزيرة، إلا أنهما صغيرتان للغاية إذا ما قورنتا بمسلات طيبة وعين شمس والإسكندرية.

والأسدان مشيدان أيضاً من الجرانيت ، ويبدو أنه قد تم وضعهما أمام المسلتين وهما جالسان على مؤخرتهما مع احتفاظهما بالساقين الأماميتين فى وضع مستقيم. وهذا الوضع لا نجده ممثلاً فى أى تمثال لأسد أو لأبى الهول آخر ، ولكننا كثيراً ما نراه فى النقوش البارزة . وسوف نرى مثلاً على ذلك فى قبلة نفسها.

ويبلغ عرض الصرح قرابة ٤٠ متراً. أما ارتفاعه، فثمانية عشر متراً. وسمكه نحو ستة أمتار، إلا أنها لا تمثل كتلة حجرية واحدة قط . وفى الداخل نجد العديد من الغرف والسلالم ونحن ندخل فى الجزء الأيمن عبر باب صغير يقع عند طرف الصالة المؤدية من الصرح الأول إلى الثانى . ويرتفع سلم هذه الكتلة الضخمة ، عبر منحدر سهل للغاية حتى قمة المبنى بعد الدوران حول محور مربع. ولا يوجد أى درجات سلم عند الزوايا القائمة فيها أقراص الدرج فى مجملها. وهكذا، نرى أيضاً بعض السلالم فى الأبراج المربعة لقصورنا القديمة. وقد دخلنا إلى غرفتين فى أسفل السلم فى ثلاث غرف أخرى قرب منتصف ارتفاع المبنى ويصل الضوء إلى هذه الغرف وكذا إلى السلم عبر فتحات صغيرة مطلة على الخارج، تزداد عرضاً إلى الداخل، ولكنها رغم ذلك لا يدخل من خلالها إلا بصيص من الضوء بسبب السمك الكبير للحوائط.

أما توزيع الجزء الأيسر، فهو مختلف، فللوصول إلى القمة ينبغى أولاً الصعود فى الجزء الأيمن وعبور كافة الغرف العلوية والمرور بباب المدخل بين الكورنيشين اللذين يشكلان من فوق هذا الباب ممراً مكشوفاً واتصالاً بين جزئى الصرح . وعند طرف هذا الممر ، نجد الجزء الأيسر وسلماً يصعد إلى القمة على شكل منحدر . أما الباب الجانبى الموجود فى هذا الجزء ، فى مواجهة المعبد الغربى، فهو يؤدى إلى غرفتين مظلمتين ومسدودتين يرجح أنهما كانتا تؤديان إلى غرفتين أخريين علويتين لم ندخلهما إلا عبر فتحة خشنة التنفيذ . وقد وجد ثلاثة من زملائنا كمية كبيرة من لفائف المومياوات فى هاتين الغرفتين العلويتين والتي لم يدخلها أى شخص آخر غيرهم. وهذه الواقعة ، التى استحال حصولنا على المزيد من الإيضاحات بشأنها جذيرة بجذب انتباه الرحالة الذين سيتوجهون وما ما لزيارة فيلة هذه. بيد أننا لا نفتقد أن هذه الأبنية قد استخدمت كمقابر.

ولكن ما يبدو لنا من المنطقى قوله فى هذا الصدد حول استخدامات الصروح ، التى يزيد ارتفاعها بمقدار كبير عن ارتفاع العديد من المعابد والتى تتقدمها هو أنها كانت تستخدم كمراصد فلكية. ويرجح أن تكون الغرف

الداخلية قد استخدمت لوضع الأجهزة أو ربما لإقامة الحرس الذين عهد إليهم بها . وسوف نضيف إلى هذا الافتراض ، الذى تبرره دراسة المصريين الخاصة لعلم الفلك، ملاحظة خاصة بتفسير شكل المراصد ووضعتها ، التى كانت دائماً تنقسم إلى قسمين ويتوسطهما باب دخول . ويفسر ذلك أنه قبل عهد طويل من وجود مراصد وعلم فلك فى مصر، كانت تشن الحروب وتشييد الحصون . ونحن نتصور أن جزئى الصرح هما برجان مربعان كان يستخدمان أصلاً فى تحصين أبواب المدخل . ونحن نعتقد أن هذه الصروح كانت مهياة لاستخدام علماء الفلك، فقد كان هناك استمرار ما بعد ذلك لأسباب خاصة أو لتوفير العرف السائد - فى تشييد المراصد وفقاً لتصميمات شديدة الشبه بالأبراج القديمة .

ونسب أبواب الصرح رائعة وأنيقة للغاية . وارتفاعها دائماً ضعف عرضها . وقد تأكد لنا من الكثير من الملاحظات أنها كانت مغلقة بأبواب صفاقة . أما مصاريع الأبواب، فلم تكن مثبتة قط على إحدى واجهتى الجدار، ولكن شأنها شأن أبواب مدننا أو كل الأبواب الأخرى التى تخترق جدران شديدة السمك، فإنها كانت تفتح فى سمك البناية نفسها، وقد حضرت بعض التجويفات لتدخل فيها .

لم يبق لدينا إلا ملحوظة أخيرة نقدمها حول شكل البوابات وأسلوب بنائها وينبغى حتى نتفهمها أن نولى اهتماماً كبيراً لها . فإذا ما تخيلنا أن الواجهتين الصفرتين المستديرتين الواحدة نحو الأخرى واللتين تضمنان الباب فيما بينهما ممتدتان حتى أرض الأثر، فإنهما لن تبلغا الجزء الداخلى من الباب، وقد لاحظنا أنهما سوف تمتدان تحديداً للوصول إلى التجاويف الموجودة عند هذا الباب . أما إذا خالف الأمر ذلك، أى إذا ما قامت العين بتخيل تمدد لهاتين الواجهتين حتى تصلا إلى الجزء الداخلى الباب، فسوف تصاب بصدمة بالغة، بل ستعتقد أن ما تراه لن يكون رغم ذلك حقيقياً .

وهذا البحث، وهذه العناية، التى تمثل نتيجة للخبرة والملاحظة والتى نراها فى أكثر الصروح تهدماً وأكثرها قدماً بداهة، إنما يبرهنان بقدر كاف على أن هذه الصروح نفسها ليست أول ما بنى المصريون .

وننتقل الآن إلى فحص النقوش التى تزين الواجهات الخارجية لهذا المصح  
وسوف نلاحظ أولاً أن هذه كتقوش لا تشكل أى بروز على واجهة الجدار.  
فالفنان، بعد أن رسم الخطوط الخارجية للشكل، لم يوجه ولا ضربة واحدة من  
ضربات إزميله خارج نطاقه. فلقد أنجز نقشه دون التخلص من الأحجار  
المحيطة بحيث يتخذ مكانه فيما يشبه التجويف ولا تخرج أكثر أجزائها نتوءاً من  
واجهة الجدار<sup>(١)</sup>. وهذا النقش الفائر هو من المميزات الخاصة بقدماء  
المصريين، ويستخدم دائماً فى خارج المبنى حيث إن طبيعته تحميه من الصدمات  
ومن غالبية المشاكل التى تتعرض لها النقوش البارزة العادية. وهذه النوعية  
الأخيرة لا نراها إلا فى الداخل، ورغم وجود بعض الاستثناءات لقاعدة استخدام  
هذين النوعين من النقوش، إلا أن هذا لا يعنى أنها ليست شبه عامة.

وتمثل النقوش الموجودة على الواجهة الأمامية للمصح - على كل كتلة ثلاثة  
مشاهد واضحة للغاية - اثنان فى الأعلى وواحد فى الجزء السفلى. وتمسك  
الآلهة بصولجان الواس وعلامة عنخ رمز الحياة. ونحن نرى أوزوريس إما برأس  
إنسان، وإما برأس صقر. أما ايزيس، فتزين رأسها بغطاء على هيئة طائر  
العقاب وتمسك بيدها صولجاناً ولا ينتهى برأس الكلب سلوكى ولكن بزهرة  
اللولؤس<sup>(٢)</sup>.

وفى الجزء العلوى، يقدم الكهنة(\*) - للآلهة أوانى تحتوى بلا شك  
مشروبات خاصة وفى الجزء القسم السفلى، نجد كاهناً واقفاً أمام بعض  
الآلهة ويمسك ثلاثين أسيراً<sup>(٣)</sup> من شعورهم أو عن طريق حبل ويبلغ حجمهم  
ثلث حجمه ويرفع يده لضربهم. ويتضح - إما من عدد الضحايا أو من الطريقة

---

(١) بإمكاننا النظر إلى اللوحات وبمصفة خاصة اللوحة ١٣، الشكل ١، لتصبح لدينا فكرة عن شكل  
هذه النوعية من النقوش.

(٢) نحن نتمتع التوقف عند تفاصيل معروفة للغاية لدى كل الأثريين وإن كان غالبية القراء سوف  
يمتتون لنا لتعريفهم بها.

(\*) يقوم الملوك بتقديم القرابين والأضاحي للآلهة فى مختلف المناظر (المراجع).

(٣) انظر اللوحة رقم ٦، الشكل ٧، حيث لا يمثل الشكل الذى تم رسمه على وجه السرعة ثلاثين  
ضحية ولكن هذا العدد هو ما تمت ملاحظته فى الكثير من المناظر المماثلة.

التي تم إمساكهم بها وإما من نسب أجسامهم - أن هذا المشهد لا يمثل تضحية حقيقية قط ، وأنه لا ينبغي أن ينظر إليه إلا على أنه مشهد رمزي .

وكل الأشكال التي تؤلف مختلف اللوحات ممثلة - كما نرى - في وضع جانبي بالنسبة للرأس وأمامي بالنسبة للجذع الجانبي لباقي الجسم . وهناك عدد كبير من النقوش الهيروغليفية مرتبة في صفوف رأسية حول هذه اللوحة ، إلا أن النقوش الهيروغليفية التي يضمها المنظر الرسم لم يتم نقلها ، فهي ليست على ارتفاع شاهق فحسب ، ولكن لا يمكن تمييزها بسهولة وهي وحدها دافع كاف لعدم محاولتنا الشروع في رسمها .

وينقسم كورنيش الصرح إلى أقسام متساوية وعلى كل منها نقشت الاشكال نفسها ووزعت بطريقة تسمح بتشكيل زخارف غنية تمتع الناظر وتحمل دلالات عقلية عديدة وعلى الحلية السفلى للكورنيش الذي يأخذ طريقة إلى أسفل في شكل لفافة بطول زاويا المبنى ، مثل النحات شريطاً من حوله ، يلتف على التبادل تارة على شكل دائري وتارة أخرى شكل لولبي .

أما كرانيش البابين اللذين يخترقان الصرح ، فزخرفتهما تشبه زخرفة الكرانيش الموجودة على غالبية الأبواب المصرية الكبيرة ، فهي جديرة لهذا السبب بالملاحظة . وهي تظهر على خلفية غائرة قرص يصاحبه ثعبانان وجناحان كبيران . ويطلق على هذه الثعابين اسم الكوبرا ، وهي من النوعية التي تقف عند إثارتها على صدرها وتضخم عنقها الذي يصبح رقيقاً للغاية ، إذا ما نظرنا إليه من جانبه . وكان المصريون لا يتصورون نقوشهم وفقاً لأي منظور وكما أنهم كانوا يريدون رغم ذلك تصوير الأفعى المقدسة في الوضع الذي وصفناه لتونا فقد صوروا الرأس من أحد جوانبها ، مع رسم العنق من الأمام حتى يأخذ شكلاً منتفخاً وليس مستعرضاً .

أما فيما يختص بالأخدودين الرأسيين الموجودين على جانبي الباب الرئيسي ، فلقد كانا مخصصين لاستقبال سارى كان يوضع على جانبي الصرح برايات<sup>(١)</sup> .

(١) انظر نقوش معبد الكرنك القديم اللوحة رقم ٥٧ و المجلد ٣ .



أما واجهة الصرح المواجه التي قمنا بوصفها لتونا والمتجهة نحو المعبد، فهي مزخرفة أيضاً بنقوش ، ونحن نتحدث حقا عن تلك المصاحبة من الجهتين للباب الملحق بالصرح في مواجهة المعبد الغربي وتمثل هذه النقوش قارباً رمزياً برأس إيزيس ، وهي جديرة بالملاحظة ويحمل أربعة رجال يرتدون أردية طويلة هذا القارب، ونرى في الخلفية قارباً يجره شخص برأس صقر ويحرك طرفه بواسطة ذنب أفعى يمسك بجسدها بين يديه، وفي وسط القارب نجد مقصورة تأخذ شكل معبد صفي وقد نقش عليها شكلان. ويبدو هذا المعبد في حراستهما وهما يسيطران أجنحتها عليه كدليل على الحماية. وفي المقدمة ، نجد بعض الكهنة الذين يحملون القارب، كما يسير شاب ممسكاً بمبخرة يحرق فيها البخور، ونرى الشعلة تخرج من الإناء الموجود على الطرف ويلقى هذا الشاب فيها بحبوب البخور بمهارة. وهذا القارب الرمزي مكرر كثيراً في النقوش المصرية مع بعض التفسيرات والرموز الإضافية المتنوعة ، التي تختلف باختلاف الظروف. وما نلاحظه حقاً أنه لا يحمل مطلقاً إلا بأيدي أشخاص يرتدون أردية طويلة .

وقد يكون من الممكن إيجاد بعض التشابه بين هذا القارب وبين قوس المصاهرة الخاص بالإسرائيليين، وهذا مالا ينبغي أن يثير دهشتنا إذا ما أقررنا أن المشرع العبري قد نشأ بين المصريين وأن أفكاره قد تبلورت وفقاً لتلك الأفكار السائدة في هذا البلد. ولا ينبغي لنا إيجاد نوع من التماثل التام بين هذه الأشياء التي نقارنها، ولكننا سوف نلاحظ فيما بينهما نوعاً من التشابه الذي يعود لبعض الموروثات السابقة ولشكل من أشكال التقليد اللاإرادي. فنحن إذا ما قارنا قوس المصاهرة بالقارب المقدس للمصريين، فسوف نجد أن الكهنة الذين يرتدون الملابس الطويلة ويحملون القارب ؛ هم اللاويون(\*) الذين يرتدون أردية كتانية ويحملون القوس ، وأن المعبد الصغير هو نفسه القوس وأن الأشكال المجنعة التي يتجه أحدها للآخر وأجنحتها مبسوطة على المعبد الصغير هي أشكال الملائكة . أضف إلى ذلك أن القارب محمول على قضبان مثلما هي الحال

---

(\*) جماعة مهمتها خدمة المعبد عند الإسرائيليين. (المراجع)

بالنسبة القوس المحمول على قضبان من خشب، أما الجزء المحصور الذي يأخذ شكل قارب ، فلم يتم التحدث عنه البتة فى سفر الخروج، وفى الواقع فإن القارب لم يكن له أية علاقة بالديانة الإسرائيلية فى حين أنه كان له ارتباط منطقي بالديانة المصرية التى تتعلق غالبية رموزها بالنيل وبالفيضان.

ويعد الصرح الأول ، نجد الفناء الذى يتقدم المعبد الكبير ، الذى يمكن أن نعتبره بمثابة صالة الأعمدة الخاصة . ويعد هذا الفناء على اليسار المعبد الغربى وعلى اليمين رواق سوف نتناوله بالبحث .

ويتألف هذا الرواق من عشرة أعمدة لها تقريباً نفس مقاييس أعمدة الصفتين السابقتين للصرح الأول ، كما أن تيجان الأعمدة تظهر بالتنوع نفسه إلا أنها منحوتة بأكملها. ويعلو الكورنيش إفريز يمكن أن يطلق عليه اسم الكورنيش الثانى ، الذى يتخذ شكلاً بالغ التميز: وهو يتألف من شريط من هذه الأفاعى التى لها خصيصه تمريض عنقها عندما تقف على صدرها وهى جميعها مصطفة فى هذا الوضع، بعضها بجانب البعض الآخر وهى منحوتة نحتاً بارزاً وتحمل قرصاً فوق رؤوسها. وهذه الزخارف جميلة التشكيل ولكنها هنا تعطى سُمكاً كبيراً لخرجة السطح التى تستند على الأعمدة.

وهناك باب عند طرف الممر ومتاخم للصرح الثانى وقد أصبح مسدوداً اليوم ولا يمكن تحديد الفرض من إقامته . وفوق عضادة هذا الباب ، نرى النقش (اللوحة رقم ١٢ ، الشكل ١) الذى يمثل أسداً فى وضع مماثل تماماً للوضع الذى وجدنا عليه الأسدين المنحوتين من الجرانيت. ومن بين النقوش الهيروغليفية الموجودة أمام هذا الأسد ، نلاحظ الأداة نفسها التى يمسك بها بين سيقانه ، التى تبدو نوعاً من أنواع السكاكين.

وأسفل الرواق ، نجد خمسة أبواب تؤدي إلى غرف صغيرة تشكل ما يشبه الزنانات ، التى قد يكون من الغريب محاولة الكشف عن غرض استخدامها. فلو كانت اللغة الهيروغليفية قد تم فك رموزها آنذاك لكنا عرفنا سريعاً - وبلا شك - استخدام كل جزء من أجزاء الصرح. فمن المرجح إلى حد كبير أن

النقوش كانت متعلقة بالأماكن التي هي فيها. فكل أجزاء هذا الرواق والأعمدة والزينات من الداخل تغطيها لوحات منقوشة ، إثنان منها فقط قمنا بنقلهما اللوحة الأولى موجودة في إحدى الغرف وتمثل قرداً وحياً وهو رمز الآداب<sup>(١)</sup> وهو يكتب فوق مجلد كبير مستخدماً قلماً رفيعاً ومن أمامه عمود من النقوش الهيروغليفية . أما اللوحة الثانية فتتخذ مكانها تحت صفة الأعمدة (اللوحة ١٣، الشكل ٤) وهي تمثل إيزيس وأوزيريس برأس صقر. ومن أمامهما، نجد كاهناً فوق عربة جرارة، قارباً رمزياً مشابه تماماً من حيث الشكل للقارب الذي ذكرناه مسبقاً. ونجد فيه نفس المقصورة الصغيرة ولكن خصائصها مختلفة تماماً. فالشارات الستة أو الأعلام الموضوعة خلف الكاهن تمثل غطاء على رأس نجده كرأس الآلهة والكنهه وغلافاً يمكن أن يكون لمومياء طير أو صقر أو طائر ابيس أو ابن آوى ونجد أخيراً هنا حامل المبخرة المستغرق في إلقاء حبات البخور فيها.

هذا النقش وسابقه على درجة كبيرة من الغرابة، وعلينا أن نشمر ببعض الأسف لعدم تمكننا من العثور على عدد أكبر منها في هذه الزينات أو تحت الرواق . وقد يوجه لنا اللوم لهذا السبب، ولكن لتصور حال رحالة يصل إلى جزيرة فيلة وليس أمامه إلا أيام قليلة للإقامة فيها، فهو يستقل القسم الأعظم من الوقت لإشباع فضوله والاستزادة بالمعرفة عن المكان وعن كل ما يحيط به. وهو وقد أحاطت به كل هذه الأشياء الكثيرة والجديدة يعتبرها جميعاً على القدر نفسه من الأهمية، إلا أنه لا يستطيع أن يكتب كل شيء ويرسم كل شيء . وعليه أخيراً أن يتخذ قراره وهذا ما هو أشبه بالواجب بالنسبة له فهو يرتبط بالأجزاء الأساسية وبالأشياء الكبيرة التي بقيت على حالها بقدر كبير. فهو يكتفي بالدخول في المباني الملحقة وفي الأماكن المظلمة أو المتهمة بصورة شبه كاملة ويتحصنها على عجل ويتركها أسفاً .

---

(١) وثقا لهورابولون.

### المبحث الخامس : حول المعبد الكبير

بصفة عامة يتألف أى معبد مصرى من قسمين رئيسيين . المعبد بالمعنى الدقيق الذى يتسم بالطول أكثر منه بالعرض والموزع داخلياً إلى عدة قاعات والرواق وهو أكثر ارتفاعاً وعرضاً من المعبد تدعمه الأعمدة وتقلق الجدران الجانبية . وهذان الجزءان منفصلان تماماً حتى أنه يمكن إسقاط الجزء الثانى منها دون أن يصاب الأول بأى ضرر . حيث إن لهذا الجزء واجهة كاملة تمثل مقدمة بارزة على الحائط نفسه بخلفية الرواق .

ولكن باستثناء هذا التشابه العام - فإن جميع المعابد المصرية تختلف بعضها عن البعض الآخر ، ليس فحسب من ناحية حجمها ؛ ولكن أيضاً من حيث التوزيع الداخلى وترتيب الأروقة والنسب وعدد الأعمدة والزخارف إلخ . وأحياناً أيضاً - كما سنرى مثلاً على ذلك فى جزيرة فيلة - يحيط دهليز بالمعابد الصغيرة فتقدم لنا مظهراً خارجياً يختلف تماماً عن مظهر المعابد الأخرى .

وللمعبد الكبير لفيلة وهو موضوع هذا الجزء خصيصة بالغة التميز تتعلق بشكل رواقه ولا نجدها إلا مرة واحدة فى طيبة . وهذا الرواق المفلق له جانب مثله مثل غيره من الأروقة مفلق أيضاً من الجهة الأمامية بصرح بحيث تكون واجهة المعبد هى نفسها هذا الصرح . وكما أن الرواق سيصبح محروماً تماماً من الضوء بسبب هذا الوضع ، فقد تركت فتحه كبيرة فى السقف بحيث يشكل هذه الرواق ما يشبه الفناء الذى تحيط به الأعمدة من ثلاثة جوانب ويمكن القول أيضاً إنه رواق بأجنحة ترتكز على جانبيه على كتلة الباب .

وهذا الصرح الذى تقوم مقام الواجهة لرواق المعبد المعمد تقل فى حجمه عن الصرح الأول ، إلا أنه ليس بحالته الجيدة نفسه . فقسمه الأيسر - ويصفه خاصة الكورنيش وصف الأحجار الذى يوجد من أسفله قد أصبح مهدمين . والنقوش الموجودة على الواجهة الأمامية تقترب فى توزيعها والمشاهد المثلة فيها من النقوش الواجهة المماثلة فى الصرح الأول . وجزء من هذه النقوش مختلف

فى الجزء الأيمن السفلى بفعل كتلة من الجرانيت الأحمر التى تبلغ أبعادها خمسة أمتار فى كل الاتجاهات ، وهذه الكتلة مجوفة. وقد لاحظ بعض الأشخاص الذين دخلوها وجود نقوش بداخلها وهم يعتبرونها بمثابة مقصورة أحادية الكتلة. ومن المؤكد أن هذه المقصورة لم تكن أصلاً جزءاً من بناء الصرح وأنها قد أضيفت إليه فى وقت لاحق.

ويضم هذا الرواق الثانى مثله مثل الأول سلالم تؤدي إلى الأسطح، وتوضح لنا الرسومات كيفية توزيعها. ونحن لم نر أى غرف بالداخل، كما أن السلك البسيط للصرح يجعلنا نميل إلى الاعتقاد عضادات إلى بأنه لم يكن يحتوى أى غرفة ونحن نلاحظ أسفل الصرح ، فى مواجهة الصرح والجدران الجانبية تلعب دورا الدعائم المستخدمة للفرض نفسه فى طرازنا المعماري: فالمعضادات الواقعة عند طرفى الصف الثانى من الأعمدة المتوازية مع واجهة المعبد تقوم مقام الدعامتين اللتين نلاحظهما فى رواق المعبد الغربى وفى أورقة المعابد الأخرى بحيث يؤلف هذان الصفان من الأعمدة رواقاً عادى الشكل. إلا أن هذه العضادات المرتفعة على الصرح كانت تهدف إلى الحيلولة دون أن شكل العتب لزوايا حادة معها مما يكون له دائماً تأثير سئ فى الشكل العام .

وجدران المعابد تكون منحدره من الخارج بشكل واضح - كما ذكرنا - إلا أنها من الداخل تكون واجهتها راسية تماماً. بيد أنه أسفل هذا الرواق نجد الواجهة المؤلفة من الصرح منحدره للغاية، وكذا المقدمات البارزة الكبيرة الموجودة فى خلفية الرواق ولكن لا ينبغى لنا أن نفعل أن هذه المقدمة البارزة تستخدم كحائط خارجى للمعبد نفسه.

ولأعمدة الرواق مقاييس أضخم من مقاييس كل الأعمدة الأخرى التى تحدثنا عنها حتى الآن، حيث يبلغ محيطها أريمة أمتار و ٢٠ سنتيمتراً<sup>(١)</sup> وارتفاعها ما يقرب من سبعة أمتار ونصف<sup>(٢)</sup> . أما تيجان الأعمدة، فهى آية فى الجمال ومختلفة بعضها عن بعض، إلا أن قواعدها<sup>(٣)</sup> من باب التناقض الجدير

(١) من ١٢ إلى ١٣ قدما.

(٢) من ٢٢ إلى ٢٣ قدما.

(٣) أقصد الجزء السفلى من العمود وليس القاعدة التى يركز عليها.

بالملاحظة متشابهة تماماً . ويمكن لنا أن نرى فى مختلف نقوش الأعمدة<sup>(١)</sup> التى تظهر جزءاً من هذه القاعدة أن الزخارف تتألف أساساً من خطوط متكسرة . يوجد فيما بينها زهور لوتس والعديد من الرموز الأخرى . وهذه النقوش شائعة فى كل الأعمدة المصرية . أما الزخارف الأخرى التى ترتبط بهذه الخطوط المنكسرة فهى متنوعة بمئات الأساليب الممكنة . وقد يكون من المثير للدهشة معرفة الدوافع وراء تبني هذه الخطوط .

وقد قمنا بنقل العديد من النقوش من أسفل الرواق واثنان منها بالألوان نفسها التى تغطيها . وأحد هذه النقوش جدير بالدراسة إلى درجة كبيرة ؟ وذلك بسبب أنه كامل وبوسعه إعطائنا فكرة صحيحة عن الأسلوب الفريد فى النقش والتلوين . وهذه النقش ممثل فى الرسم بمقاييس  $\frac{1}{12}$  من حجمه الحقيقى . الذى يبلغ ٢ م<sup>(٢)</sup> على ٢ م و  $\frac{2}{3}$  (٣) . إذاً ، فإن كل الحوائط والأعمدة الاعتبار وأخيراً الأسقف وحتى الفتحات الصغيرة والفتحات المعمارية منقوشة وملونة بالأسلوب نفسه .

وقد يكون من الزائد تبرير عادة تلوين نقوش صرح ما على هذا النحو أو توجيهه مأخذ إليها ، وهى عادة تبدو بلا شك هائلة جداً ، إلا أن كل من رأى الآثار المصرية يمكن أن يشهد بأنه عند رؤية النقوش ، حتى للمرة الأولى أحس بالإعجاب بها . ويمكن لنا فى هذا الصدد أن نتذكر ما سبق أن أوردناه فى المبحث الثانى عن التأثير الرائع لهذا الرواق واللوحه التى افترضت فيها أن هذا الصرح جديد تماماً بكل ما به من رسومات بهية تمطينا تصوراً متكاملأً للفاية<sup>(٤)</sup> . واليوم ، لا توجد أى تلفيات تذكر إلا فى عمود واحد فقط ، وحتى نتمكن من رؤية الرواق بالبهاء نفسه الذى هو عليه فى اللوحه التى تمثله ، قد يكون كافياً ، أن نقوم بإزالة الفبار وتسوية الأرض والرديم المحيط به وبصفة خاصة فى القسم الأيمن عند المدخل حيث ترتفع الأرض إلى ما يزيد عن المتر فوق المستوى الحقيقى للتربة .

(٢) ستة أقدام ويوستان .

(٤) انظر اللوحه ١٨ .

(١) انظر اللوحه رقم ١١ ، الشكل (١) .

(٢) ثمانية أقدام وست بوصات .

ويمكن أن نلاحظ أن الألوان عددها أربعة : الأصفر والأخضر والأزرق والأحمر بدرجات مختلفة . أضف إلى ذلك اللون الأبيض، حيث إنه ليس لون الأحجار وإنما قد تمت إضافته بالفرشاة .

وهناك ملاحظة علينا القيام بها وهى معرفة إذا ما كانت نفس هذه الأشياء والرموز الهيروغليفية مطلية دائماً بالألوان نفسها، وهذا ما قد يميننا فى بعض الأحوال على تحديد أفضل لطبيعة هذه الأشياء والرموز. ونحن لدينا الدليل بما يثبت عكس ذلك، فالعنخ أو علامة الحياة التى تمسك بها الآلهة فى يدها مطلية باللون الأخضر فى رواق المعبد الكبير، لكنها فى مكان آخر من المعبد نفسه نراها كلها زرقاء. وتتطبق هذه الملاحظة على ورقة الشجر التى تملو رأس إيزيس التى نراها مكررة كثيراً فى النقوش الهيروغليفية الموجودة فى كل المعابد. إلا أنه لا ينبغى أن نخلص من ذلك إلى انعدام النظام فى توزيع الرسومات، حيث إن عبقرية المصريين لم تكن - كما نمرف - هوائية حيث إنها كانت ترمى إلى إخضاع كل شىء للقواعد وإلى تكديس استخدامات وعادات معينة. علاوة على أن الدراسة التى قمنا بها عن كل أقسام فنون هذا الشعب ، الذى يتميز بعقلية مرتبة واضحة للغاية ، لا تترك مجالاً للاعتقاد بأن الرسومات المقدسة كانت عشوائية بعثة : حيث ينبغى علينا ملاحظة أن الألوان فى الرسومات التى تمثل مشاهد من الحياة المائلية أو الحياة المدنية تتناسب تماماً مع الأشياء التى تصورها. وأخيراً، فإن النقشيين الملونين اللذين نتحدث عنهما تصوران بعض الوقائع التى قد تدعونا للاعتقاد أن وضع الألوان يخضع لبعض القواعد. ومن بين الأشكال الرئيسية ، نجد أن الشخصيات التى لها رأس حيوان هى وحدها الملونة باللون الأزرق. أما الشخصيات الأخرى، فهى حمراء. وهذا اللون الأخير - وإن كان ليس لون المصريين، إلا أنه - ومن بين كل الألوان التى كانوا يستخدمونها - كان أكثرها قريباً منها. والحال كذلك فى النقوش الهيروغليفية باستثناء شكل صغير لرجل برأس صقر ملون باللون الأزرق. أما باقى الأشكال التى تمثل البشر وكل الأجزاء المنفصلة مثل الرؤوس أو الأذرع كانت حمراء دائماً. والثيران أيضاً وكأنها هذا اللون نفسه، وكل الطيور زرقاء وكل الأواني خضراء

وكذا كل أقسام الدوائر والتي تبدو أيضاً أوانى فى شكل كوؤس : أضف إلى ذلك أنه فى كل المعابد وفى كل الرسومات ، لا نرى الخط المتعرج \_ الذى يمثل المياه كما سنرى ذلك لاحقاً إلا ملوناً بالأخضر أو الأزرق. ومن كل هذه الملاحظات المختلفة، نستنتج من وجهة نظرنا أنه إذا كانت الألوان تبدو للوهلة الأولى موزعة بصورة عشوائية فهذا لأننا لم نجمع العدد الكافى من المعلومات فى هذا الشأن وسوف يأتى اليوم الذى نقرر فيه أن هذا الجزء من الفنون المصرية- مثل غيره يخضع لقواعد لا تتزعزع.

وسوف أضيف كذلك فى هذا الصدد بعض الكلمات بشأن هذين النقشين . ونحن نرى فى واحد منهما أوزوريس برأس كبش وتراقفه إيزيس وفى الآخر شكلين لإيزيس ، تظهر فى أحدهما براس لبوة ويقدم الكهنة لهذه الآلهة إناء تخرج منه شعلة حمراء ونرى على طرف الإناء حبتين من حبوب البخور الذى يتم حرقه . وينبئ علينا ملاحظة الريش الذى يغطى الرداء الذى تريديه إيزيس غالباً، كما يتحتم علينا أن نلاحظ ثراء المقاعد والقاعدة التى ترتفع عليها حيث نجد عليها حيواناً أسطورياً، يمثل شكلاً من أشكال الجريفن الذى نجده فى العديد من الأماكن<sup>(١)</sup>.

أما فيما يتعلق بالشريط المرصع بالنجوم والذى يحف بالقسم العلوى من كل منظر ، فإننى أعتقد أن الهدف إما تمثيل القبة السماوية وإما سقف المعبد الذى يمتد أن الاحتفال موضوع اللوحة يتم فيه. وفى الواقع، فإن أسقف المعابد تزينها بصورة شبه دائم نجوم بيضاء موزعة على السقف الأزرق<sup>(٢)</sup>. وأحياناً، تغطى هذه النجوم السقف بأكمله وتشكل بذلك زخرفته الوحيدة وفى بعض الأحيان ، ترتبط بأشكال أخرى وتمثل جزءاً من الرمزية ، كما نرى ذلك فى نقش (الشكل ١ ، اللوحة ١٠). وهذه النقش الذى تم نقله من غيره من النقوش الأخرى التى تزين سقف الرواق فريد للغاية وهذا مرجعه للهيئة الضخمة للثلاثة أشكال التى

---

(١) أنظر وصف إدفو المبحث السادس.

(٢) لما كان الشريط المرصع بالنجوم يحتفظ غالباً بالشكل الذى نراه هنا، فلقد اعتقدنا بأننا لو صادفنا هذا الشكل فى النقوش الهيرغليفية فسوف يبرر فيها عن السماء أو ما هو متعلق بها.



تألفه. ولدينا أسباب تدعونا للأعتقاد بأن هذا النقش مرتبط بالفلك. هذا لأن النقوش الفلكية تحيط بها دائماً أشكال مماثلة وأخيراً لأنها تضم عدداً كبيراً من النجوم. وأخيراً لأن هذا النقش موجود أسفل سقف وهو المكان المخصص بصفة عامة للنقوش المتعلقة بالفلك.

وسوف نتوقف عند اللوحة الصغيرة ( شكل ٤ ، اللوحة ١٠ ) لأنها تفتح المجال لتقارب مماثل للذي قمنا به في الفقرة السابقة. فالمائدة التي يحملها هنا الكهنة ذوو الأردية الطويلة على علاقة كبيرة بالمنضدة التي أمر الله موسى بإعدادها بعد الخروج مباشرة. وهذه المائدة مخصصة لوضع الأحواض والأطباق والأواني والاقداح الخاصة بسكب الخمر وكذا الخبز المقدس. وكان يتمين أن يكون لها طرف توضع إلى جانبه الحلقات التي تمر فيها القضبان المخصصة لحملها. ونحن نلقى كل هذه الخصائص في هذه المائدة، حتى بالنسبة إلى الحلقات. ولكن أكثر ما يثير دهشتنا في هذه المقارنة بين المائدتين هو أن مقاييس الأولى المذكورة في سفر الخروج تتفق مع مقاييس الأخرى أي الظاهرة في اللوحة الموجودة نصب أعيننا.

نحن لن نترك الرواق دون التحدث عن نقش آخر تم نقله بكل ما فيه من أشكال هيروغليفية ذات التنفيذ عالي الجودة. فنحن نرى شاباً ربما يكون حورس واقفاً بين شخصيتين : الأولى برأس صقر وهي لأوزوريس والثانية برأس إيبيس وهي لتحتوت إله العلوم. وتقوم الشخصيتان بصب علامات عنخ وصولجان الواس من فوق رأسه، وهي - كما لاحظنا ذلك من قبل - أهم مميزات الألوهية. وهناك تشابه شديد بين العبارتين الهيروغليفتين اللتين تفصلان الشخصيات الثلاثة، أما الملاحظات التي تشير إليها هاتان العبارتان فسوف نجدما في مكان آخر<sup>(١)</sup>.

والآن ، سوف ننتقل من الرواق إلى المعبد بمعنى الصحيح وإذا كنا نريد أن نكون على الفور فكرة سريعة عن توزيعه ، فما علينا إلا إلقاء نظرة على الرسم

---

(١) انظر شرح اللوحة رقم ١٠ في التعليق المرفق باللوحات.

التخطيطى. وسوف نكتفى فى هذا الصدد بإصدار بعض الملاحظات حول توزيعه، الذى يختلف عما عداه من المعابد الكبيرة وبصفة أساسية بالنسبة للقاعات الثلاثة المتساوية الأتساع تقريبا، التى تشغل كل خلفية هذا المعبد وتبدو بمثابة ثلاث قاعات لقدس الأقداس إلا أن القاعة التى تحتل الوسيط ينبغى النظر إليها - لموقعها - على أنها قدس الأقداس الحقيقى . علاوة على أن ارتفاع سقفها وحجم بابها وزخرفته يميزانها عن القاعتين الأخريين المنخفضتين للغاية واللتين تتميزان بصغر بابيهما وانعدام الكرانيش فيهما. وهى قدس الأقداس الرئيسى نجد مقصورتين أحاديتى الحجر وهما أشبه بالخزانات التى تحدثنا عنها فى الفقرة السابقة : واحدة منهما واقفة وتتخذ موضعها فى الزاوية الموجودة جهة اليمين والأخرى المرحج أنها كانت قائمة فى الزاوية الأخرى ، محطة وسط قدس الأقداس<sup>(١)</sup>. ونرى مقصورة أخرى ولكن أصغر فى القاعة الجانبية إلى اليمين.

وأحدى هاتين المقصورتين ممثلة بمقياس كبير فى اللوحة رقم ١٠ وهى من الجرانيت الأحمر وارتفاعها متران وربع المتر<sup>(٢)</sup>. تحمل آثار الدخان - مثلها مثل كل أرجاء القاعة القائمة فيها، كما تم التقيب فى الأرض وهى مليئة بالردم فى كل الاتجاهات. والظلام دامس فى تلك القاعة ذات الحرارة العالية والرائحة العفنة<sup>(٣)</sup>.

وكان من الطبيعى الافتراض أن هذه المقاصر كانت تضم أشياء ثمينة خاصة بالمعبادات وأنها على الأرجح قد استخدمت كقفص للطائر المقدس. وقد أصبح هذا الافتراض يقينا عندما رأينا على لفائف المومياوات<sup>(٤)</sup> رسماً لهذه النوعية من الأقفاص وبها صقر. إذاً فالمقصورة كانت يستخدم لوضع الطائر المقدس

---

(١) نحن لسنا على يقين ما إذا كان المقصورة المهدمة فى قدس الأقداس أم هى القاعة السابقة له. وإذا ما صدق هذا الافتراض الأخير، فقد يكون قد تم استخراجها من اللقاعة الجانبية اليسرى وهذا معناه أن كل قاعة من القاعات الثلاث كانت تضم مقصورة. وهذا أمر مرجح.

(٢) سبعة أقدام.

(٣) الشخص الذى ينمى إلى مجموعتنا وتولى رسم وقياس هذه المقصورة، عثر فيها على مجموعة من الخفافيش.

(٤) رسمت هذه اللفائف فى رحلة السيد دونون، لوحة رقم ١٢٥.

فى المعبد. وهذا ما يتفق مع رواية استرابون الذى يقول إن نوعاً من أنواع الصقور يسمى "صقر أثيوبيا" كان يحظى بتقديس خاص فى جزيرة فيلة .

ومن المرجح أن هذه المقاصير الأحادية الحجر التى نجدها فى أماكن متفرقة قد خطت بدراسات خاصة. وسوف نكتفى فى هذا الصدد بملاحظة أن زخرفتها من نفس النوعية السائدة فى مختلف أجزاء المعبد، حيث نجد بها نفس الحليات القالبية علاوة على أن المنحنيات واضحة فيها، وأخيراً، فإن الطراز المعماري لهذا المبنى الصغير، أحادى الحجر متجانس تماماً مع معمار المعبد ككل. وعلى القاعدة، نجد شكلين يعقدان سيقان زهرة اللوتس التى تمثل رمزاً شائعاً على القواعد ومقاعد التماثيل غير ذلك من الأماكن.

ولقالبية القاعات الموجودة بداخل المعبد الارتفاع نفسه المفترض لها أى ستة أمتار<sup>(١)</sup>. ولم ترتفع الأرض مطلقاً ولكننا نرى أنها تعرضت لأعمال تنقيب، وهذا ما نستنتجه من استواء سطحها.

ولم نحصل من داخل المعبد إلا على أعداد قليلة من النقوش وهذا بسبب ما اضطررنا إليه -حتى نتمكن من رسمها- من الإمساك بمشعل بإحدى يدينا وبقلم رصاص باليد الأخرى. وأكثر النقوش تميزاً تماثل إلى درجة كبيرة آخر النقوش التى قمنا بوصفها فى الرواق: وهنا أيضاً، نجد عليه شاباً واقفاً بين شخصيتين تضحان تاجاً مقدساً فوق رأسه وهو مشابه للتاج الذى نراه كثيراً فوق رؤوس الكهنة. وتفحصنا لهذه اللوحات المتنوعة، ولرؤوس الحيوانات التى تحملها أجساد بشرية، علاوة على أغطية الرأس الضخمة والفريية يدفعنا إلى الاعتقاد فى بداية الأمر بأننا أمام حفلة تنكرية أو هزلية، يشترك فيها العديد من الكهنة، حيث يتكبرون بأشكال مختلفة وفقاً للشخصيات التى يريدون تمثيلها ولكن من الطبيعى اعتبارها مجرد رموز. فهذه الأغطية الهائلة الشكل والحجم المحمولة بصفة دائمة على دعامة، لا تترك أى مجال للافتراض بأننا تحمل على الرؤوس، وهذه الحجة تبدو لنا مقنعة للغاية حتى أننا لا نتردد فى اعتبار هذه الأغطية بمثابة صفات.

---

(١) ثمانية عشر قدماً ونصف.

وأخيراً، من بين النقوش التي أثارت اهتمامنا ولكن لم نقم بنقلها، أذكر بصفة خاصة تلك التي نراها في إحدى الغرفتين الموجودتين إلى اليمين من القاعة الأولى عند دخولنا المعبد. وقد انهار الحائط الفاصل بين الغرف ترتب على ذلك سقوط الأسقف. ويسمح لنا ضوء النهار الذى يدخل عبر هذه الفتحات بأن نرى على أحد جانبي الحائط قريانا يحتل معظم مساحته أنها عبارة عن ماشية وطيور مختلفة الأنواع وأوان متنوعه الأشكال وخبز وفاكهة وورود. وقد رسمنا بعض من هذه الأواني وجمعناها مع غيرها التى تم نقلها أيضاً من فيلة. وشكل هذه الأواني الجميل والبسيط علاوة على خطوطها الخارجية المتناسقة والرشيقة، إنما هى جديرة بكل ملاحظة.

وفى هذا المكان نفسه، وعلى واجهة الحائط التى تغلق المعبد جهة الشرق، تم نقش خطى الطول والمرض لجزيرة فيله وقد حددهما أحد زملائنا. وقد اخترنا، لوضع هذا النقش الجزء الحالى من النقوش، الذى نجده بين أسفل سقف القاعة والجزء العلوى من الحائط، وهذه المسافة كانت - قبل سقوط السقف - مغطاة فى معظمها بالحجارة المكونة لها<sup>(١)</sup>.

ويقع السلم المؤدى إلى السطح فى مواجهة هاتين الغرفتين الصغيرتين. وهذا السطح ما هو إلا أعلى الأحجار التى تؤلف أسقف مختلف القاعات وهو محاط بما يشبه الحاجز الذى يكونه الكورنيش الذى يرتفع بعض الشيء أعلى السطح. وفى بعض الأحيان لا يرتفع السقف إلى الارتفاع نفسه الموجود عليه فى القاعات الأخرى، حيث ينخفض السطح فى تلك الأماكن. ولكن غالباً ما يكون هناك طابقان من الغرف، واحد فوق الآخر ويحتفظ المعبد بمستواه نفسه. وهذا ما نراه هنا: حيث إن القاعتين المصاحبتين لقدس الأقداس على مستوى أكثر انخفاضاً بكثير من مستواه مما ترتب عيه أن أقيمت من فوقها غرفاً صغيرة مزخرفة بنقوش مثلها مثل باقى أجزاء المعبد، إلا أن هذه النقوش يغطيها حالياً الطين والملاط ولم يتم رسمها مطلقاً. ولما كان المصريون لا يلجئون

---

(١) انظر فيما سبق.

إلى استخدام العقود أو القباب . فقد كان من الضروري أن يستخدموا حجارة ضخمة لبناء أسقفهم . ورغم أن المعبد الكبير لفيلة ليس واحداً من أكبر آثارهم، إلا أن الحجارة المستخدمة في سقف قدس الأقداس يبلغ طولها من خمسة إلى ستة أمتار<sup>(١)</sup> تقريباً، وعرضها زهاء متر ونصف، وسمكها متر واحد . حيث كان يتمين أن تكون هذه الحجارة سمكية للغاية حتى تتمكن من دعم هذا الحمل دون أن تتحطم وهذا ما شاع حدوثه . ويبلغ وزن الحجر الواحد قرابة ٢٤ ألف وستة أو سبعة أطنان مماثلة تكون لازمة لبناء سقف قدس الأقداس . ومن هنا، يمكن لنا أن نقدر عدد الأحجار المستخدمة في المعبد بأسره ونذكر مدى ضخامة مثل هذه الإنشاءات . ولكن إذا كان من المذهل رؤية مثل هذه الكتل الضخمة وهذا العدد الهائل، فمن المثير للدهشة أيضاً - وبدرجة لا تقل عما سبق - أن نرى في بعض الأجزاء الأخرى من هذا المعبد أحجاراً متناهية في الصغر، بل أصغر بكثير مما نجرؤ على استخدامه في مثل هذه الحالات المماثلة . وعليه، فإن عمود الرواق - وهو في حالة تلف شديدة ، يمكننا من معرفة بنائه الداخلي، لا يتألف من مدفات(\*) تشكل مداмик من قطعة أو قطعتين مثلاً هو الحال لدينا - وكما فعل المصريون أنفسهم في غالبية صروحهم - فالمدماك يتألف من العديد من الحجارة بعضها صغير للغاية ومن بينها فجوات كبيرة جداً يملؤها الملاط . زد على ذلك أنه رغم أن هذا المكان ليس الوحيد الذي يمكن فيه ملاحظة مثل هذه الأجزاء المعيبة ، فإننا يمكن أن نفسر ذلك بطبيعة هذه المواد التي كان قد تم استخدامها في صروح أخرى، وبناء عليه كانت قد أصبحت رديماً يتعين عليهم استخدامه رغم ذلك .

ومن بين النقوش التي جمعناها من الواجهتين الخارجيتين للمعبد الكبير، ثلاثة منها تمثل مشاهداً ينظر إليها على أنها توضيحات بشرية . وفي أهم هذه النقوش الثلاثة نجد كاهناً يستخدم حرية واحدة في طعن أربعة رجال، أيديهم وأرجلهم في الأصفاة وهو يقدمهم إلى إله جالس .

(١) ١٥ إلى ١٨ قدماً .

(\*) قطعة اسطوانية في قاعدة العمود . (المرجع) .

وفى هذا المقام ، يمكن لنا أن نقول إن مثل هذه المشاهد لا تمثل تضحية حقيقية ولا ينبغي اعتبارها إلا بمثابة رمز، إما للتذكير بتضحيات بشرية سابقة تمت ممارستها فى الماضى، وإما للإشارة إلى انتقام القوانين وعقاب المذنبين(\*) . ورغم أننا لا نهدف من وراء ذلك إلى إثبات عدم وجود تضحيات بشرية فى مصر فى الماضى ، إلا أننا نرى أننا لا يمكننا استخلاص شيء لصالح هذه الفكرة من المنحوتات التى ذكرناها للتو .

وفى آخر النقوش الأربعة المنقولة من خارج المعبد<sup>(١)</sup>، نرى حريوقراط (حورس الطفل) - وهو إله - بوسمنا التعرف عليه هنا من المذبة والصولجان اللذان يمسكهما بين يديه وأيضاً من وقفته التى لا تتركنا نرى منه إلا ساقاً واحدة . وأمام هذه الإله، ومن فوق مذبح، نرى زهور اللوتس وكاهن ممسك بإناء يصب الماء على هذه الورود . وتحمل القاعدة الواقف عليها هذا الإله نقش كتابى ، حروفه نجدها فى النقش الأوسط الموجود على حجر رشيد (الخط الديموطيقى) .

لقد انتظرنا وصولنا إلى وصف هذه النقش حتى ندفع بالأسباب التى تدعو للاعتقاد بأن الخط المتعرج هو النقش الهيروغليفى الذى يرمز للمياه، كما يفترضه عدد كبير من الأشخاص . وكان بوسمنا أن نلاحظ فى اللوحة رقم ١٤ أن هناك خطوطاً متمرجة مماثلة تخرج من عنق إناء ميزاب أبريق، ولا يمكن لتلك الخطوط إلا أن تمثل الخمر الذى تحتويه هذه الأوانى . ولكن الأمر أكثر وضوحاً هنا، فالكاهن يميل بالأنية ويسيل منها ثلاثة خطوط متمرجة وهى تقع على زهور اللوتس التى لا تثبت إلا فى وسط مياه النيل، وهذا ما لا يجعلنا نشك قطعياً فى أن هذه الخطوط تمثل المياه، إما المياه بالمعنى العام، أو مياه النيل على وجه الخصوص . على حد علمى، لا أعرف موطناً آخر، تم فيه بمثل هذا الوضوح تقديم الدليل على معنى هذا النقش الهيروغليفى .

---

(\*) تمثل مثل هذه المناظر الملك ممسكاً بعدد متفاوت من الأسرى من اعداء البلاد وبهم بضرب رؤوسهم بمقممته أو سيفه، وذلك فى حضرة الإله، ويرمز هذا بصفة عامة إلى قوة الملك والنصر على الأعداء بتأييد الآلهة . (المراجع) .

### المبحث السادس حول المعبد الفرعى

عندما نتاح لنا فرصة القيام برحلة جديدة إلى اليونان أو إلى إيطاليا ونتعرف من خلالها على أثر قديم لم يزل حتى هذا الوقت فى طى النسيان، فإن فنانينا يسجلون منذ اللحظة الأولى أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين كل الآثار المعروفة، بل يضمونه فى مرتبة فيما بينها.

وأمانا الكثير للقيام به حتى يصبح المعمار المصرى معروفاً جيداً بالنسبة لنا، ونتمكن من القيام بمقارنة مماثلة . فآثار هذه الأمة المعروفة حتى الآن تتسم فى مجملها بكثير من التناسق، وهذا ما قد يدعونا للاعتقاد بأن المعمار المصرى القديم متناسق أيضاً وأنه يتبع نمطاً واحداً، بل يسير على وتيرة واحدة. إلا أنه ينبغى علينا فى هذا الصدد أن نقيم نوعاً من الفصل الدقيق بين المنشآت والمعمار نفسه. فالمبانى يمكن تشيدها وفقاً لعدد كبير من الرسوم التخطيطية، وينتج عن ذلك تشابه عظيم فيما بينها، إلا أن معمارها يمكن أن يتسم بالعديد من التنوع فى أجزائه . ومن الجدير بالذكر، أن لدى جميع الشعوب، تشابه المنشآت المخصصة للعبادة فى كثير من الأوجه، ومن هذا المنظور ، فإن المعابد المصرية لا تتسم بتخصصه مميزة ، بل ربما تظهر فيما بينها اختلافات حقيقية أكثر من التى يمكن ملاحظتها فى المعابد اليونانية. ولكن ، يكفى أن نقوم بمزل بعض من أجزاء المعمار المصرى مثل الأعمدة حتى تصيبنا الدهشة من تنوع مقاييسها وأشكالها. وبالطبع ، فإن التشابه القائم بين أبدع الأعمدة المصرية وأبسطها أقل مما هو قائم بين عمود كورنثى وعمود من الطراز الدورى اليونانى. أما فيما يتعلق بتنوع أشكال المعابد المصرية، فإننا نذكر أن المعبد الذى سنتحدث عنه، يبدو أنه إذا ما صح القول قد وضع عمداً بجوار المعبد الكبير حتى يصبح ملحوظاً بدرجة أكبر. ولن نتوقف هنا لمقارنة هذين المبنىين وإبراز أوجه الاختلاف فيما بينهما، حيث يمكن رؤيتهما بوضوح فى اللوحات ولكننا سندرس المعبد الفرعى بصورة مستقلة .

وإذا ما أمعنا النظر فى اللوحة رقم ٢٠ ، وأولينا اهتمامنا لارتفاعات الواجهات الأربع، فسوف ندهش - قبل تمكنا من رؤية التفاصيل - من ميل

الحوائط الذى يعطى لكل واجهة شكل شبه منحرف. للوهلة لأولى، يبدو لنا هذا الشكل المميز لكل الصروح المصرية غريباً، بل يفاجئ كل الرحالة الأوروبيين من مظهره، إلا أنه لا يلبث إما أن يعطى بالإعجاب لشكله المتين، وإما يجعل العين تألفه وترغبه لما فيه من حدة . ونحن نحب أن نشير لهذا الشكل بكل تفاصيله على سبيل المثال : فى زخارف طبلديات الأعمدة . وكل الزخرفات الأخرى متناسقة فى شكلها العام، كما يسود التماسق فى أكمل صورة بين الكل والجزء .

ويعمد هذه الرؤية للبنيان من الخارج، فإن أكثر يستحوذ على الذهن عند اقترابنا من المبنى هو هذا العدد الكبير للنقوش التى تقطيه ، فهى لا تزين كل الأجزاء المشار إليها فى الرسم فحسب، ولكن أيضاً الجدار الموجود فى خلفية الرواق علاوة على الأعمدة فى كل ارتفاعاتها . وقد تحدثنا مراراً وتكراراً عن هذه الزخارف الثرية، وسوف نعود دائماً إلى التحدث عنها حيث إنها من أبرز ما يميز الآثار المصرية وأيضاً لأن هذه اللوحات التى رسمناها لا يمكن أن تمثل إلا بصورة ناقصة هذه النقوش الثرية وأيضاً الأثر الذى تحدثه.

ولكن ، حتى نتحدث هنا للمرة الأخيرة عن هذه النقوش ، فسوف نشير فى كلمات موجزة إلى هذه القاعدة العامة التى تتمثل فى عدم وجود جزء صغير واحد من المباني المصرية التى تم الانتهاء منها، إلا وكان مغطى بالنقوش باستثناء قمة الكورنيش التى تكون ملساء وهى هذا الشريط المسطح الذى يشكل الحلية القلبية العليا ويبلغ ارتفاعها أحياناً فى بعض المباني سبعة ديسيمترات<sup>(١)</sup>. ولكن رغم مساحتها وأيا كان موضعها داخلياً أو خارجياً ، فى معبد أو فى مقبرة ، فهى لا تحمل أبداً أى كتابة هيروغليفية . أو أى رمز ونحن نراها دائماً بلا أية زخارف<sup>(٢)</sup>.

ويصعب علينا إيجاد دافع لهذه القاعدة العامة التى تمت ملاحظتها إلا بعض الأسباب متعلقة بالذوق أو التقاليد فمن المؤكد أنها تتفق مع مثل هذه

(١) قرابة قدمين ويوصتين.

(٢) هذه الملاحظة باللغة الأهمية فيما يتعلق بقدّم الآثار . (انظر الدراسة الخاصة بالنقوش).



الدواقر أو تلك ونرى بأنفسنا ما يشبه ذلك فى طرازنا المعمارى بحق، وفقاً لظروف وقواعد مماثلة.

وقد أشرنا فى المبحث السابق أن المعبد بمعنى الصريح عند المصريين، مميز تماماً عن ملحقاته ، فالمعبد يسبقه رواق معمد ويحيط به من ثلاثة جوانب دهليز يتألف من أعمده ولذا فهو يتميز دائماً، من النظرة الأولى ، أيا كانت الزاوية التى ينظر منها إليه . وهذا الفصل واضح للغاية فى المبنى الذى نتحدث عنه. فنحن، إذا ما ألقينا ببصرنا على سبيل المثال على ارتفاع الرواق (اللوحة رقم ٢٠، الشكل ٢)، فسوف نرى فى النهاية مقدمة بارزة للبناء تأخذ شكلاً منحدرًا ويعملوها كورنيش ، زواياه تزينها لفافات : وهذه هى واجهة المعبد بحق.

ويبدو لى هذا التمييز مستمد جذوره منذ نشأة هذا الفن وموضحاً لتطوره. فالمعابد لم تكن أولاً إلا مباني مستطيلة تتألف من أربعة جدران تدعم سقفاً . تلا ذلك أن ظهرت الحاجة إلى الظل فى القيظ الشديد، فتتمت إضافة الأروقة والدهاليز إلى المباني المنشأة بالفعل. ومنذ ذلك الحين، استمر المصريون وهم شديدو الاحترام للتقاليد والأشكال المقدسة فى الحفاظ على هذا التمييز بين المعبد وملحقاته، رغم بنائهم عندئذ لكل الأجزاء فى آن واحد.

ويمثل المعبد الغربى مبنى صغيراً، ويبلغ إجمالى طوله ٢٥ متراً تقريباً<sup>(١)</sup>. أما الأعمدة فلا يبلغ ارتفاعها أكثر من خمسة أمتار و ٦٠ سنتيمتراً<sup>(٢)</sup>. حتى العتب . أما تيجان الأعمدة، فهى مختلفة فى أشكالها وفى زخرفتها وموزعة بقليل من التناظر مما يدعوننا إلى الاعتقاد بأن المهندس المعمارى لم يكن له مطلق الحرية فى القيام بما يخالف ذلك وأن زخرفة كل تاج كانت محكومة بموقعه. فهى فى غالبيتها لا تختلف إلا بفروق طفيفة عن تلك التى أشرنا إليها سابقاً. إلا أن تيجان الأعمدة التى نراها فى الأشكال ٢، ٨ ، فى اللوحة ٢١ لا تشبه أى من

(١) ثلاث عشرة قامة.

(٢) ١٧ قدماً.

هذه ، سواء من ناحية الشكل أو الزينة . فزخرفتها تأخذ شكل خزم الخيزران أو زهور اللوتس ، أما شكلها فمن الصعب معرفة أصله ، بل من الأصعب أن لا نجد فيها شيئاً من الغرابية واختلافات كبيرة عن تلك الموجودة في تيجان الأعمدة الأخرى .

وعلى كل واجهات الطبلبات التي تعلو الأعمدة نجد نحتاً لرأس حتحور ، بارزا للغاية ومن فوقها واجهة مقصورة مصرية صغيرة . وفي فجوة صغيرة مربعة تمثل باب المقصورة نجد الحية المقدسة ، وهي تحمل قرصاً فوق رأسها .

وهناك أسفل الدهليز و على جانبي المقدمة البارزة للبناء ، باب يؤدي إلى الرواق . ومن المرجح إلى درجة كبيرة - وبناء على أوجه التشابه المختلفة - أن هذا الدهليز كان مفلقاً بجدران بين الأعمدة مثل تلك التي لم نرها كاملة بين أعمدة الرواق . وقد عثرنا أيضاً على بعض الإشارات الدالة على وجود مثل هذه الجدران ، ولكن من الجانب الغربي فقط ، بيد أنه لما كان للمعبد بابان جانبيان تحت الدهليز الشرقي ، فمن المرجح أيضاً أن هذا الرواق كان مفلقاً أيضاً بين الأعمدة .

ومما لا شك فيه ، أننا لن نقفل رسم الواجهة الخلفية للمعبد ، حيث نرى أن الأعمدة عددها فردي مما ترتب عليه وجود عمود في وسط الواجهة . ويبدو أن هذا الترتيب لا يتفق مع أي قاعدة تذكر ، ولكن إذا ما فكرنا في أنه لا يوجد إطلاقاً أدنى مدخل على هذه الواجهة ، فسوف يختفى بالتالي هذا الإخلال بالقواعد . يتولد تناسب بديع في المسافات بسبب هذا العدد الفردي من الأعمدة . ولا يوجد أي جزء يفسر من هذا الترتيب .

ويدفعنا الرواق نفسه إلى الإيمان في التفكير في عنصر آخر . حيث يمكننا أن نلاحظ في بقية هذا الجزء ندرة استخدام المصريين للأعمدة من أجل دعم زوايا خراجات السقف . فلقد أدركوا منذ عهد طويل تأثيرها السيئ على هذه الزوايا وكيف يكون من الأنسب دعمها بأعمدة مربعة الشكل أو دعائم . وقد

ترتب على ذلك محاولات لاستخدام الركائز، إلا أنها باءت فى معظمها بالفشل. وربما وجد المعمارىون فى الطراز المصرى، وبصفة خاصة فى شكل هذا الرواق الصنفير، أسلوب القضاء على هذه الصعوبة. لقد تم إنجاز هذا المبنى بكثير من العناية. حيث إن وصلات الأحجار بالغة الإتقان. ومع اقترابنا منها نتبين أنها متليئة بملاط يميل لونه إلى الحمرة وهو دقيق للغاية وإن كان قليل الصلادة.

أما الحجر الرملى المشيد به المعبد، فحبيباته متساوية ولونها أصفر بعض الشيء. إلا أنه إذا نظرنا إليه فى الشمس و على مسافة بعيدة لبدا لنا أبيض اللون وظهر لنا الأثر جديداً للغاية. وفى الواقع أنه لم يزل كذلك رغم مرور الزمن. حيث إنه باستثناء شرخ كبير للغاية فى سقف الرواق، فنحن لا نرى فى أى مكان آخر حجراً واحداً أصابه أى ضرر ولا زاوية مكسورة أو نقش خشن أو تالف.

أما تنفيذ النقش نفسه، فقد تم فى نقاء هائل ورقة بالغة. وتبلغ النقوش فى أقصى بروز لها ثلاثة سنتيمترات<sup>(١)</sup>. ولكن لما كانت الأشكال لا تبلغ مقاييسها أكثر من متر واحد، فإن هذا البروز يكون كافياً للتعبير عن مختلف حركات الجسم. ونحن لم نلاحظ فى أى مكان خارجى أنه قد تم تلوين النقوش وربما هى كانت ملونة بداخل المعبد ولكنها مغطاه بالسواد والدخان مما يتمذر معه تيين أى لون من ألوانها. ويبدو أن البرابرة قد سكوه لفترة طويلة.

وأما المعبد الغربى فقد حصلنا منه - من بين منشآت جزيرة فيلة - على أكبر عدد من النقوش. فمن الرواق وحده قمنا بنقل عشرة مشاهد كاملة فقد كانت هناك ظروف متعددة تدعونا للبقاء على مقربة من المعبد وبصفة خاصة أثناء النهار، منها على سبيل المثال: الحالة الجيدة لهذه النقوش، صغر حجمها، ارتفاعها البسيط عن سطح الأرض وربما أكثر من ذلك كله موقعها أسفل الرواق الذى كان يحمينا من لهيب الشمس دون حرماننا من ضوء النهار.

---

(١) بوصة واحدة تقريباً.

وحتى نشرح بشيء من النظام في ملاحظة هذه النقوش ، سنقوم أولاً بدراسة موقع الأشكال على جدران المعبد وبالنسبة للمعبد . وأول ما نلاحظه هو أن الآلهة موضوعة بطريقة ما حتى أننا إذا ما تخيلنا أنها تتقدم أفقياً على سطح الجدار لبلغت المدخل الرئيسي للمعبد .

وفي اللوحتين ٢٢ و ٢٣ ، نرى الكهنة واقفين والآلهة جالسة ولكن فوق قاعدة يجعل ارتفاعها كل الرؤوس على مستوى واحد . وعندما نرى العديد من الآلهة في مشهد واحد كما هو الحال على سبيل المثال في الشكل الثاني من اللوحة رقم ٢٢ فيمكن لنا أن نفترض أن الفنان قد أراد تمثيلها إلهاً خلف الآخر ، وأن هذه الأشكال التي ينبغي تصورها مرتبة من الأمام ، ولم يتم تصويرها بالشكل الذي تظهر به ، لا لشئ إلا لأن المصريين لم يستخدمون المنظور في نقوشهم قط . ويظهر هذا الافتراض الثاني أنه أكثر طبعية من الأول حيث إنه لا يتم تصوير مجموعة من الأشخاص وهم جالسون في صف واحد كما لو كانوا في طواف ديني . هذا علاوة على أنه لو تم تصوير الآلهة في صف فهذا معناه منحهم نوعاً من الترتيب هو ما لا يبدو واقعياً ، فالآلهة التي تحتل مقدمة الصف في لوحة ما ، تشغل مكاناً مختلفاً في لوحة مجاورة . وإن كان ما يرجح غالباً هذه الفكرة هو تصوير المشاهد العائلية التي نجدها في المقابر حيث يظهر لنا أنه كانت هناك رغبة واضحة في تصوير شخصين جالسين جنباً إلى جنب على مقعد واحد بينما يظهران أحدهما خلف الآخر .

ولنتقل الآن إلى ترتيب النقوش الهيروغليفية فهي مرتبة في غالبيتها في خطوط رأسية والبعض منها في شرائط أفقية . وغالباً ما تكون النقوش الهيروغليفية الموجودة في العمود نفسه أو الشريط نفسه تتجه في ناحية واحدة وهذا ما تعرفنا عليه عند دراستنا أولاً لأشكال البشر والحيوانات .

والنقوش الهيروغليفية المجاورة لهيئة من هيئات اللوحة تأخذ نفسه اتجاه هذه الهيئة ، ومن هنا يمكن لنا أن نخلص إلى أن هذه النقوش تمثل جزءاً مرتبطاً بهذا الشكل أكثر منه بالأشكال الأخرى وأنها ربما تعبر عما تقوله هذه الشخصية أو عن الظروف المتعلقة بالفعل الذي يتم القيام به . ومن هنا يمكن لنا

أن نتبين بشكل فوري بمن تتعلق النقوش الهيروغليفية الموجودة في لوحة ما . وعموماً ، فإن كل الأعمدة الموجودة من فوق الآلهة مرتبطة بها والقريبة من رأس الكاهن متعلقة به وكذا الفاصلة بينه وبين الآلهة أو حتى العمود الصغير الموجود من خلفه . أما فيما يتعلق بالعمودين الكبيرين اللذين يحفان جانبي باللوحة ، فإننا نرى أن الأشكال تتجه دائماً إلى الداخل وتشير إلى شيء عام ومن المرجح أنها مرتبطة بالمشهد ككل .

وأمام رأس الكاهن ، نرى في كل اللوحات تقريباً عبارتين هيروغليفتين تتخذان وضعهما فيما يشبه الإطار(\*) وهما وفقاً لملاحظاتنا بشأن معنى الرموز تتبمان بلا شك هذا الشكل . وتشغل إشباه الميداليات هذه والنقوش الكتابية الموجودة في أطر أماكن أخرى غير هذه حيث لا توجد عبارات هيروغليفية ممتدة بعض الشيء لا تتضمن بعضاً منها ، إلا أنه في النقوش التي نتحدث عنها هنا ، نجد دائماً في صورة أزواج ويملو كلا منها إناء مسطح للغاية يحمل قرصاً وحيات . وقد لاحظنا عامة أن النقشيين الكتابيين متماثلة تماماً في كل اللوحات الموجودة بالمعبد نفسه وبذلك كان هناك عدد صغير مكرره في المعبد نفسه أكثر منه في أى معبد آخر .

ويطلق علماء الآثار على هذه النقوش التي يحيط بها إطار اسم الجمران . وسوف اضطر هنا إلى الخروج بعض الشيء عن موضوع حديثي ، إلا أنني سوف أوجز هذا الاستطراد بقدر ما أمكنني ذلك .

نجد في كل متاجر الماديات وأيضاً في مصر عدداً هائلاً من الجمارين المختلفة في مادتها وفي أحجامها . وتمثل الحشرة الجزء العلوى . أما الجزء الأسفل ، فهو مسطح ويحمل غالباً حروفاً هيروغليفية منقوشة نقشاً غائراً وغالبية هذه الجمارين مثقوبة طولياً بثقب يبدو أنه كان مخصصاً لتمرير خيط حتى يمكن تعليقها منه ، وهذا ما يشير إلى استخدامها كتميمة دينية<sup>(١)</sup> . ويمتد أنه قد تم ملاحظة نوع من التشابه بين السطح السفلى للتماثيل والنقوش

(\*) يشير الكاتب هنا إلى الخراطيش التي تحوى أسماء الملوك . (المراجع) .

(١) جمارين التماثيل مرسومة في لوحات هذا العمل ، الدولة القديمة ، المجلد الخامس .

الكتابية المحاطة بإطار، وقد أطلق على هذه الأخيرة اسم جعران إلا أننا إذا دققنا في هذا الأمر، فسوف نرى سريعاً أن هذا التماثل غير قائم وأن التسمية التي تم إطلاقها هنا من شأنها أن تجعلنا نقع في الخطأ. ففى الواقع لو قمنا بفحص الإطار أولاً فسوف نرى فيه فرعاً مرناً (كما لو كان فرع شجر أو أفضل قضيب معدنى) يرجح أنه قد تم ثنيه حتى يصل إلى الطرفين ويثبت بعد ذلك بأى رباط.

وإذا ما انتقلنا من فحوصنا للإطار إلى النقوش وقارناها بتلك الموجودة تحت شكل تميمة الجعران، فلن نجد أى تشابه عام فى توزيعها. ومن بين هذه الأطر، نرى البعض منها مزدوجاً أى يتألف من خطين إحدهما فوق الآخر بحيث يشكل اتصال الطرفين شبه قاعدة، ونرى أن أكثر الأوضاع المعتادة لمثل هذا الإطار هى الوضع الرأسى. إلا أنه ، عندما نلقاه فى شرائط أفقيه لنقوش هيروغليفية نراه فى وضع أفقى حيث نرى القسم العلوى يتخذ الاتجاه الذى تتوجه إليه الرموز الأخرى.

ومن المثير للدهشة ملاحظة الطريقة التى تجتمع فيها هذه الرموز فى نقش رأس وآخر أفقى يحتوى كلاهما على نفس الأشكال . وسوف نتوقف عند هذا الأمر فى موضع آخر. وسوف أعود بحديثى هنا إلى المعبد الصغير الغربى وإلى الملاحظات التى ذكرتها بشأن نقوشه .

وعندما انهمكت فى نقل النقش الموجود أسفل الرواق الغربى والموجود فى اللوحة رقم ٢٢، الشكل ٢، لاحظت أن العبارة الصغيرة المنقوشة خلف الكاهن هى نفسها التى تحتل موقعاً مشابهاً فى نفسه الشكل ٦، الذى كنت قد انتهيت لتوى من نقله فى الرواق نفسه وسرعان ما قمت بالتوجه لرؤية نقشى ثالث ثم رابعة لمعرفة ما إذا أوشكت أن أعثر على عبارة مماثلة ، ولما وجدنا فى كل النقوش الموجودة على واجهة المعبد نفسها، فقد توجهت بملاحظتى هذه لمن حولى: وقد تحقق عشرة أشخاص عندى من نفس هذه الملاحظة فى المعبد الغربى. وهرعنا سريعاً إلى المعبد الكبير وإلى صروح كبرى أخرى فى الجزيرة، فوجدنا الشيء نفسه. ولم نلاحظ إلا تغيرات طفيفة فى أشكال الرموز وبصفة

خاصة في تلك الأشكال الأشبه بالمعد والموضوعة فوق كتف الكاهن. وقد أوضحنا مثل هذه التغييرات في رسوم اللوحات التي تحمل أرقام ١٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ . ومنذ ذلك الحين ، تأكدت لنا في كل الآثار المصرية الملاحظات نفسها التي تحققنا منها في جزيرة فيلة بشأن هذه العبارة التي تحتل مكانها دائماً من خلف الكاهن والتي يرجح أنها كانت إحدى صفاته ويمكن أن نطلق عليها اسم العبارة أو النقش الكهنوتي<sup>(١)</sup>.

وتدعم هذه الملاحظات تلك التي ذكرناها سابقاً حول العلاقة التسمية القائمة بين النقوش الهيروغليفية والاتجاه الذي تأخذه مختلف الشخصيات، حيث إن بعضاً من هذه النقوش - التي هي في آن واحد، صفات لشخصية ما ونقوش هيروغليفية موضوعة عادة في عمود له اتجاه الشخصية نفسه.

ورغم أن مثل هذه المقارنات لا تفسر النقوش الكتابية الهيروغليفية ، إلا أنها ذات أهمية ما ، من حيث إنها تستخدم في الربط بين النقوش الهيروغليفية واللوحات التي تحتوى عليها، حيث إننا لا نستطيع أن نشكك في أن كتابة لوحة ما مرتبطة بالعمل الذي تمثله هذه اللوحة عندما تكون الكتابة تمثيلاً لفرض هذا العمل. ومن هناك نستخلص أنه أحياناً كانت هناك أشياء لا تعبر عنها الكتابات الهيروغليفية إلا بصورتها فحسب.

---

(١) في الوقت نفسه، لاحظ السيد جومار الذي كان يرسم النقش الموجود في اللوحة رقم ٢٢، الشكل ١ الذي يتمثل حورس محمولا على أسد وكاهن يقدم له جزئى غطاء رأس مقدس - أن هذين الجزئين موجودان في بداية العبارة الموضوعة أمام الكاهن وأنها موجودتان أيضاً ولكن مجتمعتان في نهاية نفس هذه العبارة. وهذه الملاحظة التي مآلبت أن عرّفها الجميع كانت مصدراً للمديد من الملاحظات الأخرى.

في اللوحة ٢٢، الشكل ٢، نجد الزهرة الموجودة علي ساق من فوق رأس إيزيس ظاهرة في النقوش الهيروغليفية للعبارة الرأسية المجاورة.

وفي اللوحة نفسها، في الشكل ٤، يحمل الكاهن في يديه رأسين لايزيس، الرأس الأولي يملوها مقصورة صغيرة الثانية فأداة أشبه بسلاسل القدماء. وهذان الرأسان بكل صفاتها موجودات في بداية العبارة التي تسبق الكاهن، ونرى فيها أيضاً شكلين للرأس التي تحمل مقصورة صغيرة. كما نلاحظ أيضاً من جديد رأس إيزيس ولكن مجردة من صفاتها في العمود الذي يعب باللوحة الموجودة جهة اليسار وفي الشكل ١ من اللوحة ٢٧، نجد في العبارة الموجودة بأعلى المذبح إناء يمسكه الكاهن بين يديه ومنه تسيل المياه؛ وأخيراً قد أجرينا مقارنة من النوع نفسه في اللوحة رقم ١٠، الشكل ٢.

وغالبية اللوحات المنحوتة على جدران المعبد الفرى مرتبطة بإيزيس وبصفة خاصة حورس؛ وحقيقة أن هذه اللوحة هى تصوير من بعض النواحي لنشأة هذا الإله الشاب الممثل فيها. ونحن نراه فى العديد من اللوحات وهو يرضع من والدته أو على ركبتيه. أما والده أوزوريس ذو رأس الصقر فهو على مقربة منهما وفى إحدى اللوحات وتحديداً فى الشكل (٥) من اللوحة ٢٢ نجد إيزيس وحورس ممثلين فيما يشبه قدس أقداس يفتح بابه كاهن، فى الوقت الذى يقوم فيه كاهن آخر بتقديم صورة حورس ثلاثة أشخاص فى وضع جاثى ويضمون أيديهم على صدورهم. وعلى مقربة من كل شخصية من الشخصيات الثلاثة ، نجد هذا الحيوان الخرافى نفسه الذى تحدثنا عنه بعاليه عند شرحنا للوحة رقم ١٦، وأهم ما يميز حورس غالباً هو وضع إحدى يديه حيث يتقدم السبابة صوب فمه وكذا إحدى خصلات شعره التى تحيط بأذنه فيما يشبه القرن.

وفى اللوحة رقم ٢٢، الشكل ٢، نجد حورس فى عمر أكبر وإن كان لا يزال يرضع من ثدى أمه وهو يمسك فى يده بإحدى الأدوات التى تأخذ شكل الأبنوب ، التى نراها كثيراً بين الحروف الهيروغليفية. ويقدم الكاهن للآلهة أكايل من زهور اللوتس. ويمسك أحد الآلهة بيده ساق مخرز (جريدة نخيل)، يبدو أنه يقوم بالكتابة عليها مستخدماً قلماً يمسكه باليد الأخرى.

ونحن نرى ساقاً مماثلة فى الشكل ١ من اللوحة ٢٢ وهى موجودة بين يدي تحوت الذى يسير من خلفه كاهن يحمل مجلداً. ومن أمامهما ، نرى حورس وإيزيس. ونلاحظ الساق نفسها فى الشكل ٤ من اللوحة ١٢ والشكل ٥ من اللوحة ٤٥ وفى الشكل ١ من اللوحة ٥٧.

وفى المنظرين الممثلين فى الشكل ٢ ، ٣ من اللوحة ٢٣ ، نرى امرأة تزين رأسها بزهور اللوتس وتمزف على القيثارة أمام إيزيس وحورس. وفى أحد المشاهد، نجد حورس شاباً واقفاً إلى جوار أمه، أما فى المشهد الثانى فهو فى نفس الصف الذى تقف فيه. أما القيثارات الموجودة رغم أنها تتميز بأشكالها وبعدد أوتارها، فهى لا تستطيع إلا أن تعطى فكرة ضعيفة عن جمال تلك الآلات الموسيقية التى تم العثور عليها فى طيبة .



وأخيراً ، يدور موضوع نقشين موجودين أسفل رواق المبد الفري عن الأضحيات البشرية ويمكن أن نطبق عليهما ما سبق وذكرناه عن مشاهد مماثلة . وبخلاف النقوش العشرة المنقولة من أسفل الرواق ، تم الحصول على عدد آخر من النقوش من جدران المبد . وهناك نقش واحد موجود بالشكل ٢ من اللوحة ١٢ ، تم نقلها من داخل المبد . يمثل جزءاً لا يتجزأ من الجزء السفلى للجدار . ونرى فيه سيدتين جاثيتين(\*) و فوق رأسيهما زهور اللوتس وتقدمان الأواني والزهور واللوتس والفاكهة على صينية .

ويدلنا حجم بطن هاتين السيدتين وكذا تدلى ثدييهما على أنهما قد تكونان منتميتين إلى طبقة أو أمة بمينها حيث يحدثنا جوفينال عن نساء مروى وما يعرف عنهم من طول الثدى . وعلى أية حال ، فإن أشكال النساء المماثلة كافة تتخذ الوضع نفسه بصورة شبه دائمة ولها الصفات ذاتها . إلا أننا نرى بعض الأشكال واقفة ومنهمكة إما فى تقديم الزهور أو فى ربط سيقانها .

ونحن نرى النقش الظاهر فى الشكل ٤ من اللوحة ٢٣ على بعض الأعمدة حيث يشكل حلقة لا تحتل إلا  $\frac{1}{8}$  من ارتفاع جذع العمود . ويمكن لنا أن نتبين هنا مهارة المصريين فى ترتيب الرموز الدينية وفى استخدامها فى زخارف المعابد . أما الجمران الذى يمثل هنا جزءاً من هذه الرموز فهو أكثر الحشرات تمثيلاً فى النقوش المصرية .

وقد نقشت أعمدة الهيروغليفيات نقشاً غائراً ، كما نلاحظ ذلك من هذا الجزء ومن المناسب جداً استخدام هذا النوع من النقش فى الأعمدة ، حيث إنه لا يخل من نقاء شكلها ، وهذا ما كان يحدث لو كانت النقوش منفذة ببروز حيث كان سيترتب على ذلك تشويه استدارة جذع العمود وكان العمود سيبدو متموجاً وغير منتظم تبعاً لرؤيته من مختلف الجوانب .

وفى الشكل ٥ من اللوحة نفسها ، هناك إفريز يتألف من حروف هيروغليفيه . ونلاحظ فيها هذين النقشين الكتابيين نفسيهما المحاطان بأطراف والذين نجد هـما فى أزواج فى غالبية المشاهد . وتشكل نفس هذه النقوش الكتابية زخرفة

---

(\*) يشير هذا النقش لجنس رمز النيل المقدس (المراجع) .

الكورنيش الذى يتوج هذا الأفريز . وهى مرتبة على التبادل ويفصل فيما بينها حزوز ممتلئة وكل واحد منها محمول على قاعدة فى شكل آنية. وقد كانت هذه النقوش الكتابية المكررة لمرات عدة فى اللوحات فى النقوش الهيروغليفية والزخارف بمثابة شعار المعبد، ومن المرجح أنها كانت تحتوى على الفرض من بنائه واسم الإله الذى كان يتم عبادته فيه. أضف إلى ذلك وتوخياً للدقة فى هذا المرض أنها لم تكن موضعاً للتكرار بلا أى تغيير وأن بعضاً منها كان يحتوى على إشارة أو أكثر تم تغييرها.

ونجد هذه التغيرات فى اللوحتين رقم ٢٠ ، ٢٣ ... إلخ. نتحدث الآن عن الكورنيش الخاص بالمعبد بمعناه الدقيق وهو موجود أسفل الرواق . وتجدر الإشارة إلى أنه أبسط الكرائيش المصرية على الإطلاق، إلا أنه يبرز عموماً الأسلوب المتبع فى تزيينها وتتألف هذه الزخارف من رموز مكررة على بعد مسافات متساوية ، وإذا ما وجدت بعض الاختلافات من رمز إلى آخر فهى لا تكون أبداً إلا فى الأحرف الهيروغليفية، وهذا ما لا يمكن ملاحظة للوهلة الأولى ولا يفسد إطلاقاً تناسق الزخرفة.

إلا أن أهم ما يميز هذا الكورنيش هو أن زخرفة واجهة الخلفية تختلف عن تلك الموجودة على الثلاثة جهات الأخرى. فى وسط كورنيش هذه الواجهة، نرى رأس أسد وقد أخذ كل الجزء الأمامى لجسده وضع أبى الهول<sup>(١)</sup>. وفيما بين قوائم الأماميين ، نرى قناة على ارتفاع سطح المعبد وهى مخصصة لتفريغ المياه التى كان صبها على هذا السطح. و على جانبي هذا الأسد، نجد ثلاث لوحات مماثلة يفصل فيما بينها حزوز ممتلئة . وهذا الكورنيش هو الوحيد الذى رأيناه مزخرفاً بهذا الأسلوب.

ونرى فى الشكل ٨ من اللوحة ٢٠ منظرًا تزخرف الكورنيش يظهر فيه أيضاً حورس كشخصية رئيسية فيه . ونجد نقش واحد من النقوش ذات الإطار مكرراً

---

(١) نسينا رسم شكل الأسد هذا فى اللوحة.

كثيراً فى هذا المعبد . وعلى مقربة من شكلى السيدتين . نرى عبارة صغيرة تتألف من ثمانية حروف هيروغليفية وقد رأينا بهذه الهيئة هذه العبارة على شكلها نفسه على أحد أعمدة المعبد الكبير لإدفو ( انظر الشكل ١ لوحة ٥٧ ) وتجدر ملاحظة ذلك لما من المقارنات والتقاربات من أهمية فى هذا الصدد .

### المبحث السابع : حول الانقراض القرية وتلك الموجودة على الضفة المواجهة للنهر

قد نصاب كثيراً بالدهشة ، عندما نقرب من غالبية الانقراض المصرية ولا نجد فيها أياً من آثار القدم التى تميز المباني فى بلادنا نتيجة لظروف المناخية المحيطة بها : فالأحجار ليست بالية ولا مسودة ولا مكسورة والوصلات لم تتكسر أو تتشخر وبعد هذه السنوات الطويلة ، لم تزل الآثار جديدة على حالتها الأولى .

والمبنى الذى سنتحدث عنه الآن يحمل طابعى الحداثة والقدم فى آن واحد . ولم يعد يبقى منه إلا قاعة واحدة علاوة على أن أحد جدرانها متهدم ، بيد أن الألوان مازالت زاهية وباقية على حالتها والأحجار بيضاء .

وتشير بعض بقايا الجدران وبعض الانقراض القرية من تلك القاعة وبخاصة جهة الشمال أنها كانت جزءاً من أثر أضخم بكثير ، إلا أنه من المستحيل اليوم التوصل إلى رسمه التخطيطى أو إلى مساحته .

وعند خروجنا من المعبد الكبير عبر باب الجانبى ، نجد أنفسنا تقريباً فى مواجهة القاعة التى نتحدث عنها وندخلها من الجانب الذى سقط عنه جداره . أما الحائط المواجه والموازى لحافة الجزيرة فمفتوح بباب كبير يؤدى مباشرة إلى الرصيف ويشكل للمشاهد شبه إطار كبير يرى من خلاله النهر وصخور الضفة المقابلة ، علاوة على نخيل البلح الذى ينمو عند سفحه . وإلى اليسار ، نجد باباً آخر يؤدى على الأرجح إلى القاعات الأخرى بالمبنى وهى أيضاً تسمح برؤية النهر والصخور المحيطة به . وتشكل هذه القاعة ما يشبه المقصورة المرتفعة التى

تسمع برؤية منظر شديد الاتساع . والنقوش التى تحويها على جانب كبير من الأهمية.

وهناك نقش تقع إلى اليمين من المدخل ويمثل أوزوريس على هيئة صقر ومن أمامه العديد من الشخصيات فى وضع التعبد ويكتب تحوت العديد من الأعمدة الهيروغليفية . وعلى الحائط الأيسر ومن فوق الباب الجانبى، نرى هذا المشهد المرتبط بموت أوزوريس ، الذى أشرنا إليه فى المبحث الثانى . والإله يبدو هنا مستلقيا على تمساح يمثل تيفون(\*) ، إله الشر ، الذى يحمله إلى مستنقعات مليئة بالبوص ، وهناك العديد من العناصر التى تحيط بالمشهد إلا أنه يتعين علينا أولاً أن نميز فيها قرصاً لا يمكن أن يكون إلا رمزاً للشمس وهلالاً هو بالطبع تصويراً للقمر وفيما بينهما صفوف من النجوم . ونحن لم نر فى أى مكان آخر ما يمكن أن يقيم نوعاً من التشابه مع هذا المنظر .

ومن بين مختلف الأشكال التى تتقدم نحو الإله ، نرى أولاً واحداً يبدو وكأنه يتظهر وهو يتلقى المياه على يديه ، وشخص آخر يمسك بلوح وقلم ويستمد للكتابة وهناك شخص ثالث يحمل تابوتاً على كتفه وهو بلا شك المخصص لجسد أوزوريس . ويمكن لنا أن نمقد نوعاً من المقارنة ذات الأهمية بشأن هذا الشخص الثالث . فنحن نلاحظ ، خارج العديد من المعابد مزاريب مثل تلك التى وصفناها فى المعبد الغربى . وهى مزينة بأسد يتقدم بنصف جسده خارج الجدار قائما فى نفس وضع قائمى أبى الهول ، ومن بينهما نجد القناة الواقعة عند مستوى سطح المبد . وحيث إن مثل هذه القنوات الموضوعة بهذا الأسلوب من غير المحتمل أن يكون لها استخدام آخر فى مناخنا الممطر . عدا تصريف المياه التى قد تقع على السطح ، وأن التماثل هو دائماً القاعدة الأولى للحكم على الأشياء ، فهذا يدعونا طبيعياً إلى الاعتقاد أنها كانت مخصصة فى مصر للفرض ذاته . ولكن هل يمكن أن نفترض هذا الأمر فى بلاد قد لا تهطل فيها الأمطار

---

(\*) يشير العلماء الفرنسيون فى دراسات وصف مصر إلى رموز الشر بصفة عامة باسم «تيفون» .

غالباً لمرة واحدة على مدة سنوات عدة متتالية ؟ وإذا كان هذا حقاً هو الغرض من تصميمها ، فلماذا لا نراها فى كل المعابد و الأبنية الأخرى ؟ ومن المرجح بالنسبة لى أنها قد أنشئت من أجل صب المياه الضرورية وللتنظيف ، التى كانت الديانة توصى بها فى بعض الحالات ، وهذه المياه التى كانت تتدفق من المعبد نفسه كانت تبدو أكثر قداسة وفاعلية .

وفى النقش الذى نصفه ، نرى فى الواقع صورة المعبد وبه ميزاب يزينه شكل أسد . وفى مقدمه ، هناك شخص يستقبل على يديه ماء التنظيف الذى يخرج من فم الأسد بدلاً من الاندفاع من بين قائميه . وأخيراً إن ما يعزز شعورنا ويؤكد رأينا فى أن هذه القنوات لم تستخدم فى التخلص من مياه الأمطار هو أن قناة المعبد الغربى بدلاً من صب المياه بالخارج كانت تقوم بصبها على ما يبدو أسفل الرواق (\*) .

والحق أن رؤية المشهد الكامل لموت أوزوريس أمر بالغ الأهمية ، لو تيسر لنا ذلك لكننا حصلنا على معرفة هائلة عن الديانة المصرية ، لكن نقش هذا المشهد لم يكتمل أبداً ونقلنا على كل ما هو موجود . ولم يزل هناك فى هذه القاعة ، العديد من النقوش التى لم يتم الانتهاء منها البتة ، كما ظلت أقسام كبيرة من الجدار ملساء تماماً أولاً تحمل إلا الفتحات المخصصة للنحت . ولكن ، رغم أن هذه القاعة لم يتم الانتهاء منها قط ، إلا أننا يمكن أن نفترض انطلاقاً من المشاهد التى نراها فيها أنها كانت واحدة من أقدس مباني الجزيرة وهذا ما يؤكد أيضاً هذا العدد الكبير من النقوش المسجلة عليها بالخط الديمراقطى ، التى تحدثنا عنها سالفاً فى المبحث الثانى . ويبدو أن هذه القاعة كانت مزاراً دينياً ، يجد الرحالة الورعون السعادة فى تسجيل أسمائهم فيها ، بل ربما دافع سفرهم أيضاً .

وأهم ما يميز حالة هذا القاعة غير المنتهية هو أننا نجد إلى جوار شكل تم بالكاد الانتهاء من رسم مخططه العديد من الأشكال الأخرى المنتهية تماماً

---

(\*) استخدمت هذه المزاريب فى التخلص من المياه التى تسقط على سطح المعبد حتى لا تفسد البناء ، واعتقد المصريون أن أشكال الأسود هذه تبعد الأرواح الشريرة عن المعبد المقدس . (المراجع ) .

والمطلية بكل الألوان. وهكذا يبدو أنه كان يتم تلوين الشكل بمجرد الانتهاء من نقشه. وصحيح أن بمقدورنا تخيل الأسباب الخاصة التي دعتهم إلى التوقف في تكملة نقوش والانتهاه فقط من طلاء الأجزاء المنقوشة. ولكن حيث إننا نجد هذه الظاهرة الفريدة نفسها في العديد من الأماكن الأخرى، فيمكن أن نعتقد مثل آخرين أنه كان يتم طلاء شكل ما بمجرد الانتهاء من نقشه ودون انتظار الانتهاء من جميع الأشكال الخاصة بقاعة ما أو أن يتم نقش أشكال منظر معين.

أما الأسباب التي دفعت إلى عدم الانتهاء أبداً من مبنى قديم فهي الأسباب نفسها التي جعلت أجمل المباني الخاصة بنا غير كاملة في معظم الأحيان، وحيث إننا نرى بعض من المباني القديمة فيها غير مزخرفة إطلاقاً أو حتى لم يتم بناؤها كلية في الوقت الذي نجد فيه مباني أحدث عهداً منها منتهية تماماً في كل أجزائها، فهذا لا يجعلنا نفترض - سواء في مصر أو في أي بلد آخر - تاريخ الأثر تبعاً لكم العمل الذي لم يتم الانتهاء منه. وهناك عدد قليل جداً من الآثار لم يتم الانتهاء منها كلية.

وعلى مقربة كبيرة من المبنى الذي قمنا لتونا بوصف بقاياه ، نجد سلماً ليس أقل منه تهديماً . وقد تم بناؤه في الخارج في مواجهة جدار الرصيف وكان يؤدي من الجزيرة النهر. وفي مواجهة هذا السلم وعلى الضفة المواجهة للنيل ، نرى سلماً آخر مشابهاً تماماً وهو بمثابة همزة وصل بين النيل والأرض المجاورة. وهنا ، نجد بعض من الانقراض المصرية غير ذات الأهمية وهي التي سنتناولها بالحديث بإيجاز شديد . وتتمثل أساساً في هذا السلم الواقع على طرف النهر وفي رديم الرصيف المجاور له، وفي رصيف آخر يأخذ شكل درج المدخل الذي يؤدي مباشرة إلى باب كبير كان مريماً في الماضي إلا أنه قد أضيف له في المصور الحديثة قوس عقد حجري سييء التنفيذ للغاية ومماثل إلى حد بعيد للأبنية التي نسبناها للمسيحيين الذين سكنوا الصعيد لفترة طويلة ، وأخيراً فهي تتمثل أيضاً في انقراض معبد صغير واقع فيما وراء هذا الباب. ولم يمد يبق من إلا الأعمدة الأربعة للرواق، منها عمودان فقط بكامل حالتها يحمل كل منهما التاج الخاص به والذي يأخذ شكل إناء. ويشكل الرديم المحيط بهذه الأطلال تلاً كبيراً.

### المبحث الثامن: عن المبنى الشرقى ومعبد صغير مغطى بالرديم

المبنى الشرقى هو أول أثر يلاحظه الزائر بمجرد رؤية جزيرة فيلة. وهو يحتل مكاناً متميزاً على مقربة من الموقع الذى نرسو فيه، ويمكن بعد ذلك رؤيته من كل الأماكن تقريباً حتى يصبح بعد ذلك مؤشراً للتعرف على جزيرة فيلة من بين كل الجزر الأخرى المحيطة بها وعلامة مميزة لهذه المجموعة من الآثار الموجودة فى هذه الجزيرة عن غيرها من مجموعات الآثار المصرية الأخرى.

والمبنى بلا سقف، طوله واحد وعشرون متراً وعرضه خمسة عشر، وهو يتألف من أربعة عشر عموداً تتداخل إلى ما يزيد عن ثلث ارتفاعها فى الجدران التى تصل بين عمود وآخر. وهناك بابان متقابلان مفتوحان فى اتجاه محوره الكبير العمودى تقريباً على حافة النهر. ومن المرجح إلى حد كبير - مما نستنبطه من عرض المبنى أنه لم يشيد ليكون مغطى بسقف، إلا لو تخيلنا وجود صفيين من الأعمدة بداخله، بيد أن هذا الافتراض لا يجد ما يبرره. وحقيقة أننا نجد فوق العتب جزءاً مجوفاً يبدو مخصصاً لاستقبال أحجار السقف، إلا أننا لم نتحقق ما إذا كان قد استخدم حقاً لهذا الغرض. وعلى أية حال، فإن هذا المبنى المكشوف بهذا الأسلوب والذى يستقبل بالتالى الضوء فى الأرجاء كافة، مختلف تماماً عن غيره من المباني حتى من المباني حتى أننا سرعان ما نتسأل إذا ما كان أثراً دينياً أم لا ولأى غرض أقيم. ويمكننا الإجابة عن هذه الأسئلة إذا ما طبقنا منهج التماثل.

فنحن نرى فى أرمنت مبنى مشابه تماماً يتخذ موضعه أمام معبد صغير ليقوم بدور الفناء؛ فالمبنى الشرقى كان مخصصاً أيضاً لأن يتقدم معبداً ومن المرجح أنه كان سيشغل موقفاً خلف هذا المبنى بالنسبة للنهر، هذا رغم عدم وجود أية بقايا لهذا المعبد من المرجح أيضاً أنه لم يتم الشروع فى بنائه أبداً.

أما الأعمدة، فهى الأضخم على الإطلاق من بين كل الأعمدة الموجودة فى جزيرة فيلة. حيث يبلغ قطرها عند قاعدتها متراً ٥.٤ سنتيمتراً<sup>(١)</sup> وارتفاعها أحد عشر متراً<sup>(٢)</sup>، على أن يضاف إليه ارتفاع الطولية تملو تاج العمود مما يجعل

(٢) أربعة وثلاثين قدماً..

(١) أربعة أقدام وتسع بوصات تقريباً.

إجمالى ارتفاعه من الأرض وحتى أسفل العتب ثلاثة عشر متراً ونصفاً<sup>(١)</sup> وتأخذ تيجان الأعمدة ثلاثة أشكال مختلفة (أنظر اللوحة رقم ٢٦)،

ونلاحظ أنها موزعة بالتناظر فى كل صف من الأعمدة وأن أسلوب توزيعه متماثل على واجهتى المبنى المتوازيين . وأهم ما يميز المبنى هو ارتفاع الجزء الحجرى المكعب الموجود فوق تيجان الأعمدة ، إلا أن هذه الميزة ليست مقصورة على هذا الأثر فقط . فنحن نجد أيضاً فى أعمدة أرمنت وكذا فى عدد من المعابد الأخرى التى تم نحتها بالكامل حيث نجد شكلاً كاملاً لتيفون<sup>(\*)</sup> على كل من واجهات الطبلية . ويبدو أن هذه المباني إما بسبب هذه الأشكال أو بسبب النقوش الأخرى التى تشتمل عليها كانت مخصصة للأرواح الشريرة التى يمثلها تيفون<sup>(\*)</sup> .

ومن هنا يمكن أيضاً أن نستنتج أن المعبد الذى يمثل المبنى الشرقى جزءاً منه كان

هو أيضاً تيفونيوم . وهذا ما يدعونا للاعتقاد بأن هذا المعبد لم يكن شاسعاً رغم أن بقاياه ممتدة على مساحة كبيرة، حيث إن معابد تيفون كلها صغيرة إلى حد ما . ويمرر هذا الافتراض التماثل القائم مع آثار أرمنت .

ويقدم لنا المبنى الشرقى على أبواب دخوله وعلى المستائر الحجرية بعض الملاحظات العامة التى تنطبق على كل المعابد المصرية .

فنحن نجد، فى صفة الأعمدة ، أن الجزء الأوسط، وهو الوحيد المستخدم كباب، يكون دائماً أعرض من الأجزاء الأخرى، وأن هذه الأجزاء التى يتصل بها جدار حتى ما يزيد على ثلث ارتفاعها تأخذ وفقاً لمقارنة قمنا بها شكل النوافذ . ولقد قام اليونانيون فى الكثير من مبانيهم بتقليد هذه القاعدة المعمارية بجعل الجزء الأوسط هو الأعرض، بل إننا أيضاً نقلنا ذلك عن اليونانيين . إلا أن

---

(١) اثنان وأربعين قدماً تقريباً .

(\*) يشير هنا إلى المعبود بس المتميز بشكله الهزلى . (المراجع) .

(\*) يشير الكاتب هنا للماميزى أو بيت الولادة وكان أحد ملحقات المعبد، والفرض منه الإشارة إلى الأصل الإلهى المقدس للملك الذى أمر ببناء المعبد . (المراجع) .



آثارهم تحوى أجزاء مثلما هو الحال فى آثارنا مفتوحة حتى أسفل ، وأصبح هذا الترتيب بلا هدف تقريباً . فلقد ارتكبنا غالباً خطأ جسيماً عندما قمنا بتطبيق هذا التوزيع للأعمدة حيث لم نقتطع اختلافاً كبيراً بين الجزء الأوسط والأجزاء الجانبية وقد ترتب على ذلك أنه بمجرد توقفنا عن رؤية مجموعة الأعمدة الأمامية، لا يبدو عدم تساوى الفرجات إلا نوعاً من أنواع الإهمال فى التنفيذ.

ولما كان تصميم الأروقة المصرية يقضى بإغلاقها، فلقد كان يتعين إيجاد الوسيلة من أجل إقامة أبواب صفاقة فى الأجزاء الوسطى . وهذا ما يبرر وجود أجزاء بارزة نراها على الأعمدة عند ارتفاع آخر حلقة تزين جذع العمود أسفل التاج ومقدمات الواجهات هذه تبرز باتجاه داخل الباب فى شكل نتوء تشييق، ومن أسفل هذا البروز نجد ثقباً مفتوحاً لاستقبال المدار العلوى للباب الصفاق حيث إن هذا الأخير يدور حول محور وعليه، فإن شكل مقدمات الواجهات البارزة التى تبدو غريبة وعشوائية للوهلة الأولى، نجد هنا ما يبررها تماماً.

وفى كل مكان تقريباً يصل عمق الكوة التى تم شقها فى مقدمات الواجهات إلى نصف عرض الباب بشكل يسمح لمصرعى الباب عند فتحهما أن ينطبقا تماماً على المساحة الكلية للكوة.

وهكذا كان الباب الصفاق ينتهى عند ارتفاع نتوء التشييق الخاص بالبروزات ، كما نلاحظ بصفة عامة أن الجزء السفلى من هذه النتوءات موجود دائماً على نفس مستوى جدران ما بين الأعمدة . ونتيجة لذلك أنه عند إغلاق الباب، كان الجزء الأوسط يفلق على نفس ارتفاع الجدران الأخرى مما كان يشكل خطأ أفقياً واحداً بين الأعمدة وقد حرص المصريون حرصاً شديداً على إبقاء هذه الخطوط الطويلة ذات التأثير الطيب فى الطراز المعمارى . وهم يبدلون الكثير من العناية والبحث فى أدق التفاصيل، مما يجعلنا نقول إن فنهم المعمارى لم يكن فى بداياته الأولى . ومما لا شك فيه أن اليونانيين، عند تقليدهم لهذا الفن، قد أضافوا إليه روعة ورشاقة لا نجدهما فى الآثار المصرية . إلا أن الفن بمروره إلى

اليونان قد اكتسب طابعاً خاصاً ولم يعد فن المصريين المتقن، بل فرعاً نابتاً من الجذع نفسه ودليلاً على خصوصية الأصل المشترك . وإذا ما نظرنا إلى الفن المعماري المصري ، في حد ذاته، وإلى الهدف الذي ، فسوف نرى أنه اكتسب قواعد حكيمة ومترابطة فيما بينها ، ويبدو لي أن هذا الفن قد بلغ أعلى مراتب الإتقان التي من شأنه بلوغها . ولنمد إلى وصف المبنى .

وتمثل نقوش الستائر الحجرية قرايينا مقدمة للآلهة . ويتألف أحدها وقدر رسمناه في اللوحة رقم ٢٧ ، الشكل ١ من زهور لوتس يصب أحد الكهنة من فوقها الماء من أحد الأواني . وهو يشبه من هذه الناحية نقشا قمنا بوصفه في نهاية المبحث الخامس . ولكن أغرب ما تقدمه لنا هذه الجدران هو ثراء النقوش والنقوش الرفيع للأطر المحيطة بها . ويتكون الإطار من حبل مجدول يحيط به شريط وهو يتخذ طابعاً جافاً للغاية أعلى الكورنيش الممتد . وهذا الإطار يقدم لنا نوعاً من التناغم التام مع بقية أجزاء المبنى . ويحتل المسافة الباقية من على الجانبين بين الحبل المجدول وحافة الجدار ، أقصى جسدها ملفوف بشكل لولبي من حول ساق زهرة لوتس . ولا يمكننا أن نفعل في هذا الصدد الإشارة إلى المهارة التي ملأ بها الفنان المسافة المريضة المجودة على مقربة من الكورنيش بجسد الأفعى الملتوى ويصدرها المستعرض وغطاء الرأس الرمزي الذي تضعه من فوق رأسها . وقد برع المصريون في فن توزيع الزخارف بأسلوب يسمح بملء كل الفراغات دون أن يسمح لنا ذلك برؤية أي خلل في هذه الزخارف .

وبداخل الإطار ، هناك إفريز مماثل للذي نراه في أماكن أخرى ، وهو يحتل القسم الأعلى . أما الطيور المصاحبة للنقوش الكتابية المحاطة بإطار وهي التي تبدو وكأنها تحتضنها بأجنحتها ، فهي كحيوانات خرافية ، رأسها رأس عقاب . أما القسم السفلي من الإطار ، فتحمله زهور اللوتس التي تشكل زخرفة تجمع بين الثراء والأناقة .

ويعلو دائماً كورنيش الستائر الحجرية تاج الأفريز نفسه الذي قمنا بوصفه وهو يتألف من أفاعي منتصبه على صدورهما وتحمل أقراصاً فوق رؤوسها . ولا

نجد فى هذا المبنى إلا تاجى عمودين منتهيين. أما التيجان الأخرى، فتظهر فى شكل كتلة كان يتمين نحت الأفاعى فيها.

أما الستارتان الحجريتان المصورتان فى اللوحة ٢٧ فهما الجداران الوحيدان المنقوشان ، وإن كنا لا نرى النقش إلا من الداخل فحسب. ومما لاشك فيه ، أنهما كانا منقوشين من الخارج أيضا. وبين هذين الجدارين، يحمل جذع العمود على سبيل الزخرفة نقوشاً هيروغليفية مرتبة فى خطوط رأسية. وقد لاحظنا<sup>(١)</sup> آثار ألوان على مختلف النقوش. وهنا أيضا نرى - ودون الخروج من جزيرة فيلة - مثالا آخر للألوان الموجودة على جدران مبنى تم الشروع فى نقشه - وينبغى علينا إضافة تيجان الأعمدة والقرص المجنح الموجود على كورنيش إحدى الواجهات إلى الأجزاء المنقوشة من المبنى .

وهذه النقوش ضئيلة العدد للغاية مقارنة بالنقوش التى كان يتمين تنفيذها ، حتى أنه يمكن النظر لهذا المبنى على أنه أملس وبلا نقوش ، فعلى الأقل، إن التأثير الذى يحدثه فى نفس الناظر إليه مماثل لتأثير النظر إلى مبنى مجرد منها تماماً. وأثر كهذا نادر للغاية فى مصر. إلا أنه قد أتاحت لنا فرصة الحكم على الطراز المعمارى المصرى المجرد والتأكد من جمال طابعه من مجرد رؤيتنا للخطوط الممثلة له.

كما سنحت لنا فرصة نادرة لإرضاء فضولنا الشديد فى كل ما يتعلق بالفنون المصرية. ولما كان الكثير من أجزاء المبنى لم يتم بعد الانتهاء من منها تماماً وبقيت الأحجار على حالها من حيث عدم اكتمال صقلها ، فقد نجحنا فى تتبع مختلف خطوات العمل والحكم على مقدار تقدم هذا الشعب فى فن المعمار.

ومن المعروف أن فن قطع الحجارة وهو قسم من فن البناء يتمثل فى تشذيب كل حجر من أحجار البناء على حده بحيث يكتفى عامل البناء بوضعها بعضها فوق بعض فى المكان المحدد للانتهاء من تشييد المبنى، إلا أن المصريين كانوا يتبعون نهجاً أقل صموية حيث كانوا يصفون الحجارة قليلة التشذيب بعضها فوق بعض ثم يقدمون بعد ذلك بقطع الأجزاء المعمارية فيها. وهذا على الأقل ما هو

---

(١) مقتطف من يوميات رحلة السيد فيلوتو.

واضح للغاية فى العديد من أجزاء المبنى الشرقى حيث نجد أعلى المبنى منحوت ومصقول. أما الجزء السفلى، فلم تزل العديد من أجزائه فى شكلها غير المشذب (انظر اللوحتين ٤ ، ٢٥) والأعمدة مستديرة أعلى الجدران البنية وهى تأخذ نفس الشكل من الداخل من بين هذه الجدران. وهناك الكثير منها لم يشمل الصقل بعد. وفى العمود الذى يشغل الزاوية الجنوبية الغربية قمت بقياس بعض الأجزاء البارزة التى تتعدى عشرة سنتيمترات، ولو كان قد تم الانتهاء من المبنى لكانت قد أزيلت. وهذا العمود ليس إلا مثال .

وهذا بالطبع لا يعنى أن المصريين كانوا يجهلون فن تشذيب الحجارة فى الموقع قبل وضعها فى مكانها والدليل على ذلك هو أسلوب نحتهم للوصلات التى تحقق تلامس صفوف الحجارة الأفقية. فهذه الوصلات ليست كلها رأسية، فبعضها مائل تبعاً لزوايا مختلفة. وفى هذه الحالة، كان يستلزم قبل وضع الأحجار تشذيبها تشذيباً كاملاً على نفس درجة ميلها حتى يتم إغلاق الوصلة تماماً. وكان أسلوب الوصلات المائلة لا يخلو من الصعاب ولا يمكن أن نجد له مبرراً آخر عدا الاقتصاد فى الحجارة ما دام أنه كان يسمح باستخدام الكتل الحجرية المائلة دون شطف أى شئ منها خلا الضرورى للحصول على سطح مستو. ولكن كيف يتفق هذا الأسلوب الاقتصادى مع الأسلوب الآخر الذى تحدثنا عنه وهو الذى يفتقد كثيراً إلى هذه السمة حيث إنه يضع الأحجار القليلة التشذيب ثم ينفذ بعد ذلك الأشكال التى يريد تنفيذها؟.

أما فيما يتعلق بالوصلات الأفقية، فهى جميعها متوازية ولها المستوى نفسه. إلا أننا لا نجد دائماً نفس مدماك الحجارة ممتد فى كل مساحة المبنى، فكما هو الحال فى كل أبنيتنا الحجرية ، كثيراً ما نجد مدماكاً مرتفعاً بعض الشئ يكمله مدماكاً آخران أقل ارتفاعاً<sup>(١)</sup>.

---

(١) فى أحيان، كان يتم نحت الحجر الواحد فى شكل كلابية ويكون آنذاك من مدماكين من ارتفاعين مختلفين. وتقدم لنا مختلف الأبنية فى فيه أو مصر أمثلة على عدم الانتظار هذا الذى لا ينال من صلابة المبنى فى شئ إلا أنه يخل بجمال تركيبه وزخرفته. ويبدو أن المصريين كانوا لا يملقون أهمية تذكر على انتظام الوصلات، بل على العكس كانوا يحولون إخفاها حتى لا تقسد شكل النقوش حين تقطعها، وهذه الأخيرة بدورها كانت تستخدم للإخفاء للوصلات.

وتجدر الإشارة أن واجهات وصلات الأحجار فى المبنى الشرقى ليست ملساء إلا عند حافتها فحسب وعلى عرض يزيد عن ديسيمترين. أما منتصف الواجهة فهو ممقطوع : وربما هذا بدافع التصاق الملاط بالحجارة بشكل أفضل عن طريق هذه النتوءات الصغيرة. ولا يشكل هذا الملاط إلا طبقة بالغة الرقة ولا يمكن رؤية هذه النتوءات إلا بصعوبة بالغة .

كان المصريون لا يكتفون بسمك جدران مبانيهم أو بضخامة الأحجار المستخدمة فيها لتأمين صلابتها، بل كانوا يحرصون على ربط حجارة المدامك الأفقى نفسه. ونحن نرى دائماً فى المدد الأكبر من الأبنية، وعلى السطح العلوى لحجرين متلاصقين، حزيْن متوافقين فى شكل ذيل السنونوة أيضاً يعشق فيهما لسان منحوت فى شكل ذيل سنونوه أيضاً. ونحن لا نجد هذا اللسان فى الأحجار المتهدمة . وكان من الطبيعى أن نفترض أنه مصنوع من المعدن إلا أننا بعد أن قمنا عن عمد بهدم بعض أجزاء من مبان غير مهمة ، وجدنا أن لسان التمشيق مصنوع من الخشب وهذا لا يجعله صالحاً لأن يعشق بقوة أحجاراً ذات أبعاد ضخمة. وعليه ، فقد اعتقد البعض أنه قد تم فى الأصل استخدام لسان معدنى، وأنه لما أصبح المعدن نادراً بشكل أكبر، تم إحلاله بالخشب، ليس بدافع توفير الصلابة، وإنما بدافع عدم التخلّى عن عادة قديمة. وقد اعتقد آخرون أن قطع الخشب هذه كانت تسهم فى التقريب ما بين الأحجار بسبب ازدياد حجمها بعد غمرها بالماء: ولكن السنة كهذه ألسيت كافية فى حد ذاتها لوقف تباعد الحجارة، أيا كانت ضخامتها؟ والحالة التى نجدها عليها تبرهن، أكثر من أى شىء آخر على أنه كان بالإمكان بقاؤها لمدة طويلة. وهى مصنوعة من خشب الجميز وهو خشب متجانس للغاية. ويبلغ طول اللسان عادة ٢٤,٠ (١) وأكبر عرض له ٠,٦٧ (٢)، وسمكه ٠,٠٤ متر (٣)، وقد جمعنا عدداً كبيراً منها، وهى رغم ما تحمله من آثار الفهم على سطحها، إلا أنها بحالة جيدة، وتحلل أى مادة نباتية

(١) تمسح بوصات. وقد قمنا بجلب لسان طوله إحدى عشرة بوصة وثلاثة خطوط.

(٢) بوصتان ونصف.

(٣) بوصة ونصف.

سريعاً في المناخ الذى نعيش فيه لا يمثل مفاجأة للعالمين بأسباب هذا التحلل، مادام أن الأجزاء الخشبية مفلق عليها بين أحجار جافة دائماً لا تتعرض لا للرطوبة ولا للامسة الهواء. إلا أنه ، لما كان تأثير الزمن يبدو أكثر وضوحاً على الخشب منه على الحجر الرملى المشيد به هذه الآثار، فنحن يمكننا إذاً أن نقدر عمر كل أثر من الحالة التى وجدت عليها السنة التمشيق المستخدمة فى الربط بين الأحجار<sup>(١)</sup>. وعند ملاحظتنا للمبنى الشرقى ، فسوف نجد أن كل أجزائه ، رغم أنها كانت مخصصة للنقش ، قد تم صقلها كما لو كان هناك هدف فى إبقائها ملساء. وعليه، ففى الداخل. لا نجد إلا نقشين فقط وكل الأطر الأخرى التى تشكلها جدران بين الأعمدة ولا يوجد إلا إطار واحد غير كامل التشذيب. وقد تم التخلّى عن العمل فيه قبل بلوغه الدرجة نفسها من التقدم الموجود عليها الأطر الأخرى.

ولما كان قد تم فحص أسس العديد من المباني المهدمة حتى قاعدتها، فقد رأينا أنها مؤلفة من جدران سمكها أكبر قليلاً من سمك الجدران المقدر لها دعمها وأنها تتركز مباشرة على الكتلة الحجرية. ومما لا شك فيه أن صلابة هذا الأساس قد أسهمت كثيراً فى إطالة عمر مباني جزيرة فيلة ولا يزال يؤمن لها بقاءً طويلاً.

كل ما أشرنا إليه حتى الآن يتعلق بالبناء بمعناه الدقيق، وكل ما بذل من عناية حتى الآن، ولا تراه العين، كان لا يسهم إلا فى صلابة المباني، وليس فى إضفاء الجمال عليها. ولكن يتبقى هناك إجراء آخر، نصفه بأنه خارجى أو ظاهرى ويدهش الناظر، سنتناوله الآن .

---

(١) نحن لا ندعى رغم ذلك أن الخشب وحده هو الذى تم استخدامه فى صنع السنة التمشيق التى تربط الأحجار. والجهد المبدول فى فصل هذه السنة عن الجدران هو الذى يجعلنا نفترض وجود معدن بها. فهل من المحتمل أن يكون قد تم تكبد كل هذه المشقة لو لم يكن قد تم العثور إلا على الخشب؟ فمن الجدير بالملاحظة أن هذه الصلابة الزائدة التى أراد المصريون إعطائها لمبانيهم كانت سبباً رئيسياً فى تدميرها. فلو لم يكن قد تم استخدام المعدن بداخل الجدران، لما بقت حالياً كما هى مترامية حجارها حتى اليوم.

وهذا التنفيذ إذا صح القول مثير للإعجاب فى غالبية الآثار المصرية. ومن المستحيل العثور على أسطح أفضل فى تشييدها أعمدة أروع فى استدارتها أو زوايا أكثر حدة ومنحنيات أكثر نقاء ودواماً . وهذا الإتقان المبهر فى ضربات الإزميل نجده فى صورة أفضل فى النقوش : فى أوراق تيجان الأعمدة وفى أكثر الزخارف رقة وفى أدق التفاصيل وأصغرها التى تتسم بدقة تفوق كل تصور.

ولا يقل تنفيذ الأشكال عن هذا تميزاً. وإذا كانت الخطوط الخارجية حادة ومعمية، فإن أشكال النقوش البارزة تتسم على عكس ذلك بالنعومة الشديدة. ولما كانت هذه النقوش البارزة ليست بالغة النتوء، فإن تفاصيل الأشكال غير واضحة إلا بقدر قليل. وهى تبدو محاطة بإطار يظهر الأشكال، كما أن التفاصيل الرقيقة والناعمة التى تميز الحركات تسر الناظر، وتبهره. وطبيعة الحجارة المستخدمة تميز بحق هذا العمل، فهى كما ذكرنا من حجر رملى شديد الشبه الأحجار المستخدمة فى فونتان بلو وهى مادة كانت تستلزم أدوات دقيقة وأيدى شديدة التمرس.

ويمكن أن نرى هذا العمل المتقن فى مواضع عدة من مبانى فيلة، سواء فى المعبد الكبير أو المعبد الغربى، وبصفة خاصة فى المبنى الشرقى. ولعل الضوء المبهر الذى يضيئه والبياض الناصع للحجارة ودقة حبيباتها تسهم هى أيضاً فى الرقى الواضح لهذا العمل. ويرجح أن يعود تاريخ هذا المبنى إلى ازدهار الفن المعمارى فى مصر، فالعناية الفائقة المبذولة فى اختيار المواد لا يمكن أن تكون إلا سمة من سمات هذا العصر.

ولكن كيف يتحقق هذا الإتقان فى العمل وفى استخدام الإزميل مع هذا الجمود فى الأوضاع والجهل بفن المنظور؟ حيث إنه لا يوجد أى اختلاف بين أشكال هذا المبنى والأشكال الأخرى الموجودة فى غيره من المعابد، حيث يبدو أن جميعها قد رسمت وفقاً للنموذج نفسه. وحتى نفس هذا التناقض، فإن فرجعنا دائماً هو نفس الفكرة. فالمشرعون المصريون الذين كانوا يخشون كل شكل من أشكال التجديد وبصفة خاصة. تلك التى يمكن أن تكون على صلة بالدين، أوقفوا بأنفسهم كل تقدم فنى ممكن وذلك بتكريسهم منذ البدايات لأشكال

هيئات كان من المستحيل الاعتماد عليها لاحقاً. ولما كانت أشكال الآلهة والبشر هي أهم ما يميز هذا الفن ، فإن الأشكال المتبعة، منذ أن كان هذا الفن في مهده، قد تم الاحتفاظ بها دون أن يمسسها أى تغيير. وهذا ما يفسر هيئات البشر التي نرى الأكتاف فيها من الأمام والوجة وبقية الجسم من أحد الجانبين . ويصدق هذا القول أيضاً على العدد الصغير من المناظر التي تظهر من خلال المشاهد المقدسة. إلا أنه كان يتعين حتماً أن ينتج عن ذلك إتقاناً في ممارسة هذا العمل على مدى هذه القرون الطويلة، وكان مقصوراً فحسب على أسلوب إنجاز الأشكال المقررة.

ويبدو لى هذا التفسير بمثابة الأسلوب الوحيد لإدراك حالة تنفيذ النقوش لدى شعب أحرز تقدماً بالفاً في فن النحت. وما يميز ذلك أيضاً، هو أنهم قاموا بتقليد أفضل للإضافات ولكل ما له علاقة أقل مباشرة بالدين. والحق إن رسومات الحيوانات تتسم عامة بمظهر حقيقى للغاية. فلقد لاحظ الفنانون المصريون بدقة عند تنفيذهم لشكل حيوان ما السمة الرئيسية التي يتميز بها . وتوضح لنا بقية هذا المؤلف أنهم قد تمكنوا باستخدام آلاف الطرق الممكنة من تنويع أوضاع أشكال البشر عندما كان الأمر لا يتعلق بتنفيذ نقوش مقدسة.

ويرجع أن القواعد الثابتة التي تم إدخالها على نقوش المعابد قد أصبحت سبباً لتقديم نقوش متعددة وإنجازها بسرعة عن طريق استخدام أكبر عدد ممكن من الأيادى. فالحق أن العدد الكبير من المناظر التي تزين معبداً واحداً لا يمكن أن تكون إلا لعدد كبير من الفنانين اللهم إلا إذا تخيلنا أن العمل الذي يشمل مبنى واحداً قد تم إنجازه على مدى قرون عديدة.

ومن هنا ندرك أنه لما كانت أشكال الرموز والشخصيات كافة قد تم تحديدها منذ زمن بعيد، فقد كان من الممكن إعطاء كل فنان شكلاً واحداً فقط لينفذه وتكليف العديد من الفنانين في آن واحد. وزد على ذلك ، إذا ما أمعنا النظر في جميع رؤوس الآلهة ورؤوس الحيوانات في مبنى واحد، فسوف نجد أن لها طابعاً موحداً وأن الحيوانات من الفصيلة نفسها تتشابه تماماً. وأخيراً فإن كل



مجموعة من الأشياء لها سمة مميزة، وهذا ما يدعونا للاعتقاد بأن الشكل الواحد لم يكن يقوم به فنان واحد من البداية إلى النهاية، وأن العديد من الفنانين كانوا يعملون فيه على التوالي . فعلى سبيل المثال، كان أحد النحاتين يقوم بمهمته المتمثلة في وضع الخطوط المريضة للمنحوتة وآخر يكمل العمل بشكل أفضل وهكذا دواليك حتى نصل إلى الفنان الأخير الذي ينهى العمل تماماً. وهكذا كان لكل نحّات دور يقوم به ويطبق اللون المناسب وفقاً للقواعد المتبعة. وابتاع هذا الأسلوب ، يمتد أن يمكن أن لعشرة نحّاتين إنجاز عشرة أشكال متشابهة تماماً في وقت مساو ، بل ربما أقل مما يستغرقه عشرة آخرون في الانتهاء على حدة وفي فترة زمنية معينة من عشرة أشكال مختلفة بعضها عن بعض.

ومما لاشك فيه أن هذا الأسلوب كان لا يمكن أن يؤدي إلى درجة إتقان فنية عالية، إلا أن المنطق الذي قام عليه الأسلوب المصري من أن يمهّد للأشخاص أنفسهم بالأشياء نفسها لتمثيلها بنفس الخطوط كان أمراً يستند إلى العقلانية. ويوسّعنا أن نضيف إلى ذلك أن التوزيع المنتظم للنقوشات وتنفيذها بصورة متشابهة وتشكيلها بشكل متجانس تقريباً ربما يتوافق بأسلوب أفضل عندما يستوجب الأمر زخرفة واجهات جدران بأكملها حيث تصبح النقوش المختلفة الأشكال والتكوين والتنفيذ غير مناسبة.

ونتهى وصفنا للآثار المصرية لجزيرة فيلة بوصف المعبد الصغير الواقع تقريباً إلى الجنوب من المبنى الشرقي. ومن المرجح أن المعبد لم يزل قائماً حتى الآن إلا أنه مدفون بالكامل ولا نرى من هذا الأثر الصغير إلا أعلى أعمدة الرواق. ويبدو الجزء الأوسط من الواجهة عريضاً للغاية مقارنة بالجزئين الجانبين. بيد أن المبنى قائم على أبعاد متناهية الصغر ، حتى أنه ليكون المدخل عريضاً بالقدر الكافي كان يستلزم أن يكون الجزء الأوسط أكبر نسبياً مما هو عليه في المباني الأخرى. وهذا المعبد هو أصغر الآثار المصرية على الإطلاق ويبلغ عرض الرواق من الداخل خمسة أمتار<sup>(١)</sup>. وعمقه مترين وستين سنتيمتراً<sup>(٢)</sup>. أما طول الأعمدة

(٢) ثمانية أقدام.

(١) خمسة عشر قدماً ونصف القدم.

الواقعة المتب، فربما لم يتعد ثلاثة أمتاراً ونصف المتر. وهذا الرواق لا يتميز بصغر أبعاده فحسب ولكن أيضاً بدقة وإتقان النقوش الموجودة عليه.

### المبحث التاسع: منشآت يونانية أو رومانية توجد في جزيرة فيلة

عندما أصبح اليونانيون سادة مصر ، جلبوا إليها علومهم وفنونهم كأن ذلك معناه إعادتهم إلى مسقط رأسهم الذي تركوه قبل عدد من القرون ، بيد أنهم كانوا قد اكتسبوا بالفعل مظهراً أجنبياً وطابعاً خاصاً لهم احتفظوا به منذ ذلك الحين وحتى الآن. ورغم أن الفن المعماري اليوناني قد تشكل على أساس نظيره المصرى إلا أنه يختلف عنه فى سمات أساسية وواضحة تحول دون الخلط بينهما . أضف إلى ذلك أن الفن المعماري الروماني وهو تعديل للمعمار اليوناني، يختلف عند أكثر بسبب ما يظهر فيه من صفات أعمدة وعقود .

وعلاوة على ذلك، فلقد تمكنا - وللوهلة الأولى - من أن نميز على هذه الأرض التى تغطيها المباني المصرية ، المنشآت التى شيدها الأجانب، ولم نقل قط من إبداء إعجابنا بهذه الأبنية التى كانت أحد عهدا من آثار البلاد شيدت فى أغلب الأحيان بالأحجار المنتزعة ولهذا كانت تظهر للميان على حالة من التهدم ، أكثر من الآثار التى سبقتها ، وسوف يجيء اليوم الذى نجد فيه هذه المباني، وقد قنيت تماماً وبقيت الآثار المصرية لأمد طويل شاهداً على عظمة الشعب الذى شيدها .

وسوف تتكرر هذه الملاحظات والمقارنات كثيراً على مدار هذا الكتاب، وهى تنطبق بالفعل على كل ما نجده فى جزيرة فيلة فهى رغم صغر مساحتها تقدم لنا نموذجاً لكل ما تحتوى عليه مصر. فإلى جانب هذه الآثار الجميلة التى مازالت باقية بحالة جيدة، لم نعد نرى شيئاً تقريباً من المباني التى أقامها اليونانيون والرومانيون، خلا بعض الأطلال التى لا يمكن التعرف عليها. وفى وسط القسم الشمالى من الجزيرة ، نجد جزءاً من جدار يبلغ ارتفاعه من أربعة إلى خمسة أمتار<sup>(١)</sup>. لم يزل قائماً . أما

(١) خمس عشرة قدماً ونصف.

سمكه، فهو قليل بعض الشيء، والحجارة مخلخلة حتى أنه ليكفى توجيه ضربة خفيفة إليها لهدمها أو تدميرها كلية. وفي القسم العلوى، نجد عتباً وبضعة أجزاء من إفريز تزيينه زخارف ثلاثية . والحجارة المشيد بها هذه الجدار مرفوعة فى الغالب من بعض المباني المصرية وبعض منها نقوشاً هيروغليفية وأشكالاً غير كاملة ويظهر بعضها الآخر فى أوضاع مقلوبة باتجاهات عدة، ونرى بعضاً منها على الواجهات الخارجية للأحجار ، حتى أنهم لم يتكبدوا مشقة طمسها، وهذا ما كان لا يفعله المصريون مطلقاً عند استخدامهم لمواد قديمة فى بناء منشآتهم ومثل هذه الرموز المقدسة المتناثرة لا يمكن أن تنتمى إلا لمصر كان قد تم التغلّي فيه تماماً عن الديانة المصرية.

وربما يرجع عهد المبنى الذى كان الجدار جزءاً منه إلى الإمبراطورية القديمة، هذا رغم أن حالة الأطلال التى هو عليها تدعو للاعتقاد أنه يرجع لعصر أقدم، كما أن بقايا خرقة السطح الدورية التى تتوجه تجميلنا نعتقد بأنه قد شيد بأيدي اليونانيين حيث كان يشيع استخدامه الطراز الدورى أكثر من عند الرومان.

ولن نتبنى الموقف نفسه من عدم اليقين إزاء مبنى آخر يقع أيضاً فى القسم الشمالى للجزيرة، على مقربة من مكان الرسو . حيث نجد صفة أعمدة داخل سور مفتوحة ومن على جانبيها صفتين أخريين أصغر حجماً ، وهذا ما لا يدع أى مجال للشك فى أن هذا البناء ما هو إلا قوس نصر وأنه بالتالى مشيد على أيدي الرومان الذين اشتهر عنهم دون سواهم إقامة مثل هذه المنشآت .

وهذا المبنى لم يتم الانتهاء منه البتة، فالجزء الأوسط فى الصفة الكبيرة لم ينفذ قط ولا نرى عليه أى زخارف . وهذا المبنى يشبه من بعض الأوجه قوس قاو الكبير حيث نلاحظ فيه كما هو الحال فى هذا الأثر الأخير نوافذ تعلو الصفتين الصغيرتين بيد أنه، إذا ما قارنا القوس الرومانى فى قاو الكبير بقوس فيله. فسوف نتبين أن هذا الأخير ليس إلا مبنى عشوائياً، غير متناسق فى نسبه : فهو متناهى الصغر ، حيث يبلغ ارتفاع الصفتين الجانبيتين مترين والصفة

الوسطى خمسة أمتار. إلا أن هذا المبنى الصغير قد يكون من بين المنشآت التي أقامها الرومان في مصر بل أفضلها حالة. وهو يدين بهذه الميزة بلا شك إلى موقعة وإلى التشكيل البسيط لأجزائه. وينبغى علينا أن نشير أيضاً إلى أنه قد شيد بأيدي مصرية. وهذا المبنى مثل غيره من آثار فيله من الحجر الرملي، وإن كنا نلاحظ تطابقاً كبيراً بينه وبين غيره من الآثار من حيث أسلوب البناء : فنحن نجد فيها الوصلات المائلة نفسها والحديدات(\*) الحجرية الضخمة وأخيراً ، كل أوجه التشابه التي تجعلنا نفترض أن هذا المبنى الروماني قد أقامه فنانون من أهل البلد وسوف نشير في موضع آخر إلى المباني المشكلة على العكس من ذلك وفقاً للأسلوب المصري، وإن كان تنفيذها قد تم على أيدي اليونانيين أو الرومان.

### المبحث العاشر: ملاحظات عن قدم المباني الرئيسية بجزيرة فيلة

قد يجانبنا الصواب لو طالبنا الرحالة بقصر روايتهم على ما رأوه فحسب، وحقيقة أن هناك افتراضات قوية ومقارنات واستنتاجات ليس بوسع أحد القيام بها إلا هم ، حيث إنها تتولد عن الملاحظة المباشرة ورؤية الأشياء رؤى العين، وهذا ما لا تستطيع أفضل الروايات وأدقها أن تقوم مقامها تماماً. وكل ما ينبغى مطالبتهم به هو الفصل تماماً بين الوقائع والافتراضات وعدم الخلط بينها البتة . وهذا ما تمسكنا به في المباحث السابقة حيث قدمنا مجموعة من الملاحظات أقمنا أحياناً فيما بينها علاقة تبعية تبادلية في محاولة منا لجمل هذه الوقائع ملموسة وأكثر قوة بإرتباطها فيما بينها بل أكثر من ذلك لحفرها في الذاكرة وهذا ما لا يتسنى فعله لو تم تقديم الوقائع بصورة منفصلة والملاحظات بلا هدف يذكر. بيد أننا قد خصصنا هذا المبحث الأخير للبحث في عمر الآثار في جزيرة فيلة .

إذا ما وضعنا في اعتبارنا أولاً حالة هذه الآثار ولونها الذي يميل إلى اللون الأبيض أو إلى السواد وأردنا من ذلك استخلاص عمرها من مظهرها، فسوف

---

(\*) حليات تظهر ناتجة عن الجدران. (المرجع).

يدفعنا هذا إلى الاعتقاد بأن المعبد الكبير هو أقدم آثار الجزيرة وأن المبنى المنعزل الواقع جهة الشرق هو أحدثها على الإطلاق. إلا أن هذه الأدلة قد تكون غير كافية في حالة ما إذا درسنا بعد ذلك الموقع النسبي لكل أثر لاستخلاص ترتيب إقامتها على التوالي، ولم نتأكد أيضاً أن هذه الآثار في توزيعها غير المنتظم تتناسب كلها نسبة للمعبد الكبير. وهناك تفسير منطقي لعدم الانتظام الموجود في ترتيب هذه الآثار يكمن في افتراض بناء المعبد الكبير في بادئ الأمر وأنه كان يسبقه رواقان مثل الموجودين جهة الشرق وأنه قد ظهرت الرغبة بعد ذلك في إقامة طريق يؤدي إليه يبدأ من الطرف الجنوبي للجزيرة. إلا أن شكل الجزيرة حال دون شق الطريق في اتجاه محور المعبد وأنه قد تم أخيراً إقامة الصرح الكبير بشكل لا ينحرف كثيراً نسبة للطريق أو للمعبد الكبير. وقد ذكرنا آنفاً المبحث الرابع كيف كنا نعتقد أن بوسعنا تفسير موقع مجموعة الأعمدة الشرقية أو تلك الموجودة في المبنى الجنوبي. أما فيما يتعلق بالمعبد الغربي، فمن الواضح أنه كان متناسقاً مع الصرح الكبير المتعامد عليه، نفترض أنه قد حل مكان رواق مماثل للدهلز الشرقي الذي كان قد بدأ في الانهيار منذ ذلك الحين.

أما فيما يتعلق بالمبنى الشرقي - الذي نجده على الحالة الجيدة نفسها الموجود عليها المعبد السابق والذي يبدو أحدث. أما بسبب لونه الأبيض، وإما بسبب عدم الانتهاء من تشييده، فنحن نميل إلى اعتباره واحداً من المنشآت الأخيرة التي أقامها المصريون.

ولن نستلرد أكثر من ذلك في وضع الافتراضات القائمة على أسس هشة وقليلة الأهمية، فكفانا أن قدمنا البرهان على أن الترتيب النسبي للآثار يتفق مع مظهرها حتى نخلص إلى أن المعبد الكبير يعود إلى عهد أقدم من المباني الأخرى كافة.

ولكن ، حتى نقدم افتراضاً بشأن أقدم الآثار عمداً يتعين علينا البحث إلى العصر الذي قد يعود إليه أحدث هذه الآثار. ومما لاشك فيه أنها لم تشيد بعد غزو الفرس لمصر. فالمنتصرون كانوا أشد عداوة للدين منه للأمة ذاتها،

فبالاضطرابات والثورات والحروب التى تماقبت منذ زمن الغزو لم تترك المجال فسيحاً لإقامة مثل هذه المباني الكبيرة التى تتطلب فترة طويلة لتشييدها ولا سيما فى أقصى أطراف مصر وفى مكان كان يتمين بقاؤها مجهولة فيه. فهذه المنشآت طرازه مصرى خالص ، فكيف لنا أن نعتقد أن سادة البلاد لم يتركوا بصمة ذوقهم عليها أو آثار فنههم فيها؟ وتجدر الإشارة إلى أن عمر أحدث المباني فى فيلة قد يكون نحو ألفين وثلثمائة عام، ولنرى إذا لم يكن هناك إمكانية العثور على إشارات محددة حول عصور تشييدها .

عند وصفنا للمعبد الغربى تحدثنا عن ميزاب مخصص لتصريف المياه التى يمكن سكبها على سطح المعبد، وتحدثنا عن منظر منقوش على أحد جدران المبنى المهدم فى الغرب والذى وجدنا فيه مثل هذا الميزاب أيضاً ، وقد دهمتا هذه الأسباب القوية إلى الاعتقاد بأن هذه المزاريب نحتت لفرض دينى حيث كانت تستخدم فى صب مياه التطهير الضرورية للقيام ببعض الشعائر الدينية. وأخيراً رأينا أن هذه المزاريب يزينها وجه أسد، تتدفق المياه من فمه أو من بين قائميه ( المبحث السابع ) . إذن علينا أن نتبنى الفكرة التى تؤكدنا لنا دراسات هذا المؤلف أكثر فأكثر، وهى أن إختيار الزخارف المصرية لم يتم بصورة عشوائية وأنه لا ينبغى لنا فى هذا الصدد أن نحكم على قواعدها أو على وحداتها الزخارف وفقاً للأفكار التى تحكمنا عند حديثنا عن تشكيل الزينات، فنحن مثلاً كما هو الحال عند اليونانيين أنفسهم لا نحكم إلا على ما نراه ، فالخيال وذوق الفنان هما أساس كل زخرفة، أما عند المصريين، فعلى العكس من ذلك ، يرمز كل عنصر زخرفى إلى شئ ما ويتمثل الفن المصرى فى استخدام هذا الرمز لتجميل المبنى . إذن فنحن حين نرى هنا الأسد والمياه مجتمعان حيث تخرج المياه من فمه ، نتساءل حتماً ما هو الدافع إلى الجمع بينهما ولماذا تم إختيار وجه الأسد عن دون غيره من الأشكال الأخرى لزخرفة المزاريب الموجودة فى أسطح المعابد .

وسوف نلاحظ أولاً أن والتطهير بالمياه المقدسة وكافة الإستخدامات الدينية الأخرى القائمة على خاصية التطهير فى المياه إنما تستمد منشأها من مصر.

فهذه المياه الصحية، الآمنة، الطيبة الأثر، هي المياه التي تتدفق من النيل في زمن الفيضان، فهي مياه جديدة ونقية جاءت لتحل محل المياه الراكدة وتطرد الأمراض وتبشر الرخاء على كل مصر وتحدد حياة كل الكائنات الحية. وتكرر ظاهرة الفيضان سنوياً في وقت الانقلاب الصيفي ومجموعة البروج الفلكية التي تدخل فيها الشمس هي من وجهة نظر قدماء المصريين رمز هذه الظاهرة ، فلقد كانت إيدانا بهذه الظاهرة كما أنها تبدو متولدة عنها.

ولعلنا ندرك الآن مصدر الرمز الذي نتحدث عنه. ففي عصر ما ، كان الأسد السماوى مرتبطاً بالانقلاب الصيفي، وكانت هذه المجموعة الكوكبية تبدو أساساً لتصريف المياه ولصب مياه التطهير، وعليه تم تمثيل الأسد في المعابد وهو يصب بالفعل المياه للتطهير. وحسبما نرى، فإنه ينبغي علينا أن نعزى إنشاء المعبد الغربي والمبنى المهدم إلى تلك الحقبة التي نجد فيها الرمز الذي نتحدث عنه. إلا أن هذا العصر لا يعطى تاريخاً محدداً ، حيث أنه منحصر بين حدود متباعدة للغاية، فقد رمز الأسد للانقلاب على مدى ألفى ومائة وثلاثة وستين عاماً.

ويوسع هذا التقارب السابق الذي تؤكد الآثار الفلكية المصرية أن يلقي بعض الضوء على تشييد هذه المباني، حيث كان الأسد يمثل مصدراً للمياه الصحية. وهناك احتمال كبير أن تشييد هذه المعابد قد تم في الزمن الذي كان الأسد لم يرمز فيه للانقلاب الصيفي وكانت المياه تتدفق تحت هذه الكوكبة من النجوم. ومن هنا، يمكن لنا الافتراض أن هذا العصر ليس بعيداً عن العهد الذي كان الانقلاب الصيفي يمر فيه من الأسد إلى السرطان، وهذا ما كان يحدث قبل ٢٥٠٠ عام قبل الميلاد<sup>(١)</sup>. زد على ذلك أن هناك اعتبارات أخرى ناشئة عن التصوير الأول لمنظر البروج الفلكية الذي لنا الاقتراب من هذه الحقبة المحتملة لتشييد هذه المباني نتحدث .

ويرجع تاريخ المعبد الكبير إلى عصر سابق للمعبد الغربي، ورغم أن هناك آثاراً قديمة مرتبطة بهذا المعبد الأول ترجع إلى عصور سحيقة إلا أن هناك أدلة أخرى تبرهن على وجود آثار أقدم منها،

---

(١) انظر دراسة السيد هوريبه الخاصة بالآثار الفلكية والتي تتناول التحديد الدقيق للعصر الذي بلغ فيه الانقلاب الصيفي كوكبة الأسر.

فالمديد من الحجارة المستخدمة فى بناء هذا المعبد الكبير ليست إلا أنقاض بعض الأبنية السابقة له. وهذا الافتراض الذى اكتفينا بالإشارة إليه فى البحث الثانى لهو جدير بعرض أكثر تفصيلاً.

وتجدر الملاحظة أن أحد أعمدة الرواق تالف بشكل ملحوظ (انظر البحث الخامس). وقد لاحظ بعض منا عند تفحصه للمبنى نقوشاً هيروغليفية ملونة على واجهات الحجارة المخبأة بداخل العمود. وأول ما يخطر على بالنا عند رؤية هذه الأحجار أنها كانت جزءاً من مباني أقدم من هذا المبنى، إلا أنه لما كان تبني هذه الفكرة يترتب عليه نتيجة بالغة الأهمية بشأن مسائل الآثار القديمة، فنحن لم نرد التذرع بها دون دراسة. ألا يمكن لنا أن نعتقد أن المصريين قد ولعوا بكثرة الرموز الدينية فنقشوها حتى على الواجهات المختبئة للأحجار، وهم الذين ينقشون حتى بداخل التوابيت التى لا تفتح البتة؟ إلا أننا قد عمدنا إلى دراسة متأنية لداخل الأعمدة والأحجار التى سقطت عنها، لم يكتشف إلا نقوشاً هيروغليفية ناقصة أو مقلوبة الأوضاع وأشكالاً مقطوعة من المنتصف حيث لا يوجد أى تسلسل أو علاقة بين مختلف الأحجار المكسورة، وقد رأينا هذه النقوش الهيروغليفية على الواجهة الأفقية لبعض الأحجار أو على واجهتها الرأسية، حيث كانت إما مائلة مقلوبة الأوضاع تماماً، بل كانت هناك بعض الأحجار المارية تماماً من أى نحت. وكان يتعين الإبقاء على الاعتقاد بأن هذا العمود قد أنشئ من أنقاض أبنية أخرى سابقة، وتأكدت هذه الفكرة بتكرارنا للملاحظات نفسها فى أماكن أخرى.

وبدون إدعاء منا بتحديد عصر إقامة هذه الآثار السابقة، فسوف نقدم ملاحظتين. الأولى هى أن المصريين، الشديدي الورع والإجلال لكل ما هو قديم، لم يكن يسهل عليهم اتخاذ قرار هدم أو تدمير معبد، وكان يستلزم لقيامهم بذلك أن يكون متهاكاً أو على وشك الانهيار أو حتى انهيار بالفعل. إذن، إذا كانت الآثار التى نراها اليوم والتى يعود أحدثها إلى ألفين أو ثلاثة آلاف عاماً مضت قد ظلت على حالها لم تمسسها يد وكأنها جديدة، إلى أى زمن ينبغى علينا أن نعود بتلك الآثار التى كانت تتحول إلى أطلال حال بناء المعبد الكبير،



وهو أقدم مباني الجزيرة؟ أما الملحوظة الثانية التي ننهي حديثنا بها هي أن نقوش الأنقاص المؤلفة للعمود على درجة عالية من الإتقان الذي تم به إنجاز أحدث الآثار، وبقدر حكمنا عليها من ملاحظتنا لعدد صغير من الأشكال ، فقد اتبع فيها أسلوب الزخرفة ودقة الازميل وحتى الألوان نفسها، إذن ، علينا إدراك أنه في وقت تشييد هذه الآثار السابقة، كانت الفنون قد وصلت بالفعل لدرجة عالية من الإتقان لم تنتقل منذ ذلك الحين إلى المصريين، وهذا ما يجعلنا نفترض أن هذه الأمة كانت مؤكدة وأن حضارتها قد بدأت قبل زمن طويل من هذا العهد.

وهكذا ، ونتيجة لمجموعة من الاستقراءات التي لا نعتد بها البتة كبراهين، وإن كانت تمتاز بأنها تفرض نفسها بصورة طبيعية ، نجد أنفسنا مدفوعين بالفعل إلى تصور وجود عصور قديمة لدى المصريين ستقوم وقائع وبراهين مختلفة بإقامة الدليل على وجودها.

## الفصل الثانى

### وصف أسوان الشلالات

### بقلم جومار

#### القسم الأول: أسوان وضواحيها

#### المبحث الأول: الموقع الجغرافى لأسوان

كان لقرب مدينة أسوان من المدار، وقياس مساحة الأرض الذى قام به إراتوستين أثر كبير فى منح هذه المدينة شهرة كبيرة حتى أن أحدا لا يجهل اسمها ولا موقعها. وقد سمع أولئك الذين ليست لديهم إلا فكرة ضئيلة عن مصر، عن بئر أسوان الذى كان نور الشمس يضيئه بالكامل يوم الانقلاب الصيفى وقت الظهيرة<sup>(١)</sup>. ويقال إن جوهينال قد نفى إلى هذه المدينة بعد أن هجا الممثل الهزلى باريس الذى كانت له حظوة لدى دوميسيان<sup>(٢)</sup> فأى مقام

---

(١) يحكى أن فى مدينة أسوان الظل لا يمتد فى منتصف النهار. ولكن ينبوع مدينة أسوان - رمز الكرم - يفيض على الجميع (بلىنى، التاريخ الطبيعى، الكتاب الثانى، ص ٧٢) راجع أيضا استرابون وهليودور... الخ.

(٢) ويزعم كثيرون أنه قد أقصى إلى الواحة حيث مات هناك. ومن بين الرومان يذكر أيضا شخص يدعى موروس تيرينتيانوس كان قد نظم قصيدة عن بعبور الشمر اللاتينى وقد عاش فى أسوان وكان حاكما لها.

بالنسبة لرجل قد اعتاد أن ينعم بجمال طقس إيطاليا وبمنظر عاصمة العالم، يمكن أن يكون في مدينة متهدمة مثلما كانت أسوان في زمن جوفينال، في مكان قد أحاطت به من كل جانب صخور عارية وقائمة اللون وتغطيها سماء ملتھبة لا تطف من حرارتها نقطة مطر واحدة! وقد وصف مارسيال ما كانت عليه هذه الأرض من جذب وقتامة في بيت شعر واحد حيث قال:

"إنك، تعرف أن جويتير الفاروس يفرق أسوان المظلمة مرات عدة"<sup>(١)</sup>.

ولكن هذا المكان الموحش والمتعدرة سكناه بالنسبة للأوروبيين، كان بالنسبة لعلماء الجغرافيا من أهم بقاع المعمورة. فقد استخدمه إراتوستين وهيبارك واسترابون وبطليموس كنقطة بداية لتحديد مواقع بقاع الأرض. كما كان يمثل في المصور القديمة المدينة الوحيدة الواقعة تحت ذلك الخط الذي يفصل المنطقة الحارة عن تلك التي نسكنها.

ولم يكن هذا الخط يمر، بأى موقع آخر لافنت للنظر على الأرض بخلاف مصبات نهري السند والجانجا. أما اليوم، فلا يمكن أن نذكر سوى مدن شاندر ناجور وكانتون في آسيا، وهافانا في جزر الأنثيل التي تقع بالقرب من هذا الخط مثلما هو الحال بالنسبة لأسوان الآن. وأنا لا أتحدث في هذا المقام عن ينبع أو جزر ساندويتش أو غيرها من الأماكن التي لا تمثل أى أهمية تذكر.

ومنذ ما يتراوح بين قرنين وثلاثة قرون، أجرى العلماء عددا كبيرا من الأبحاث لتحديد مساحة مصر بمقياس إراتوستين، ومن ثم تقدير هذا القياس للأرض من خلال الامتداد الطولى لمصر. ولأنهم لم يعرفوا الموقع الجغرافى الحقيقى لأسوان فقد كانوا يتيهون في حلقة مفرغة وكان ينقص أبحاثهم القاعدة الأساسية. وأخيرا تحققت أمنية العلماء ، فقد حدد نويه في ملاحظاته الفلكية هذا الموقع عند خط عرض ٢٥° ٥' ٢٤" - وعند خط طول ٢٤° ٢٤' ٣٠" جنوبى باريس. وتبعا لما استشعره بطليموس فقد كان البعض (ومن بينهم دانفيل المشهور) يظنون أن أسوان تقع عند خط عرض ١٥° تقريبا أو أسفل جنوبى موقعها الحقيقى بحوالى سبعة فراسخ، مما يطيل كذلك مساحة مصر. أما

---

(١) مارسيال، قصائد.

البعض الآخر، فكانوا يرون أن هذه المدينة تقع مباشرة تحت المدار، وكانوا ينقصون أكثر من خط عرضها وقد خدعهم ما روى منذ زمن سحيق عن بئر أسوان، متجاهلين أو مجادلين في انحراف فلك البروج. وأخيرا، فهناك مجموعة ثالثة لم تنتبه إلى أن ظاهرة امتصاص الظل لا تقتصر على خط محدد، ولكنها تحدث بالنسبة لبقعة أرضية بأكملها توافق قطر الشمس أى بمقدار يزيد عن نصف درجة عرضية.

ولا شك في أن هذه الحالة الأخيرة - وهى التى لم يكن القدماء<sup>(١)</sup> يجهلونها- كانت السبب فى الإبقاء على رأى القائل بأن أسوان كانت تقع تحت المدار حتى بعد أن أصبح موقع هذه المدينة لا يتفق مع ما يشير إليه هذا الرأى منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام وحتى إلى يومنا هذا. وفى القرن الثانى الانقلاب الصيفى كانت الحافة الشمالية للشمس لا تزال تصل إلى السمى فى أسوان يوم دورة انقلاب الشمس الصيفى وهو ما كان يكفى لكى لا يكون هناك ظل كما ذكر آريان فى عام ١٢٠ ميلاديا تقريبا. وانطلاقا من قياس هيبارك<sup>٢</sup> ومن الانحراف الذى تم حسابه بصورة تقريبية بالنسبة لهذا الوقت، فلا بد أن ميل فلك البروج كان يبلغ ٢٥° ٤٩' ٤٣" . فإذا أضفنا إليه متوسط نصف قطر الشمس أو ٥٧° ١٥' كانت المحصلة ٢٢° ٥' ٤٤" ، وهو خط عرض أسوان بفارق<sup>(٣)</sup> تقريبا . وقد كانت لدى الكتاب السابقين أمثال بلوتارخ وبلينى لوكان وهيبارك وإراتوستين أسباب وجيهة للقول بأن عقرب المزولة لم يكن يسجل أى ظل فى أسوان يوم انقلاب الشمس<sup>(٤)</sup>. أما بطليموس وبوزانناس وأخيرا أميان مارسلان الذين كانوا يكتبون فى القرن الرابع، فمن السهل أن نتصور كيف أنهم نقلوا نفس الظاهرة سواء أنهم كانوا يتمسكون فيها بمأثور مؤكد، أو لأنه كان لا يزال يتم فى عصرهم مراقبة

(١) يرى كلهميد أن الظلال تعتمد على مساحة تبلغ ثلاثمائة غلوة عندما تكون الشمس فى السمى وهو ما يقدر بثلاثين دقيقة بحساب الغلوة ٦٠٠ درجة (علم التنيرات والطوامر الحيوية، الجزء الأول).  
(٢) اعتقد أن دولانوز هو الأول والوحيد الذى قدم تفسيراً مشابها ولكنه أخطأ بالنسبة للتناقص الذى يحدث ل قرن فى الميل قدره بأكثر من ٦٦، فى حين أن هذا التناقص لا يزيد اليوم عن ٥٠ على الرغم من أنه يفوق ذلك الذى كان يحدث فيما مضى. كذلك فقد أخطأ بشأن خط أسوان الذى قدره عند ٢٠ ٥٩ ٢٣ وهو خطأ يتوافق مع الخطأ الآخر إلى حد ما.

(٣) (انظر دراسات أكاديمية النصوص والأدب، المجلد ٩٢ - ١٢) ..

المزولة الشمسية في أسوان، لأنه لو كان هناك شعاع رأسى لا يستمر سوى دقيقتين أو ثلاث لأحدث ظلا لا يمكن للعين أن تراه مطلقا.

أما اليوم فقد اقترب المدار كثيرا من خط الاستواء ومسافته في أسوان ٢٣" في الجنوب أو أكثر من خمسة عشر فرسخا ونصف الفرسخ، ولا تصل حافة الشمس إلا عند ٣ " ٢١ من سمت هذه المدينة وهو ما ينتج عنه أن الظل يكاد لا يكون محسوسا عند الانقلاب الصيفي حيث لا يزيد عن واحد على ثمانين (٨٠/ ١) من الجزء تقريبا. فلو كان هناك عقرب مزولة يبلغ ارتفاعه عشرين متراً لما أحدث ظلا يزيد عن خمسة سنتيمترات أو أقل نظراً لشبه الظل، لكن لو أمكن الرصد عند بئر أسوان القديمة لأمكن رؤية أكثر من نصفها مضاء.

ومن ثم، فإن القياس الجديد يفوق كل الارتفاعات التي كانت قد نسبت إلى هذه المدينة . وقد كان بطليموس أكثر من أنقص خط عرض هذه المدينة من بين القدامى ، حيث حدده عند ٢٣ ° ٥ \_ أما هيبارك الذي كان يحسب ستة عشر ألفا وثمانمائة غلوة بين خط الاستواء وأسوان<sup>(١)</sup> وفي الدرجة الواحدة سبعمائة غلوة، فقد كان يقترب أكثر من الحقيقة. فهذا الحساب كان يفترض ٢٤ \_ خط عرض؛ ومن المفترض أنه كلما كان ميل فلك البروج أقل ، فإن خط العرض هذا يصغر وفقا للرأى المسبق الذي كان يربط أسوان بصورة ما بالمدار<sup>(٢)</sup> .

ونتيجة لهذه الظاهرة ولأكبر خط عرض معترف به اليوم بالنسبة لأسوان، فإن أصل هذه الرواية الفلكية يعود إلى زمن سحيق، أى إلى أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد ؛ وهى تعد أقدم ما وصلنا من رصد لانقلاب الشمس. ولسنا هنا فى مقام البحث عن كيفية استدلال اراتوستين من خلال موقع أسوان على طول قوس خط نصف النهار فى مصر، ولا حساب محيط الأرض الذى توصل إليه من خلال هذه النتيجة. فهذا البحث يتطلب عملاً من نوع خاص. ولكنى سأدون ملاحظة؛ وهى أننا افترضنا دون ترو أو تريث أن هذا الرجل الحاذق قام برصد الأرض دون أن يكون هناك أى دليل تاريخى على ذلك<sup>(١)</sup> وهناك فرق كبير بين قياس لتحديد الارتفاع ربما كان قد قام به فى الإسكندرية وحساب مأخوذ من مسح لأراضى مصر كان قد تم إجراؤه قبل العصر اليونانى بوقت طويل، وبين

(١) استرابون، الجغرافيا، باريس، ١٦٢٠، الجزء الثانى، ص ١١٤..

(٢) أدق المحدثين تحديدا لهذا الموقع، حيث حدده عند ٤٥ : ٢٤..

قياس حالى أجرى على الطبيعة وكما تفترضه عملية بحثية مماثلة<sup>(٢)</sup>. وقد وصل الأمر إلى أن نسبنا إلى عصره بئر أسوان. ولكن لو أنه كان قد ذهب حتى هذه المدينة وحفر هذه البئر لكان قد غير رأيه عندما أدرك أن مركز الشمس المدارية كان يعتمد عن هذه المدينة بحوالى ربع درجة ولا تبه أكثر نحو الجنوب بحوالى ستة أو سبعة فراسخ لحفرها. غير أنه بعيد عن هذا الدافع، فلا بد أن نسجل أنه لم يحدث أن أخبرنا أحد من الكتاب أنه قاد عملية لقياس منحني الأرض، أو أنه قد ذهب إلى أسوان أو أنه قام بحفر البئر ذائعة الشهرة. ولا مجال للشك في أن هذه البئر ترجع إلى علماء فلك أقدم من اراتوستين، وأن عمرها يرجع إلى ذلك الزمن الذي كان يمر فيه مدار الصيف بهذه المدينة الواقعة في أطراف مصر<sup>(٣)</sup>.

- (١) يستخدم بليني عبارة (نشر) عندما يتحدث عن هذا القياس لإراتوستين (الكتاب الثانى، المقطع ١٠٨).
- (٢) راجع وصف كوم أمبو فصل ٤، المبحث الثالث.
- (٣) تبين عبارات استرابون أنه كان قد تم حفر هذه البئر لمعرفة يوم انقلاب الشمس (الجغرافيا، باريس، ١٦٢٠، الجزء ١٧، ص ٨١٧).
- وحدود هذا الوصف لا تسمح بالدخول في تفاصيل أكثر، ولكني احتفظ بها لمؤلف آخر عن النظام المترى عند قدماء المصريين يمثل ما جاء فيه أسسا وقواعدا عملي حول الجغرافيا المقارنة لمصر وأحاول في هذه المؤلف إثبات النقاط الآتية:-
١. أنه قد تم منذ زمن سحيق قياس درجة الأرض في مصر وكذلك قياس محيط الكرة الأرضية.
  ٢. أنه قد اختير جزء قاسم من هذا المحيط ليكون وحده للقياسات الوطنية، وعلي هذا الأساس وضع نظام كامل للقياسات الطولية وقياسات الأراضى.
  ٣. أنه عند إقامة النظام المترى تم الاحتفاظ بالتقسيم الأثنى عشرى والسثنى وهو تقسيم خاص بالقياسات الطبيعية للجسم البشرى التى كانت تستخدم قبل وضع النظام المترى.
  ٤. أن المصريين قد رسخوا نظامهم القياسى في آثار ضخمة كان من شأنها أن توارثه خلفهم.
  ٥. أخيرا أن الإغريق والمبرانيين والعرب قد اقتبسوا من مصر القديمة جزءاً من قياساتها الجغرافية والمدنية. وملحق بهذا المبحث أننا عشر جدولا للقياسات المقارنة المأخوذة عن كتاب أصليين، مع ما يوازنها بالأمتار، وأخيرا عمليات بحث في أصل تسميات القياسات.....
- ولإعطاء فكرة عن الترتيب المتبع في التقسيم المترى ساكتنى هنا بذكر العبارات الرئيسية في الجدول.
- الستين : قياس جغرافى كبير ويساوى ٦ أميال أو ٦٠ غلوة الخ.
- الدرجة تساوى ١٠ شون أو ٦٠ ميل الخ.
  - الشون يساوى ٦ أميال أو ٦٠ غلوة الخ.
  - الميل يساوى ١٠ غلوت أو ٦٠ بلثيرونه الخ.
  - البلثيرونه يساوى ١٠ قصبات الخ.
- وبالتالى، فإن القيمة المتتالية لهذه القياسات هي ست درجات، درجة واحدة، ست دقائق، دقيقة واحدة ست ثوانى، ثانية واحدة، ست ثوانٍ الخ.

لما كانت المسافة بين أسوان والمدار هائلة فريما يكون من المناسب أن نوضح أن الاسم الحديث لأسوان يتفق تماما اسم مما يؤكد الاستنتاج الذى يمكن أن نستخلصه من قريها من قبلة والجنادل وغيرها من الادلة الجغرافية. هكذا يكون اسم المدينة " أسوان " وكذا من أخميم وأبو صير وعدد من الأسماء الأخرى التى أستطيع ذكرها ، والتى اعتقد أن العرب قد أضافوا على سبيل الترخيم ألفاً هى بداية بعض الأسماء المصرية أو اليونانية بحيث يتعين لاكتشاف هذه الأسماء القديمة . قراءة الأسماء الجديدة كالتى:

أى إضافة الألف للاسم أ- أسوان ، أ- أخميم ، أ- أبوصير ولكن هذه الملاحظات الخاصة بأصل اشتقاق كلمات تنتمى إلى الدراسات الخاصة بالجغرافيا المقارن.

### المبحث الثانى: المدينة القديمة والمدينة الحديثة

كانت مدينة أسوان القديمة تقع جنوب غربى المدينة الحديثة ، وكان النيل يحدها من جهة والصخور الجرانيتية من جهة أخرى. وكانت تشغل منحدر الجبل عكس ما هو معتاد بالنسبة للمدن المصرية . ونظرا لأنها سبق تدميرها فى عصر الغزو العربى ، فقد فقدت الكثير من مساحتها لصالح النطاق المُسَوَّر الذى أقامه العرب على بعد ثلاثمائة متر<sup>(١)</sup> مع حفر خنادق كبيرة فى الداخل والخارج . وهذا النطاق مزدوج ومحصن وفقا لأسلوب الإسكندرية العربية ، وهو مقام بصفة عامة فوق صخرة مكشوفة وفقا لتمرجات الجبل . وقد أقيم أحد أوجهه عموديا على حافة النهر . ولا تزال الأسوار باقية وقد شيدت بالكامل من أججار جرانيتية تم الحصول عليها من بقايا منشآت قديمة . وعندما يكون المرء غربى أسوان أو فى الطريق إلى جزيرة فيلة يندعش لرؤية هذا النطاق الطويل وقد أحيطت كل جوانبه بالحصون والأبراج المربعة . والأغرب من ذلك أنه يتكون

---

(١) مائة وأربع وخمسون قامة .

بالكامل من أحجار ذات لون وردي أو أسود أو يميل إلى الاحمرار موضوعة بأشكال مختلفة وقد أظهرت في درجاتها بجميع أنواع الجرانيت الشرقى الجميل وهناك منظر آخر أكثر ندرة في مصر وهو منظر أنقاض المباني التي تحتل أعلى جزء من المدينة بالقرب من النهر<sup>(١)</sup> وهذه الأجزاء الضخمة من الأسوار المقسمة إلى طوابق ، وأشجار النخيل الكثيرة التي تخرج من الجرانيت ، وهذا التل من الصخور ومن الأنقاض التي تختلط ألوانها بعضها ببعض ، وأخيرا هذا الأفق المحدد في كل خطوة ، كل ذلك يمثل مشهدا لا يوجد في أى مكان آخر من هذا البلد ، فلا توجد تقريبا في أى مكان مساكن مبنية على المرتفعات ، وأما الأشجار، فهي توجد دائما على أرض سوية ومستوية ، كما أن الأفق مكشوف في كل مكان من هذا البلد . ويصفة عامة ، فهذا الجزء من أرض مصر يحمل طابعا منفردا في جاذبيته يشد انتباه الرحالة خاصة وأنه يختلف عن الطابع العادى. والجبال داكنة اللون التي تطأها الأقدام أو التي تسترعى الانتباه من كل جانب، وكذلك كتل الجرانيت التي ترتفع فوق سطح النهر، إنما تضيف الكثير الى هذه اللوحة. وإذا انتزعنا شظية من هذه الصخور كثيرة الألوان لاندھشنا لرؤية تلك الدرجة الوردية اللامعة التي كشف عنها هذا الكسر. وقد نتساءل عما إذا كان لون السطح الداكن القاتم يرجع إلى تأثير الهواء أم أنه بفعل تأثير الشمس . ولكن ماذا عساه أن يفعل هواء دائم الجفاف في مادة يمثل هذه الصلابة ؟ وبالنسبة للحرارة فلا يمكن أن نعزى إليها هذا التأثير إلا إذا كانت مرتبطة بمرور وقت طويل جدا ، فالنقوش الهيروغليفية المحفورة على هذه الأحجار منذ زمن طويل لا تزال تحتفظ بلونها الوردى الرائع .

وقد غطى المصريون الأسطح الملساء للصخور الموجودة في ضواحي أسوان كافة بالنقوش والهيروغليفيات ، وبخاصة الكتل الممودية التي تفرمها المياه . وهذه النقوش تتفاوت في حجمها وقد حضرت بدرجات متفاوتة من العمق . فمنها ما يمثل صور لآلهة في خلفية مشكاة ، ومنها ما يمثل أضحيات وقربانين ،

(١) انظر اللوحة رقم ٣٠، شكل ٤.



وكلها تنم - كما هي الحال في فيله - عن العناية والمشقة التي لزم تكبدهما لإنجازها وقد تم نقش كتل جزيرة فيلة التي في المواجهة بالطريقة نفسها.

و قد يكون من الممتع اكتشاف معنى النقوش التي ربما لا تحمل جميعها موضوعات دينية، وربما كانت لها علاقة باستخدام الكتل الضخمة التي حفرت عليها. وهذه الصخور الموجودة على حافة النيل حالكة السواد أكثر من غيرها، وقد أضفى عليها تلاطم المياه لمعة ورونقاً خاصاً لا يمكن تصورها تماماً إلا بعد رؤيتها على الطبيعة.

ونطاق المدينة المربية ملء من الداخل بأنقاض متراكمة فوق كتل الجرانيت التي أقيمت عليها تلك المدينة، ويبلغ طولها ما بين سبعمائة وثمانمائة متراً. ويتجه الطريق من أسوان إلى فيلة نحو الجنوب. ونلاحظ من ناحية الشرق هضبة مرتفعة جداً كان الجيش الفرنسى قد أقام عليها حصناً، ويوجد أسفل منها معبد مصرى شبه مغطى بالرديم والأنقاض، إلى الشمال منه أعمدة جرانيتية منعزلة وهى أحدث في بنائها من المعبد. وأخيراً نجد في الشمال مبنى يمتد أنه رومانى ويتجه نحو حافة النيل حيث ينتهى بمبنى مربع يشبه ذلك الذى تنتهى به قناطر القاهرة<sup>(١)</sup> وكان النهر يحد هذه المدينة من جهة الشمال، وكانت مقامة على منحدر خفيف تملأ اليوم أشجار النخيل.

والشاطئ مغطى بالرمل والطين الذى يلقى بهما النيل وقت الفيضان. ويوجد به الكثير من الأشجار الصغيرة التى تسترعى الانتباه<sup>(٢)</sup>، إحداها من فصيلة الصقلابيات الكبيرة ويطلق عليها العملاقة، وثمارها مستديرة وحويصلية ويبلغ حجمها أربع بوصات وهى شائعة جداً في رمال كوم أمبو وهى صحراء الفيوم وكافة الأماكن شديدة الجذب أما الأخرى، فهى إحدى فصائل السنط ويبلغ ارتفاعها ما بين خمسة وستة أقدام. تلفت إليها الأنظار بزهورها البنفسجية الجميلة، وثمارها كروية الشكل ذات الوبر واللون الأصفر الذهبى، وبصفة خاصة

(١) فانظر للوحة رقم ٢١ ولوحة رقم ٢٢ شكل ٢.

(٢) انظر لوحة رقم ٣٠ شكل ٤.

حساسيتها الشديدة. فبمجرد أن نلمس أحد فروعها تقترب الوريقات بعضها من بعض ثم تتخفض الأوراق ثم يميل الفصن كله. ويحتاج الأمر بعد ذلك دقائق عدة حتى يستعيد الفرع حالته الأولى، حيث ينهض ببطء، ثم تنتصب أوراقه وتتفتح الوريقات من جديد<sup>(١)</sup> ويعرف السكان تماماً هذه الخاصية الفريدة ولكنهم يمزونها إلى تأثير السحر. وقد سمعت أحدهم يلمس الشجيرة وهو يقول بصوت خفيض "يا شجر الحباش، يا كلمنجي يا كلفاش"، (الحابش هو اسم النبات). ها هي ذى الكلمات المقدسة التى لا بد أنها كانت تحدث تلك الظاهرة<sup>(٢)</sup>.

لقد اصطحبت القارئ عبر مدينة المرب وقلت إن المدينة القديمة كانت قد اختفت بصورة شبه تامة تحت أبنية القرن الأول من العصر الإسلامى. وقد انهارت هذه الأبنية بدورها ولم يبق منها سوى أنقاض. ومن قبل كانت المنشآت والأبنية الرومانية التى أقيمت على أطلال المدينة المصرية قد لقيت المصير نفسه. وهكذا نجد الشعوب والعصور المختلفة تتعاقب فى أسوان أكثر من أى مكان آخر. فكل شعب وكل جيل قد ترك آثاراً لوجوده أو لمروره. وهذا الخليط يؤذى العين ويشير الفضول ويفسح المجال للتأمل والتفكير.

وبعد المدينة المربية جاءت المدينة الحديثة التى يمتد أنها أنشئت فى عصر سليم. وتقع أكثر نحو الشرق فى جزء متراجع، وتحيط بها من الشمال الشرقى أشجار النخيل وحدائق تمتد بعيداً على شاطئ منخفض يكون مستقماً بعد الفيضان، وفى الجنوب يوجد الجبل وهو وعمر وملئ بالمحاجر، ومن ناحية الشرق مساحة واسعة تشغلها منازل منبسطة حتى الأرض. ويبلغ طول المدينة حوالى ثمانمائة متراً أو أربعمائة قامة. وبيوت المدينة مبنية من الطين بوجه عام. ونلاحظ فى الكثير من هذه البيوت وجود قباب بدلاً من الأسقف وتتكون من صف واحد من الطوب مما يحول دون صمودها طويلاً.

(١) هو نفسه النبات الذى يسميه بروس أرجت «الكرون» والذى وجدته فى الحبشة (راجع لوحة رقم ٧ من أطلس رحلة بروس).

(٢) أبلغت السيد ريج بهذه العبارة المربية فأعطاني حروف كتابتها. فالكلمات الأولى تعنى يا شجر الحباشى وهو التعبير السليم أما بقية المبارات فلا علاقة لها بخصوصية الشجرة.

والميناء الذى ترسو فيه مراكب القاهرة ميناء واسع تغلقه الصخور فى أحد جوانبه. ويعمل السكان بصورة أساسية فى تجارة التمر. وترسل إلى القاهرة هذه الثمار وكذا ثمار السنا التى تأتى من البلد الواقع أعلى وهى التى تنقل بالمراكب حتى الجنادل ، ثم من هناك حتى أسوان على ظهر الجمال. وتجارة التمر تجارة ضخمة بما يكفى لإحياء المدينة. ومع ذلك يبدو أن السكان يمانون من البؤس الشديد، فأغلبهم يسير شبه عار، كما نقابل فى كل خطوة نخطوها أطفالاً عراة تماماً. والحقيقة أن حرارة الجو الشديدة والكسل المفرط الذى يتسم به أهل البلد يشجعان كثيراً هذه العادة وهذا الميل للعرى. ولذلك فإن أجسادهم تأخذ نفس سمرة وجوههم حتى أن بشرتهم تقترب كثيراً فى لونها من لون الزوج بقدر ما تختلف ملامح وجوههم عن ملامح هؤلاء الزوج. ويبدو أن عدد سكان هذه المدينة كان كبيراً، وهو ما نستدل عليه من عدد القبور التى تحيط بها.

وأترك لآخرين غيرى تناول أسوان الحديثة وتجارتها تفصيلاً ، وقد سبق أن تحدثت الرحالة فى هذا الصدد، وبصفة خاصة بوكوك . ولن نذكر من الوضع الحالى للأماكن إلا ما يمكن أن يقدم أوجه تقارب مع الحالة القديمة لها.

### المبحث الثالث: المعبد المصرى وباقى آثار أسوان

أقيم المعبد المصرى الذى لا يزال موجوداً فى أسوان، فى المدينة القديمة على منحدر المرتفع الذى سبق أن تحدثت عنه على بعد مائة وعشرة أمتار شرقى آخر بيت من بيوت المدينة الحديثة وعلى بعد مسافة مماثلة من مكان وصول المياه فى حالة ارتفاع النهر. وأنا أحدد موقعه بدقة للمساعدة فى العثور عليه إذا ما حدث واختفى تماماً تحت الانقراض كما يرجح بشدة. ندخل فيه أو بتعبير أدق ننزل فيه اليوم عن طريق المسطح الذى يوجد جزء كبير منه غائر حتى أننا نجد أنفسنا على أرض مكونة من الرمال والتراب. وكل ما يمكن التعرف عليه من هذا المعبد هو رواق من أربعة أعمدة وقطع انتزعت من جدرانها، ذلك لأنه قد تهدم

وَعُطِيَ بالرديم<sup>(١)</sup> وكان عرض الرواق يبلغ ثلاثة عشر متراً<sup>(٢)</sup>، ويبلغ ما بقى من طوله أحد عشر متراً<sup>(٣)</sup>. ولا يزال الكورنيش وتيجان الأعمدة ظاهرة . ومن خلال المقارنة بالآثار الأخرى يسهل تخيل الواجهة الخارجية بالشكل الذى ينبغى أن تكون عليه ، والمدخل يتجه نحو النهر ، ووسط الصخور الجرانيتية التى شيد فوقها هذا المعبد، نصاب بدهشة عندما نجده مبنياً بالحجر الرملى، ونجد هذا الأمر أكثر شيوعاً وأكثر لفتاً للنظر فى فيلة . وبصفة عامة فإن الأبنية الجرانيتية أكثر ندرة بكثير فى مصر عما يشير الاعتقاد إذا ما استثنينا الآثار المثبتة أحادية الحجر .

ومن بين الأنقاض يظهر بوضوح عمودان من أعمدة هذا المعبد الصغير . أما الآخران، فلم يمد من الممكن رؤيتهما . وهناك نوعان من التيجان يتمتعان بالمستوى نفسه لتتاسق الخطوط مع انحنائهما، وهما على شكل زهرة اللوتس ولكتهما يختلفان قليلاً فى الزخرفة . والمعمود الأقرب الى الباب هو من النوع الأكثر شيوعاً فى مصر<sup>(٤)</sup>. أما الجدران، فلا تغطيها النقوش إلا بصورة جزئية ولذا نعتقد أن المعبد لم يكتمل وما تبقى من النقوش ضئيلة البروز ذى درجة حفظ سيئة ولذا فلم يمكن التقاط أى موضوع منها . وبالتالي فلا جدوى من البحث عن الغرض من هذا المعبد ولا عن العبادة التى كانت تتم فيه لألهة مصر .

ولكن إذا تذكرنا أسوان فى المصور السحيقة وما كانت عليه من شهرة، لما أمكننا الاعتقاد بأن مثل هذا المبنى المتواضع كان معبداً الوحيد . وتفترض رواية بثر أسوان أن ذلك المبنى كان مرصداً أى أنه كان معبداً واسماً إلى حد ما ، لأن المراقبين كانوا كهنة، وكان الكهنة يقيمون فى المعابد . وسأدعم هذا الافتراض بشهادة أحد الكتاب العرب الذى يخبرنا أن البريا أو معبد أسوان كان ذائع الصيت، وكان واحد من أهم معابد مصر نظراً لضخامة أحجاره وقدم نقوشه<sup>(١)</sup>

(١) انظر لوحة رقم ٢٨ شكل ٥ .

(٢) أريمون قديماً .

(٣) أربعة وثلاثون قديماً .

(٤) انظر اللوحة رقم ٢٨ شكل ٨ .

ولكن أياً كانت هذه المباني فقد اختفت مع البئر نفسه تحت الانقراض المتراكمة للمدينة المصرية، والمدينة الرومانية، والمدينة العربية.

ومن بين هذه المباني التي يعود تاريخها للمصور القديمة لابد أن أذكر مقياس النيل الشهير الذى وصفه هليودور فى مؤلفه " أثيوبيات " عندما تحدث عن الأشياء اللافتة للنظر التى رآها فى هيداسب على الرغم من أنه كان يزور اسوان . وسأذكر هنا الترجمة الكاملة لنصه " لقد رأى أرونى التى تستخدم فى قياس النيل، وهى شبيهة بئر منف وقد بنيت من حجر مصقول<sup>(٢)</sup> حفرت عليه سطور تتباعد فيما بينها بمقدار ذراع. وعندما يصل الماء إلى هذا البئر عن طريق قناة تحت الأرض يعرف أهل البلد مقدار زيادة النيل أو نقصانه من خلال عدد العلامات التى تغطيها المياه أو تتركها مكشوفة، وهى التى تبين مقدار فيضان النهر أو انخفاضه. كذلك فقد رأى المزاوِل الشمسية التى لا تعطى ظلاً وقت الظهيرة لأن شعاع الشمس يكون عمودياً على أسوان يوم الانقلاب الصيفى وينتشر الضوء من كل جهة بحيث لا يفسح مجالاً لأى ظلال حتى أن سطح الماء يكون مضيئاً بالكامل فى قاع البئر ذاته<sup>(٣)</sup>. وقد كان مقياس النيل هذا لا يزال باقياً فى القرن الرابع ، ويقول المقرئزى إن عمرو بن العاص كان قد بناه. ولكن لا شك أن عمرو بن العاص لم يقم إلا بترميمه<sup>(٤)</sup>.

وربما يلزم الأمر البحث عن مقياس النيل هذا بالقرب من المبنى القديم الذى يفلق ميناء أسوان والذى سبق أن تحدثت عنه، فقد احتفظ بهذا الاسم ولا يزال يطلق على هذا المكان " مقياس " أى مقياس النيل<sup>(٥)</sup>. وهذا البناء المرتفع نوعاً

(١) كيرشر: أوديب المصرى الجزء الأول ص ٢٩.

(٢) لا أحاول أن أترجم لأن معناها يصعب تحديده، ووفقاً لكازويون فهو نفسى معنى quadratum sax- um: حجر مقطوع عند اللاتينيين، ولكنه من المشكوك فيه أنه بعد المشقة تم تكبيها لحفر البئر فى الجرانيت تتم تكسيته سواء بحجر منحوت أو بحجر رملى أو أى مادة أخرى.

(٣) أثيوبيات، الكتاب التاسع.

(٤) لا أناقش هنا مسألة ضرورة معرفة ما إذا كان ينبغي اعتبار مقياس النيل الذى تحدثت عنه هليودور هو نفسه الذى أشار إليه استرابون فى فيلة الجزء ١٧ من مؤلفه (الجغرافيا).

(٥) انظر لوحة رقم ٣١ ولوحة رقم ٣٢ شكل ٢.

يبدو أنه يمثل رأس أنبوب لتوصيل المياه الى الأجزاء المرتفعة فى المدينة القديمة، يرى البعض الآخر أنه عبارة عن حمامات مياه ممدنية و كان يستخدم هو نفسه بعد ذلك لقياس فياضانات النيل نظراً لأن مياه النهر كانت تغمره ، والنوافذ التى نراها فى هذا البناء المقود التى كانت تنتهى إليه ، ودقة الإنشاء كلها أمور تنبىء عن عمل قام به الرومان. ومن المعروف أنهم كانوا يحتفظون بفرقة فى أسوان وكذلك فى الفنتين، فقد كانت هناك أبواب الإمبراطورية الرومانية من جهة أثيوبيا.

وكذلك من المحتمل أن تكون تلك الأعمدة المشيدة من الجرانيت الأحمر الموجودة بين المعبد المصرى والنيل من صنع الرومان. ومن بين الانقراض تخرج أريمة أعمدة وأربع ركائز قائمة جزئياً. وتحمل الركيزتان الأماميتان نصف عمود على وجهين من أوجهما بحيث تمثلان على التخطيط صورة لقلب<sup>(١)</sup> والواقع أننا ليس لدينا أى معلومات تفيد فى معرفة نوع البناء الذى تتعلق به هذه الأعمدة.

### المبحث الرابع: ضواحي أسوان<sup>(٢)</sup>

عندما نخرج من المدينة المربية متجهين إلى فيلة نجد بين المسخور على يسار الطريق عدداً كبيراً من القبور التى لا ينبغى الخلط بينها وبين تلك الموجودة فى جنوب شرقى أسوان ، وهى أيضاً عديدة. فالمقابر الأولى ترجع لعصر الخلفاء، بل ترجع لزمن الفتح العربى وهو ما تؤكد الكتابات المحفورة على الأضرحة بالخط الكوفى ، يشير الكثير منها للسنوات الأولى الهجرية. وقد نقلنا أحد هذه النقوش . وهناك من بين هذه المقابر ما تم بناؤه بعناية ويتمتع بشكل معمارى جيد، وإن كان يتسم بالفراشة شأنه فى ذلك شأن الآثار المربية

---

(١) أراجع لوحة رقم ٢٨ شكل ٩.

(٢) هناك وصف مستقل لجزيرة الفنتين فى الفصل الثالث.

كافة. وكذلك نميز الكثير من المساجد ذات الطرز القديمة، وقد كتب على باب أحدها اسم شخص يدعى سليم تنسب له أخبار السلف أنه قام فى بداية الهجرة بطرد مرتين من المدينة القديمة ، وهذه المدينة التى احتلها العرب من جديد أعيد غزوها فى عصر صلاح الدين . وأخيرا، وفى القرن السادس عشر وقعت تحت نير العثمانيين مع بقيه مصر، بل إنهم استولوا على دبرى وابريم، حيث لا يزال الأتراك يحتفظون هناك بجنود من الإنكشاريين.

وهناك مساجد مشابهة مقامة على مرتفعات بين النيل وطريق فيلة، تبدو كالأبراج الصغيرة بمآذنها مستديرة الشكل. وفى هذا الجانب نفسه. وابتداء من شاطئ النهر، نستطيع أن نرى محاجر الجرانيت التى أخذ منها المصريون لنحت تماثيلهم الضخمة ومسلاتهم وغيرها من الأعمال التى صنعوها من كتله حجرية واحدة . إنها بقايا عديدة لأضخم ما صنعت يد البشر.

ولا نتناول مختلف العناصر فى هذه المنشآت الشاسعة بفضول شديد فحسب، ولكننا نشعر بنوع من التقدير عند رؤية الكتل الضخمة التى رفعت من الجبل أو حتى التى لم تفصل عنه بعد، وآثار قطعها التى لا تزال ظاهرة ، وعلامات تلك الأدوات التى لم تعد فنوننا تعرفها.

وهذا المشهد يحملنا بصورة ما إلى المصور القديمة، بل وسط المهندسين المعماريين والعمال المصريين الذين نراهم . إذا جاز التعبير وهم ينتقون كتلهم من الجبل، ويقومون بتكسيورها بالأسافين والإزاميل، ونحتها فى الحال وحملها إلى النيل وشحنها على طوف لتستخدم فى تجميل مدن مصر .

وتنتشر هذه المحاجر فى مساحة تزيد على ستة آلاف متر<sup>(١)</sup>. فى غربى أسوان وجنوبها وشرقها ، بل فى كل مكان فيها تقريبا يتم قطع الجرانيت عموديا . وكل كتلة كبيرة إلى حد ما مقطوعة من أحد جوانبها . وفى كل مكان نرى إما آثار للآلات وإما الثقوب المخصصة لوضع الأسافين فيها ، كما نرى الأرض وقد انتشرت عليها شظايا الجرانيت الوردى والأسود والبنفسجى درجات

---

(١) فرسخ وثلاث الفرسخ.

لا حصر لها . وعندما نرى على هذه الأوجه التى نحتت منذ قرون عدة ألوانها زاهية وأماكن الكسر وكأنها حديثة، بينما الأجزاء المجاورة ذات درجات قاتمة، ندرك ذلك الردح من الزمان الذى كان لابد أن ينقضى حتى يأخذ الصخر ذلك اللون القاتم .

وكانت الأسافين المدة لتكسير كتل الجرانيت توضع فى فجوات يتراوح طولها بين بوصتين وثلاث بوصات وعمقها مثل ذلك ، وتبتعد بعضها عن بعض بمسافة تبلغ ثلاثة أضعاف هذا القدر. ويفحص هذه العلامات عن قرب ، نجد أن العمال كانوا يختارون الأجزاء التى كانت الشقوق أو طبقات الحجرتين موضع انفصال الكتل فيها<sup>(١)</sup>.

وقد وجدنا الكثير من الأجزاء التى كانت معدة لرفعها لكنها ظلت باقية فى الحجر، ومن بينها عمود يتراوح طوله بين خمسة وستة أمتار، وجزء علوى من أحد الأبواب يسهل التعرف عليه ، حيث توجد كتله حجر تم قطعها وشذبتها فى الحال بمجرد فصلها عن جسم الكتلة الكبيرة .

ومن أهم بقايا المنشآت القديمة، وجدت مسلة منحوتة فى أحد المحاجر بجنوبى أسوان على بعد ألف متر<sup>(٢)</sup> من المدينة الجديدة ومثله من النيل. ويختفى أحد طرفى المسلة تحت الرمل، ويبلغ طول الجزء الخارج عن الأرض ثمانية عشر متر<sup>(٣)</sup>، وذلك دون حساب الرأس أو القمة الهرمية التى ينتهى بها هذا الطرف . ويبلغ أكبر عرض لها ثلاثة أمتار وعشرين سنتيمتراً \_ وأقل عرضاً مترين وستين سنتيمترا. ولابد أن أبعاد هذه المسلة كانت تقترب من أبعاد تلك المسلات التى نراها فى الأقصر.

ولكن من بين أطرف ما اكتشف وسط هذه البقايا للأعمال المصرية القديمة،

---

(١)راجع دراسة السيد روزيير حول المحاجر القديمة ويتناول فيها المؤلف بصفة خاصة الأسلوب العملى لاستغلالها عند المصريين.

(٢) خمسمائة قامة.

(٣) خمسة وخمسون قدماً ونصف القدم.



هناك صخرة جرانيتية كبيرة منحوتة تشبه الجدار، وتقع على بعد ثلاثمائة متر تقريباً جنوب شرقى المدينة الجديدة، تواجه الشمال، وهى ذات لون وردي متنوع الدرجات. وتحمل هذه الصخرة آثاراً كثيرة للأداة التى استخدمت فى فصل جزء منها. ولابد أن ذلك الجزء كان كبيراً، فالصخرة (الجزء الخارج عن الأرض فقط) يبلغ ارتفاعها أكثر من خمسة أمتار<sup>(١)</sup> وقاعدتها أحد عشر متراً<sup>(٢)</sup> وهذه المساحة التى تزيد على خمسمائة قدم مربعاً تغطيها بالكامل علامات إزميل مائلة وجميعها متوازية، يبلغ طولها حوالى ثمانى بوصات وأطرافها متراصة أفقياً. وقد قمت بإحصاء ثلاثمائة وسبع وأربعين علامة فى خط أفقى واحد فقط، وثلاثين خطاً أفقياً فى ارتفاع الصخرة. وتقع كل علامة من أحد الصفوف بين علامتين فى الصف السفلى منه، وذلك باستمرار دون انقطاع وبنفس الميل، باستثناء عدة ضربات إزميل على شكل شارية (حلية معمارية)<sup>(٣)</sup> وتتقسم هذه الكتلة إلى ثلاثة أجزاء مقعرة بصورة طفيفة. والطرفان أكثر ضيقاً وأكثر استدارة، أما الجزء الذى يقع فى الوسط، فهو شبه مسطح وغير متقعر إلا بالقرب من الجزئين الآخرين.

وعندما تفحصت الصخرة طويلاً تعرفت فيها على بقية تمثال ضخم تم استخراجها. وقد جعلتني هذه الفكرة أضع رسماً دقيقاً لها حتى يمكن مقارنة أبعادها بأبعاد التماثيل المصرية. وقد بدا لى بوضوح أن الجزء الأوسط عبارة عن ظهر التمثال. أما الجزءان الآخران، فهما الذراعان.

وتجدر الإشارة إلى أن الضخامة غير المادية لهذه الكتلة، لتمثالى ممنون<sup>(\*)</sup> فى طيبة اللذين يفوقان كل تماثيل مصر، وكذا تطابق المادة وتطابق اللون بينهما دفعتمنى للبحث عما إذا كان هذا التمثال قد صنع من هذه الكتلة. وأعتقد أننى استطعت أن افترض شيئاً شديداً الاحتمال وهو أن تمثال أوسيماندياس (رمسيس

---

(١) ستة عشر قدماً.

(٢) أربع وثلاثون قدماً (انظر لوحة رقم ٢٨ شكل ٣).

(٣) انظر اللوحة.

(\*) تمثالاً الملك أمنمحتب الثالث وهما الأثر الوحيد المتبقى من معبد الجنائزى على الضفة الغربية

للنيل فى الزهفر. (المراجع).

الثانى) الضخم الشهير الذى وصفه ديودور الصقلى وهو الذى لا يزال موجودا فى ممنونيوم مأخوذ بالفعل من هذه الكتلة ويظهر من محصلة الأبعاد المقارنة لهذا التمثال الضخم . التى لا أستطيع أن أقدم الدليل عليها دون الخروج عن الموضوع أن طوله الكلى يبلغ حوالى اثنين وعشرين مترا وعشرين سنتيمترا<sup>(١)</sup>، وعرض الجسم أو عرض الظهر ستة أمتار ونصف المتر<sup>(٢)</sup>، والحال أن عرض الصخرة فى جزئها الأوسط يبلغ أيضا ستة أمتار ونصف المتر . وإذا ما عارضنى أحد قائلًا بأن هذه الأبعاد قد تكون لتمثيل أخرى، فأسأل أين يوجد تمثال ثانٍ من الجرانيت بضخامة تمثال أوسيماندياس الذى كانت قدمه فقط تتجاوز سبعة أذرع<sup>(٣)</sup> وفقا لرواية ديودور . فلنتصور تمثالا من كتلة حجر واحد وقد صنع من مادة ذات بريق رائع وربما كانت رأسه تصل إلى عارضة أعمدة اللوفر، فهل يمكن لعمل من هذا النوع أن يختفى تماما؟ ألا يكفى عمل عملاق كهذا ليكون معجزة ثانية . إذا جاز التعبير . دون الخلق ؟

وعلى مسافة غير بعيدة من هذه الكتلة لاحظت عبر جبل الجرانيت شريطا عرقا معدنياً على شكل شريط زخارف رائع الجمال يتكون من لونين متميزين، وردى على الطرفين وأبيض فى الوسط وعرضه واحد على امتداد طوله ، ويبلغ نصف متر أو ثمانى عشرة بوصة . ويتجه هذا العرق المريض نحو حوض النيل بمنحدر سريع . ونرى الفلدسبات والبلور اللذين يتكون منهما وقد امتزجا معا هنا وهناك ، وأحيانا نجد البلور وقد اكتسب بطبقة من الميكا الذهبى شديد اللمعة، ثم نجد بعد ذلك هذه المواد الثلاثة تتحد بصورة وثيقة وتكون أخيرا الجرانيت المادى . ولا أستطيع الحديث أكثر من ذلك عن حالات هذه الصخور الأصلية، ولا عن التحولات الفجائية لأنواع الجرانيت ، وهى عوارض غريبة لابد أن يدرسها علماء الطبيعة<sup>(٤)</sup>، ولكنى أردت فقط أن أعطى القارئ فكرة بسيطة

---

(١) حوالى ثمانية وستين قدما راجع دراستى حول نظم القياس المترى عند قدماء المصريين .

(٢) بين تسعة عشر وعشرين قدما .

(٣) ثلاثة أمتار وربع المتر أو عشرة أقدام (راجع المبحث المذكور عالية) .

(٤) الوصف المعدنى لمصر، بقلم السيد روزيبر .

ممتعة وجذابة لمن يراقبها، وقد بهرتنى بشدة خلال الجولات التى قمت بها بين الصخور والمحاجر غير عابىء بالتعب ولا بلهيب الشمس . أين كان يمكن أن أجد موقعا يجمع آثاراً أو رائحة كبرى أكثر منه ، ويشير المزيد من الفضول أكثر من ذلك ويوقظ مزيداً من الذكريات ؟ ولنقل القارئ لهذا المكان فلا بد من الاستمانة بألوان رسام ماهر أو قلم كاتب كبير. أما الرحالة، فعليه الاكتفاء برواية الانطباعات التى تكونت لديه ويكون سعيداً لو أمكنه مشاركة الآخرين فيها<sup>(١)</sup>!

وفى نهاية هذا الوصف لضواحي أسوان أذكر واد كبير فى الجنوب مدفون الآن تحت الرمال، ويقال إنه كان مزروعاً فى سالف الزمان . وربما كان ليون الأفريقى يقصد هذا المكان عندما أخبرنا بأن أرض أسوان خصبة ومزروعة بالقمح ، فقد رأينا أن هذه المدينة يحاصرها النيل والجبال الآن، وأنه لا يوجد فى أرضها الحالية سوى أشجار نخيل ويقول الإدريسي عنها إنها مدينة صغيرة ولكنها غنية ومأهولة<sup>(٢)</sup>.

وكذلك لا بد من ذكر مكان يسمى " غريبى أسوان " أو أسوان الغربية ويقع على الضفة اليسرى للنيل فى مواجهة فيلة. ويتفق هذا الاسم تماماً مع Contra - syène المعروف فى المصور القديمة. ولم يعد يوجد فى هذا المكان سوى دير قبطى مهجور يقع وسط الصخور فى منتصف منحدر الجبل ويشرف على البلد. وقد تم حفر الجبل قديماً جداً، ووجد أن المبنى يضم من الداخل كهفاً مصرياً. ويوجد فى الجبل على بعد نصف فرسخ دير آخر ضخم ومهدم ، به رسومات مسيحية رديئة للغاية . وقد تم تحصين هذا الدير وأحدث فى سوره فتحات فى عصر غير معلوم. ويبدو أن النساك كانوا قد احتلوه مرات عدة. أما اليوم، فأطلاله مهجورة تماماً<sup>(٣)</sup>.

---

(١) استطاع مؤلف رحلة فى الوجه القبلى والوجه البحرى فى مصر ببراعة أن يعطى لوحاته كل ما تحمله رحلة مثيرة من تشويق وما يحمله أسلوب حيوى من سحر لا تحويه الأوصاف المتوالية فى هذا الكتاب.

(٢) جغرافيا النوبة. باريس، ١٦١٩، ص ١٧.

(٣) حتى تكون لدى القارئ فكرة كاملة عن ضواحي أسوان وفيلة عليه أن يتفحص اللوحة رقم ٣١ التى عبر فيها لوجنتى عن مختلف التفاصيل الطبوغرافية لهذا الموضع المشير. وقد جمع رسام هذه اللوحة ملاحظاته العديدة حول الوضع الحالى للأماكن فى دراسة. أما فى هذا الوصف، فقد حددت لنفسى هدفاً رئيسياً وهو التعريف بآثار هذا البلد.

## القسم الثانى : الجنادل

### المبحث الأول : ملاحظات عامة

كانت لجنادل النيل شهرة كبيرة عند القدماء ولا تزال تحتفظ بجزء منها . ولكن نظرا لعدم التمييز بين مساقط النهر المختلفة ، فهناك خطأ لا يزال قائما بالنسبة للجنادل الأخير من بينها ، وهو خطأ يرجع إلى زمن بعيد جداً . عندما أقدم وصفا دقيقا ومفصلا للمسقط الحالى بالقرب من أسوان كما رصدته ، وعندما أجمع هنا أكثر وثائق العصور القديمة صحة عن جنادل النيل ، فإنما أقصد توضيح هذه النقطة الجغرافية التى لا تزال حتى الآن مبهمة وغير مؤكدة .

وكبقية الأنهار الكبيرة فى العالم مثل ألجانجا ، أورينوك ، والميسيسيبي، فإن نهر النيل له مساقط عدة فى الجزء الأول من مجراه نعرف منها ثمانية مساقط رئيسية . وآخر هذه المساقط على بعد ما يزيد قليلا عن خمسة آلاف متر أو على بعد فرسخ من أسوان، أى على بعد مليون ومائة ألف متر أو مائتين وعشرين فرسخاً من مصبه الرئيسى، وعلى بعد ما يزيد على ثلاثة ملايين من المتر أو ستمائة فرسخ من النقطة التى يمتد بأن فيها منبعه . ومن ثم فإن جنادل النيل موزعة على مساحة من البلد تساوى ثلاثة أرباع مساحة مجراه بالكامل، وهو النهر الوحيد المعروف الذى نستطيع أن نقول عنه ذلك .

وسواء كان هناك خلط بين هذه الجنادل المختلفة بحيث كان ينسب لها جميعا دون تمييز ما لا ينطبق إلا على أكبرها، أو كان هناك عصر كان النيل يندفع فيه من ارتفاع شديد، فقد اتفقت آراء المصور القديمة على الحديث عن الجندل الأخير كمسقط هائل كان صوته المخيف يصيب سكان المناطق المجاورة بالصمم. ولكن إذا سلمنا بفكرة العصر القديم، فلا بد أن نتفق على الأقل على أن الروايات الخاصة بهذه الحالة الأصلية ظلت قرونا كثيرة حتى بعد تقلص المسقط بصورة شبه كاملة. فلا يمكن أن نقنع أحداً أن جرف شافوز قد اختفى تماماً مثلاً منذ عصر الرومان وحتى عصرنا الحالى. ولا نستطيع حساب عدد القرون التى لزمت لحدوث مثل هذا التغير الكبير الذى ما كان ليحدث إلا بدرجات لطيفة للغاية وما كنا لنستطيع الرجوع إلى أصل هذه الرواية كما رجعنا إلى أصل تلك التى كانت تقول إن أسوان كانت تقع تحت المدار. وبالتالي فلا يمكن الشك فى أن الروايات التى كانت تذكر بشأن هذا الجنادل - حتى فى عصر الرومان - كانت مبالغ فيها وأن الكتاب نقلوا إلينا ذكرى قديمة كما لو كانت حدثاً يقع حالياً. ولابد أن وجود جندل جناديل - وهو أضخم بكثير ويقع على مسافة تقل عن مائتين وخمسين ألف متر أو خمسين فرسخاً - قد أسهم كثيراً فى شهرة الجندل الأخير، ولكن فى بلد غير معروف على نحو تام وكامل، فإنه من السهل الخلط بين الجنديلين .

ولكن إذا كان الخطأ أو المبالغة قد أعطت فكرة خاطئة عن جندل أسوان، فلا يمكن أن ننكر من جهة أخرى أن هذا الموقع نفسه يعد واحداً من أروع وأغرب المواقع التى توجد فى كل الوادى الذى يرويه النيل. وسواء ألقينا النظر على هاتين السلسلتين من الجرانيت المليئتين بتلال سوداء وعرة تمثل قممها ومنحدراتها وسفوحها أشكالاً غريبة، واللتي تتصلان - إذا جاز التعبير - عند منتصف مجرى النيل وهما تجتازانه<sup>(١)</sup>، أو أمعنا النظر فى تلك الجزر الوعرة التى لا حصر لها والتى تسبق الجندل وتشكله وتتبعه فى مساحة تصل إلى

---

(١) راجع اللوحة رقم ٣٠ شكل ٣.

فرسخين، أو تأملنا - ونحن قادمون من مصر - تلك الحدود المبالغتة التى تقع بين سهل خصب وصخور وعرة، أو التناقض بين نهر عريض ومهيب وبين تيار ملئ بالدوامات يفور من الغليان حتى يسبب رغاوى ويتحطم بين الآلاف من الصخور ؛ كل هذه المناظر تعطى مشهدا له أبلغ الأثر. إنه مشهد الطبيعة المتوحشة الذى لا تنظر إليه العين إلا برعب بجانب اللوحة الضاحكة التى يمثلها واحد من أغنى أودية العالم. وهنا تجد الملاحه عائقا يكاد يستحيل اجتيازه، وتتوقف الزراعة، ويموت النبات. وبعد حقول وحدائق فيله تأتى جملة من التلال تجتمع فى فوضى أو جملة من الكتل العمودية الجرداء تماما، وجبال على مرمى البصر تنفصل بلونها القاتم عن السماء المضيئة . ولا يعكس النيل شيئا آخر سوى زرقة السماء أو ألوان الصخور القائمة التى تقسم مجراه وتقرغه . وأخيرا مجرى النيل المتنوع وغير المتساوى الذى يتسم بالبطء أحيانا وبالاندفاع أحيانا أخرى، ومياهه الهائجة التى تكون هادئة كالمرآة على مسافة بعيدة بعد ذلك، كل ذلك يحمل طابع الفوضى العامة. وبعد أن يجتاز النيل كل هذه الموائق يخرج منتصرا من المعركة ويواصل مسيرته فى هدوء وحركته فى انتظام لا يكدرهما شئ حتى المصب. ها هو ذا الحاجز الذى صنمته الطبيعة بين مصر النوبة، وها هى ذى اللوحة التى يرى فيها الرحالة ذلك الموقع المهيب للجندل الأخير.

### المبحث الثانى: وصف الجندل الأخير والطريق المؤدية إليه

يطلق على الجندل الأخير " الشلال " . وهناك أيضا " جزيرة وكفر يحملان الاسم نفسه. ويسكن ذلك الكفر حوالى مائة شخص من البرابرة. أما هذا الجندل فيقع عند ثلث المسافة من فيلة إلى أسوان مقاسة على النهر ؛ أى أسفل فيله بحوالى ثلاثة آلاف متر أو ألف وخمسمائة قامة تقريبا . ويبلغ عرض النهر فى هذا المكان ما يزيد على ألف متر أو ربع فرسخ ؛ وهو عرض شلال نياجرا الشهير ؛ وبعد ذلك وجه الشبه الوحيد بين الشلالين. ومن المعروف أن ارتفاع شلال نياجرا يزيد على مائة وخمسين قدما .

وعلى الرغم من أن المسافة بين فيلة والجندل لا تزيد على ثلثي الفرسخ، إلا أن المرء ليقطعها في أكثر من ساعة بسبب وعورة الطريق. وفي وقت أعلى ارتفاعاً لمنسوب المياه، في ١٥ سبتمبر ١٧٩٩، غادرت قرية التي تقع في مواجهة فيلة لاستكشاف الجندل وتحديد موقعه. وقد تتبعنا شاطئ النيل الذي يسجل تمرجا كبيرا هناك ثم يجرى بعد ذلك مباشرة نحو الغرب. وتشغل الصخور الضفة ذاتها بالكامل تقريبا. ونرى هنا وهناك مساحات صغيرة من الأرض يغطيها النيل بالطمي وقد استغلّت في الزراعة. وفي الطريق، لاحظت عروق معدنية عريضة تجتاز الجرانيت؛ ينحدر الكثير منها نحو النيل بزاوية مقدارها خمس وأربعين درجة، والبعض الآخر يتقاطع في اتجاهات مختلفة، وبعضها يبلغ عرضه ثلاثة أقدام، على شكل منشور مربع لونه أسود غير لامع. وعند الوصول إلى كفر مزيت الصغير، أو بعبارة أدق أكواخ مزيت التي تضم بالكاد خمسين شخصا، نجد شريطاً ضيقاً من الأرض مزروعا بنبات الذرة. وقد رأيت وسط هذه الصخور بعض البرابرة الفقراء كانوا يسحقون الحبوب ويمجنون الدقيق في تجويفات الجرانيت الطبيعية. واستقبال هؤلاء النوبيين طيب جدا ومحياهم مرح بشوش، حتى أن المرء لا يساوره الشك في أن هناك شيئا يعوزهم. وبشرتهم تكاد تكون سوداء، ولغتهم عذبة جداً لا هتة فيها، ولكن لا علاقة لها تقريبا باللغة العربية. وطريقتهم في عبور النيل بأغراضهم شديدة الغرابة؛ فهم يركبون فوق جذع شجرة جميز أو نخيل وقد غطوا رؤوسهم بثيابهم وحملوا أمتعتهم فوقها، ويقصدون وجهتهم مستخدمين أيديهم بمهارة كمجاديف حتى أنهم لا ينحرفون عن وجهتهم إلا فيما ندر. ولم أرهم يرتبكون إلا عندما يجتازون دوامات هائلة إلى حد ما. هذا كل ما يحرك هذا المشهد الصامت وهذا المكان الحزين حيث يقتصر النبات فيه على بعض نباتات الصحراء مثل الحنظل، وبعض الأشجار مثل النخيل وأشجار السنط والنبق، التي تحترق أوراقها من الشمس<sup>(١)</sup>.

ومن هنا نبدأ في الانزعاج من صخب الجندل الذي نحسه بالفعل في فيلة. ويزداد هذا الصخب شدة وعنفا في الشتاء والربيع، ويشبه ما يحدثه البحر من

---

(١) نرى هناك نبات البنج التي يطلق عليها فورسكال «داتوره»، وأربعة أصناف من السذابيات.

صخب على شاطئ من الصخور، وهو ما يسمعه المرء على بعد فرسخ . وحتى نصل إلى هذا المكان لا يمكن للمرء السير على ضفاف النيل إلا بمشقة ودائما على رمال جرانيتية ، كما ينبغي اجتياز صخور بارزة فوق الأرض من وقت لآخر. ولكن عندما تقترب من الحاجز ، وحيث يواصل النيل جريانه نحو الشمال ، أى بالقرب من الجندل وقبالة تارمسييت نجد الصخرة أمامنا فجأة ، ولابد من تسلقها بالأيدي لاجتيازها . وإذا جاز التعبير ، فإن الجبل يتقلقل وينزل عموديا فى النيل، ثم يظهر ثانية على السطح فى شكل صخور كثيرة يقترب بعضها من بعض، ويشكل العديد منها جزرا كبيرة، وقد أحصيت منها عشرين فى يوم أن وصلت المياه إلى أقصى ارتفاع لها<sup>(١)</sup>. من خلال هذا الترتيب، يمكننا التعرف على الجندل الحقيقى فى المسافة من فيلة إلى أسوان ، والتي ينوء مجرى النيل بالصخور على امتدادها كذلك يتميز هذا المكان بضيق النهر فيه حيث يتراوح عرضه بين ألف وألف ومائتى متر<sup>(٢)</sup> تقريبا فى هذا المكان ، بينما يكون أعرض من ذلك بوجه عام ليصل إلى ألفى متر<sup>(٣)</sup>، بل إنه يبلغ ثلاثة آلاف متر أمام فيلة . وحتى نكون فكرة عن امتداد بهذه الضخامة ، لابد أن نتصور عرضا يساوى ما بين ثمانية عشر إلى عشرين ضعفا عرض نهر السين بالقرب من قصر التويلرى ، يتم قياسه من رصيف إلى آخر.

وتقترب الجزر بعضها من بعض وتكون أكثر وعورة وتمثل عائقا أمام جريان المياه خاصة بالقرب من الضفة اليمنى للنهر . وقد أحصيت عشرة حواجز رئيسية تتجه من جزيرة لأخرى فى كل الاتجاهات . وعندما يصطدم النيل بهذه العوائق، فإنه يرتد ثم يستمر ويجتازها ، ويكوّن بذلك سلسلة من الجنادل الصغيرة التى يبلغ ارتفاعها نصف قدم أو أقل . وكل هذه المسافة مليئة بالدوامات والأجراف الهوات ، وكل قناة تمثل سيلا تتعرض مياهه لمختلف أنواع الحركات والاتجاهات الماكسة تبعا للصخور المتنوعة التى تقذف بها حيث تتعطم بفنف .

(٢) بين خمسمائة وستمائة قامة.

(١) انظر لوحة رقم ٢٠ شكل ٢.

(٣) حوالى ألف قامة.



ولكن بالقرب من الضفة اليسرى يكون المجرى أكثر انتظاما على الرغم من سرعته الشديدة. وخلال فترات المد تكون جميع الموائق من الصخور مغطاة ، وتوجد بذلك قناة صالحة للملاحة . وفى هذا الموسم ، تستطيع المراكب حتى الشراعية منها المرور فى هذه القناة وفى أوقات الجزر أو انخفاض منسوب مياه النيل تسير المراكب نحو عالية النهر وبمحاذاة الساحل . ولقد رأيت الكثير من المراكب الشراعية تسير نحو عالية النهر ، دون أن تتعرض لأى خطر يذكر . ولكن تلك التى تسير نحو سافلة النهر تتجرف بسرعة بالغة قد يرتعد لها ملاحون قليلو المهارة . وعندما سألت أحد النوبيين أخبرنى أن ارتفاع المسقط يكون فى الشتاء وقت انخفاض منسوب المياه مساويا لارتفاع رجل رافعا ذراعه ، وهو ما يعادل من ستة إلى سبعة أقدام . وقد أكد لى هذه النسبة كل زملائنا الذين رأوا الجندل خلال انخفاض مياه النيل، وفى هذه الفترة تتكشف كل الجزر الصغيرة التى تغمرها المياه فى وقت الفيضان ، ويزداد عدد المساقط بصورة هائلة . ولما كانت هناك عوائق من الصخور أكثر ارتفاعا ينبغى أن يجتازها النيل، فلا بد أنه يسقط أيضا من ارتفاعات أكبر.

وإذا أردنا مواصلة السير على شاطئ النيل فى منطقة أسفل الجندل ، فلا بد أن نعدل عن هذه الرغبة لأن الصخور هناك دائما عمودية مما يجعل الطريق وعرة ، ولكى نتوجه إلى أسوان فلا بد أن نسلك من جديد طريق جزيرة فيلة . وهى التى سبق أن وصفناها . التى نصل إليها إذا سرنا فى واد يودى إلى النيل أعلى كفر المحلة أو مرده .

ويوجد حول الجنادل صخور كثيرة مغطاة بنقوش هيروغليفيه مثل تلك الصخور التى وصفتها فى أسوان وفيله ، ولكنى لم أر هناك محاجر. والواقع أننى لا أعرف ما إذا كان يوجد فى هذا المكان أى منشآت قديمة ، ولكن مما لا شك فيه أنه لم يتغير أى شئ فى هذه الجبال الجرداء ولم تفقد الأرض فيها شيئا ، كما يستحيل أن تكتسب فيها شيئا على الإطلاق. وقد أرانى البرابرة الكثير من التماثيل المصرية الصغيرة التى ربما يكونون قد أتوا بها من فيلة؛

لا من أحد المساكن القديمة المجاورة<sup>(١)</sup> فماذا عساها كانت تفضل الصناعة المصرية إزاء طبيعة بهذه القسوة التي لا تلين؟ وهذا أيضا ما يجعل الآثار الفنية التي راحوا يشيدونها في جزيرة فيلة الصغيرة أكثر روعة .

ولابد أن الوصف الذي قدمته للقارئ لتوى عن جندل أسوان دون مستوى الرأى الذى كُونه عنه إذا لم يكن يعرفه إلا من خلال الكتاب القدامى ، أو إذا كان قد كون عنه فكرة من خلال شلالات نهر أورينوكو ، أو نهر بوجوتا ، أو شلالات نياجرا المخيفة . والنيل لا يتمرض هناك لمساقط ناتجة عن انخفاض مفاجئ لمجرهه بالكامل ، كما يحدث للراين عند شافوز أو لنهر الجانج عند هوردوار ، أو كما كان يحدث قديما في المكان ذاته . وقد أدت الرواسب التي ترسبت في القاع إلى تعليته ، ونحر الماء الصخور التي كانت تشكل الحاجز، مما أدى الى ظهور جزر كثيرة تجرى بينها الآن تيارات المياه السريعة . ولم يعد يوجد الآن مساقط إلا تلك التي تسقط منها المياه بعد اجتياز العوائق الصخرية . كلما زاد ارتفاع الصخر ؛ زادت قوة التيار ليبلغ الماء ارتفاعا ملحوظا وزادت أيضا شدة الجندل. وهكذا ، قد تبدو الجنادل أقل أو أضعف وقت انخفاض منسوب المياه لأن السرعة تكون أقل، وقد تكون العوائق نفسها أكثر ارتفاعا من أن تستطيع المياه اجتيازها؛ ومع ذلك فقد رأينا أن المسقط كان وقت انخفاض مياه النيل ثلاثة أو أربعة أضعاف ما يكون عليه وقت ارتفاعها . وهذا يحملنا على الاعتقاد بأنه لا يزال يوجد حاجز مرتفع قليلا في الجزء الأكبر من المجرى، ويكون هذا الحاجز مغمورا في وقت الفيضان ولا يظهر الا عند انخفاض مياه النهر وعندئذ يفسح المجال لمساقط أكثر شدة .

ونخلص من هذا الوصف أيضا إلى أن شكل المجرى غير منتظم لأبعد حد ، وبالتالي انحداره وسرعته ، ومن هنا لا يكون المستوى واحدا على امتداد عرض النهر ، بل على العكس توجد سيول مياه سريعة ودوامات كما لو كانت هناك

---

(١) بينما كنت أرسم موقع الجنادل، أتاني أحد هؤلاء النوبيين بتمثال من الطين لفتيس يحمل رأس حيوان، وكان غاية في الدقة والإتقان على الرغم من أن ارتفاعه لا يزيد على ثلاثة سنتيمترات أو بوصة واحدة تقريبا (انظر اللوحة رقم ٨٧، المجلد الخامس من لوحات الدولة القديمة، شكل ٢-٤).

قنوات كثيرة يتعارض مجراها مع مجرى النهر . أما أعلى سرعة للمجرى، فهي على الضفة اليسرى أى فى القناة الملاحية حيث لا يظهر الحاجز، ولا شك أن العمق فى هذا المكان يكون كبيراً .

ولا يعود التوازن والمستوى الواحد لعرض النهر إلا أسفل الجندل بمسافة كبيرة . كذلك توجد دوامات وحركات ارتداد حتى فيه الحديثة على جانب وفيلة القديمة على الجانب الآخر . ولكن هذه الدوامات تكون عارضة، فالنهر يفر كل الجزر التى يمتلئ بها مجراه دون أن يفعل الشئ نفسه مع سلسلة تقطعه كما يبدو الحال عند الجندل . وهذا ما يميز موقع الجندل الذى لا يشغل كل حوض النهر بين أسوان وفيلة القديمة كما كان يظن البعض . وهناك أيضاً ما يجعلنا نتعرف على الموقع الحقيقى للجندل القديمة . وأخيراً ومن خلال كل هذه الظروف مجتمعة نعثّر على الملامح الرئيسية لأوصاف القدماء . والواقع أننا نأخذ على كتاب المصور القديمة بعض الأخطاء ولكن من النادر ألا نجد فى سردها الحقيقة إلى جانب الخطأ .

### المبحث الثالث : روايات الكتاب عن الجندل الأخير

سأسرد روايات للكتاب تبعا للترتيب الزمنى وسأقوم بعملية تقريب بينها وبين الوضع الحالى للأماكن . ولكنى قبل ذلك سأسجل أن الاسم الحديث وهو Chellâl \_ يتفق والاسمين القديمين " Cataracte و catadupe " ولفظ catadupe يتكون من كلمتين إغريقيتين ويعنى على وجه التحديد " المسقط الصاخب " . أما لفظ cataracte، فهو مكان وعر يندفع منه الماء . وشلال بالعربية تعنى جرف يسيل منه الماء باندفاع .

ويقول هيرودوت إن " البلد وعراً أعلى جزيرة فيلة . وعند السير نحو عالية النهر يربط حبل من كل جانب من جانبي المركب كما لو كان يربط من خلاله باثنين من الثيران، ويجذب على هذا النحو . وإذا انقطع الحبل، فإن قوة التيار تجرف المركب معها<sup>(١)</sup> .

(١) هيرودوت، الكتاب الثانى، المقطع ٢٩ ترجمة السيد لارشر .

ونتعرف بسهولة فى هذا المقطع على المكان الذى وصفته لتوى، والمرف الذى لايزال متبعاً بالنسبة للملاحة. كذلك ينبغى التعرف على الجندل فى الفصل السابق حيث يتحدث المؤرخ نقلاً عن أحد كهنة سايس، الذى قال له " كان يوجد بين أسوان والفنتين جبلان قمتاهما مدينتان أحدهما كان يطلق عليه كروفى ، والآخر موفى . وكانت منابع النيل عبارة عن هوات عميقة تخرج من وسط هذين الجبلين ، ويجرى نصف مياهها فى مصر نحو الشمال. أما النصف الآخر، فكان يجرى فى أثيوبيا نحو الجنوب". ويضيف هيرودوت أن أبسماتيك كان قد ألقى فى هذه الهوات جبلاً شديد الطول ولكن المجس لم يستطع الوصول إلى القاع.

لقد كان هيرودوت محقاً عندما شك فى جدية ما قيل له عن جبلين يقعان بين أسوان والفنتين ، لأن المسافة التى تفصل بين هاتين المدينتين تشغلها على امتدادها مياه النهر، وخصوصاً أنه قد ذكر له هذين الجبلين باعتبارهما منابع النيل. والواقع أن استرابون و أريستيد اللذين انتقدا هيرودوت<sup>(١)</sup> بشدة فى هذا الصدد لم يمتبرا أنه قد وصف هذه الرواية بأنها عبث ، ومن جهة أخرى لم يفكرا فى السبب المحتمل للوقوع فى خطأ يمثل هذه الجسامة. فعندما نعلم أن كهنة مصر كانوا بصفة خاصة عالمين بكل ما يتعلق بالنيل<sup>(٢)</sup> ومجرأه ومنابعه ، فهل يعقل أن واحداً منهم استطاع أن يقتنع بأن منابع هذا النهر تقع بالقرب من أسوان؟ لابد أن هناك خطأ ما فى استعمال الكلمة اليونانية التى تعنى منابع لترجمة العبارة التى استخدمها هذا الكاهن. والحال أنه يكفى تصور احتمال هذا اللبس لكى نجد معنى معقول للنص. وحقيقة الأمر أن اسم الفنتين كان يطلق فى عصر استرابون وأريستيد على الجزيرة المقابلة لأسوان فقط ، ولكنى أعتقد أن الأمر كان يختلف فى عصر هيرودوت ، بل يبدو لى أنه اسم عام وشامل لكثير من الجزر خاصة جزيرة فيله<sup>(٣)</sup>. وإذا وضعنا فى رواية كاهن سايس اسم فيلة مكان الفنتين لوجدنا الجبلين الليبى والعربى يقتريان أحدهما من الآخر فيما بين فيلة وأسوان. إنه مكان

(١) استرابون، الكتاب ١٧، ص ٨١٩، أريستيد، فى مصر، ج ٢، ص ٢٤٣ ميلهيا.

(٢) انظر وصف كوم أمبو، الفصل الرابع المبحث الثالث.

(٣) انظر وصف الفنتين، الفصل الثالث، المبحث السادس. وكان يطلق أيضاً اسم فيلة (القديمة) على جزيرة الفنتين؛ ويؤكد ذلك نص بليني. فيمد أن حدد مكان أسوان، يقول أنه "هى مواجهة أسوان توجد جزيرة يبلغ محيطها أربعة أميال ويطلق عليها فيلة، وهو ما ينطبق على الفنتين (راجع بليني، التاريخ الطبيعى، ج ٥، المقطع ٩).

ملء بالهَوَات ، وتيارات مائية بعضها يتجه نحو الشمال والبعض الآخر نحو الجنوب، ومياهه ذات عمق شديدة باختصار كل ما يميز مسقط النيل عند الجندل اليوم حتى بعد أن خفت هذه العلامات كثيراً<sup>(١)</sup>. ومع ذلك، فإن التفسير الذي أحاول أن أقدمه هنا لواحد من أصعب نصوص هيرودوت إنما يدعمه على نحو مثير استنتاج المؤرخ نفسه. ويقول " إذا كانت رواية الكاهن حقيقية فإنني أعتقد أن المياه تجرى في هذا المكان وتصطدم بعنف بالجبال فتحسر بسرعة وتحدث منطفات تحول دون وصول المجس إلى القاع".

لقد ذكرت أنه ربما كان هناك لبس في كلمة منابع التي استخدمها هيرودوت ، وما هو ذا مقطع لنفس المؤلف يحملنا أيضاً على الاعتقاد بذلك : " إن النيل الذي يبدأ عند الجنادل يقطع مصر في منتصفها ويصب في البحر"<sup>(٢)</sup> ونرى هنا أن الأمر يتعلق بتلك النقطة التي يبدأ عندها النيل في الدخول إلى مصر ، لا بأصل مجراه ، ولابد أن الأمر كذلك بالنسبة ل منابع فيلة المزعومة.

وكان ديودور الصقلي يعتقد أن الجندل الرئيسي هو ذلك الواقع عند حدود مصر وأثيوبيا. فبعد أن وصف دخول النيل في مصر، تحدث عن الجنادل قائلاً : إنه مكان يبلغ طوله حوالى عشر غلوات ولا يمثل سوى استمرار لقاع منحدر ومتقطع، وأجراف ذات ارتفاع هائل وعمودى، وفتحات ضيقة تموقها صخور وأحجار تماثلها في الحجم والمياه التي تمر في هذه الأماكن المخيفة يغطيها بالزبد ، و تحدث مساقط وحركات ارتداد تدخل الروح بصخبها في قلوب الرحالة على مسافة بعيدة بمجرد سماعهم إياها. والماء يكتسب هناك سرعة تضاهي سرعة سهم ينطلق من قوسه، إلخ.

ويضيف ديودور أن المياه تغطي الصخور وقت الفيضان، وتنزل السفن في ذلك الوقت على الجندل تدعمها الرياح المعاكسة. لكن أحداً لا يستطيع صعود

---

(١) انظر فيما سبق.

(٢) ترجمة القس تيراسون وينبغي أن ندرك أن هذه الترجمة ليست أمينة تماماً.

الجنادل نظراً لاندفاع النهر المتجاوز لجميع القوى التى يمكن للإنسان الاستماعة بها. ويختتم كلامه قائلاً بأنه توجد عدة جنادل و لكن أكبرها هو الذى يقع على حدود أثيوبيا ومصر. وبعد قراءة هذا الوصف، فإن المرء ليميل قليلاً إلى مطابقتها على جنادل أسوان، على الرغم من أن ديودور يعبر عن ذلك رسمياً. وسنرى فيما بعد أن العديد من هذه الظروف تنطبق أكثر على الجنادل العلوية.

و فى كتاب - حلم سيبليون - ترك لنا سيسيريون مقطعاً عن جنادل النيل، ومن ثم يبدو أنه يتعلق بجنادل أسوان. وقد أراد أن يوضح لنا كيف أن الأذن البشرية اعتادت الصوت الذى يفترض أن الأجرام السماوية تحدثه خلال دورانها السريع، فحارن ذلك بمن يقطنون بالقرب من الجنادل وأصيبوا بالصمم من شدة الصخب الذى يحدثه النيل خلال اندفاعه من فوق جبال شديدة الارتفاع، ويشبه ذلك أن يمثل من يفقد البصر من شدة التحديق فى الشمس<sup>(١)</sup>. ويفترض ماكروب الذى علق على الكتاب أن السكان لا يشعرون بصخب الجنادل من فرط حدته. ويضيف قائلاً: ما وجه الغرابة فى أن حواسنا المحدودة لا تدرك الصوت الذى تحدثه السموات فى حركتها الدائمة<sup>(٢)</sup>. ولا أريد مناقشة هذه المقاطع، و لكنى أسجل فقط أنه كان من المعروف بصفة عامة أن صخب الجنادل من شأنه أن يفقد سكان الضواحي سمعهم، و أن هذا التأثير كان يعزى إلى جنادل أسوان. و لكن إذا سلمنا بأن الأمر يتعلق بشلال أسوان، فإن عبارة "جبال شديدة الارتفاع" لا تقل مبالغة عن شدة الصخب.

ويقدم استرابون تفاصيل أكثر دقة عن جنادل أسوان، فهو يتحدث عنه فى كتابه السابع عشر فى مقطعين<sup>(٣)</sup>.، إليكم فيما يأتى أكثرها إثارة: "أعلى الفنتين بقليل يوجد الجنادل الصغير، حيث نرى أناساً يركبون زوارق صغيرة ويقدمون

---

(١) أن هذه الصوت يصيب أذن البشر بالصمم ويوقف شعور الشخص المتبلد، هكذا عندما يندفع النيل من الجبال الشاهقة إلى تلك التى يطلق عليها جنادل، فإن شدة الصوت تصيب سكان أى قبيلة قريبة من المكان بالخوف الشديد.

(٢) ماكروب، سيبليون، المقطع ٢، الفقرة ٤.

(٣) استرابون، الجغرافية، الكتاب ١٧، ص ٧٨٧ و ٨١٧.

عرضاً أمام كبار شخصيات البلد . و الجندل عبارة عن ارتفاع فى الصخر فى وسط النيل، ويكون مستويا فى الجزء العلوى ومنطلى بمياه النهر، وينتهى بجرف يندفع منه الماء بعنف. ويوجد من الجهتين بالقرب من الساحل مجرى ملاحى، ويترك الملاحون أنفسهم ينجرфон نحو الجندل، ثم يندفعون بزوارقهم دون أن يحدث لهم أى سوء". ويضيف استرابون بعد ذلك أن أعلى الشلال الصغير توجد جزيرة فيلة . و بالتالى فهو لم يترك أى مجال للشك فى إلا يكون هذا المسقط هو الجندل المعروف. ولما كان يتحدث هنا باعتباره شاهد عيان فلا بد أن نعترف بأن حالة الأشياء قد تغيرت قليلاً عما كانت عليه فى عصره، فلا توجد اليوم قناة ملاحية إلا من جانب واحد، كذلك فقد انخفضت حدة شدة المسقط إلى حد كبير. و لنسجل مروراً أن الكاتب استخدم كلمة "جندل صغير".

أما بومبونيوس ميلا الذى كان يتمتع بأسلوب مختصر وأنيق فقد وصف مجرى النيل المندفع ابتداء من تاشيمبسو وحتى الفنتين : غير أن أكثر لوحات الشلال تأثيراً هى تلك التى رسمها سيناك. و سنرى فى المقطع التالى الذى حاولت ترجمته أنه كان يريد الحديث عن جندل أسوان حيث يقول: "عند ضواحي فيلة القديمة يبدأ النهر فى تجميع مياهه الشاردة. وفيلة عبارة عن جزيرة وعرة يحيط بها فرعان يتشكل النيل باجتماعهما؛ وفى هذا المكان يكتسب النهر اسمه ثم يصل بعد ذلك إلى الجنادل ، وهو مكان قد اشتهر فسيح . هناك يصبح من الصعب التعرف عليه، فمياهه التى كانت حتى الآن هادئة تتطلق فى اندفاع وغضب عبر منافذ صعبة، ولكنه يتقلب فى النهاية على المقبات. وفجأة يتخلى عنه مجراه فيسقط فى جرف شاسع مصحوباً بضجة شديدة تدوى فى الضواحي . ولم تستطع مستعمرة الفرس التى كانت مقيمة فى هذا المكان، تحمل هذه الضوضاء المستمرة، فانتقلت إلى مكان أكثر هدوءاً. ومن بين المجائب التى نراها على هذا النهر، سمعت من يتحدث عن الجرأة العجيبة للسكان، حيث يركب رجلان فوق قارب أحدهما يقوده والآخر يقوم بتفريغه كلما امتلأ. وبعد أن تتقاذفهما طويلاً تيارات المياه السريعة، والدوامات والتيارات المعاكسة، يتجهان إلى أضيق القنوات متفادين مضائق الصخور، ثم يندفعان مع النهر كله

ورأسيهما إلى الأمام موجهين القارب لدى سقوطه أمام أعين المشاهدين الذين يشعرون بالفزع من هول ما يرون، وأثناء بكائك على مصيرهما اعتقاداً بأن مياه النهر الهائجة قد ابتلتهما ترى القارب بعيداً جداً عن مكان سقوطه كما لو كان قد تم قذفه إلى هناك بإحدى آلات الحرب<sup>(١)</sup>. ويقول سيناك أيضاً في إحدى رسائله أن هناك أناساً ينتمون إلى شعب ما لم يستطيعوا تحمل ضوضاء مسقط النيل، فقاموا بنقل مدينتهم إلى مكان آخر<sup>(٢)</sup>.

ولا مجال للشك في أن مسرح هذا الوصف هو " الجندل " المعروف، و حتى يجعله ناطقاً بصورة أكبر ، طعمه بملامح تتعلق بمساقط مختلفة للنيل. فمشهد رجال البلد يقدمون عرضاً وهم يجتازون الجندل الأخير أمر يسهل تصديقه تماماً و هو ما ذكره استرابون و أريستيد اللذان قاما بزيارة هذه الأماكن على الطبيعة، لكن الضوضاء التي لا يمكن تحملها والارتفاع الهائل للمسقط، هما امران ينطبقان على الجنادل الأخرى على نحو أفضل بكثير.

والوصف الذي قدمه بلينى لمجرى النيل عند خروجه من أثيوبيا إنما ينطبق كذلك على جندل أسوان. فالنهر تعمق حركته جزر تشبه المناخس حيث تصيب مياهه بالاضطراب ، ثم ينحصر بين جبال فيجرى كالسيل ويمضى مع سيل ماء سريع بصورة متزايدة نحو مكان في أثيوبيا يسمى الشلالات حيث يوجد الجندل الأخير. وهناك بين الصخور التي توقفه يندفع أكثر مما يجعله يسيل مصحوباً بصخب هائل<sup>(٣)</sup> وأنا لا أتحدث هنا عن سولان الذي يكاد أن يكون قد نقل ما كتبه بلينى بالحرف الواحد<sup>(٤)</sup> والأمريكان يكون كذلك بالنسبة لأميان مارسلان<sup>(٥)</sup> الذي يبدو أنه قام باختصار ما ذكره بلينى وسيناك.

(١) سيناء، مسائل طبيعية، الكتاب الرابع، المقطع الثاني.

(٢) سيناء، ص ٥٦.

(٣) بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب الخامس، المقطع ٩.

(٤) سولان، التاريخ، المقطع ٣٥.

(٥) أميان مارسلان، الكتاب ٢٢.



وقد أقر كل الملقين ، وفقاً لما ذكره هؤلاء الكتاب، أن صخب الجندل الأخير كان يصيب سكان المناطق المجاورة بالصمم. وما كنا نتصور مثل هذه المبالغة لو لم تأت عن خطأ. فالجندل العلوية هي التي تحدث صخباً مرعباً كما سنرى فيما بعد.

وقد حدد بطليموس موقع الجندل الأخير والذي يطلق عليه "الصغير" من أسوان على وجه الدقة، فيقول إنه على خط عرض يقل خمس دقائق عن خط عرض هذه المدينة<sup>(١)</sup> وكما نرى أن عالم الجغرافيا هذا كان يميز بين جندلين نظراً لأنه أكثر اطلاعاً من المؤرخين. وكان استرابون قد أوضح هو أيضاً هذا الفرق.

وفي الكتاب الثامن من أثيوبياته، يحدد هليودور أيضاً موقع الجندل الصغيرة أسفل فيلة. وفي هذا المقطع المثير نرى أن الأثيوبيين كانوا يتنازعون مع المصريين على مدينة فيلة لأنهم كانوا يرون أن جندل النيل تمثل حدود أثيوبيا. ويذكر هليودور هذه الجندل تحت اسم "شلالات"، ويشير إلى الكهان الذين يقيمون في هذا المكان.

أما أريستيد، فهو أكثر الكتاب إسهاباً حول الجندل. ونظراً لأنه كان شاهد عيان فكتابته تتسم بالإثارة كما سنرى. فيحكى أنه لدى عودته من فيلة إلى أسوان برأ كانت لديه رغبة شديدة في رؤية الجندل ، فطلب من قائد الحامية أن يعطيه ملاحاً وبعض الجنود لإجبار سكان جزيرة الجندل ، على إطلاعه على كل ما يضم هذا المكان من أشياء مثيرة وغريبة. وقد دهش الحاكم من جرأته وأوضح له الصعاب التي تتطوى عليها مثل هذه المغامرة التي لم يحاول أن يقوم بها هو ذاته، ولكنه في النهاية نزل على رغبة أريستيد. ومن أعلى الجزيرة التي تقع وسط النهر وهي التي تعانق الجندل الواقعة إلى الشرق، رأى أريستيد رجالاً من أهل البلد يسبرون في النهر أعلى الصخور ويتركون التيار يجرفهم. وقد ركب مركباً هو أيضاً وراح يتنقل نافذاً إلى كل الأماكن التي سبق أن مر بها

---

(١) بطليموس، الجغرافيا، الكتاب ٤، المقطع ٥، ص ١٠٨ - ، وص ١١٢ الكتاب السابع.

الملاحون، وفى النهاية وعلى الجانب الآخر من الجزيرة سلك ساعداً ملاحياً للنهر، ووصل إلى الفنتين التى تقع عند نهاية الجنادل.

وهناك تفاصيل كثيرة فى هذه الرواية تتفق تماماً مع الموضع الحالى، وبخاصة "جزيرة الشلالات" هذه التى احتفظت بهذا الاسم . وقد وقفنا فى المبحث السابق<sup>(١)</sup> على موقع الجنادل نحو الضفة الشرقية والساعد الملاحى للضفة الأخرى.

وبعد أن استعرض أريستيد كل هذه الظروف و الملابس انتقد هيرودوت لأنه قال تأسيساً على ما ذكره أحد الكهنة إن منابع النيل كانت تقع بين الفنتين وأسوان، وأن جزءاً من المياه كان يجرى نحو أثيوبيا بينما كان يجرى الجزء الآخر نحو مصر. وقال " لو كان هيرودوت قد جاء إلى الفنتين كما يزعم، لما رأى أى شئ آخر سوى النهر بين هاتين المدينتين الواقعتين على ضفافه : فلا توجد أى جبال بين فيلة وأسوان، بل إن هاتين المدينتين هما اللتان تقعان بين الجبلين".

كيف يقول هذا الكاتب البليغ بعد هذه الرحلة أنه يوجد بالفضل فى هذا المكان نفسه منبمان محصوران بين صخرتين ضخمتين تظهران فى وسط مجرى النهر، ولكنهما حديثين يزودان أن إلا الجزء الأدنى من مجرى النيل؟ وقد أكدوا له أنه لم يكن من الممكن قياس عمقهما وهو ما أشاء عن قياسهما . كيف يمكن الحكم على نقده ونحن نراه ينسب لهذين المنبمين المزعومين عرضاً وعمقاً أكبر مما عليه النيل شمال الفنتين ويقول فيما بعد إن النهر يحدث بالقرب من هذه الجزيرة جلبه هائلة ويبلغ عمقه ما لا يقل عن ثلاثين ذراعاً.

ويشير لوكان إلى منابع النيل نفسها هذه واصفاً جنديل فيلة، كما يشير مثلاً فعل سينالك<sup>(٢)</sup> إلى صخرة أو جزيرة يتمذر بلوغها وكانت تسمى فى المصور

---

(١) انظر فيما سبق.

(٢) وفقاً لما ذكره سينالك، لم يكن مسموحاً للنهر الكهان بالنهاب إلى هناك.

القديمة "أباتون". والواقع أن هذه القطعة لا تخلو من المبالغة، غير أن الشاعر له عذره أكثر من الكتاب الذين وقعوا في الخطأ نفسه<sup>(١)</sup>.

وهناك بيت للشاعر دنيس في قصيدته اليونانية "وصف الكون" يتعلق بهذا الشلال ذاته فهو الجندل الذى يصور عنده مصر وهى تمتد من جهة الشرق، حتى أسوان، حيث توجد أجراف كثيرة وعميقة. أما أوستات الذى قام بشرح قصيدة هذا الشاعر، فقد اعتبر هذه الأجراف هو أيضا جنادل. وفى شرحه لبيت آخر يتحدث عن جبال البلميان - وهم قوم اعتبرهم أجداد البرابرة - ويمتد أوستات نفسه أن هذه الجبال هى الجنادل.

والغريب فى الأمر هو أن هذا الناقد يعد من بين المدن السبع التى تضمها مصر الوسطى الشلال الكبير و الشلال الصغير<sup>(٢)</sup>. وسأذكر هنا تاريخ الكنيسة لنيسيفور كاليست الذى يقول إن النيل عند وصوله إلى مصر يندفع من خلال صخور شديدة الارتفاع مصحوباً بجلبة هائلة<sup>(٣)</sup>.

وكان هذا كل ما وجدت عند الكتاب القدامى فيما يتعلق بالجندل الأخير دون لبس، وسأتصفح الأوصاف التى كتبها المحدثون سرياً.

ومن بين الكتاب العرب، وصف الإدريسي مسقط جناديل أكثر مما وصف مسقط أسوان، كذلك تحدث عنه أبو الفدا، ولكننا لا نستطيع التأكيد ماذا كان قد رأى هذا أو ذاك. وتوجد فى كتاب المقرئى تفاصيل كثيرة عن الجنادل ولكنها غير معروفة لنا. ومن المؤسف أننا ليست لدينا ترجمة كاملة لهذا الكاتب.

---

(١) ترجع الموجات المنقسمة إلى أجزاء عديدة إلى الوراء وهكذا تتم صيانة القرى المصرية التى تتحكم فى سد جزيرة فيلة.. أيها النيل من يظن أن ضفتيك الهادئتين جدا سوف تؤثر فى هذا الفيضان العنيف جدا؟ ولكن حينما يتوقف انهيار الطرق فجأة وحيث الشلالات شديدة الانحدار يستقبلوك بطريقة غير موجودة فى أى مكان، وهكذا تقاوم الصخور المياه التى تمنع إثارة الغضب وهذا الخريف الشديد والزبد الأبيض جدا فى مياهك الجارية إنما تذيل الخوف من فيضانك المروع.

(٢) انظر المؤلف نفسه، البيت رقم ٢٢٠.

(٣) انظر المؤلف نفسه، البيت رقم ٢٥١.

(٤) الجزء الأول، ص ٧٢٤، باريس، ١٦٣٠.

ويعد ب. سيكارد أول من أعطانا - من بين الرحالة المحدثين- فكرة دقيقة عن مسقط النيل عند حدود النوبة. ويقول إن هذا المسقط يتكون من جنادل عدة كل واحد منها عبارة عن كتلة من الصخور يجرى النيل من بينها على شكل مسقط. ويضيف أنه قد يكون من التهور المرور هناك في قارب<sup>(١)</sup>. ولكن الشك يساورنا إذا ما كان قد تحدث عن ذلك باعتباره شاهد عيان.

ومن المجيب أن نوردن الذى وضع خريطة مفصلة لمجرى النيل من فيلة إلى أسوان لم يرفق بهذه الخريطة وصفاً للجنادل ، بل اكتفى بقوله إنه يكون مساقط مياه مختلفة. ويفترض أن المسقط يبلغ أربعة أقدام فى الشتاء، ويقول إن هناك ممرين بالقرب من مراده مرفأ الجندل<sup>(٢)</sup>. ويصف بوكوك المكان المحيط على نحو جيد، ولكنه يحصى ثلاثة مساقط فى عرض النهر، أقلها لا يزيد عن ثلاثة أقدام.

ولا أستطيع أن أقطع بأنه قد رأى حتى موقع الشلال<sup>(٣)</sup>. وقد اندهش بروس ، كما سبق أن فعل بوكوك وفعلت أنا شخصياً ، لرؤية زوارق تصعد نحو عالية النهر فى هذا المكان. والواقع أن وصفه أمين ولكنه غير كامل. وهو يقدر المسافة بين الجندل وأسوان بستة أميال إنجليزية، وهى مسافة تزيد عن الواقع بما يقرب من النصف. وقد صحح بحق ما كان قد ذكر عن الضوضاء المفرطة التى يحدثها المسقط<sup>(٤)</sup>.

### المبحث الرابع: الجنادل العليا

كان الخلط بين الجندل الأخير والجنادل العليا سبباً فى تكوين الرأى الذى ساد زمناً طويلاً حول الجندل الأخير. لذا فقد رأيت أنه قد يكون مفيداً أن أقوم

---

(١) دراسات بمئة الشرف، المجلد السابع، ص ١٢.

(٢) رحلة نوردن، المجلد الثالث، ص ٢٧، باريس، ١٧٩٥.

(٣) وصف الشرق، المجلد الأول ص ١٢١.

(٤) رحلة بروس، المجلد الأول، ص ١٦٩، باريس، ١٧٩٠.

فى هذا المقام بعملية تقريب بينهم للتعرف على مصدر الخطأ على نحو أفضل. وسأقوم أولاً ووفقاً لبروس - وهو رحالة كان قد حاز على الأقدام بشدة، وربما وجهت إليه إهانات شديدة - كذلك - بإحصاء المساقط التى تسبق مسقط أسوان.

يقع المسقط الذى يطلق عليه شلال جوتو وهو الأول ابتداءً من منبع النيل أو البحر الأزرق<sup>(١)</sup>، بالقرب من كير ، عند ٩١,٥ عرضاً ، قبل بحيرة تسانا أو دمبيا ، ويبلغ ارتفاع المسقط نحو ستة عشر قدماً<sup>(٢)</sup> وتوجد بعد هذا المسقط مساقط كثيرة لا يعتبرها هذا الرحالة جنادلا .

أما المسقط الثانى، فهو مسقط الأثر المسر ، ويقع مثل المسقط الأول قبل بحيرة تسانا. وقد سُمى بهذا الاسم نسبة إلى جدول يصب فى النهر جنوبى هذا المكان بقليل . ويقدر ارتفاعه بعشرين قدماً . وصفحة الماء فيه عريضة جداً وتقدم للمين منظرًا رائعاً<sup>(٣)</sup>.

والمسقط الثالث هو مسقط ألانا ويقع عند نهاية البحيرة وهو أكبر وأضخم مسقط رآه بروس، ويبلغ ارتفاعه أربعين قدماً. وكان لوبو قد قدر ارتفاعه بخمسين قدماً. ونرى على مسافة نصف ميل أسفله جسراً فوق النيل له عقد واحد.

وعند اجتياز سلسلة الجبال الضخمة التى تلى الخط الموازى للدرجة ١١، والتى تحد من جهة الشمال بلاد جونجا ، وهى سلسلة هائلة الارتفاع، يكون للبحر الأزرق ثلاثة مساقط ضخمة أخرى<sup>(٤)</sup> متجاورة فيما بينها. ولكن من المستحيل أن نصدق الارتفاع الذى نسب للأول من هذه الجنادل ، وهو مائتان وثمانون قدماً. ومن المعروف أن شلال نياجرا الذى يبلغ من جهة الولايات المتحدة الأمريكية حوالى مائة وستين قدماً وهو الذى يخرج منه سحب مستمر يمكن

---

(١) يقول آخر الآراء أحدثها إن البحر الأزرق أو النهر الأزرق ليس النيل، وإنما البحر الأبيض أو النهر الأبيض الذى يمتد أن منابعه تبدأ من بلاد دونجا عند خط عرض ٨ شمالاً، ويقع نحو الغرب أكثر من منابع النهر الأزرق بحوالى ١٢ درجة. وكما نعرف، فإن بروس عندما وصف هذه المنابع المزعومة للنيل لم يفعل سوى أن ردد الوصف الذى كان رجال البعثة البرتغالية قدموه قبل ذلك بحوالى قرن ونصف القرن.

(٢) رحلة بروس، المجلد الثالث، ص ٦٥٤.

(٣) نفسه، ص ٦٤٢ وما بعدها.

(٤) نفسه، ص ٤٨١ وما بعدها.

رؤيته على مسافة كبيرة، يمثل ظاهرة فريدة على وجه الأرض. ومن جهة أخرى، فمن السهل أن نفهم من أسلوب بروس في وصف هذه الجبال الثلاثة أنه لم يرها رأى العين.

والأمر كذلك بالنسبة للمسقط التالي وهو أكثر شهرة وبعد السابع وفقاً للرحالة. ويقع هذا الجندل أعلى إبريم ويطلق عليه جيانادل، ويكتبه الكثيرون ولكن دون أساس. ويمتد أنه راجع إلى سلسلة من الجبال تتجه من الشرق إلى الغرب عند خط عرض ٢٢ ١٥. وأخيراً، فإن الجندل الأخير هو ذلك الذي وصفته.

ويخبرنا الإدريسي بأن زوارق النوبة تضطر إلى الوقوف عند جبل جيانادل، وأن البضائع تنقل من هناك على ظهر الجمال حتى أسوان التي تبعد عنها باثنتي عشرة محطة. ويقول: "في هذا المكان يكون الجانب المطل على مصر منحدرًا، ويجري النيل عبر صخور حادة باندفاع وعنف مخيفين"<sup>(١)</sup> وتمثل الرحلة مسيرة يوم على ظهر الجمال. ويرى الإدريسي في جغرافيته أن متوسط مقدار المحطات يبلغ خمسة وعشرين ألف خطوة. ولكن يبدو أن صعوبة الطرق تجعلنا نشعر بازدياد المسافة، فالمسافة بين جيانادل وأسوان لا تزيد على مائة أو مائة وعشرين ألف خطوة.

ويرى أبو الفدا أن سلسلة الجبال اللتين تحيطان بمصر العليا إنما تبدأ من جناديل، حيث يوجد أعلى أسوان جبل يجري منه النيل مكوناً شلال عبر صخور حادة ومرتفعة، ولا تستطيع الزوارق المرور. وهناك تكون حدود ملاحه النوبيين من ناحية الشمال، وملاحه المصريين من ناحية الجنوب"<sup>(٢)</sup>. ويمتد ميخائيليس أن جناديل<sup>(٣)</sup> اسم علم سمى بها جندل أسوان وكذلك الجندل الذي يوجد أعلاه. ولا أعرف علام أقام رأي ٩ ولكنه إذا كان أقامه على أساس فسيهم في شرح كيفية الخلط بين هذين الجندلين<sup>(٤)</sup>.

(١) جغرافية النوبة، ص ١٧، باريس، ١٦١٩. (٢) أبو الفدا، وصف مصر، ص ١، جوتينجن، ١٧٧٦.

(٣) هذه الكلمة مكتوبة هكذا في مؤلف أبو الفدا.

(٤) خلصت الملاحظات البحثية التي طلبت من السيد راج القيام بها حول هذا الاسم إلى عدم إمكانية التمسك بمعنى جناديل وهي جمع جندل التي تمنى حجر وفقاً لجولات تمنى أصلها أسقط. وهو يفضل معنى وتمنى الكلمة الأولى بالمربية مرتفع وفي الزصل سقط، واندفع. أما الكلمة الثانية فهي فارسية وتمنى على سبيل المجاز جودة مفرطة.

وكان من علماء الجغرافيا استرابون وبطليموس، وكذلك هليودور وأوستات وغيرهم من القدماء يميزون جندلين فقط، الكبير والصغير، على الرغم من علمهم بوجود عدد أكبر ولكن على نحو غير واضح . وكانت أوصافهم تنطبق دائماً على جندلى جناديل وأسوان. ويذكر بومبونيوس ميلا بحيرة ضخمة كان النيل ينحدر منها باندفاع، ولكنه لم يحددها إلا بعدما تحدث عن جزيرة مروى ، وعن اتصال الاستابوس بالاستابوراس<sup>(١)</sup>. ولكننا لا نعرف اليوم أى بحيرات فى مثل ذلك المكان، وهو ما يدعونا الى الافتراض بما هو عكس وصف ميلا؛ أى إن البحيرة هى بحيرة دمبيا ، وأنه لابد أن المسقط هو المقصود من شلال الأتا الكبير.

ويحدد بطليموس موقع الشلال الكبير بالقرب من بسلسيس عند خط عرض ٣٠° ٢٢' وهو نفسه موقع جناديل. وهكذا يكاد ينعدم الشك حول هذا الموقع، نظراً لبعد الشلالات الأخرى أكثر من ذلك بكثير. غير أن استرابون قد أعطى أدق معلومات عندما حسب مسافة ألف ومائتى غلوة بين الشلالين الكبير والصغير<sup>(٢)</sup> وهذه المسافة تساوى ثلاثة وأربعين فرسخاً، مما يعد التقدير المادى عند استرابون.

ويروى أريستيد أنه عندما تحدث الى أحد الأثيوبيين مستمعيناً ب مترجم فإن الأول أخبره أن الإبحار من أسوان الى مروى كان يستغرق أربعة أو حتى ستة أشهر بسبب عدد الجنادل الكبير الذى كان يصل الى حوالى ستة وثلاثين جندلاً تقريباً أعلى سلسيس. وأياً كانت المبالغة فى رواية أريستيد إلا أننا نجد فيها حقيقة بينة وهى أنه فيما بعد مروى يزدوج مجرى النهر، وأن مياه أحد فرعيه تكون بلون الأرض. أما الفرع الآخر، فمياهه بلون السماء<sup>(٣)</sup>. والواقع أن هذا على وجه التحديد ما يميز اليوم بين البحر الأبيض والبحر الأزرق، أو بمباراة أخرى النهر الأبيض والنهر الأزرق، وهو ما أدى الى التعرف على النيل الحقيقى فى الآونة الأخيرة. وأتينا لنرى الأسماء الحالية للبلد تطابق هذا التميز.

(١) بومبونيوس ميلا، ص ٢٧، باتافيا، ١٦٤٦. (٢) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٧٨٦.

(٣) أريستيد فى مصر، ترجمة جيب، ص ٣٤٦، ١٧٢٢.

وأنا لم أتحدث بعد عن فيلوسترات ، الكاتب الذى نقل إلينا تفاصيل مثيرة عن أثيوبيا والنيل فى مؤلفه أبولونيوس دوتيان الشهير الذى وجدت فيه وصفاً للجنادل العلوية سأرويه فى كلمات موجزة. فهو يصور أبولونيوس وهو يقوم برحلة مع رفاقه تارة براً وتارة أخرى فى النيل، ويزور كل الأماكن بقدر كبير من الفضول. وبعد أن غادروا بلاد الفلاسفة الهنود توجه أبولونيوس ورفاقه نحو الجبال أو الجنادل متجهين نحو عالية النيل من الجهة اليسرى. ويقول فيلوسترات إن الجنادل عبارة عن جبال وعرة يهبط منها النيل جارفاً التربة التى تكون طمى مصر، وصوت النيل عند مسقطه مخيف، ولذلك فقد الكثيرون سمعهم لاقتربهم منه أكثر من اللازم. وعندما اقتربوا بدأوا يسمعون صوتاً يشبه هزيم الرعد، عندئذ قال لهم تيمازيون : ها نحن أولاء على مقربة من الجندل الأخير بالنسبة لمن يتجهون نحو سافلة النيل، والأول بالنسبة لمن يتجهون نحو عاليته<sup>(١)</sup>. وبعد سيرهم مسافة عشر غلوات رأوا النهر يهبط من الجبل وكان فى ضخامة نهر مارسىاس ومياندر عند التقائهما. وعلى بعد خمس عشرة غلوة من هناك سمعوا صوت جندل كبير وقد بلغ فى ضخامته وارتفاعه ضعفى الأول، ولا يستطيع السمع تحمله حتى أن رفاق أبولونيوس لم يريدوا التقدم الى أبعد من ذلك، لكن أبولونيوس توجه نحو الشلال يرافقه فيلسوف هندي وتيمازيون. وعند عودته أخبر رفاقه أن منابع النيل هناك وتبدو معلقة على ارتفاع مذهل<sup>(٢)</sup> وأن الضفة كانت أشبه بججر هائل حيث تندفع المياه البيضاء من كثرة الزيد ومصحوبة بصخب شديد، وأن طريق هذه المنابع كان وعراً ومنحدرأ على نحو يفوق كل الخيال<sup>(٣)</sup> ويتضح من هذا الوصف أن أبولونيوس كان فى النهر الأزرق لا النهر الأبيض، وأنه بلغ أعلى جبال يجتازها النيل تحت الخط الموازى لموقع الدرجة الحادية عشرة، فلقد رأينا هناك ثلاثة شلالات أضخم من كل شلالات النهر. ومن بين المحدثين لم يأت بعد أوروبى واحد إلى هذه الأماكن التى يتعذر سلكها، ونحن نعلم أن القدامى قد عرفوا أفريقيا أفضل منا بكثير.

(١) يبدو أن فيلوسترات لم يضع فى حسبانته هنا جندلى جناديل واسوان.

(٢) وفى النص ثمانى غلوات.

(٣) فيلوسترات، ص ٢٩٩، باريس، ١٦٠٨.



ولن أقدم هنا عن الوصف الذى قدمته شعوب هذا البلد، وسأسجل فقط فى هذا الجزء أن فيلوسترات قد يبدو مؤيداً لأولئك الذين يرون فى النهر الأزرق نيل القدماء. ونستطيع أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لمقطع بومبونيوس ميلا الذى ذكرته عالية، وكذلك بالنسبة لمقطع آخر لأتيكوس الذى يقول فى مؤلفه " كوزموغرافيا " إن النيل عند منبعه يشكل بحيرة ضخمة يبلغ محيطها ١٥٤ ميلاً، وعند خروجه من هذه البحيرة يصل إلى الجنادل القديمة بعد أن يكون قد قطع ٤٥٤ ميلاً<sup>(١)</sup>، أى ٥٠٠ ميل ابتداء من البحيرة. وبحيرة دمبيا بهذه الضخامة فعلاً، ويبلغ مجرى النهر أيضاً ٥٠٠ ميل ابتداء من البحيرة حتى الجنادل الواقعة تحت الدرجة الحادية عشرة، ولكن ذلك لا يدل على أن هذا الفرع الرئيسى للنيل كما تصور اليسوعيون الارتفاعات ومن بعدهم بروس. ولن أضيف إلا ملاحظة واحدة وهى أنه يبدو أن بروس الذى لم يكن يستطيع أن يحسب خطوة بخطوة مساحة شاسعة من البلاد مثل تلك التى وصفها قد جمع على الأقل معلومات على قدر كبير من الدقة ولم يكتف بنقل روايات اليسوعيين الارتفاعات فقط كما تعرض لاتهام ظالم .

والوصف الذى قدمه عن الجنادل يعطى صورة لمشهد رائع وتأثير بالغ لا يمكن أن يُمحى من الذاكرة كما يقول. وصوت الجنادل من الضخامة حتى أنه قد غمرته حالة من الذهول والدوار، وأن المشاهد لم تمتد لديه القدرة على مراقبة الظاهرة بتيقظ. ويبلغ سُمك طبقة المياه التى تجرى قدماً واحداً، وعرضها نصف ميل. وتهوى من ارتفاع أربعين قدم تقريباً فى حوض واسع يتدفق منه النهر غاضباً مُشيعاً فى اتجاهات مختلفة سيول تغور مليئة بالزبد<sup>(٢)</sup>. وعند سقوطها تكون المياه على شكل قوس يستحيل - تبعاً لبروس - الوقوف تحته (على الرغم مما قاله عنه لوبيو) لأن الصوت المربع الذى يحدثه الشلال يعرض المرء لفقد سمعه. ويضيف أن هناك ضباباً سميكاً يرتفع باستمرار فوق الشلال. وقد تبدو

(١) أتيكوس، كوزموغرافيا، ص ٤٩، ١٦٤٦.

(٢) هذا الشلال يفوق فى ارتفاعه بما يتراوح بين عشرة أقدام واثنى عشر شلال أورينل فى ميبورامى وفقاً لقياس هامبولد.

هذه اللوحة متفقة مع وصف فيلوسترات فى بعض النقاط، لكن وصف فيلوسترات لم يذكر البحيرة التى نجد مسقط آلاتها عند الخروج منها، ونرى على المكس بعض الظروف التى تتناسب جيداً مع شلالات سلسلة فازوكلو الكبرى أو شلالات الدرجة الحادية عشرة.

والنتيجة الوحيدة التى أستخلصها من هذه الروايات القديمة والحديثة هى أنه كان ولا يزال هناك خمسة أو ستة شلالات يكون مسقط المياه فيها شديد الارتفاع وصوتها هائل، وهى شلال الأثر العسر وشلال آلاتها، وشلالات فازولو، وشلال جناديل، وأنه إذا ادعينا أن صوت الشلال الأخير كان يصيب سكان المناطق المجاورة بالصمم، فلا بد أن نمزى ذلك إلى وجود الشلالات العلوية التى كان يتم الخلط بينها والشلال الأخير، كما نعزیه لحالة مجرى النهر الذى نتصور أنه كان مختلفاً جداً عما هو عليه الآن.



## الفصل الثالث وصف جزيرة الفنتين بقلم جومار

### المبحث الأول: وصف عام للجزيرة

إن موقع الفنتين وسط النيل وعلى تخوم النوبة يكفى لتمييز هذه المدينة العتيقة من بين مختلف الأماكن بمصر، ما لم تبرزها آثارها والمكانة التي تحتلها في تاريخ البلاد. وتباين خضرة ونضرة ريفها على نحو لطيف مع الأرض المجذبة المحيطة، حتى أنها سميت "بالجزيرة المزهرة" "وحديقة المدار". ويرسو الرحالة مبتهجا بعد أن تعب بل أنك فضوله من السير المضنى ومن كثرة أعداد الآثار واللوحات التي رآها من مختلف الأنواع ابتداء من فيلة، يرسو في هذه الجزيرة التي تبدو له فجأة كمكان مسحور وسط هذه القمم الضارية إلى السواد وهذه الرمال المتألثة التي تحتل الأفق وتملؤه. وهذه المنطقة ليست أغنى في زراعتها من بقية مناطق مصر، ولكنها تستمد جم قيمتها من الموقع الرهيب والمصحراء التي تحيط بها. وأشجار التوت والسندل والنبق ونخيل والدوم والبلح هي كل أشجار فيلة الحديثة، ويستخدم بعضها كسياج وحدود للحدائق، وينتشر

البعض الآخر على شكل غابات صغيرة وسط الحقول، ويشكل جزء آخر طريقا غير منتظم من جهة الشمال. وعندما نطوف فى دروب هذه الجزيرة تصيب أسماعنا تلك الجلبة المستمرة التى تحدثها الأعداد الكبيرة من القواديس التى لا تزال تستخدم . كما كان الحال فى عصر استرابون<sup>(١)</sup> . فى رى الريف وهى التى تومز وتحفظ الخصوصية الشديدة. فلم يبق شئ فى هذه الجزيرة دون زراعة سوى الصخر. فكل قدر من الطمى يرسبه النيل يستغل من عام لعام، وسرعان ما تبذر فيه البقول حتى يشغل الطمى مساحة كافية لسير فيها المحراث.

وهكذا تكونت الجزيرة كلها تقريبا شيئا فشيئا من الطمى، الذى يرسبه النهر: أما الصخور التى تحدها فى الجنوب، فكانت بمثابة نواة لهذا الطمى.

وعندما يتتزه المرء وينعم بالراحة بين هذه الأشجار دائمة الخضرة، فإن الهواء النقى البارد الذى يستشقه يثير لديه إحساسا لا يمكن وصفه، إحساسا لا يعرفه إلا أولئك الذين اقتربوا من المدار، إنه الشعور اللطيف بالحرارة المائلة للاعتدال، وهو التناقض بين المروج والصخور، بين الحقول والصحراء، بين الخضرة والرمال، بين الحداثق وبين موقع مهجور إلى أبعد حد باختصار إنه التناقض بين الطبيعة وصنع الإنسان الذى يضافى على هذه الناحية ملامح مميزة تختلف تماما عن الطابع شديد الرتابة، الذى تتسم به مختلف بقاع مصر الأخرى. وأخيرا ووسط كل هذه اللوحات المتنوعة المثيرة يتمتع الرحالة أيضا بمنظر المديد من الآثار القديمة التى لا تزال قائمة، إنها أطلال قليلة ولكنها قيمة لما كانت تتمتع به الفنتين من قوة فى المصور المتيقة. هنا أول أرض زرعت فى مصر، وهنا مدخل النيل فى هذا البلد عندما يجتاز سلسلة الجرانيت التى تمترضه وصخور الجندل الأخير التى لاحصر لها<sup>(٢)</sup>.

---

(١) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٨١٩ .

(٢) ايليوس اريستيد من مصر، نسخة من طبعة أكسفورد، ١٧٢٢، ص ٢٤٢، وتبعا لإحساس الإغريق الذى نقله هيرودوت (الكتاب ١١، الفصل ١٧)، كانت مصر تبدأ عند الشلال وعند مدينة الفنتين.

وقد كان هذا الموقع فى العصور القديمة مفتاح مصر من ناحية الجنوب. ويقول هيرودوت إنه فى عصر اسمياتيك كانت هناك حامية فى الفنتين ضد الإثيوبيين، وفى القلزم ضد السوريين والعريان، وفى ماريا(\*) ضد ليبيا.

وفى عصر هذا المؤرخ، كان للفرس أيضا حامية فى الفنتين<sup>(١)</sup> ويذكر استرابون أنه كانت توجد فيها فرقة خيالة رومانية<sup>(٢)</sup>. أما بومبونيوس ميلا فيعتبر الفنتين من بين أشهر مدن مصر. صا الحجر ومنف وأسوان تل بسطة وفيلة وطيبة.

وفى حديثة عن رحلات جيرمانيكوس الكبير يقول تاسيت عن هذه المدينة أنها أحد أبواب الإمبراطورية الرومانية<sup>(٣)</sup> : وكذلك كانت هناك فى عصر الإمبراطورية القديمة فرقة خيالة مرا بضة فى الفنتين. غير أن أهمية أحد المواقع الحربية أو إحدى المدن الحدودية لا تتفق والفكرة التى يمكن أن تكونها عن الفنتين، إذا ما علمنا أنه كان لها ملوك مستقلين. والواقع أن هذا الأمر يستحق أن يدرس منفصلا، فعمليات البحث التى يستلزمها ستجملنى أتوقف هنا أكثر من اللازم<sup>(٤)</sup> وقد تبعت وفقا لما ذكره استرابون<sup>(٥)</sup>. قرية صغيرة بعد المدينة التى كانت تضمها جزيرة الفنتين وهى التى كانت تقع نحو الجنوب. ويحتل هذا الكفر سفحاً مرتفعاً يتكون من صخور الجرانيت وأطلال المساكن القديمة، ويسكنه البرابرة أو النوبيون وهو ومأهول جدا بسبب مساحته الواسعة. وهناك أيضا قرية أخرى أكبر من الأولى وتتجه أكثر نحو الشمال، ويسكنها البرابرة مثلما هو الحال بالنسبة للأولى. ولا يوجد اسم خاص لهاتين القريتين، بل إن الجزيرة ذاتها لم يعد يشار إليها إلا باسم أسوان التى تقع فى مواجهتها، حيث

---

(\*) تقع على بعد حوالى ٤٠ كم إلى الجنوب الغربى من الإسكندرية على الساحل الجنوبى لبحيرة مريوط (المراجع).

(١) هيرودوت، التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ٣٠.

(٢) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٨٢٠.

(٣) تاسيت، الحوليات، الكتاب الثانى.

(٤) انظر فيما سبق، المبحث السادس.

(٥) استرابون، الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ٨١٧.

يطلق عليها جزيرة أسوان ولم أسمع أحدا من السكان يذكر اسم الساج الذى أشار إليه الرحالة.

وتأخذ الجزيرة شكلا مستطيلا، ويبلغ طولها من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ألف وأربعمائة متر<sup>(١)</sup> ويبلغ أكبر عرض لها أربعمائة متر<sup>(٢)</sup>. ولما كانت تحيط بها العوائق الصخرية من كل جانب تقريبا، فقد تركت بالكاد ممراً ملاحيا للنهر. ويبلغ عرض الساعد الذى يفصل بينها وبين أسوان حوالى مائة وخمسين متر<sup>(٣)</sup> فى الجزء الذى يتم اجتيازه فى المعتاد عندما يريد المرء العبور من اليابسة إلى الجزيرة. أما أقل عرض لهذا الساعد، فيبلغ اثنين وتسعين مترا أى نصف غلوة على وجه الدقة، وهى المسافة بين أسوان والفتتين وفقا لما ذكره استرابون<sup>(٤)</sup>. وعند القدوم من أسوان، نقترّب من خليج صغير أسفل رصيف قديم أو حائط ساند أقيم بين الرعوس البارزة للصخور لحماية الجزيرة من المد. وقد بنى هذا الرصيف الذى يتسم بقدر من الارتفاع بعناية وبطريقة خاصة سأحدث عنها فى موضع آخر. وهو يلفت النظر عن بعد بلونه الأبيض وبارتفاعه خصوصا فى وقت الجزر<sup>(٥)</sup>.

ويقدر محيط تل الركام الذى يتكون من أنقاض المدينة القديمة بحوالى سبعمائة أو ثمانمائة متر<sup>(٦)</sup> وهذا التل يشبه هضبة مرتفعة تشرف على ما عداها ومركزها كما قلت من قبل جزيرة صغيرة عتيقة من الجرانيت تكونت عليها ترسيبات الطمي منذ زمن سحيق. ومن ساحل أسوان نرى هذه الهضبة سمراء على الخلفية المرتفعة التى تمثلها السلسلة الليبية التى تكسوها الرمال المائلة إلى البياض تماما ونخترقها من هنا وهناك رموس سوداء من الجرانيت.

---

(١) حوالى سبعمائة قامة تقريبا.

(٢) ٢٠٠ قامة تقريبا.

(٣) خمس وسبعون قامة تقريبا.

(٤) سبع وأربعون قامة تقريبا - استرابون، الكتاب ١٧، ص ٨١٧.

(٥) انظر لوحة رقم ٣٠، شكل ٤، عند نقطة ٣، وانظر أيضا لوحة رقم ٣٢ شكل ٢، ١.

(٦) ١٣٥٠، ٤٠٠ قامة.

وتغطي هذا التل تماما أحجار جميلة من العقيق وخاصة العقيق الأحمر التي لا يمكن أن تكون قد جلبت بهذا العدد الكبير إلى هناك، لذا فالأوقع أن يكون منجمها داخل الجرانيت ذاته<sup>(١)</sup>. ويهتم برابرة هذه الجزيرة، رجالا ونساء وأطفالا بجمع أحجار العقيق الأحمر هذه وتقديمها للأجانب من ميداليات، ومصاييح قديمة وتماثيل يجدونها بأعداد كبيرة وهم ينقبون في الأنقاض. وطابع هؤلاء القوم الطيبين يحمل مسحة من الصراحة والبهجة اللتين تسحران المرء وتحملانه على التعلق بهم. وقد شعرنا لديهم بالترحاب والمودة اللذين لم نجدهما في أى مكان آخر في مصر.

وأكثر ما يلفت النظر عندما نجوب هذا التل كتلتان كبيرتان فوق طرفه وعندما تقترب نتعرف فيهما على قوائم لباب من الجرانيت منحوت بعناية شديدة ومغطى بنقوش مصرية<sup>(٢)</sup>. وعند التوجه إلى النهر وبالقرب من الرأس التي تشكلها الجزيرة في الجنوب، نرى عدداً كبيراً من التواييت الحجرية المحفورة داخل الصخر والجديرة بالاهتمام، باعتبارها القبور الوحيدة من هذا النوع الموجودة في مصر. وربما كانت هذه التجويفات بقايا أعمال قديمة تمت في هذه الجزيرة لاستغلال الجرانيت. ويقول هيرودوت إنه قد تم استخراج قطعة سايس الحجرية الشهيرة من فيلة الحديثة تلك الكتلة التي كان يبلغ طولها واحدا وعشرين ذراعا والتي لزم لنقلها ثلاثة أعوام وألفين من العمال<sup>(٣)</sup>. وقد كان وجود أحد المحاجر على شاطئ النهر مناسبا جدا للتشجيع على استغلال أضخم الكتل ونقلها.

وعند هبوط الهضبة، نرى معبدا قليل الاتساع مكون من قاعة ورواق ولكنه في حالة ممتازة للغاية، وسأطلق عليه معبد الجنوب. ونجد بعده أيضا وفي اتجاه النيل أكوام من أنقاض البناء تضم كتل كثيرة من الجرانيت وتمثال من نفس المادة غير مصقول، وأخيرا العديد من المباني السفلية التي تؤدي إلى سلم يهبط إلى

(١) لقد وجدت واحدا من هذه الأحجار يحمل نقوشا طيمنية بارزة على شكل صليب.

(٢) انظر لوحة رقم ٣٠ شكل ٤ نقطة ٢، ولوحة رقم ٣٢ شكل ١ نقطة ٣.

(٣) هيرودوت، التاريخ، الكتاب الثاني، المقطع ١٧٥.



النيل. وعندما نسير نحو الشمال وبالقرب من القرية الثانية، نصل إلى معبد متهدم سأطلق عليه معبد الشمال. وأخيراً وعند الطرف الشمالى الشرقى للجزيرة وفى مقدمة النتوء الرملى الذى تنتهى به نجد مبنى كبيراً غطته مياه المد، إنه جدار تكون من صفيين من الأحجار وكان يستخدم بلاشك فى حماية فيلة الحديثة من فيضانات النهر.

كان هذا موجزاً عاماً للآثار التى تشد انتباه الرحالة عند ما يجوب سريماً الفنتين<sup>(١)</sup> أما الآن فسأتحدث تفصيلاً عن تلك الآثار التى تستحق وصفاً خاصاً.

## المبحث الثانى: المعبد الجنوبي

يقع المعبد الجنوبي عند منتصف انحدار التل الذى يتكون من أنقاض المدينة العتيقة وكذلك من الصخر الجرانيتى الذى يمثل أرضيته. وقد تراكمت الأنقاض حول هذا المعبد من جهة الجنوب لدرجة أننا قد نعتقد فى بادئ الأمر أنه مختلف تماماً، ولكننا عندما نقرب ندرك على العكس أنه لم يخف منه إلا النذر اليسير جداً، لا سيما من جهة الشمال؛ فلا يزال يظهر من الأساسات المرتفعة التى يقوم عليها نحو مترين وربع المتر خارج الأرض<sup>(٢)</sup>، وهكذا يمكن للمين أن تراه تقريباً بالكامل وتستمتع بالنظر إلى مقاييسه البسيطة والأنيقة فى الوقت ذاته.

ونجد فوق الأرض المحيطة عدداً كبيراً من الكتل الجرانيتية يبدو أنها بقايا مبنى شيد بطريقة مشابهة، ربما لباب كان فى مقدمة المعبد مثل ذلك الذى وجد فوق قمة التل. وبين هذه الكتل يوجد تمثال كتلة حجر واحدة من الجرانيت<sup>(٣)</sup>، ويبلغ طوله مترين<sup>(٤)</sup> وثلاثة أرباع المتر وهو غير مكتمل. وهذا التمثال جالس

---

(١) راجع اللوحة رقم ٣١ للدراسة المتعمنة سواء لجزيرة الفنتين أو لضواحيها أو راجع المبحث الثانى فيما سبق.

(٢) أكثر من سبعة أقدام

(٣) انظر اللوحة رقم ٣٤ نقطة ٢ .

(٤) حوالى ثمانية أقدام ونصف .

معقود الذراعين يحمل يميناه صولجان وبيسراه مذبة. والواقع أننى لم أستطع اكتشاف النقوش الإغريقية التى يتحدث عنها ب . سيكارد، ونوردين، ويوكوك. فيقول الأول إنه رأى نقشاً على رخام أسود بين أطلال معبد كثوفيس ويتحدث الثانى عن قاعدة تمثال أو جدار من حجارة بيضاء كبيرة يوجد بالقرب من المعبد مغطى بالنقوش. وأخيراً يخبرنا بوكوك أنه وجد نقشاً كبيراً على جدار خارج معبد الفنتين ولكنه فى حالة سيئة جداً أو تم تقليده على نحو سيئ بحيث يصعب فك رموزه ولو جزئياً<sup>(١)</sup>. وهو يتعلق بسكان فيله وأسوان، وبالإمبراطور دقلديانوس، غير أنه لا مجال لإطالة الحديث عنه هنا أكثر من ذلك.

ويرسم محور المعبد من ناحية الشرق مع خط الزوال المغناطيسى زاوية قدرها ٧٢,٥. ويبلغ طوله بدون السلم الخارجى اثنى عشر متراً تقريباً<sup>(٢)</sup>، وعرضه تسعة أمتار ونصف<sup>(٣)</sup>، وارتفاعه ستة أمتار ونصف<sup>(٤)</sup>، وفقاً لما قمت بقياسه فوق الأرض، ويبلغ طول القاعة الداخلية ستة أمتار ونصف<sup>(٥)</sup>. وعرضها نصف طولها. وهذه الأبعاد تجعل من معبد الفنتين واحداً من أصغر معابد مصر. وقد بنى بالحجر الرملى العادى. وبصفة عامة يبلغ سمك الحجر الواحد ثلاثة أرباع المتر. وهناك أحجار يزيد سمكها على ذلك مثل تلك التى نراها فى ركيزة الأعمدة المزخرفة التى يتكون ارتفاعها من حجر واحد من تلك الأحجار.

والمعبد مغطى بالرديم وغير مكدس من الداخل نظراً لارتفاع قاعدته. والواقع أننا نسير على الأرض القديمة ذاتها سواء فى الرواق أو فى القاعة الداخلية، بينما نجد فى كل مكان آخر طبقة متفاوتة السمك من الرديم. غير أنه توجد على السطح أنقاض مكدسة يصعب تصور أصلها ما لم نمر إلى بعض المساكن المتواضعة الحديثة التى ربما تكون قد أقيمت فوق المعبد. وقد لاحظت أن هذا البناء فى حالة جيدة لم يهدم منه سوى عمودى ارتكاز وكذلك الجزء المناظر لهما

(١) وصف الشرق، المجلد الأول، ص ٢٧٨ .

(٢) سبعة وثلاثون قدم تقريباً.

(٣) تسعة وعشرون قدماً.

(٤) حوالى ١٩ : ٢٠ تقريباً .

(٥) حوالى عشرين قدماً.

من خرجات السطح. أما أشد ما تعرض للتلف فهو السلم الذى يؤدى إلى الفناء، فلا نجد منه إلا الخمس أو الست درجات العلوية، أما الباقي فهو مهدم أو مختبئ تحت الكثير من الأنقاض. وكذلك فقد هدمت أيضا القطع المكعبة فى السلم، ولكننا لا نشك فى أنه كان أصلا مثلما ظهر فى الرسم<sup>(١)</sup>. ولا يوجد بالداخل أى آثار لدمار، فزوايا الجدران لا زالت كاملة، والنقوش لم تتعرض إلا لتلف بسيط جدا خاصة فى جانب القاعة الذى يطل على جهة الشمال، ومع ذلك فاللون الداكن لكافة الجدران إنما ينبئ بقدم شديد ولا يوجد إلا القليل من الآثار المصرية التى نجد أحجارها أكثر قتامة.

وهناك بناء أحدث أضيف إلى الجزء الخلفى من المعبد، وقد ترك فى نفوس الرحالة<sup>(٢)</sup> أثراً عظيما. والواقع أن هذا البناء يبرز قدام المعبد، فلو أنه أقل قتامة وأحجاره أقل ضخامة أيضا وعلى الرغم من أن هذا البناء قد شيد بعناية إلا أنه من السهل إدراك أنه ليس مصرى. فالمداميك منتظمة ولكنها أقل حجما، وترتيب الحجارة واضح الأعمدة متداخلة فى البناء على امتداد ارتفاعها، وهو ما لم نره أبدا فى المنشآت المصرية. والفرقة التى يضمها هذا البناء تتناسب تماما مع الصالة الكبيرة التى تم مد جدرانها إلى خارج المعبد، غير أن هذه القاعة الجديدة تقطع الرواق المتصل الذى كان يحيط بالصالة القديمة، والحال أن الرواق لا يقطع أبدا فى هذا النوع من المعابد ولا فى غيره. وكذلك، فإننا لا نرى فيها أى أعمال نقش فى الداخل ولا فى الخارج. لذا فمن المؤكد أن هذا المبنى أقيم فى تاريخ لاحق للمعبد المصرى. والإتقان الذى يتمتع به المبنى لا يسمح بعزوه للمسيحيين ولا للعرب بل يحملنى على الاعتقاد بأنه من صنع الرومان.

وهناك خصوصية تتفرد بها الصالة القديمة وهى اتساع الأبواب فى أسفلها، فلم يحدث أن شاهدنا مثالا واحدا لفتحات مائلة فى أبواب الآثار المصرية. وقد

---

(١) انظر لوحى ٣٥ ، ٣٦ ومع ذلك فلسنا على يقين من أن القطعة المكعبة كانت تعادل الارتفاع الكلى للقاعدة، أم كانت مقسمة إلى عدة أجزاء. كذلك ربما كانت الدرجات أقل عرضا مما هو ظاهر فى الرسم

(٢) انظر اللوحة رقم ٣٥ شكلى أو ٣، عند النقطة a.

اختفت المفصلات التي كانت تستخدم في فتح بابى المعبد، وكذلك الأبواب ذاتها ولكننا لا نزال نرى الثوب التي كانت توضع فيها هذه المفصلات.

وتعد هيئة هذا المبنى الصغير نموذجاً للبساطة والمراقبة، كما يستطيع القارئ أن يحكم على ذلك بنفسه من خلال التخطيط الذى لدية<sup>(١)</sup>. ولا يسعنا إلا أن نتعرف فيه على طراز المعابد الإغريقية الأولى. وهذه الهيئة تطابق تلك التي كان القدماء يطلقون عليها المعبد. ويطلق فيتروف هذا الاسم على معبد مربع أو مستطيل تحيط به الأعمدة مكونة حوله رواقاً متصلاً. ونجد في مصر الكثير من المباني التي تحمل نفس هذا الشكل، غير أن ما يميز معابد الفنتين هو أن هناك في الرواق ركائز مربعة على الجانبين الطويلين وأعمدة عادية على الجانبين الآخرين. وهناك سبعة ركائز في كل جانب من الجانبين، أما الواجهتان الأمامية والخلفية فبهما ركيزتان في الزوايا وعمودين في الوسط، والمسافة بين كل عمودين من أعمدة الواجهتين أعرض من تلك التي بين كل عمودين من أعمدة الجانبين.

وإذا ألقينا النظر على هذا المبنى المكون<sup>(٢)</sup> من خطوط شديدة البساطة تبدو وكأنها لا مهارة فيها، لارتاحت العين للتناسق الذي يسود بين أجزاء المبنى. ويرجع هذا الانطباع على نحو الخصوص إلى تلك الخطوط المتصلة التي تتمثل في الكورنيش والحليات الشريطية وتكرر في الركيزة الزخرفية والقاعدة. والواقع أنه عندما نمتاد على المعمار الإغريقى وعلى القواعد المستقرة بالنسبة للمسافة بين كل عمودين وبالنسبة لارتفاعات الأعمدة وارتفاعات خراجات السطح، يصعب على العين أن ترى مبنى وقد نسق على خلاف ذلك. غير أن معبد الفنتين الذي يختلف تماماً عن المعمار الإغريقى، به شئ في مجمله يثير الإعجاب ويسترعى الانتباه. ومسافة الركائز ومسافة الأعمدة تعادلان أكثر من ثلاثة أضعاف عرضها، وهو ما يتيح للرواق مزيداً من التهوية والرشاقة خاصة وأنه منخفض

(١) انظر اللوحة رقم ٢٥ شكل ١.

(٢) انظر اللوحة رقم ٢٥ شكل ٢.

بالنسبة لقطر الأعمدة. فارتفاع العمود كله لا يصل إلى خمسة أضعاف قطره العلوى، وهذا الأخير يعادل عرض الركائز الناتئة من الجدران.

ويساوى جذع العمود يساوى وحده ستة أضعاف نصف القطر أو مقياس التناسب مأخوذاً بارتفاع الركيزة المزخرفة ويضم التاج ضعفى هذا المقياس، والطبلية مع العتب ضعفين، والكورنيش بما فيه الحليات الشريطية ضعفين أيضاً. وبالتالي، فإن العمود بدون الطبلية يضم ثمانية من هذه المقاييس، والتكوين كله اثني عشر. أما الجدار الأوسط بين الأعمدة يضم ستة وإجمالى عرض المعبد يضم أربعة وعشرين ضعفاً من هذا المقياس، وتضم القاعة من الداخل تسعة أضعاف على جانب وثمانية عشر على الجانب الآخر.

وهذا التنوع فى التناسق، وهذا الاستخدام لوحدة قياس واحدة بالنسبة للمسافات والارتفاعات وكافة نسب أجزاء البناء، كانا بالتأكيد وراء الانطباع الطيب الذى يحدثه منظر المبنى، وهو انطباع لا ندرکه للوهلة الأولى. وبالتالي، فما من شك أن فن تنظيم المساقط والمخططات وعلم النسب لم يكونوا بعيدين عن مصر. ومع ذلك، فهذه المقاييس الرشيقة لا تتوافق مع تلك التى عرفناها فى الأبنية الإغريقية والرومانية إن لم يرجع الأمر إلى العقل الذى صممها. ومن ثم، فلا بد أن تتفق أيضاً على أنه لا يوجد فى المعمار طراز مطلق ووحيد كما كان يفكر الكثير من الكتاب الموثوق فيهم. غير أن هذا المثال الذى يقدمه لنا أثر صغير ما كان ليقام له وزن إن لم تؤكد أبنية أخرى كثيرة، ولا سيما معبد أدفو الكبير<sup>(١)</sup>.

ومن السمات الخاصة بمعبد الفنتين عدم وجود خطوط مائلة به شأن الآثار المصرية كافة، فأوجه الركائز الناتئة من الجدران، والقواعد، وكافة الجدران كلها عمودية. وهو الوحيد أيضاً الذى يتركز فيه سقف الرواق مباشرة على الكورنيش. وأخيراً فهو الوحيد الذى له - بالإضافة إلى الركيزة المزخرفة - أساسات مرتفعة إلى حد كبير وسلم خارجى مكون من عدد كبير من الدرجات.

---

(١) انظر وصف آثار إدفو، الفصل الخامس.

وكان ارتفاع الأساسات مجالا لوجود اروقة أو قاعات سفلية. وقد وجدت بالفعل ممراً طويلاً جداً أسفل الرواق الشمالى، وهو ما يفترض وجود اثنين آخرين. ولا نستطيع اليوم أن نتقدم كثيراً داخل الرواق الأرضى<sup>(١)</sup> انظر التكدسه بالانقراض. ولا أعرف كيف كان الدخول إلى المبد عندما كان فى حالته الأولى مكتملا حيث لا نرى أى أثر لسلم ولا أى فتحة فى الجزء السفلى، فى القاعة أو الرواق. ولابد أن هذه الاروقة السفلية كانت تتصل بمنشآت أخرى مجاورة لها كنت قد ذكرتها من قبل وتمتد حتى النيل، كانت هناك رغبة فى إجراء عمليات تنقيب للتعرف على اتجاه كل هذه الممرات السرية بل والفرض منها.

تتسم زخرفة المعبد بنفس البساطة والوحدة التى تتسم بهما خطوط المسقط والارتفاع. ويمتد الكورنيش المادى والحليات الشريطية من كل جانب، وأسفل ذلك يزين المتب بإفريز من النقوش الهيروغليفية على الواجهتين. وفى وسط هذا الإفريز يوجد قرص مجنح يحيط بها ثعبانان وطرفا الجناحين عموديان تماما على محاور الأعمدة، فى ريش الجناحين وتقسيم خاص نستطيع تفحصه فى الرسم<sup>(٢)</sup>، وتتكرر النقوش الهيروغليفية فى تناسق على يمين ويسار القرص المجنح وتتجه نحوه، والأمر كذلك بالنسبة للنقوش الهيروغليفية الموجودة على الرتيبة المزخرفة، وهذا الأسلوب الذى لوحظ فى الكثير من الأفاريز<sup>(٣)</sup> يعلمنا أن مهندسى المعمار المصريين كانوا يستخدمون حروف اللغة نفسها فى الزخرفة ويحملنا على الاعتقاد بأن الحروف الهيروغليفية كانت تكتب وتقرأ من اليسار إلى اليمين ومن اليمين إلى اليسار على حد سواء.

وتزين الركائز كلها بشكلين واقفين وبالكثير من أعمدة النقوش هيروغليفية، ويحتل القمة طائر عقاب كبير باسط جناحيه. وقبل أن نتحدث عن أعمال

(١) أعطى هذه الرقعة مجالا ليوكوك للعديث عن سور تفصله عن المعبد مسافة ضيقة جدا.

(٢) انظر اللوحة ٣٥ شكل ٢، ٣.

(٣) انظر اللوحة رقم ٤٣ شكل ٢ إلخ.

النقش الأخرى فى المعبد، فلا بد أن نتوقف لفحص الأعمدة فهى من نوع نادر الاستخدام، ونرى مثلها ف جبل السلسلة، ومدينة طيبة، والأشمونين وفى وجه بحرى.

ويتميز هذا الطراز من الأعمدة عن غيره بارتفاع الجذع، والشكل السفلى للعمود وطابع التاج وبصفة خاصة بالأضلاع التى تغطيه وأعمدة الفنتين منشورية الشكل بدءا من الثلث السفلى للعمود، وتغطيها ثمانى سيقان شبه دائرية ويربطها بالقمة خمسة أشربة ضيقة<sup>(١)</sup> بداية هذه الأضلع فى نفس مستوى الجزء العلوى من الركيزة المزخرفة، أى عند ثلث العمود تقريبا. ونجد الجزء السفلى من العمود الذى يدخل حتى منتصفه فى الركيزة المزخرفة التى يظهر محيطها بوضوح أمام المحور، مزينا بأوراق مدبية وطويلة تشبه وريقات كأس زهرة اللوتس الزرقاء<sup>(٢)</sup> وأخيرا فقد يتقوس الجزء السفلى قليلا، ويسهم هذا النقصان مع الشكل المخروطى للجزء العلوى فى إحداث تقبب عند ثلث الارتفاع<sup>(٣)</sup>. والقاعدة شديدة البساطة جانبيا، فهى قليلة الارتفاع وشديدة المرض ومائلة فى الجزء العلوى منها.

والتاج منتفخ فى الجزء السفلى منه، ويمثل برعما مقطوعا لزهرة لوتس، وذلك حفاظا على رشاقة الخطوط. وهو مقسم إلى ثمانية أضلع مثل الجذع، ولكن يظهر فيها شكل الزوايا بدلا من أن تكون دائرية<sup>(٤)</sup>. وعند قاعدته يوجد ثمانية أجزاء مستديرة وقد وضعت بين الأضلع وزينت بخطوط، وتتلاقى هذه الخطوط بين أضلع الجذع أسفل الأريطة بحيث يمكن اعتبار الأجزاء المستديرة بمثابة أطراف نفس هذه الأريطة. وساقطع الشك باليقين هنا من خلال الكثير من الأعمدة التى رأيتها فى مقابر بني حسن، وسأتحدث عنها تفصيلا فى

---

(١) انظر اللوحة رقم ٣٥ شكل ٢.

(٢) انظر وصف آثار ادفو، الفصل الخامس المبحث الرابع.

(٣) انظر البحث الخاص بالفن فى مصر بشأن أصل هذا النوع من الأعمدة.

(٤) انظر اللوحة رقم ٣٥ الأشكال من ٥ إلى ٨، وشرح اللوحة.

الوصف العام للمقابر المصرية حيث نرى أنه من المحتمل جداً أن تكون هذه المقابر هي أصل هذه الأعمدة. وسأكتفى هنا بتسجيل أن أضلع تاج عمود الفنتين قد تصور سيقان من البوص وقد شددت بعضها إلى بعض بواسطة أربطة فانشئت بزوايا مثلما هي خاصية هذه النباتات، ما لم نفضل أن نرى فيها تقليداً لسيقان البردى التي تظهر في شكلها الزوايا.

وأعمدة الفنتين مثل بقية الأعمدة تعلوها قطعة حجر مربعة تماثل في ارتفاعها ثلث التاج تقريباً، مزينة بنقوش هيروغليفية تتشابه في تناسق وتتجه اتجاه عكسى في العمودين كما سبق أن لاحظت ذلك في الإفريز والركيزة المزخرفة.

والأوجه الخارجية والداخلية لقاعة المعبد تزينها نقوش متقنة ذات بروز خفيف. هذه النقوش بارزة خارج المعبد غائرة داخله. وأمام المساحة نرى عند كل زاوية من الزوايا نقش يمثل شخصاً يرتدى ثياباً وغطاء للرأس فاخرين ويحمل صولجاناً وهو بين ذراعى شخص له رأس كبش<sup>(١)</sup>. وهناك شكل أصفر لشخصين زينا إطار الباب عن اليمين وعن اليسار ويرتدى الشكلان تاج المحاربين الذى نراه فى اللوحات الحربية<sup>(٢)</sup>، ويحملان بين ذراعيهما باقتين أو حزمتين من النباتات والزهور وقد جمعت على نحو جميل ولكن يصعب تمييزها على وجه الدقة<sup>(٣)</sup>.

ويطوق المحيط الخارجى للمعبد بأكمله، أسفل الرواق، كورنيش مضلع. ونرى على الوجه المطل نحو جهة الشمال أربع لوحات مثيرة تبدو وكأنها تكملة للوحات المساحة<sup>(٤)</sup>.

١. شخص له رأس كبش يذكرنا بجوييتير أمون وايزيس ورأسها مغطى بالريش يضمعان أيديهما على شاب يبدو أنه يمثل حورس أو حريوقراط.

(١) انظر اللوحة رقم ٣٦ شكل ٢.

(٢) انظر اللوحة رقم ٣٦ شكل ٥.

(٣) الكريات الصغيرة التى تعلوها توجد فوق كؤوس لوتس، أسفل مقدمة قارب رمزى (انظر اللوحة رقم ٣٧ شكل ٢).

(٤) انظر اللوحة رقم ٣٧ شكل ١.



٢. شخص يشبه هذا الأخير يقدم لإيزيس باقة من نوع تلك الباقات التي تحملها نقوش الساحة.

٣. شخص آخر يرتدى خوذة ويمسك عصا ورمزين آخرين ويقدم للاله ذى رأس الكبش وإيزيس قريانا سخياً يتكون من أوعية وحلوى واضحيات تمثل حيوانات متنوعة تشبه الأوز والغزلان.

٤. شخص يمسك فى يديه عصا مستقيمة وأخرى ملتوية يقدم قريانا لشكل يمثل حريوقراط ويحمل مذبة، ووراء هذا الشكل يوجد مذبح يملوه ساق وورقة لوتس. أما القريان فهو عبارة عن أريمة ثيران وقد وضعت الواحد فوق الآخر وريطت الرجل اليمنى الأمامية لكل من هذه الثيران الأريمة بحبل، وتنتهى هذه الحبال الأريمة فى يد الشخص وينتهى كل منها بعلامة الحياة. وأخيراً، يوجد ورائه رمز شعار لافت للنظر جداً ويضم نقوش هيروغليفية ويشبه تلك الرموز التى نراها فى المناظر والمشاهد التاريخية فى طيبة. ويظهر شكل حريوقراط بمقطع جانبي لا يرى منه إلا ذراع وفخذ وساق. وقد سبق أن رأينا هذه الصورة فى فيلة. وفوق كل لوحة من هذه اللوحات الأريمة يحلق صقر كبير مستديراً نحو نهاية المعبد. ولابد من مراجعة النقش لاستكمال التفاصيل التى ربما أكون قد أهملتها فى هذا الوصف المختصر.

وأهم لوحة فى المعبد نجدها على اليسار عند دخول القاعة، وهى سليمة تماماً.

أما اللوحة المقابلة، فعالتها ليست كذلك، ولكننا نتعرف فيها على زخاف تماثل زخرفة اللوحة الأولى، وهو ما نستطيع أن نقرره من خلال جزء من قارب رمزى مرسوم فى منتصف هذا الجانب<sup>(١)</sup>. وقد أكتست كل من اللوحتين بألوان لا نزال نستطيع تمييزها، فالأشخاص ملونين باللون الأحمر، أما الزخارف فتختلط فيها ألوان الأزرق والأخضر والأصفر. وبالنسبة للسقف فهو مطموس للغاية

---

(١) انظر اللوحة ٢٥ شكل ٩.

بحيث لا يمكن التعرف على زخارفه. وهناك نقوش هيروغليفية كثيرة غطاها الطين أو اسودت بالدخان.

ويبلغ امتداد لوحة اليسار حوالى عشرين قدماً. وتشغل هذه اللوحة طول القاعة، وتمثل نموذجاً نادراً فى الممايد، وهى ذات تكوين فريد تملأ به جانبا بأكمله من الجدران. والوحدة التى تسود هذا المشهد، وثرأ التفاصيل والثياب، والثياب ذات الشاىا الكثيرة، والرموز، والكتابات الهيروغليفية الكثيرة التى جمعت بمناية، كل هذه الأمور تجعل من هذه اللوحة واحدة من أكثر اللوحات التى تحدثنا عنها إثارة واكتمالاً.

والموضوع الرئيسى للنقوش عبارة عن سفينة أو مركب كبيرة رمزية تزينها فى المؤخرة وفى المقدمة رأس كبش ينظر إلى مدخل المعبد، وقد وضعت هذه السفينة على مذبح عرضه أكبر من ارتفاعه، وله قاعدة وكورنيش ولا يحمل أى كتابات أو نقوش هيروغليفية. وفى وسط المركب توجد صورة لمقصورة صغيرة حجب جزء منها. تبدو مثبتة بثلاث حلقات على إطار له أربع أرجل يستخدم فى سند السفينة التى تحمل على الأكتاف بواسطة روافع تضاهيها فى الطول<sup>(١)</sup>، ونرى واحدة من هذه الروافع فوق المذبح. وتحت المركب، على يسار المذبح

نجد مجموعة غنية مكونة من أنواع كثيرة من الأوانى. وعلى اليمين نجد أربعة شمعرات مزينة باللوتس، وأسفل منها خمسة أخرى منها أربعة تعلوها رأس كبش أما الخامس فتعلوه رأس أسد، وأخيراً ستة شمعرات أخرى أصفر ويسود أعلى السفينة وفى قمة اللوحة قرص كبير له أجنحة.

وأمام مقدمة السفينة يوجد قريان كبير يتكون من فاكهة، وقواقع، وزهور وحلوى، واضمحيات من الإوز، ورؤوس وأجساد عجول مربوطة الأرجل، وأعضاء من حيوانات مختلفة والكثير من الرموز التى يصعب التعرف عليها؛ وهناك شخص يرتدى ثياباً فاخرة ويريق بيده اليمنى خمراً على هذا القريان، أما اليد الأخرى فيمسك فيها بصولجانين يبدو أنه يكرسهما. وغطاء رأسه عبارة عن

---

(١) انظر اللوحة ١١، شكل ٤.

خوذة تماثل تلك التى يرتديها الأبطال فى معارك طيبة. ويرتدى فى كل ذراع أسورتين وفى حزامه جلد رأس أسد، وعلى رأسه يحلق طائر عقاب كبير. ووراء شكل لامرأة ترتدى ثوبا طويلا جدا وشفافا وعلى رأسها غلالة تنسدل على كتفها، وتمسك بمصلصلة وزهور لوتس. ومن النادر جدا أن نرى فى المعابد مثل ثياب هذا الشكل.

ومن ناحية مؤخرة السفينة، نرى مشهدا من نوع آخر عبارة عن شخص يشبه ذلك الذى كان يقدم القرىان، ولكنه يرتدى ثيابا وغطاء رأس مختلفين ويحمل علاقة الحياة. ويقف هذا الشخص بين شخصيتين أخريين تضع كل منهما يدا على كتفيه وتستقبلانه بين ذراعيها. وهناك طائر عقاب يبسط جناحيه فوقه، مثلما هو الحال على يسار اللوحة. والإله له رأس كبش وقد تم رسمه بلون أزرق سماوى. وقد يكون من المستحيل وصف كل زخارف هذه اللوحة تفصيلا، غير أنه لا بد من تمييز القلائد التى تتدلى من رأس مؤخرة ومقدمة المركب، وكذا القلائد المعلقة فى رقبة شخص آخر وصفناه وهى القلادة التى تزينها تماثالان لأبي الهول<sup>(١)</sup>. والواقع أن الرسم يفرقنا بها أفضل بكثير من الوصف الدقيق. ولكننى أسجل أن أعلى المركب ومن رأس كبش للأخرى يوجد أريمة عشر عمودا عليها نقوش هيروغليفية؛ وهو عدد يتكرر دائما، وأن كل هذه الأعمدة تبدأ بنفس الرمز وهو على شكل ثعبان. وفى الكتابات الهيروغليفية العلوية نلاحظ تناسق النقوش الذى ذكرناه سابقا. وكذلك هناك خرطوش لا بد تمييزه من بين هذه الرموز التفصيلية باعتباره خاص بهذا المعبد حيث سنجد فيه كثيرا. وحتى لا أستفيض فى هذا النوع من الملاحظات سأكتفى بتسجيل أن هناك خلف الشكل الذى يرتدى ثوبا مسترسلا نفس الكتابة التى تميز الكهنة والتى يطلق عليها الخرطوش المقدس<sup>(٢)</sup>. تجيب هذه الملاحظة عن ذلك التساؤل الذى أثاره العلماء وهو معرفة ما إذا كان هناك كاهنات فى المعابد المصرية أو لا. والحال أن المرء ليشعر بعدم الاقتناع عندما يقرر إثبات هذه الفكرة من خلال نموذج أشكال

(١) فى اللوحة رقم ٣٦ شكل ٦.

(٢) راجع وصف جزيرة فيله الفصل الأول المبحث السادس.

النساء المنتشرة على وجه العموم على المعابد، والتي ليست فى أغلب الأحيان إلا صور للإلهة إيزيس. غير أن الثياب التى يرتديها الشكل الذى أتحدث عنه والتى نجدها فى المقابر وفى أماكن متنوعة تبدو لى مناسبة للفكرة التى يمكن أن تكونها عن الكاهنات المصريات. وقد سبق أن أوضحت آثار رشيد بأنه كان يوجد فى عصر بطليموس ابيفان نساء قد خصص لخدمة المعابد وفعلن فى قدس الأقداس<sup>(١)</sup>. ولعل المثال المأخوذ من الفنتين يؤكد ذلك بالنسبة لا قدم العصور. ومع ذلك، فانا لا أصدق أن النساء اللاتى شاركن فى بعض الاحتفالات الدينية كن عضوات فى المجتمع الكهنوتى فى طيبة، أو هليوبوليس أو منف. فمن غير المعقول أن نتصور أنهم استعملن المشاركة فى المشاغل المعقدة والوظائف الجادة للكهنة المصريين.

### المبحث الثالث: المعبد الشمالى

يقع المعبد الشمالى كما ذكرت بالقرب من إحدى قرى الفنتين، ولم يبق منه تماما سوى النصف تقريبا والكورنيش، أى خمسة ركائز، وأحد أعمدة المقدمة وأحد جوانب القاعة. ويحيط بهذا المعبد منشآت حديثة ونخيل، مما يشكل معا مجموعة غاية فى الروعة إذا ما نظرنا إليه من مسافة بعيدة إلى حد ما. أما ما تبقى فهو كاف للتعرف على مساحة المبنى وشكله الأصىلى. ولا شك أن هذا المعبد يتكون مثل معبد الجنوب من قاعة لها بابين، ومن رواق به سبعة ركائز على الجانبين الطويلين وعمودين فى كل طرف<sup>(٢)</sup>.

ويحمل العمود نفس الشكل العام كما فى المعبد الآخر، غير أن ارتفاع الجذع مختلف والتاج منتفخ فى الجزء السفلى منه وقد اتخذ شكل برعم زهرة لوتس

---

(١) أن أيرين ابنه بطليموس كانت كاهنة لارسينوى فيلوياتور كان هناك أيضا أولئك الذين يدخلون قدس لالباس الآلهة والنساء الأجلاء والكتاب المقدسين وكافة الكهنة الآخرين، إلخ (النقش الإغريقى على حجر رشيد سطور ٥، ٦، ٧ من ترجمة إميلون).

(٢) انظر اللوحة رقم ٢٨ شكلى ٢، ٣.

مقطوع ولكنه مستوى بلا أضلع، أما عن طول هذا المعبد فهو لا يختلف عن طول المعبد الآخر، حيث يزيد قليلا على اثني عشر مترا<sup>(١)</sup>، كذلك فإن ارتفاعهما فوق الاساسات متساو. والركائز المزخرفة أكثر ارتفاعا في هذا المعبد ولكن لم يمكن التأكد من الارتفاع الحقيقي للأساسات من خلال عمليات التنقيب. والمعبد مبنى من الحجر الرملى مثله فى ذلك مثل المعبد الأول، وكافة الأجزاء التى بقيت منه مغطاة بنقوش غير أنها تالفة للغاية ولم نجد منها أجزاء سليمة تسمح بتحديد طبيعة موضوعات هذه اللوحات. والمرء ليدعش عندما يرى فى نفس الجزيرة أثرين مماثلين تماما يقعان بالقرب من بعضها وكلاهما صغير، بينما نجد فى مكان آخر معبد صغير إلى جوار آخر أكبر منه. فهل كان الفرض منهما واحدا؟ هل كان فى الفنتين معبد كبير ولكنه اختفى؟ وأخيرا، أين يوجد ذلك الذى كان مشهورا فى المصور القديمة تحت اسم معبد كنف أو كنوفيس لارسينوى فيلوياتور وبعيدا عن أن أنفى أو أوكد أن معبد الجنوب كان مخصصا لكنف، فسأكتفى بأن اذكر هنا المنشآت التى نجدها ونهين أنقاض المدينة، وكذلك تلك الكتل الضخمة وذلك الباب الجرانيتى الكبير، ولابد أن كلها متعلق بأبنية أكبر وأضخم من ذلك الذى وصفته. وسأذكر أيضا ما قاله أريستيد البليغ الذى قام برحلة إلى هذه الأماكن وأخبرنا بأنه لا يوجد للمعابد، ولا للناس، والمسلات ظل وقت الظهيرة فى الفنتين. فماذا جرى لهذه المسلات؟ فلا نرى منها أنقاضا على سطح الأرض. كم هو مؤسف أننا لم نستطع الاستمرار فى إجراء عمليات تنقيب وتفتيش فى هذه الأطلال.

### المبحث الرابع: وصف حائط رصيف الفنتين

كانت هناك ضرورة لحماية جزيرة الفنتين. المكونة من طمى النيل وترسباته. من قوة التيار العنيف فى كل مكان حيث لم تكن هناك صخور

---

(١) سبعة وثلاثون قدما.

ولاسيما فى الجنوب الشرقى المتجه ناحية أسوان، ولهذا تم بناء رصيف أو حائط مكسو بالحجر الرملى يرتكز على جميع أجزاء الجرانيت الموجودة حول النهر. يصل ارتفاع هذا الرصيف إلى حوالى خمسة عشر متراً<sup>(١)</sup> أعلى من المياه فى حالة الجزر، و الجزء المتصل - الذى يعد أكبر جزء - يبلغ من مائة و خمسين إلى مائتى متر طولاً. وقد كان لزاماً فى أقدم المصور بناء هذا الرصيف الذى لولاه ما احتفظت الجزيرة بوجودها و شكلها الحالى. ويذكر أن التغييرات التى تحدث فى مجرى النيل بسبب اختلاف الفيضانات السنوية من شأنها تكوين جزر صغيرة من الرمل و الطمى فى هذا المجرى يزداد حجمها عام بعد عام و تصل أحياناً إلى حجم جزيرة الفنتين. ولكن هذه الجزر الصغيرة لا تدوم طويلاً لأنه لا يوجد ما يحميها ضد دوامات النهر، إذ تبدأ فى التآكل رويداً رويداً إلى أن تختفى لتظهر من جديد فى مكان أبعد و بشكل مختلف و يحدث لها نفس الشيء. وقد كانت الفنتين ذائمة الصيت منذ أقدم المصورتشكل جزئياً نطاقاً داخل عدد من الأسوار فى عصر قديم جداً. وقد تم بلا شك ترميم هذه الأسوار عدة مرات منذ ذلك العصر. ولا يمكن اعتبار الرصيف الذى عثرنا عليه اليوم من قدماء المصريين على الإطلاق و لكن يرجح انه كانت هناك دائماً منشآت على ذات الأساسات و ذات الاتجاهات.

ومن بين أجزاء الرصيف المذكور المرتكزة على الصخرة من جهة و أخرى وهى أضيق و أسرع بل و أعمق جزء من ساعد النيل<sup>(٢)</sup>، توجد أجزاء تشير ملاحظات غربية إلى حد ما. تأخذ هذه الأجزاء شكلاً مقمرأً من ناحية النهر ومحدباً من ناحية داخل الجزيرة إلى درجة انه يمكن اعتبارها بمثابة عقد قباب لمقلومة الحركة الأفقية الشديدة للأرض. وأياً كان ارتفاع الأرض فى هذا الجزء من الجزيرة فإن هذا الرصيف كان داعماً لأى ضغط تتعرض له الجزيرة دون أن يتزعزع. لقد سبق ووصفنا فى فيلة القديمة رصيفاً مشيداً بنفس الطريقة<sup>(٣)</sup> وأشرنا إلى أن مصر هى البلد الوحيد التى استخدمت فيها منشآت من هذا

(١) من خمسة وأربعين إلى خمسين قدماً.

(٢) انظر اللوحة رقم ٣١، النقطة G ٥.

(٣) انظر الفصل الأول، المبحث الثالث.

النوع. و التجربة التى مررت بها على مدى هذا العدد الهائل من القرون هى بلا شك أقدر دليل على صلاحية المبدأ، و من ثم يمكننا الوقوف على فكرة إلى حد ما عما كان يتمتع به المعماريون المصريون من علم ومعرفة.

أما بالنسبة لعملية البناء . بمعنى اختيار واستخدام مواد البناء، فقد كانت تتم بعناية فائقة . فيما يبدو . حيث إن الحوائط قاومت هذه الكميات الهائلة من المياه و الدوامات السريعة والتغيرات ما بين فترات الجفاف و الرطوبة الملموسة بشدة فى هذا المناخ أكثر من أى مكان آخر لاسيما فى نقطة ترتفع فيها المياه لتصل إلى ثمانية و عشرين ذراعاً حسبما يذكر أريستيد<sup>(١)</sup> أى حوالى ثلاثة عشر متراً<sup>(٢)</sup>.

وفى هذا الجزء من الرصيف، يوجد خلف الحائط سلم مستند عليه ينزل إلى النيل ويتكون من حوالى خمسين درجة، وفى طرفه السفلى يوجد باب مفتوح لم نعد نراه الآن إلا فى حالة الجزر. وفى القمة يستمر السلم مكوناً وصلة قائمة الزاوية ويتجه ناحية أعلى نقطة فى المدينة القديمة، فى اتجاه المعبد والباب الجرانيتى. يضم هذا الجزء حوالى أربعين درجة يقسمها قرص درج كبير وينتهى إلى قاعة صغيرة بها نقوش مصحوية وكتابات هيروغليفية من بينها أحد الأشخاص وهو يروى زهور لوتس. وعلى جدار السلم المطل على النيل، نرى عدداً من المقاييس المدرجة التى كانت تستخدم لقياس ارتفاع النهر. وقد عرض أحد زملائنا فى دراسته الخاصة جميع الملاحظات المتعلقة بهذا السلم المستخدم كمقياس للنيل، كما يسرد النتائج التى استخلصها لمعرفة مقدار الذراع المصرية<sup>(٣)</sup>. سوف أنحى هنا التفاصيل جانباً و سأقتصر على التعليق بإيجاز على الحالة الراهنة للأماكن.

---

(١) أريستيد فى مصر، ص ٣٦١ .

(٢) أريستيد قديماً أتى لا أبحت هنا الأمر فى حد ذاته (راجع الدراسة الخاصة بى عن نظم المقاييس عند المصريين القدماء)

(٣) انظر الدراسة الخاصة بمقياس النيل فى الفنتين بقلم جيوار .

لقد شيد أكبر جزء فى هذا السلم — المتعمق فى الأرض — على خط منحنى يتجه ناحية الجنوب، ولكن يبدو أن هذه الطريقة لم تتبع فى حوائط الرصيف الذى تحدثت عنه أعلاه ، و لم يكن الهدف مماثلاً، فقد أمكن تحديد هذا الاتجاه وفقاً لتمرجات صخور الجرانيت التى شيد فوقها.

و القاعدة الموجودة فى زاوية السلم منحوتة بانحدار بحيث يتم سكب المياه فى النيل عن طريق فتحة. و السلم السفلى كان مغطى بسقف لم يعد يتبقى منه سوى الجزء القريب من الباب، وكان الضوء يصل إليه عن طريق منافذ على الجدار الخارجى.

وفى قبالة هذه المنافذ تم حفر ثلاثة مقاييس متباعدة إلى حد ما بحيث يبدأ كل مقياس من المستوى الأعلى للمقياس السابق له. ويبلغ ارتفاع المقياس الأخير متراً و ثلاثة أرباع المتر<sup>(١)</sup> فوق أعلى مستوى للمياه حالياً. ويتكون المقياس الأول من ثلاثة أقسام كبيرة، ويظهر فى مواجهة الباب المطل على النيل صليباً قبطياً فى الجزء العلوى. أما المقياسان الآخران، فيتكون كل منهما من جزعين . ويوجد على هذه المقاييس أرقام يونانية و أخرى عربية مكتوبة بطريقة غير سليمة. وهناك كتابتان يونانيتان إحداهما ترجع إلى عصر سبتيموس سيفيروس والأخرى إلى عصر انطونان وهما موجودتان أعلى الجزء الأخير الذى يحمل رقم<sup>(٢)</sup>. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأسوار قد حظيت بعناية فائقة من حيث البناء والتشييد غير أن سطح الحائط الذى خطت عليه التقسيمات قد تهدم تماماً. فالتقسيمات التى خطت بعد ذلك ليست على ذات الخط العمودى<sup>(٣)</sup> إذ تحددت فى المقاطع غير المنتظمة للسور، وهو الأمر الذى أدى إلى وجود تقسيمات غير متساوية، ولكن الأطوال الكلية للمقاييس متساوية. يتجلى هذا التدهور السطحي للسلم نتيجة لما ذكرته سابقاً. كيف كان لبناء هذا المقياس . أيا كانت صلابة الحجر الرملى الذى أستخدم فى تشييده — كيف أن يقاوم على التوالى فترات

(١) حوالى خمسة أقدام.

(٢) انظر اللوحة رقم ٣٢.

(٣) مأخوذة من يوميات رحلة السيد ديفيليه.



تدوم ستة أشهر من الرطوبة وستة أشهر من الجفاف الشديد على فترات طويلة ومتكررة؟

و يعقب هذا الحائط فى مواجهة عديد من الصخور الخارجة من النيل، حائط آخر أقل ارتفاعاً، به جزء داخلى يتصل بالنهر عن طريق منحدر أو ربما سلم اختفى اليوم تحت الأرض<sup>(١)</sup>. و من ناحية غروب الشمس نلاحظ وجود زخارف ذات بروز ضئيل على السور ينسب تصل إلى متر و ثلث المتر<sup>(٢)</sup>، وهى عبارة عن شخص عجوز راقد مستنداً على كوعه على نفس وضع التمثال المعروف باسم "النيل". ليس ثمة شك فى أن هذه النقوش رومانية الصنع، فقد حفرت على ارتفاع حوالى خمسة أمتار<sup>(٣)</sup> أعلى من ارتفاع مياه الجزر فى النهر.

ولا يمكن تقرير ما إذا كانت هذه النقوش قليلة البروز قد استخدمت بمثابة حجر كما فعل المسيحيون و العرب لترميم السور أو أن الرومان هم الذين وضعوها. فى كلتا الحالتين، لا يمكن التوصل إلى أى قاعدة تفيد بمدى قدم هذا السور. أو لا يمكن أن نعتبر إلى أن هذا السور عملاً رومانياً لأن طريقة النحت واحدة. فقد أمكن - بعد فترة طويلة - من بنائه استخراج بعض الأحجار من الجدار ووضع هذا الشكل من أجل الزخرفة.

وسأذكر فى هذا المقام - حتى لا أحذف أى شىء يتعلق بالحوائط المكسوة فى جزيرة الفنتين - أنه فى طرفها المتقدم جداً، يوجد سور كبير مغمور بعمق فى النهر و يتجه عمودياً على مجراه وعلى طول الجزيرة، ولا يمكن أن نراه إلا بعد انحسار المياه. و الأحجار الموجودة به موضوعة على صفين متساويين ومتوازيين. ويذكر أن هذا البناء يدل - لما يحتويه من مواد بناء ضخمة - على عمل قديم للغاية. من المعروف أن المصريين كانوا يستخدمون بسهولة - بل يفضلون - الكتل الكبيرة جداً فى البناء وهى التى يصعب حملها بالنسبة للمحدثين الذين أتقنوا

---

(١) انظر اللوحة رقم ٣١، النقطة أ، اللوحة رقم ٢٨، الشكل ٤، النقطة أ. انظر إلى اللوحة رقم ٢٢، الشكل ١، النقطة أ، والشكل ٢، النقطة أ.

(٢) حوالى أربعة أقدام.

(٣) خمسة عشر قدماً.

الفنون الآلية. ليس هناك مجالاً للريية فى أن يكون هذا هو بقايا سد أكثر اتساعاً كان قد أقيم لمواجهة التيار سواء لحماية الجزيرة من فيضان النهر أو لتحديد مكان كميات الطمى المترسب وتركيزها. ولا يرجح أن يكون المصريون هم الذين قاموا ببناء هذا السد على هذه المسافة البعيدة جداً من الجزيرة، ويمكن أن نستخلص من ذلك أن جزيرة فيلة لم تتسع أو تتزايد طولاً منذ عصور بعيدة جداً.

### المبحث الخامس : العقيدة الخاصة بسكان جزيرة الفنتين

سأذكر بإيجاز - قبل الحديث عما يتعلق بحالة الفنتين - ما قاله الكتاب عن العقيدة الخاصة بسكانها، وسأدعم هذا البحث ببعض النقوش البارزة الضئيلة التى سبق ووصفتها.

يضيف هيرودوت - بعد أن تحدث عن التقديس الذى يمنح للتماسيح فى مصر- أن سكان جزيرة الفنتين وضواحيها لا يعتبرون هذه الحيوانات مقدسة بل انهم يأكلون لحمها<sup>(١)</sup>، ولكنه لم يوضح المزيد عن عقيدة هؤلاء السكان. يقول استرابون إن هذه المدينة بها معبد أهدى الى كثوفيس، و مقياس للنيل<sup>(٢)</sup>. أما كليمنيس السكندرى، فيقول إن سكان الفنتين يعظمون نوعاً من الأسماك يسمى موتيس لم يعد معروفاً<sup>(٣)</sup>.

ولكن ما يلفت الأنظار فى كل هذه الروايات هو ما قاله المؤرخ الكاهن أوزاب. فقد وصف فى مقال صريح صورة أحد الآلهة المقدسة عند سكان هذه المدينة قائلاً " فى مدينة الفنتين، يتم احترام و تبجيل وجه ذى شكل بشرى فى وضع الجلوس و ملوناً باللون الأزرق، ورأسه عبارة عن رأس كبش : وله كعلامة مميزة قرون كبش تملوها دائرة على شكل قرص"<sup>(٤)</sup>.

(١) هيرودوت التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ٦٩ .

(٢) استرابون الجغرافيا، الكتاب ١٧، ص ١٨٧ .

(٣) فى بروتريتيكو، ص ١٩ .

(٤) ترجمة حرفية، أوزاب، الكتاب الثالث، المقطع الثانى، ص ١١٧، باريس، ١٦٢٨ .

و إذا نظر القارئ إلى اللوحة الرئيسية في المعبد الجنوبي<sup>(١)</sup> فسيدهش كما سبق و حدث لى لما تمثله هذه اللوحة من تطابق مع ما قاله أوزاب. من الثابت إن هذا المؤلف كتب ذلك وفقاً لوصف سليم لمعبد الفنتين<sup>(٢)</sup> ، و لكن ما يعد غريباً ومهماً و يستحق الملاحظة هو ما يقوله عن اللون الأزرق للشخصية التي تحمل رأس كبش و هو ذات اللون الذى نجده فى أحد الأشكال المماثلة المرسومة فى فيلة<sup>(٣)</sup>. وهذا الشكل الأخير له نفس طريقة تصفيف الشعر التي فى الفنتين والحال نفسه بالنسبة لشكل إيزيس الموجود بجانبه و الذى له قرنان طويلان حول غطاء رأسه.

ونستج من هذه الفقرة و لاسيما من أشكال الكباش المتكررة دائماً فى المعبد<sup>(٤)</sup> أن الآلهة الرئيسية فى الفنتين كان يتم تقديسها فى شكل شخصية لها رأس كبش . وهذه الشخصية تعيد إلى الأذهان . كما سبق و قلت . جوبيتير آمون الذى كان سكان مدينة طيبة يعبدونه، و من هنا يتضح لماذا كان سكان الفنتين وطيبة يعبدون الإله كئوفيس، ذلك لأن أسم كنيف الذى يعنى . حسبما يذكر علماء الجذور اللغوية . الروح الطيبة، و يعنى . بالنسبة للمصريين . الروح الأزلية الأبدية التى تملأ الوجود و تثبت فيه الحياة . وهو لقب أوزيريس الذى له رأس كبش أو بمعنى آخر آمون.

و الأمر كذلك بالنسبة للثعبان المقدس فى كل من مدينة طيبة و الفنتين. كان شكل الثعبان يرمز إلى كنيف كما يقول أوزاب كما كان يمثل صورة محسوسة للروح الطيبة<sup>(٥)</sup>.

و يسرد الكاتب نفسه فى فقرة أخرى أن المصريين كانوا يمثلون العنصر الأساسى للعقيدة أو كنيف فى هيئة بشرية ملونة باللون الأزرق..... إلخ.

---

(١) انظر اللوحة ٣٧، الشكل ٢، وما سبق.

(٢) يضيف الكاتب أنه يوجد . أمام هذا الشكل . أنه من الفخار يظهر عليها رجل ولا أعرف بأى لوحة يتعلق هذا : من الممكن أن يكون أوزاب قد قارب ما بين بعض الأوصاف المنفصلة.

(٣) انظر اللوحة ١٦، شكل ١.

(٤) انظر أعلاه المبحث الثانى، انظر اللوحات ٣٥، ٣٦، ٣٧.

(٥) أوزاب، الكتاب الأول، المقطع ١٠.

وإذا عقدنا مقارنة بين هذه الأقوال و تلك التي ذكرتها في ما سبق يمكن أن نستخلص أن الشكل الذي يحمل رأس الكبش هو صورة كيف.

وهكذا فإن هذه الألقاب: كيف أو كنوفيس والشمبان والروح الطيبة تتطابق تماماً سواء مع مدينة طيبة أو الفنتين أو الإله الذى كان معبوداً في شكل رجل له رأس كبش. وتوفق هذه الملاحظة ما بين ما قاله استرابون وهيرودوت وأوزاب. لنبحث الآن إذا ما كان لهذا الشكل الموجود في الفنتين علاقة مع برج الحمل. فالفقرة الأخيرة في ما كتبه أوزاب لا تدع مجالاً للشك في ذلك إذ يقول: تشير رأس الحمل وقرون الكبش إلى اتصال الشمس والقمر تحت تأثير برج الحمل ؛ كما يدل اللون الأزرق على تأثير القمر الواضح في هذا الاتصال ليؤدي إلى تدفق المياه".

وتجدر الإشارة إلى أن تحديد العصر. سواء في السنة الزراعية أو الفلكية الذي يذكر في هذا الكلام. ليس بالأمر اليسير. فلا يجب الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بفيضان النيل، لأن الانقلاب الصيفي الذي يحدث خلاله الفيضان لن يتقابل مع برج الحمل إلا في خلال أربعين قرناً. وللهولة الأولى يمكن أن نتصور أن أوزاب لا يتكلم عن مياه النيل و لكن بصفة عامة عن الرطوبة التي تميز وقت الربيع الذي يختلف عن مناخ مصر. وحينما كتب أوزاب مقالاته كانت فترة اعتدال الربيع قد تركت منذ ستة قرون و نصف القرن مجموعة النجوم المرتبطة بالحمل. بيد أن هذا الكاتب لا يتباهى بالمعلومات الفلكية، كما أن اليونانيين كثيراً ما اقترفوا أخطاء مماثلة.

ويعتبر هذا التفسير هو أول تفسير محتمل، لأن الفترة الزمنية التي ظل فيها برج الحمل معتدلاً هي تلك التي كانت أشهرها عند اليونانيين غير أنه يتمين الاعتراف أن هذه الفترة لا تتوافق مع قدم فترة التعمد لجوبيتر أمون الملحوظة تماماً سواء في مدينة طيبة أو في الواحة التي تحمل هذا الاسم. ويذكر آثار أرمنت حيث يكون برج الثور معتدلاً، وفعلی الرغم من قدمها إلى حد ما إلا أنها لا تعتبر لهذا العصر الأخير. و المعروف أن مركز الكرة الأرضية بالنسبة

لاودوكس حيث تقطع دائرة سمت الربيع برج الحمل من المنتصف هو أحدث النجوم التي ظهرت في مصر. و ليس هناك ما هو أفضل تحديداً من قدم الإله أمون الذي تأسس منذ وقت سحيق على يد جماعة من المصريين، وكان يصل إليه الناس من جميع أنحاء العالم القديم لاستشارته في أمورهم. و يوضح هيرودوت و جميع الكتاب رأيهم رسمياً في ما يتعلق بهذه النقطة بحيث سيكون زائداً عن الحد التركيز عليها.

ولا أتفق مع العلماء الذين من أجل تفسير عقيدة جوبيتر أمون اعتبروا هذا الشكل رمزاً لدورة اعتدال الربيع التي حدثت تحت تأثير الحمل<sup>(١)</sup>. وسيكون منطقياً (من خلال فحص اللون الذي تم تلوين وجهه به في مصر) ربط هذه العقيدة مع ظاهرة اعتدال الخريف. فالواقع أن فيضان النيل يبلغ ذروته في هذه الفترة و يغطي أراضي مصر. ولا أريد أن أؤكد أنه تم بالفعل تلوين هذه الظاهرة باللون الأزرق الذي نراه على وجه أمون في الفنتين وفيلة أو في أى مكان آخر، و لكن يرجح أن هذا اللون يعيد إلى الأذهان العصر القديم المتعلق به الأمر، ينبغى ألا تمتد أنه كان يقصد به فترة الربيع لأن الربيع في مصر يعتبر أكثر الفصول جفافاً. غير أنه يبين أن ما كتبه أوزاب يفسر تماماً بهذه الطريقة وأنه ينبغى عدم التقليل من شأن هذا الاعتبار إلا إذا رفض، لأن من المعروف أن أوزاب بخلاف الأفكار والآراء الخاصة به. قد استنفذ المصادر الصحيحة كافة فيما قاله عن مصر.

ويجدر. في هذا المكان- دراسة ما تبقى من لوحة الفنتين التي أوضحت لتوى ما يتعلق بالشخصية الرئيسية بها وكذا النقوش غير البارزة تماماً التي يظهر فيها الكباش، ولكن هذه الدراسة قد تجعلني أخوض في مجالات بعيدة جداً وسأترك للعلماء والقراء الشغوفين بهذا النوع من الأبحاث دراسة هذه الأشكال المنقوشة وخاصة القارب الكبير المزين في مؤخرته ومقدمته برأس الكباش.

---

(١) انظر جابلونسكى، الكتاب الثانى، المقطع ٢، المبحثين ٥، ٧.

## المبحث السادس : دراسات تاريخية وجغرافية

لقد أقر أولئك الذين كتبوا عن الحكومة المصرية في معظمهم أنه كان يوجد في هذه المنطقة مملكة خاصة تحمل اسم الفنتين وقد اعتبروها محصورة في نطاق الجزيرة الواقعة أمام أسوان. ولكن كل قارئ يتمتع بقدر من الرشد والعقل سيوافق على أن هذا الرأي مرفوض تماما، بخلاف الصعوبات التي تمثلها هذه الممالك المعاصرة المزعومة والتي كانت هناك رغبة في تقسيم مصر فيما بينها. كيف يمكن أن نتصور مملكة لا يزيد طولها عن ألف وأربعمائة متر ويصل عرضها إلى أربعمائة متر؟ وهل يمكن الاعتقاد بأن هذه المملكة ظلت مستقلة وحررة على مدى تسعة أجيال وهو عدد أمراء السلالة الحاكمة في مملكة الفنتين كما يقول جول الافريقى، ويذكر أوزاب أنهم بلغوا واحداً وثلاثين أميراً؟

إن فكرة جلوس أسرة حاكمة من مملكة الفنتين على عرش مصر أمر طبيعى يدعو إلى التفكير في تفسير ماهية هذه السلالة كما تخيلها و بو. وهذا الافتراض ليس بعيدا عن الاحتمال وينبغى أن أضمه نصب أعين القارئ قبل أن أقدم له رأيا يستند على جغرافيا البلد.

وحينما نحاول دراسة الاسم الذى تحمله جزيرة الفنتين وهو الاسم الذى نريد اشتقاقه من اليونانية<sup>(١)</sup> - حتى لدى القدماء - فإننا نضطر إلى الاعتقاد أن ذلك الاسم مأخوذ من أقدم العصور وأن اليونانيين أضافوا إليه فقط ، لاحقة، بمعنى أن الاسم القديم كان - فيل - . وهى كلمة تعنى "الفيل" فى اللغات الشرقية القديمة.

وإذا ما أخذنا فى الاعتبار بأن النيل يجرى - فوق أسوان - بين جبال وعرة وأن مجراه ملئ بجزر عديدة وأن هذا النهر يرسب فى الجزر الطمى المكون لتربة النباتات أكثر ما يرسب على ضفافه، فإن ذلك يستوجب وجود تشابه مشترك بين تلك الجزر، وأخيرا فإن اسم "الفنتين" ليس سوى "فيل" المترجم إلى اليونانية وأن اسم "فيل" هو الاسم القديم لفيلة مع إضافة لاحقة يونانية. يمكن الافتراض

---

(١) انظر سناك نقلا عن سيرفان فى الكتاب السادس لأنثيد وكذا بروكوب.

بأن هذه الجزر التي كانت منتشرة سالفاً على ضفاف نهر النيل سواء فوق أو تحت الجنادل الأخير كانت تحمل اسم " فيل" المشترك. وسأضيف ملاحظة قاطعة هي أن اللاحقة التي أضيفت إلى كلمة فيل هي رمزاً للتعددية. والأمر لا يستدعى البحث عما إذا كان هذا الاسم مأخوذاً من أنياب الفيل التي كانت تجلب إلى هذه المنطقة عن طريق التجارة في أثيوبيا، أو إذا كان له مصدر آخر. ولن أتناول ذلك في هذه الدراسة<sup>(١)</sup> : فالليونانيون الذين ترجموا كثيراً من الأسماء المصرية قد تركوا الاسم القديم لإحدى هذه الجزر التي كانت على بعد فرسخين من أسوان أكثر المدن شهرة بما تحويه من آثار وشعائر دينية وقاموا بترجمة اسمها إلى اليونانية لتمييز الجزيرة الواقعة في مواجهة أسوان.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الرأي مرجحاً جداً بسبب الضوء الذي يلقيه على عديد من الظروف الجغرافية التي لم يمكن حتى الآن عرضها وتحليلها. كيف لم يتمكن هيرودوت أقدم المؤلفين الذين تناولوا جزيرة فيلة بالذكر. من التحدث عن جزيرة "الفنتين" ؟ هل يعقل أن يكون قد ترك جاهلاً تماماً لمكان على مثل هذه الدرجة من الأهمية في تاريخ مصر<sup>(٢)</sup> المقدس؟

والأكثر من ذلك أن ما يقوله عن جزيرة الفنتين في الفصل الثامن والعشرين من أوتراب Eutpe لا يمكن تفسيره بأى حال من الأحوال، إذا كان الأمر يتعلق بالجزيرة الواقعة في مواجهة أسوان ولا يمكن إعطاؤه أى معنى ممكن إلا بتطبيقه على الفنتين. وهذه الهوى العميقة والدوامات الكثيرة بالنيل التي يصفها هيرودوت بين أسوان والفنتين يجب أن تتوافق مع الجنادل الموجودة كما يمكن أن نلاحظ في الوصف السابق للجزيرة<sup>(٣)</sup>. إننى لا أتحدث هنا عن المصادر المزعومة للنيل الموجودة في ذات المكان وفقاً لرواية كامن سايس التي كانت محللاً

---

(١) انظر الأبحاث الخاصة بالأسماء القديمة للأماكن في مصر في دراسات الجغرافيا المقارنة يمتدح البعض أن اسم «فيل» يعنى باب، وأنه أطلق على هذا المكان، لأن مصر تبدأ من هنا، ولكنى أرى الكلمة نفسها تستخدم في الجغرافيا دون أى تغير أو تبديل للمعنى مثل ما في الكتاب الرابع لجغرافية بطليموس الفصل الثامن : وهذا الاسم أطلق على الجبال في أثيوبيا العليا.

(٢) انظر خاصة ديودور الصقلي الكتاب الأول، المبحثين ١، ١٢.

(٣) انظر فيما سبق، الفصل الثاني، المبحث الثاني.

لانتقادات من الخطيب البليغ أريستيد<sup>(١)</sup>، إلا أن جوهر هذه الفقرة يؤكد تماما هذه الفكرة القائلة بأن هيرودوت تحدث عن الفنتين تحت اسم فيلة. وهذا المؤرخ ترجم أو ترجمت الأسماء المصرية مثل بيلوز وهليوبوليس وافروديتوبوليس، وغيرها، وكان هو أول من استعملها. والحال - كما سبق وقلت - أن "الفنتين" هي كلمة مكونة من "لاحقة" تعنى ترجمة "فيل".

أما عن بلينى فهو يتحدث عن وضع فيلة بطريقة مبهمه إذا ما اعتبرنا حديثه خاصا بالمكان المعروف تحت هذا الاسم:

ولكن إذا ما أقررنا أن جزر نهر النيل الموجودة على بعد خمسة أو ستة فراسخ فوق أسوان تحمل نفس الاسم فإن هذه الفقرة تفسر تلقائيا ؛ بمعنى أن بلينى وهو يقصد فى حديثه هذه الجزيرة الواقعة على بعد ثلاثة أميال تحت الجندل الأخير قد أختلط عليه الأمر مع جزيرة أخرى تحمل ذات الاسم وتقع على مسافة تبلغ ستة عشر ميلا<sup>(٢)</sup>.

والفقرة الخاصة باسترابون الذى يضع الفنتين على بعد مائة غلوة من أسوان تشكل - فيما يبدو - صعبية بالنسبة للموقع المقبول لهذه الجزيرة: إذ أن مائة غلوة - وفقا للقياس الذى حدده عامة هذا الكاتب - تعادل حوالى أربعة فراسخ، ولكنه لا يوجد فى هذه المساحة سوى فرسخين<sup>(٣)</sup>. ولم يتردد دانفيل فى أن يحدد مكان الفنتين على بعد أربعة فراسخ من أسوان متأثرا بما قاله استرابون؛ إلا أن دانفيل أخفق - ويجب الاعتراف بذلك - أو أن استرابون استخدم فى قياسه ذات الغلوة التى استخدمها هيرودوت، أو ربما تكون المسافة التى يعطيها تتعلق بجزيرة فيلة أخرى موجودة فى مكان أبعد وذلك عند حديثه ووصفه للجزيرة الرئيسية التى تضم كثيرا من الآثار.

ويضع اتيان البيزنطى الفنتين عند جزيرة تاكومبو<sup>(١)</sup>، ولكن هذه الجزيرة الأخيرة أقل ارتفاعا من أسوان حسبما يذكر بطليموس بحوالى ٤٤ ، وبالتالي تقل

---

(١) انظر فيما سبق، الفصل الثانى، المبحث الثانى.

(٢) بلينى، التاريخ الطبيعى، الكتاب الخامس، المقطع ٩.

(٣) انظر فيما سبق.



بحوالى ٣٩ عن جزيرة الفنتين وفقا للملاحظات الأخيرة. ويذكر أن هذه المسافة قد تأكدت بعد أن أخذنا فى الاعتبار موقع ديديكاشوني القريبة من ميتاكومبوس والتي معنى اسمها ١٢ شون ، وإذا ما قدرنا هذا المقياس بحوالى ١/٤ ٢ مثلما حسبها وقدرها هيرودوت بالفلوات المصرية التى تساوي ستين غلوة منها فإن ١٢ قياسا مماثلة تعادل ٣٩<sup>(٢)</sup> . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسافة تصل إلى ١٢ شون حتى تاكومبو حسبما يقول هيرودوت بدءاً من الفنتين . إذا ما تتبعنا مجرى نهر النيل . ولكن ذلك الأمر يعزز ما قلته عن هيرودوت أنه كان يقصد بفيلة المكان الذى ظل يطلق عليه فيلاى<sup>(٣)</sup> . واعتقد أن اتيان حينما وضع تاكومبو عند فيلاى كان يقصد قريبها من الجزر المصرية التى تحمل جميعها هذا الاسم والتي تنتهى فى تاكومبو أو ميتاكومبوس . يقول هيرودوت "إن سكان الحبشة يشغلون نصف جزيرة تاكومبو ويشغل المصريون النصف الآخر."

ألا يمكن اعتبار ما افترضه بطليموس - حينما أعطى لأسوان ٢٣ ٤٠<sup>٢</sup> والفنتين ٢٣ ٤٠<sup>٢</sup> والتي لم يطلق اسمها إلا على مكان بعد ديديكاشون، Sycaminus - acra . ألا يمكن اعتبار ذلك ذريعة أو حجة مضادة للافتراض القائل بوجود مكان واحد يطلق عليه الفنتين؟ لأن ٢٠<sup>٢</sup> تعادل أربعة أمثال المسافة الموجودة بين أسوان والجزيرة المعروفة اليوم بهذا الاسم.

وقد سمى دانفيل إلى التوفيق بين أقوال بلينى واتيان وبطليموس وهيرودوت ولهذا افترض انهم ارتكبوا أخطاء كبيرة، ولكنه لم يلتفت إلى المكان الذى حدده بطليموس لجزيرة ميتاكومبوس. ناحية أسوان: إذ كان يتعين البدء من هذه النقطة الأخيرة وليس من فيلاى أو فيلة اللتين لم تكونا واضحتين تماماً على

---

(١) أرى أن هذا الاسم قد استخدم خطأ بدلاً من ميتاكومبوس فهيرودوت كتب تاكومبو وبطليموس كتب ميتاكومبوس وبومبونيوس ميلا كتب تاكومبو والواضح أن الأمر يعنى مكانا احداً . فكتابة الكلمة كالألى تاكومبوسو التى يستخدمها هيرودوت وبومبونيوس ميلا تبدو الأفضل من وجهة نظرى. والأمر يتعلق بمكان مليئ بالتماسيح وفضلا عن ذلك فإن كلمة «ميتا» تنتمى إلى اللغات الشرقية القديمة.

(٢) انظر الدراسة الخاصة بنظم القياس عند المصريين القدماء .

(٣) هيرودوت التاريخ، الكتاب الثانى، المقطع ٢٩ .

المستوى الجغرافى، فالجزيرتان المليئتان بالآثار موضوع أو دراستنا هما بلا  
منازع الجزيرتين الأكثر شهرة لدى القدماء.

إذا ما أقررنا الآن تطبيق اسم الفنتين على جميع الجزر الموجودة بطول  
مجرى النيل من أسوان وحتى حدود أثيوبيا، سنلاحظ أن هذه الجزر كانت  
حكومة صغيرة مستقلة أسماها المؤلفون تجاوزا "مملكة" وأن هذه الحكومة  
الوراثية أفسحت المجال أمام ما سمي بعد ذلك بأسرة الفنتين الحاكمة.



## الفصل الرابع وصف كوم أمبو وضواحيها القسم الأول بقلم: شابرول وجومار

### المبحث الأول: وصف الطريق من أسوان إلى كوم أمبو

حينما نفادرمدينة أسوان نزولا في اتجاه النهر يكون المنظر جديدا تماما بالنسبة للمسافر بحرا، فالمركب تسير في عرض النهر كي توفر لتيار الهواء الذي يدفعها مساحة أكبر، لقد تم تغيير صواري المركب تماما، إذ تم إنزال السارية وحلت محلها أخرى صغيرة، وهكذا اختلفت طرق قيادة المركب كافة، فلم يعد لها هذا الشراع اللاتيني<sup>(\*)</sup>. الكبير الذي كان يساعدها على الارتفاع عالية، فالمقدمة تبدو عارية والمركب تتدفع عن طريق أربعة مجاديف طويلة لها صوت رتيب تحتمله الأذن. رغم إزعاجه. عن صوت تخبط الشراع الذي تحركه الرياح الشمالية بشدة وعنّف.

---

(\*) شراع مثلث الشكل كان شائع الاستخدام في البحر المتوسط (المراجع).

وأخيرا تتواكب الأغاني التي يرددوها البحارة مع ضربات المجاديف لتسرى عن المسافرين وتسليه في طريقه من المنطقة الحارة الجنادل . ولكن نفس المسافرين تموج بفكرة أكثر عذوبة ورقة وتملكه أحاسيس الدهشة والإعجاب بأغلى الذكريات، ففي كل حركة للمركب تكون هناك خطوة في اتجاه وطنه .

وتجدر الإشارة إلى أنه لم تعد هناك أية زراعات على الضفة اليمنى للنهر بعد أسوان. فسلسلة الجبال العربية مرتفعة للغاية وعلى مسافة غير قريبة من النهر، وتبدو بنية اللون ونادرا ما يظهر فيها اللون الأخضر، أما الضفة اليمنى فيغلب عليها اللون الأصفر، لأن تلال الرمال التي تغطيها تصل إلى حافة النيل. ونرى خارج التلال الروس السوداء للصخور المقسمة إلى كتل مريمة وغير منتظمة الشكل. ولا يمكن أن نميز - ونحن في النهر - إذا ما كانت من الجرانيت أو الحجر الرملي الذي يحمل نفس اللون. وغالبا ما يقترب الجبلان وينحصر الوادي في ممر ضيق؛ وتوجد بضع نقاط حيث لم تعد هناك آثار لمصر إلا في مياه النهر. أما قرية الكويانية الصغيرة التي يحيط بها النخيل فهي تعد النقطة الوحيدة التي يرتاح فيها النظر الذي أتعبه المنظر الممل للصحراء. كان هذا وصفا للموقع المجذب الذي نراه طوال الطريق من أسوان إلى كوم أمبو حيث نصل بعد ثمانى ساعات ملاحه.

### المبحث الثاني : وصف مدينة كوم أمبو وأثارها

تحتل أنقاض مدينه كوم أمبو تلا من الرمال على الضفة الشرقية للنيل في مصب أحد الوديان على بعد أربعين ألف متر ونصف<sup>(١)</sup> شمالي أسوان. ويحمل هذا المكان اليوم اسم كوم أمبو الذي يعنى تل أمبو، ويعنى نهر النيل عند هذه النقطة مشكلا ميناء يشرف عليه تل مرتفع للغاية.

وجدير بالذكر أن الرمال التي تحملها رياح الصحراء قد غطت أحد السهول الواسعة كان يمتد لمسافة فرسخين ناحية السلسلة المريية هذا وقد أدت الرمال

---

(١) قسمة فراسخ.

ذاتها إلى تغطية أنقاض المدينة وجزء كبير من آثارها القديمة. أما القرية التي خلفت كوم أمبو فلم يعد بها سكان، فكل شئ مجذب ومهجور في هذه الناحية المتراجمة من مصر، فالسافر لا يجد أية شجرة أو ما يستظل به سوى آثار من صنع البشر . وهكذا أصبحت مدينه مشهورة مكانا غير مأهول على الإطلاق وحرمت منطقة ريفية ثرية من الزراعة إلى الأبد.

وقد غطت الرمال الناعمة والمحرقه ضفاف النهر وكذا التل والمناطق المحيطة كافة. ففي منتصف النهار ترتفع درجة حرارة الأرض بطريقة غير عادية حتى تصل إلى درجة أعلى مما هي عليه في أسوان ومعروف أن الحرارة مرتفعة جدا في هذا الجزء من الكرة الأرضية. وتصل درجة الحرارة إلى ٥٤ مئوية<sup>(١)</sup> في هذه الرمال الملتبته. وإذا ما مكث المرء وقت الظهيرة دقيقة واحدة في نفس المكان أو كان يسير ببطء فإن باطن قدمه يكتوى تماما بطريقة لا تحتمل ولا يمكن تسكين هذا الألم إلا بالخطوة السريعة. ويبدو نهر النيل - القريب من المكان - ملاذا من هذه الحرارة إلا أنه لا يوجد أي ممر على ضفته، فالرمال تصل إلى الماء عن طريق منحدر وعر للغاية يعانى المرء إذا ما سلكه أكثر من أى مكان آخر مثلما أشار شخص من بيننا كان وصل إلى ضفاف النهر<sup>(٢)</sup> . وإذا ما أردنا تسلق هذا التل بسهولة لزيارة الآثار المتبقية من مدنية كوم أمبو يتعين أن نسلك ممرا يأتى من الجنوب ويتجه ناحية إحدى زوايا النطاق.

وتوجد في مواجهة هذا المكان جزيرة كبيرة تسمى المنصورية كانت في ما يبدو موجودة سالفا في أراضى كوم أمبو. وكانت هذه المدينة في ذلك الوقت أكثر بعدا عن ضفاف النهر الذى كان يصل إليها عن طريق قناة<sup>(٣)</sup>، وكان لقوة التيار واتجاه المياه ناحية الشرق أثر كبير في تغيير هذه القناة لتتحول رويدا رويدا إلى

---

(١) تقسيم درجات ريومور في ١٢ سبتمبر ١٧٩٩.

(٢) كان المسكريون المكلفون بالحراسة في هذا المكان يمشون من طهى البيض على الأرض من شدة حرارتها وحينما دخل شاب أسود حافى القدمين فوق الرمال أطلق مسيحات مرعبة حتى اضطر سيده إلى محاولة إنقاذه ونقله محمولا على الأيدي خارج الرمال.

(٣) الهان، الكتاب الماشر، المقطع ٢١.

شعبة أو فرع للنيل أصبح فى ما بعد مجرى له . يذكر أن حركة المياه التى كانت عنيفة أدت إلى جرف نطاق الآثار جزئيا وكذا جزء من المعبد الصغير وبلغت بابا كبيرا فى مواجهته . واليوم أصبحت الأرض مقطوعة عموديا آخذة فى التآكل بسبب المياه وقد انتشرت على الضفة الأحجار الكبيرة بقايا أنقاض المنشآت .

وتجدر الإشارة إلى أن اجتياح الرمال وفيضان النيل لا يعتبران الأسباب الوحيدة التى ساهمت فى إفساد آثار المدينة ، فقد اجتمعت كما يقال عناصر عديدة وكانت سببا فى تدميرها ، فالنيران أتلقت . فى ما يبدو . المباني المجاورة للمعبدتين وجزء منهما . ويظهر على الأحجار المحطمة وعلى السور بصفة خاصة آثار حريق قديم . وفى وسط الطوب الأسود والفيضانات التى تملأ هذا النطاق نلاحظ وجود أجزاء كبيرة سوداء من جراء الدخان وأخرى يقلب عليها اللون الأحمر حيث يكون الطوب ناضح تماما وشبيه بذلك الذى يخرج من الأفران . ومن الصعوبة بمكان أن نمزى ذلك إلى فعل الشمس ، لأنه لو كان الأمر كذلك لكان الطوب كله فى حالة واحدة ولما كانت الأجزاء الحمراء فى النطاق وزعت بطريقة غير متساوية كما هى الآن . ولكن من أين يأتى هذا السواد الناجم عن الدخان الذى نراه على كل الحجارة فى طرف المعبد الكبير والذى يتناقض مع وجود الحجر الرملى الأصفر الذى شيد به هذا المعبد ؟

يبدو أن الحريق قد دمر الجزء السفلى فى الآثار<sup>(١)</sup> : يذكر أنه لولا وجود الرمال التى تغطى أنقاض المنشآت المجاورة لظهر لهذا الحريق المزيد من آثار تدميره .

وعلى الرغم من وجود أسباب عديدة للدمار ، فلا يزال هناك ممبدان صامدان إلى حد كبير . ولا يزال هناك سور شبه كامل<sup>(٢)</sup> يصل سمكة إلى ثمانية أمتار ويبلغ محيطه حوالى سبعمائة وخمسين مترا<sup>(٣)</sup> والطوب المكون لهذا السور بالغ الضخامة ويدل على أنه عمل مصرى والحال نفسه بالنسبة لسور

(١) انظر اللوحة ٤١ ، الشكل ١ .

(٢) انظر اللوحة رقم ٣٩ .

(٣) ٢٨٠ قامة .

الكاب ومدن مصرية أخرى، إلا أنه يبدو رغم ذلك وقد شيد بعد بناء المعبدین. والأجزاء البارزة من هذا السور لافتة للنظر لما لها من شكل محصن. ولا يمرق ارتقاع السور إذ أن الجزء السفلى مخبأ تحت تلال الرمال الصغيرة<sup>(١)</sup>.

ویرجد من ناحية الجنوب باب من الحجر يصل فى عمقه إلى عرض السور وهو الأمر الذى يدعو إلى الاعتقاد بأنه معاصر له يبدو ظاهرياً أنه ذو طراز. وفى منحدر التل فى الجنوب الغربى وعلى الضفة الحالية للنيل توجد بقايا باب آخر فى نفس الحجم وبجانبه بناءان لم يتبق إلا نصف أحدهما، أما أطلال المبنى الآخر ؛ فهى ظاهرة فى المنطقة السفلى على ضفة النيل الذى حرقها. وكان هذا الباب مزينا مثل جميع الأبواب المصرية، وقد تم سده بالطوب ثم فتح جزء منه بعد ذلك ؛ وينبى أن نلاحظ أن هذا الباب يتجة ناحية مدخل المعبد الصغير. وإذا ما تتبعنا ضفة النيل لوجدنا أنقاضاً أخرى لهذا المعبد الأخير وبناء . على مسافة أبعد . يفترض أنه كان يستخدم كمقياس للنيل.

وفى شمال المعابد وداخل السور ، يوجد تل كبير مكون من ركام المنشآت المبنية من الطوب كما تمتلئ المناطق المحيطة بآثار مماثلة. وما كان من الرمال القادمة من الجنوب والشمال والشرق إلا أن غطتها تماماً بعد أن عبرت السور ونزلت بعد ذلك فى اتجاه المعبد الكبير الذى يظهر الآن مغطى إلى حد ما<sup>(٢)</sup>.

وتجدر الإشارة إلى أن السور الذى تحدثنا عنه لتونا لا يعتبر متسماً بدرجة كافية ليطابق الفكرة التى يعطيها لنا القدامى عن مدينة كوم أمبو، ويرجع أنه كان يستخدم فقط لتطويق المعبدین. كما يمكن التأكد بأنه يستحيل اكتشاف الحدود القديمة لهذه المدينة؛ فرمال الصحراء التى تجلبها رياح الجنوب والشرق سوف يزداد تراكمها فى الموقع الموجودة به، ولن تتمكن أى قوة بشرية من الوقوف فى وجه قوة يمثل هذا النشاط والثبات. ولكن المسافرين وعالم الجغرافيا اللذين يعرفان على الاسم القديم المحفوظ ويجدان وبعض المباني الباقية لا يمكن أن

(١) انظر اللوحتين رقم ٣٩، ٤٠.

(٢) انظر اللوحة رقم ٣٩.



يساورهما الشك فى أنها أطلال مدينه كوم أمبو. فالواقع - كما يقول بلينى وبطليموس - أن هذه المدينة كانت واقعة فى المكان الذي نجد فيه اليوم كوم أمبو. ووفقا لمقاييس مذكرات انطونان كانت كوم أمبو تقع على بعد أربعين ميلا من أدفو وعلى بعد ثلاثين ميلا من أسوان، والحال أن هاتين المسافتين تتوافقان تماما بين كوم أمبو حتى أدفو وأسوان كلما يطلق عليها اليوم. ونضيف أن موقع كوم أمبو كان حتى الآن غير مؤكد فى الجغرافيا القديمة وأن العالم المشهور دانفيل قد أخفق فى حساب حوالى نصف المسافة بين هذه المدينة و أسوان<sup>(١)</sup>.

### المبحث الثالث : معبد كوم أمبو الكبير

يتميز هذا المعبد عن غيره من المعابد الشهيرة فى أنه ينقسم من حيث المرض إلى جزء ين متناسقين تماما. فمحور هذا الأثر يمر بمد من الأعمدة والحجرات التى يوجد على جانبيها سلسلتان من الأبواب المتوازية بدلا من أن يمر بسلسلة من الفتحات، مما يؤدى إلى وجود جدران بين الأعمدة فى كل صف من تلك الموجودة فى الرواقين وتكون أكثر عرضا من مثيلاتها، وكذا وجود عدد فردى من الأعمدة.

ولا يوجد لهذا النظام المعمارى نظير فى العمارة القديمة. فمعبد الشمس والقمر فى روما ينقسم إلى جزءين عن طريق حائط ولكن من حيث الطول وليس العرض. وكاتدرائية بوزيدونيا بها أيضا صف من الأعمدة على طول المحور، وهى تقترب أكثر من معبد كوم أمبو من حيث التوزيع مثلما يتشابه المعبد الرومانى من حيث إنه مكان للتعبد بطريقتين، ولكنه مختلفا من حيث النوع عن أى معبد مصرى لما له من واجهتين ومدخلين متقابلين كما نرى فى روما وبوزيدونيا.

---

(١) ارتكب دانفيل خطأ كبيرا حينما أكد - مخالفا بذلك ما بالخريطة وما قاله بطليموس - إن كوم أمبو كانت أكثر بعدا عن أسوان من أدفو وكذا حينما وضع كوم أمبو فى خريطته القديمة وفقا لهذا رأى الخاطئ (مذكرات عن مصر). فالوضع المعروف تماما لهذه النقاط الثلاثة والمحددة فلكيا يتفق تماما مع الشهادات القديمة (انظر الخريطة القديمة لمصر الدراسة الخاصة بالنظام المترى لقدماء المصريين).

يتكون الرواق الأول من خمسة عشر عموداً، وقد تهدمت الأعمدة الموجودة بالزوايا في الصف الخارجى وكذا الأعمدة البارزة. أما الرواق الثانى فيتكون من عشرة أعمدة ويوجد بعده ثلاث قاعات لا تزال موجودة وقد تهدم الجزء الباقي أو دفن تحت الرمال. ويميل الشكل العام للأروقة كثيراً إلى الاستطالة كما أن العرض والارتفاع آخذان في النقصان. ولقد اختفى قدسا الأقداس ولا يمكن التكهّن بأبعادهما.

ويصل طول الجزء المتبقى من الأثر إلى حوالى اثنين وأربعين متراً ونصف<sup>(١)</sup>، وعلى هذا يكون الطول الكلى له يساوي قرابة الستين متراً<sup>(٢)</sup> ووفقاً للتماثل مع المبادئ الأخرى. فإن عرض الأثر يصل إلى سبعة وثلاثين متراً<sup>(٣)</sup>. كما يبلغ ارتفاع أعمدة الرواق الأول بدءاً من سطح الأرض المفترض وحتى السقف المزين حوالى اثني عشر متراً<sup>(٤)</sup>. ويذكر أن هذه الأعمدة تعد - فى ما يبدو - من بين أكبر الأعمدة فى مصر؛ إذ يزيد محيطها عن أكثر من ستة أمتار<sup>(٥)</sup>. ولا يصل محيط أعمدة الرواق الثانى إلا إلى نصف ذلك المحيط، ويزيد قطرها عن أكثر من متر أى حوالى ثلاثة أقدام ونصف.

ويميل محور المعبد الكبير بزاوية قدرها خمسون درجة ناحية الشرق مع خط الزوال المغناطيسى. وتوضح الخريطة العامة أن الأثر كان يتجه ناحية النهر، ويقع المعبد الصغير عمودياً. عليه أما الأحجار المستخدمة فى بناء هذا المعبد فهى من الحجر الرملى الحبيبات المائل فى لونه إلى الرمادى المصفر وصالح تماماً للنقش عليه. ويبدو أنه تم اختيار هذا الحجر لضمان صلابة البناء كما يظهر من الأحجار الضخمة الموجودة بين عمود وآخر فى جدران ما بين الأعمدة الموجودة فى منطقة الوسط. يصل طول هذه الأحجار إلى حوالى خمسة أمتار<sup>(٦)</sup> وسمكها متر ونصف<sup>(٧)</sup>. ويتكون طول هذا الرواق من خمسة أحجار، ونرى أحجاراً أكبر

---

(١) مائة وثلاثون قدماً.

(٢) مائة وخمسة وثمانون قدماً.

(٣) مائة وأربعة عشر قدماً.

(٤) سبعة وثلاثون قدماً.

(٥) حوالى تسعة عشر قدماً.

(٦) خمسة عشر قدماً.

(٧) أكثر قليلاً من أربعة أقدام ونصف.

منها موجودة فى هذا المبنى. إلا أن العديد من هذه الأحجار انهارت وتقوضت على الأرض.

لقد عثرنا بين والوصلات على ملاط يميل إلى الاحمرار وقد ألتف تماما كما وجد بين الأحجار المحطمة قطع وألسنة من خشب الجميز منحوتة على شكل ذئب السنونة كانت تستخدم فى دعم البناء، وكانت مطلية - فى ما يبدو - بالقار.

ونلاحظ على السطح والمنطقة الخارجية فراغات كثيرة خالية من ألسنة الخشب كان الفلاحون أو العرب قد انتزعوها، وقد كانت موجودة فى كل قالب من الأحجار<sup>(١)</sup>.

ورغم أن تنفيذ هذا المعبد أخذ ذات العناية التى أفردتها المعمارىون المصريون فى كافة أعمالهم إلا أنه يسود الاعتقاد من أول وهلة أن هذا الأثر به أوجه خلل وعيوب فى البناء عجلت بإتلافه أسرع من المعابد الأخرى، ويمزى ذلك إما إلى وجود كميات كبيرة من الأعتاب، أو إلى أن البناء يفتقر إلى الصلابة. غير أن هذا البناء قد عانى أيضا من تدمير البشر وعوامل الزمن على السواء ؛ فالحريق الذى تحدثنا عنه ساهم بصفة أساسية فى تدميره. وعلى ذلك يتعين الأخذ فى الاعتبار الجهود التى بذلها العرب لنزع الأركان الموضوعة بين الأحجار.

وتحول التى يبدو عليها الآن هذا البناء دون إعطائنا فكرة كاملة عن والزخارف التى كان يحملها بيد أننا نعرف - على ذلك - الموضوع الرئيسى لهذه الزخارف، فهى ترجع إلى التوزيع المزدوج للمعبد كما سنوضح فى ما بعد. فالرديم يخفى جزءاً كبيراً من النقوش ولم يمد يظهر سوى أعلى إطار بابى المدخل. وقد توارت أعمدة خارجية عدة تحت الرمال إلى حوالى نصف ارتفاعها ولكن الجزء الداخلى بالرواق لم يختفى كالجزة الخارجى، فلقد ملأت الرمال القاعات الأخيرة فى المعبد وبلغت حتى مترين أو ثلاثة أمتار من الأسقف.

---

(١) انظر وصف جزيرة فيلة، الفصل الأول، المبحث الثامن.

وتأخذ تيجان الأعمدة بصفة عامة شكلاً واحداً، فجميع تيجان أعمدة الواجهة متشابهة تماماً ولكنها تتميز عن غيرها بشكلها الحلزوني، ويتضح في الرواق تاج العمود على شكل جريد النخيل وأنواع أخرى من تيجان الأعمدة المزينة بسميفات النخل والورود وكثوس زهرة اللوتس<sup>(١)</sup>.

وأكثر ما يشد الانتباه في الرواق - بعد تفحص الأعمدة - هذا الإفريز الطويل جداً الذي يشمل الطول الكلي له، فهو يتكون من مجموعة ثمانية منقوشة نقشاً مجسماً تقف على أذيالها وتحمل قرصاً مسطحاً فوق رموسها. ولقد سبق ووصفنا هذه التتويج منفرداً في مكان آخر ولكن لم يكن له مثل هذا الأثر الملحوظ والكبير في معبد كوم أمبو؛ حيث يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أقدام. فطرز النحت في هذه هذا التتويج ثابت ومتميز للغاية، كما أن رأس الأفعى منفذ بعناية، فقد عبر الفنان بمهارة عن هذا الشكل المعقد - إلى حد ما - الذي توضحه الثعابين وهي التي يتسطح جسمها المستدير بالتدرج ليتسع عند الاقتراب من الرأس. وسقف الأروقة - عند الستارة الحجرية الوسطى - يحمل زخارف معتادة عبارة عن مجموعة طيور عقاب ضخمة بأسطة أجنحتها وعلى أرجلها شعارات كثيرة. ويوجد في كوم أمبو سقفان مماثلان وهذا ما سنراه حقاً. كما أن الأرضية التي رسمت عليها هذه الطيور ملونة بالأزرق الذي لايزال واضحاً جداً. وقد تم طلاء بقية السقف وحوائط الرواق؛ فالأشكال والنقوش الهيروغليفية طليت بالأزرق والأحمر والأخضر كما في معبد فيلة الكبير.

وثمة أهمية لدراسة الموضوعات الموجودة على بقية أجزاء السقف حيث تظهر فيها أشكال موضوعة في قوارب متوجه بأقراص تحمل في منتصفها نجمة، وكثير منها يحمل نجوما منفصلة وأخرى تتسلح بالسهام. وفي أحد الموضوعات التي نقلناها<sup>(٢)</sup> نلاحظ وجود شخصية تحمل ثماناً في كل يد ولكنها بدون رأس وقد وضع مكانه قرص على جانبيه ثمانان. لنفض الطرف عن كثير من اللوحات التي تختلف قليلاً عن تلك التي وصفناها في أماكن أخرى؛ ولهذا السبب لم أشير إليها. ويكفي أن نقول أن جميع أجزاء المعبد كانت منقوشة وملونة.

(١) انظر شرح اللوحة رقم ٤١.

(٢) انظر اللوحة رقم ٤٤، شكل ٨.

غير أن أكثر الملاحظات إثارة في ما تقدمه هذه النقوش هو أن السقف لم يكتمل إلى النهاية حيث توجد أجزاء كثيرة لا تحمل سوى أشكال مرسومة بالأحمر فقط. وسيرى القارئ باهتمام اثنين من هذه الأشكال مرسومة من خلال شبكة من ذات اللون<sup>(١)</sup>، ويبدو أن أحدها قد وضع مكان الآخر الذي كان في وضع مقلوب. ويفيدنا هذا العمل القيم بأن المصريين كانوا يرسمون ويحددون باستخدام الشبكات وأنهم كانوا يتبعون قواعد مؤكدة لتحديد نسب الأشكال التي يرسمونها. ونجد الدليل على ذلك في آثار أخرى تشتمل أيضا على وجود بشر وحيوانات مرسومة بخطوط أولية بأسلوب طريف وبارع : نذكر منها على سبيل المثال معبد كونترالاتو. ويثبت هذا الواقع أن الفنانين لم يكونوا يستخدمون لوحات للرسم مثلما اعتقد البعض ؛ فمثل هذه الأشكال الموجودة جميعا في إفريز واحد وهي التي تم قياسها بدقة متناهية وجدناها مختلفة جدا على أنها غالبا مارسمت وفقا للعرف والانحناءات المناسبة.

إن المرء ليساوره شعور بأن هذه التجربة القديمة غريبة بالنسبة لتاريخ الفن. فاستخدام طريقة كتلك المستخدمة في تحديد الأشكال يؤكد تماما الراوية القائلة باختراع مصر للهندسة وكذا تمنحها السبق في التوصل إلى أول تخطيطات جغرافية<sup>(٢)</sup>. ويذكر أن سنوسرت قد وضع في المعابد خريطة لمصر بالإضافة إلى عدد من البقاع التي أخضعها بدءاً من النيل وحتى نهر السند. ويقول ديودور الصقلي إن فيثاغورث قد استلهم أشهر نظرياته من مصر. إلا أن هناك رأيا في هذا الصدد لا يدع مجالا للشك في أن معرفة العلاقات بين الخطوط المتشابهة تأتي أساساً من مصر.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٤٤، الشكل ٢.

(٢) هذا ما يشهد به ابولونيوس في رودس والإسكندرية يقول كليمنيس أن كاتب المعبد في مصر القديمة أو كاتب الأمور المقدسة الذي كان يشغل المرتبة الثالثة من بين كهان مجامع مصر تعلم بحث ووصف الكون والجغرافى العامة ولا سيما الخطوط والرسوم البيانية، ووصف النيل ويذكر أن الخرائط التي وضعها يشتمل على تقسيم الأراضى بين قبائل إسرائيل ثم تنفيذها وفقا للأساليب المصرية وما يذكره يوسف يفترض وجود سجل حقيقى للمصاحبة وسرعان ما أرسل رجال إلى مكان الأرض التي يجب أن تقاس مساحتها ولحق بهم في النهاية خبراء في الهندسة أعطيت لهم السلطة في تحديد أرض الحقول القريبة جدا من الشرفاء

وسوف نشير في معبد كوم أمبو إلى نوع من الزخارف يدل على أن المصريين تمكنوا بذلك من توزيع نقوشهم تلك التي تغطي أعمدة الرواق. ولتوضيح ذلك تماما أمكن - في رسم خاص - عرض أحد جذوع الأعمدة الموجودة<sup>(١)</sup> يتكون الجزء السفلى من مجموعة مقاطع ترتكز عليها علامة الحياة وصولجان الواس في تكرار متناسق يشهد بكمال وتمام التكوين كما نرى. والزخارف التالية أكثر تفصيلا وتكثر في حزام العمود الأخير بحيث تتزايد الأبهة والمظمة من أسفل إلى أعلى. وأحزمة الأعمدة الأخرى تفصلها أشرطة بها كتابات هيروغليفية، غير أن هذه النقوش الثرية لا تؤثر إطلاقا في صفاء ونقاء جذع العمود لأنها غائرة. يتعين أن نلاحظ - بين الأشكال الموجودة في هذا العمود - الأسد الذي يحمل رأس الصقر والذي يزين حزام العمود الثاني الذي غالبا ما يتكرر في الكتابات الهيروغليفية بالمعبد<sup>(٢)</sup>.

وأخيرا سنتناول بالعرض أحد الأفاريز الموجود في أعلى القاعة الثانية بعد الرواق الثاني. من السهل التعرف على التعديلات التي أدخلت عليه<sup>(٣)</sup>، فهناك نقص في اللوحة فيما يتعلق بالكثير من أعمدة الكتابات الهيروغليفية التي تساعد على توحيد المسافات بين الأشكال. ففي ذات القاعة وفوق النتوء الصغير الموجود بالكورنيش الذي يعلو الباب الأيسر نجد كتابات يونانية من عهد بطليموس فيلوميتور منقوشة بمنأى فائقة. وقد حفررت هذه الكتابات باسم القوات المربطة في كوم أمبو لتشهد بولائهم لآلهة مصر<sup>(٤)</sup>.

ويتضمن كورنيش مقدمة المعبد القرص المجنح الذي تظهر في كل مكان ولكنه تكرر مرتين لأن توزيع المبنى مزدوج كما أشرنا. وتحت الرواق نجد بابين متطابقين مزينين بنفس الطريقة وتفسر الزخارف على هما سبب فصل المعبد

(١) انظر اللوحة رقم ٤٤، الشكل ١.

(٢) ترمز الكتابات الهيروغليفية المأخوذة من المعبد ملاحظات مهمة سنتناولها في موضع آخر (انظر شرح لوحات كوم أمبو ... إلخ).

(٣) انظر اللوحة ٤٤ ما الشكل ٥.

(٤) انظر دراسة المسيد جومار حول النقوش التي جمعت من مصر.

إلى جزء ين. فالواقع أنه إذا ما قطعنا عموديا أحد هذه الأبواب من النصف<sup>(١)</sup>، نلاحظ في الجزء الأيمن أن الإله المبجل يحمل رأس صقر، كما يحمل الإله الموجود في الجزء الأيسر رأس تمساح وهذه قاعدة اتبعت في كل أنحاء المعبد كما يتضح من الأطلال التي لا تزال قائمة<sup>(٢)</sup>. لقد تم نقل أحد المشاهد كاملة حيث يحمل سوبك رأس تمساح<sup>(٢)</sup>. ويذكر أن دراسة هذه النقوش البارزة والكتابات الهيروغليفية ستخدم العلماء الماكفين على أبحاث عن اللغة المقدسة.

وتجدر الإشارة إلى أن القرص المجنح - الذي توج المناظر الموجود بها الصقر وتلك التي يظهر فيها التمساح - يوحى بأنهما يتعلقان بإله واحد وأن كلا منهما يمثل شعاراً بصفة خاصة لأوزيريس. فالصقر - كما هو معروف - يرمز إلى الشمس، والتمساح يتعلق بالفيضان الذي كان رمزاً له بالنسبة لسكان كوم أمبو. ومن الثابت أن مياه النيل لم تصل سالفاً إلى كوم أمبو إلا عن طريق قناة كما سبق وشرحنها وفقاً للكتاب القدامى<sup>(٤)</sup> : فكان النهر يجري في ذلك الوقت ناحية الغرب أكثر. وما إن كان يعبر ضفافه لينتشر في الأراضي ويتغلغل في القنوات الداخلية، حتى التماسيح الرابضة على ضفاف النهر سير المياه وتصل إلى مدن البحر المتوسط. وهكذا كان سكان كوم أمبو يعتبرون التمساح رمزاً ومقياساً للفيضان؛ ومن ثم يمكن أن نتصور كيف أعطى رأس التمساح للإله رمز النهر.

ولنحاول هنا أن ندرس في كلمات قليلة ما ذكره الكتاب القدامى عن المبادات المنسوبة إلى سكان كوم أمبو. لقد كان يتم هناك - حسبما يقول إيان وجوفينال - إعطاء التمساح نوعاً من التقديس الإلهي. فقد أظهر الشاعر - مأخوذاً بقريحته

(١) انظر اللوحة ٤٣، الشكل ٢٠.

(٢) انظر اللوحة ٤٤، الشكل ٥.

(٣) انظر اللوحة ٤٣، شكل ١٩.

(٤) استرابون الجغرافيا، الكتاب ١٧، وقد افترض بو هذا الأمر دون أن يقدم دليلاً. ويبدو الوضع العالي للأطلال الموجودة على ضفة النهر منافياً لذلك، ولكن الفحص الجيد للأماكن يؤكد شهادة القدامى.

الساخرة دون الوضع فى الاعتبار بالمكان أو الزمان . أهل دندرة وكوم أمبو، كشمويا متجاوزة يخوضون قديما حريا دامية . بمناسبة هذه العقيدة . وأراد أن يؤجل عرض التفاصيل الكثيرة لهذه الحرب المزعومة ليستلهم نوعا من السخط على مثل هذه العقيدة الشبيهة فى غرابتها بمقيدة أحد الزواحف آكلة لحوم البشر . (وهكذا كان النزاع القديم بين الجيران فى الماضى يثير الكراهية الدائمة ولم يمالج حتى الآن الجراح لدى سكان كوم أمبو دندرة )<sup>(١)</sup>.

ولكن ما القول فى هذا الادعاء الذى عرضه الشاعر حينما نعرف أن هاتين المدينتين كانتا منفصلتين بمسافة تصل إلى حوالى خمسين فرسخاً؟ لقد سبق وأوضحنا بعض الانتقادات اللاذعة مثل هذا الخطأ الفادح، بل حتى ألقيت التبعة على الناقلين<sup>(٢)</sup> . وأيا كان الأمر فيكفى أن نكون قد تمكنا من دراسة الديانة المصرية . إلى حد ما . من خلال ما كتبه المؤلفون الذين عرفوها تماما مثل ديودور الصقلى وهيرودوت وبلوتارخ وبيورفيروس وجامبليك لتقننا أن جوفينال قد انخرط فى مبالغة شديدة إلى حد اعتباره شاهدا على الأحداث الرهيبة التي وصفها؛ وما كان يجب فى القرن الذى عاش فيه — البت فى أمور تتعلق بالمصور السابقة حين كانت مصر وديانها فى أوج الازدهار . ويبدو أن الكتاب الرومان . إذا ما استثنينا سيسيرون . لم يكن لديهم أفكار صحيحة عن روح هذه الديانة القائمة على الشعارات وعلى معرفة الظواهر الطبيعية . ونذكر من بين المعلومات الأساسية التى اكتسبتها الجامعات المصرية وأتقنتها تلك المعلومات الخاصة، بمادات حيوانات النيل وبصفة عامة ما يختص منها بمصر .

---

(١) جوفينال القصيدة ١٥ .

(٢) قدم فى لوتو بهذا المصدد . أبعثا شيقة سمح لنا أن نضع نتيجتها نصب أعين القارى نجد فى أحسن وأقدم طبعات جوفينال كلمة وليس كلمة Ombos التى أدخلها الناشر الأواخرى فى النص : فكلمة Comios تاتى من كلمة Coptos التى أثبتها الناقلون الذين كتبوا بإهمال حرف P.١ وما يبرهن على ذلك أنه لا يوجد فى المكتبة نسخة قديمة جدا بخط اليد حيث نجد Copos بدلا من Combos مع وجود خط على حرف (O) قريبا من حرف (P) : يمكن أن تكون علامة الاختصار موجودة أساسا على حرف (P) مما جعل حرف (T) متصلا بحرف (P) فضلا عن أن هذا الاسم يبدأ بحرف (C) فى كافة النسخ المكتوبة بخط اليد .



فكانوا يعرفون أن التمساح - رغم أنه حيوان برمائي - إلا أنه لا يتغفل كثيرا في الأرض إلا في وقت الفيضان. وهذه الملاحظة التي قدمها بو تفسر - في ما يبدو - لماذا كان التمساح يعتبر شعار المياه العذبة<sup>(١)</sup>.

ونستطيع - عن طريق هذه المعلومة الخاصة بمفزي رمز التمساح - أن نعرف ما المقصود بمقيدة أهالي كوم أمبو وعقيدة المناطق الأخرى التي كانت تباشر ذات الممارسات. فالأشكال المنقوشة على المعابد هي التي دلت الإغريق والرومان - بلا أدنى شك - على أن التمساح هو إله يعبد المصريون. أما الحروب الأهلية التي أشار إليها الكتاب فمن المنطقي أن نعزى أسبابها - مثلما جاء في النقد الذي ذكر أعلاه - سواء إلى حقوق منافع أو إلى نزعة الهيمنة أو بسبب مزايا تجارية تنازعت عليها بعض المدن المتجاورة في عصر غير بعيد.

ويذكر أن هذا النوع من المنافسات لا يخلو من أمثلة في بلادنا، ففي عصرنا في مصر نجد أمثلة مشابهة تؤدي غالبا إلى نشوب معارك طاحنة.

### المبحث الرابع: معبد كوم أمبو الصغير

يقع معبد كوم أمبو الصغير شمال غربي المعبد الكبير على مسافة أربعين متراً على نحو التقريب<sup>(٢)</sup>، ويتجه مدخل المعبد ناحية الجنوب، ويميل محوره بزاوية قدرها خمسون درجة غرباً على خط الزوال المغناطيسي. وتشكل هذه الزاوية (٢٥) مع زاوية ميل محور المعبد الكبير شرقاً (٥٥) تسعين درجة: أي أن محوري المعبدتين يميلان بزاوية قائمة بالتحديد. ويبلغ طول المعبد حوالي ثلاثة وعشرين متراً<sup>(٣)</sup> وارتفاعه تسعة أمتار<sup>(٤)</sup>، ويقدر أكبر عرض له بنحو ثمانية عشر متراً<sup>(٥)</sup>.

---

(١) التركيز على التمساح كرمز للمياه الصالحة للشرب لأن التمساح رمز لظهور الشمس وغيابها لأنه يطفوا على سطح المياه بظهور الشمس ويفوص بغيابها فإن ظهوره في المياه يرمز إلى أن تلك المياه صالحة للاستعمال نظراً لأنه يعيش في المياه العذبة فقط. وردت هذه العبارات في أحد الفصول الشيقة من مؤلف أوزاب ويتناول فيه الكثير من الرموز المصرية، أوزاب، الكتاب الثالثة المقطع ١١، ص ١١٥، باريس، ١٦٢٨، وانظر أيضاً كليمنيس السكندري، الكتاب الخاص، ص ٦٣٢، باريس ١٥٦٦.

(٢) عشرون قامة.

(٣) واحد وسبعون قدماً.

(٤) ثمانية وعشرون قدماً.

(٥) ثمانية وعشرون قدماً.

وقد استخدم فى تشييد هذا المعبد الحجر الرملى الذى استخدم فى المعبد الكبير. ويبدو البناء مماثلاً للآخر بيد أن آثار التدمير تتضح بصورة أكبر؛ فلم يمد يبقى سوى أربعة أعمدة وستة أجزاء من الأسوار وثلاثة أبواب. وتكاد الحوائط الخارجية أن تكون مدمرة تماماً الأسقف لا غير موجودة.

وليس ثمة شك فى أن مرجع هذا التدهور هو قرب المعابد من النهر الآخذ بشدة فى الاتجاه ناحية الشرق مسبباً تآكل الأراضى حتى حوائط المعبد الصغير، سواء من جراء حفر المياه وإفسادها للأساسات أو تغلغل الفيضانات الزائدة فى أرض المعبد.

ولم يتبق من أعمدة الرواق سوى تلك الموجودة فى الواجهة - كالمعتاد - بين الجدران. وبقى الرواق قاعتان مستطيلتان ذواتا أبعاد متساوية. نصل بعد ذلك إلى المعبد المتصل بقاعتين جانبيتين. لقد سبق وأشرنا إلى أن الباب الجنوبي الكبير يقع على محور هذا المعبد الصغير.

ويتكون تاج الأعمدة من أربعة رموس للإلهة إيزيس (حتحور) يعلوها بناء ضخيم يأخذ شكل مقصورة. ولقد سبق وتم وصف هذا التاج تفصيلاً فى الحديث عن قبلة ولا يوجد مجال هنا لأى ملاحظة جديدة. إلا أنه يتمين ملاحظة النقوش التى لاتزال فى حالة جيدة فى القاعات والأعمدة لتوضيح أن المبنى كان مكسباً بالوان مثل المعبد الكبير.

ولن نصف هنا ما باللوحات المنقوشة على الجدران المتمثلة فى قرابين مقدمة للإلهة إيزيس لتبرهن كما هو حال تاج العمود على أن هذا المعبد كان مكرساً لها. ومن بين الشعارات الشائعة فى أيدي أشكال الرجال والنساء المرسومة تبرز ساق ملتوية و مليئة بسننون شبيهة بسننون المنشار<sup>(١)</sup>.

وتشتمل زخارف المعبد الصغير أساساً على رسومات وصور متعلقة بالإلهين إيزيس وحورس<sup>(٢)</sup>، ونلاحظ فى أحد الأفايظ الموجودة أسفل سقف القاعة الأخيرة نوعاً من الرسومات الهزلية المتمثلة فى صورة تيفون<sup>(٣)</sup>. ومن السهل

(١) انظر اللوحة ٤٥، الشكل ٥ لقد سبق ورأينا أمثلة أخرى لها فى النقوش البارزة فى قبلة.

(٢) انظر اللوحة ٤٥، الأشكال ١، ٢، ٥.

(٣) نفسه، شكل ٤.

(٥) سمعة نخيل (المرجع).

التعريف عليه من خلال وجهه المريض ومظهره المضحك السخري وأعضائه القصيرة والريعة. ويبدو بين هذه القوش المختلفة موضوع طريف يتعلق بامراتين جالستين لتسندا بأيديهما عرش الاله حورس ويستند العرش على ساق تمسكها المرأتان - فى ما يبدو - بأرجلهما لحفظ إتزانها. وتمسك كل منهما فى اليد الأخرى بمض زهور اللوتس التى تشكل عقداً متعددة حول هذه الساق. وأمام حورس يقف أحد الكهنة مسلحاً برمح ذى رأسين مهدداً بقتل أحد الثعابين. ويظهر فى لوحة أخرى قريان عبارة عن ثلاث أوزات مقدمة للإله نفسه.

ومن ثم يمكن التكهن بأن حورس وإيزيس كانا إلهى المعبود. ومن السهل ملاحظة أن الرموز الظاهرة فيه تكاد تتعلق جميعها بظاهرة الفيضان. ومن المعروف أن حورس كان شعار الشمس خلال دورة إنقلابها الصيفية التى تشكل وقت فيضان النيل. ولن نركز على هذه المقارنات التى سيتم تناولها فى ما بعد بصورة أفضل<sup>(١)</sup>.

### المبحث الخامس : وصف الطريق من كوم أمبو إلى أدفو

سوف نختم هذا الجزء ببضعة ملاحظات تتعلق بكوم أمبو وادفو. حيث يوجد فى أحد الأماكن بهذا الطريق اللافت للنظر - إلى حد ما - الجبل المسمى " جبل أبو شجر " أو جبل المواصف الذى يشكل رأساً متقدماً فى النيل. ويذكر أن إعصاراً شديداً حملنا على التوقف فى هذا المكان ونحن سائرون نحو عالية النهر. وفى الساعة الخامسة مساءً<sup>(٢)</sup> بدأت السماء - التى كانت صافية حتى هذه الساعة - فى التلبد بسحب الفيوم فى لحظة. وهبت رياح شرقية. تدفع أمامها كتلاً هوائية على هيئة دوامات محملة بالرمال والأتربة. وأخذت تضرب فى عنف شديد قلاع المركب التى كانت تحملنا، فما كان منا جميعاً إلا أن كتمنا

(♦) المعبود بس أحد الآلهة الهلينية فى مصر القديمة (المراجع).

(١) انظر وصف إدفو، الفصل الخامس، المبحث الخامس.

(٢) يوم العاشر من سبتمبر ١٧٩٩.

أنفاسنا وشعرنا بلهيب شديد كما لو كان سميراً وكان ريس المركب رأى عند بعد هذه العاصفة إلا أن البحارة لم يتمكنوا من طوى القلاع آنذاك فتمزقت أجزاؤه ومالت المركب إلى حد أنها كادت تنقلب وتفرق. كانت الأمواج ترتفع إلى قدمين أو ثلاثة أقدام مثلما هو الحال في حالات المد الشديدة. وكان صوت الرعد يدوى بشدة ويتردد صدها من جبل لآخر كما لو كان طنين جرس. وكان وميض البرق يأتي من البحر الأحمر، وقد أخذ الجو حمرة النيران التي تشوبها بقع سوداء. وبدأ الريس والبحارة يطلقون صيحات مفزعة بعد أن تملكهم اليأس. وأخيراً وبعد جهود غير مجدية لإستئناف الملاحة في النيل اندفعت المركب من جراء تأثير الرعد لتصل إلى سفح جبل أبو شجر.

وحينما وصلنا - دون التعرض لحادثة أخرى - إلى هذا الميناء لم نعد نفكر إلا في ملاحظة الموقع المريع - المثير للإعجاب؛ حيث توجد شجرة واحدة في المناطق المحيطة هي شجرة دوم ذات أربع تفريعات. وكانت الصخرة عمودية على النهر. وقد فوجئنا بوجود رجل مسن يسكن أسفل هذه الصخرة وحيداً منذ ثلاثين عاماً في كوخ مصنوع من الحصير.

وكان هذا المعجوز البالغ من العمر ثمانين عاماً أسود الوجه ذا لحية بيضاء يكاد يسمع بصموية أسلئتنا، فالشيخوخة و الرعب الذي يعمش فيه جملاه شبه فاقد للحس. إلا أنه قد توسل إلى واحد من بيننا ليملأ بالماء وعاء من الطين يعتبر المنقولات الوحيدة في الكوخ. وسألناه عن عمره فأجاب: الله أعلم. وكان يؤدي الصلاة بوع وقت غروب الشمس.

وتجدر الإشارة إلى أنه مع حلول أي عاصفة في هذا المكان، فإن المراكب التي تصل يتولى روادها تقديم بعض الصدقات لهذا المسن سواء من الذرة أو من التمر. ويخطيء بلاشك من يرى في هذا المعجوز حكيماً اعتزل العالم ليمش في التأمل. فهو لا يمدو - وفقاً لمعادات البلاد - كونه رجلاً بحث عن مكان ليتخلص من عناء التصرف و التفكير؛ حيث يمكن أن يمشي في هذه الحالة من الكسل وعدم التفكير، وهي التي تعتبر من ملذات هذا الشعب. ورغم ذلك فإن أناساً ميسوري الحال قادمون من أوروبا عرضوا أنفسهم لأخطار جسيمة - يقومون

نصب عينيه بتكسير رؤس الصخور المكونة لللاذه ويجمعون النباتات البرية التي ينزعها لإحراقها ويرسمون و يصفون هذا الموقع غير المأهول: "ترى هل هم أكثر حكمة منه؟"

والصخور الموجودة فى المناطق المحيطة بالمكان منحوتة بأشكال غريبة، فهى مكونة من الحجر الرملى الأسود المرصع بالمعروق الممدنية و يميل لونها إلى الحمرة بدرجات نضرة. وبالقرب من هذا المكان يوجد مضيق أجذب يشبه مجرى السيل. أما بقية الصحراء فقد وجد بها تلال شديدة الانخفاض من الحجر الرملى المتناثر فى كل مكان. و نلاحظ فى مكان بعيد بمض الجمال التابعة لقبائل عربية و هى الكائنات الحية الوحيدة فى هذا المكان المهجور. و على ضفاف النيل، نرى بعض نباتات الحنظل و كمية قليلة من نباتات السنا وحقل من نبات الرجلة كلها تشكل - بالإضافة إلى ثمار الدوم- الغذاء المعتاد لذلك المسن المنعزل.

وبينما نحن آخذون فى مراقبة هذا الموقع، كان صوت الرعد مستمراً فى الدوى و السيول تهطل بلا انقطاع مع دوامات الهواء. و لم تهدأ حالة الطقس إلا فى المساء فتعجبنا لذلك. ولكن ما إن بدأنا فى الإقلاع إذا برياح عاصفة من الشمال تؤدي إلى ارتفاع مياه النيل فانكسرت عارضة الصارى بالمركب وسارية مركب آخر. ولقد أدت قوة الرياح إلى دفعنا للسير فى التيار سريعاً على مدى ساعة دون أى قلاع، ووصل النهر إلى أعلى مقياس له فى الارتفاع. ويذكر أن ظلام الليل والقيمان الصخرية والجزر المنخفضة بالنيل<sup>(١)</sup> فى المناطق المجاورة للسلسلة حملتنا على دخول قرية الحمام الصغيرة الواقعة بالقرب من الضفة اليسرى للنيل ويقطنها عريان من قبيلة المبابدة.

---

(١) يمتلئ مجرى النهر فى المناطق المحيطة بجبل السلسلة ببعض الجزر الرملية التى أغرقتها الفيضانات ويمطئها تماماً شجيرات التمر حنة التى تضى أغصانها الكثيفة لون رمادى على الجزر الصغيرة بها.

## القسم الثانى

### بقلم روزيير كبير مهندسى المناجم

### وصف جبل السلسلة والمحاجر التى استخرجت منها مواد بناء المنشآت الرئيسية فى صعيد مصر

تغطى المحاجر القديمة كافة مساحة سلسلة الجبال التى تحد وادى النيل من الشرق والغرب. ويكتشف المسافر فى طريق صعيد مصر عدداً من المحاجر لا نهاية له دون الاعتماد عن ضفتى النهر، ولكنها ليست جميعاً على علاقة بالآثار المتبقية اليوم وينبغى بهذا الصدد أيضاً مزوق عامة.

إذا ما أخذنا فى الاعتبار فقط بطبيعة أرض الجبال، فإن وادى النيل ينقسم إلى ثلاث مناطق مفارقة، وهو تقسيم لا علاقة له . كما نشعر . بالتقسيمات السياسية فى أى زمن ولكن له علاقة كبيرة بشكل البلد وطبيعة الآثار بها .

١. فى المنطقة الواقعة أقصى الجنوب فى المناطق المحيطة بجزيرة فيلة وأسوان والجندل يأخذ المكان شكلاً متنوعاً ومثيراً للإعجاب، ولكن فى مساحة محدودة للغاية حيث الأرض الجرانيتية التى استخرج المصريون منها كتلا لنحت الآثار أحادية الحجر الشهيرة التى زينوا بها منشآتهم.

٢. وفي الجزء الشمالي وإذا ما اتجهنا ناحية الجنوب في لمسيرة عدة أيام ما بعد مدينة طيبة، فلا يوجد في سلسلتى الجبال إلا سلسلة طويلة من الصخور والانحدارات الجيرية ذات الشكل الواحد. ففي هذه المنطقة الأكثر شهرة تم استخراج مواد بناء الآثار الشهيرة جداً من حيث القدم أو الشكل المنتظم وبالاقتراضات التي وضعت في ما يتعلق باستخداماتها: وأشير هنا إلي الأهرامات. أما فيما يتعلق بالآثار الأخرى المصنوعة من الحجر الجيري مثل المعابد، فلا بد وان كانت كثيرة فيما مضى ولكن لا يتبقى منها اليوم سوى آثار ضئيلة.

٣- تم استخراج مواد بناء المعابد والمنشآت الأخرى التي لا تزال قائمة من الجبال الممتدة من أسوان في اتجاه الشمال وحتى مسافة يوم سيراً على الأقدام قبل الوصول إلى لاتوبوليس القديمة<sup>(١)</sup> وهذه الأرض المرتفعة بمقدار درجة واحدة ذات طبيعة خاصة وتعتبر انتقالية بين الأرض الجيرية والجرانيتية. وسنهتم هنا بفحص المحاجر الموجودة بها ومواد البناء المستخرجة منها. وسنصف في دراسة خاصة محاجر الجرانيت. أما تلك الموجودة في المناطق الجيرية فسنعرضها في دراسة أخرى<sup>(٢)</sup>.

### المبحث الأول : ملاحظات طبوغرافية

على الرغم من أنني اختصرت بدرجة معينة عند الحديث عن سلسلة الجبال، إلا أن ذلك لا يمنع من أن نكتشف جبالاً أخرى من نفس الطبيعة في الاتجاه ناحية الشمال ولاسيما على الضفة الشرقية للنيل، وكذا شرقي أسوان، ورغم ذلك فإن هذه الجبال لم يعد لها توابيع كما لا يلاحظ وجود آثار كثيرة لاستغلال أحجارها.

ولا تحظى مصر - على طول هذه المسافة - إلا بمساحة قليلة من العرض؛ ويلاحظ أن المحاجر لا تزال أكبر عدداً وحجماً كلما اقترب الجبل من النهر. وتوجد أوسع وأهم هذه المحاجر في أضيق جزء من الوادي. أما الجبال المواجهة لها فهي تقترب بعضها من البعض إلى الحد الذي تترك فيه للنهر بالكاد المسافة اللازمة لاستكمال مجراها.

---

(١) التي تسمى اليوم إسنا.

(٢) انظر دراسات العصور القديمة.

ونستنتج من ذلك أن المصريين حرصوا على اختيار مواد بنائهم - ليس فحسب من وادى النيل - ولكن أيضاً من أقرب مكان متاح لهم من النهر - وقد حاولوا - هنا - كما هو الحال فى أى ظروف - أن يتجنبوا زيادة أعباء الأعمال الطويلة التى كانت مفروضة عليهم: ومن بينها صموية النقل وهو تصرف تلقائى وطبيعى بلا شك ولا يسترعى الانتباه ما لم تكن هناك ظروف مفروضة أدت إلى ترجيح رأى مختلف تماماً.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه النقطة المحدودة التى تناولتها للتو، ولا بد أن تحظى بأهمية بسبب طبوغرافية البلاد والأعمال القديمة التى نراها فى كل مكان على السواء - والتى تبعد عن أسوان بحوالى ثمانين ألف متر<sup>(١)</sup>، وأربعين ألف متر من مدينة إدفو - ويطلق على هذه النقطة "جبل السلسلة".

وتفيد الرواية بأن النيل كان من قبل مسدوداً فى هذا المكان بسلسلة من الحديد كانت أطرافها مثبتة فى أبرز نقاط الجبلين المتقابلين. والقلّة من الرحالة الذين أهلكوا هذه الرواية الفردية. إلا أن بعضهم قد سمى بعناية واعتقد أنه عثر على نقاط الصخرة التى كانت السلسلة معلقة بها سائلاً. وقد سخر بعض الرحالة من هذا الادعاء واتجهوا - بسبب ضخامة عرض النهر وعدم جدوى مثل هذا الاحتياط - إلى التفكير فى رفض الأمر - المجرد من الأدلة لأنه مستبعد أو أنه ضرب من العبث وهذا الرأى يبدو لنا - أكثر الأمور حكمة.

وسنوضح أن مثل هذا الموضع قد أدى - على مر العصور - إلى تكوين فاصل بين المنطقتين أو الإقليمين المتجاورين ويذكر أن هذا المكان كان يستخدم فى أوقات الاضطرابات كحدود للأطراف المختلفة: وأصبح حاجزاً طبيعياً من الخطر اجتيازه من الجهتين كما تشير وقائع التاريخ الحديث. وإذا ما أردنا إعطاء معنى منطقي لهذه الرواية فيتمين الاعتقاد بأن هذا المكان كان يستخدم كسد وحاجز لسكان الأقاليم المجاورة ولذا أطلق عليه اسم "سلسلة" كمجاز طبيعى بالنسبة للشرقيين.

وإذا اتجهنا نحو شمال جبل السلسلة قليلاً، على بعد أربعين ألف متر من إدفو، نلاحظ - فى وسط سهل مزرع صغير - مكان مدينة قديمة يميل لون الأرض به إلى الحمرة، وتلال من الأنقاض، وقطع من الطوب ذى الأحجام

---

(١) ستة عشر فرسخاً.



الكبيرة وبقايا حجارة مشذبة ومنقوشة: وهكذا كانت تبدو الأماكن المأهولة قديماً في مصر. ويؤكد وجود آثار لمبنى مصرى قديم هذا الأمر بلا جدال. ترتفع أطلال هذا المبنى قليلاً فوق مستوى الأرض بحيث يمكن التعرف على الأقل على أن جزءاً من الآثار كانت تغطيه الكتابات والرسومات الهيروغليفية. واليوم يمكن القول بأنها بقايا معبد صغير كان يحيط به ممر، وهو تقسيم نراه أيضاً في أحد الآثار القريبة جداً من المكان. وكان الممر مزيناً- مثل المعبد- بالكتابات الهيروغليفية: أما الرواق- فلا يوجد له حقاً أى أثر، ولكن يمكن الاعتقاد- وفقاً لدلائل عدة- أن هذا الجزء قد أضيف بعد فترة كبيرة لبقية المبنى.

وقد أطلق بعض الرحالة على هذه المدينة اسم "السلسلة"، وهذا يفترض أنه كانت توجد مدينة تحمل هذا الاسم ولكن لم يرد ذكره لدى القدماء.

وقد ورد في تاريخ الإمبراطورية- ذكر مكان يسمى "سيليلى" من بين مواقع الصعيد. أؤيد بأنه يحتمل تماماً كما تكهن دانفيل<sup>(١)</sup> ألا يكون هذا الاسم سوى تحريف لاسم سلسلى<sup>(٢)</sup>، بيد أننا لا نستنتج أن هذا الاسم ينطبق على مدينة مصرية قديمة. ويتكهن دانفيل الذى لم يكن لديه أية معلومات عن هذه الأطلال أن المركز الروماني الذى صحح اسمه كان موجوداً فى المضيق داخل الجبل ذاته ولا أعرف إذا ما كانت هناك معطيات كافية لتحديد النقطة التى يشغلها هذا الموقع، ولكن من الثابت أنه لا يمكن إرجاعه إلى مدينة منفصلة عن المضيق بمسافة كبيرة<sup>(٣)</sup>.

---

(١) دانفيل، دراسات عن مصر القديمة.

(٢) سواء كتبنا سلسلى Cilsili يتعين أن نلاحظ أن نطق اسم البلد يقترب أكثر من كلمة سلسلى.

(٣) عكف الرومان على توزيع فرق الخيالة بالطريقة المثلى لاحتواء البلد بعدد قليل من الناس، لقد تم اختيار مواقعهم بهذه الطريقة كان موقع أسوان تحت الجنادل مباشرة ثم جاء موقع بابليون فى الجزء السفلى من الوادى حيث يشكل طرف سلسلة الجبال العربية مضيقاً إذا اقتربنا من النهر. وتشير التفصيلات التى يذكرها- بهذا الصدد- المؤرخون القدماء<sup>(\*)</sup> إلى مدى الأهمية المعلقة على هذه المواقع حتى نعتقد أنه موقع سلسلى كان مهماً وهذه الأسباب وللتشابه الشديد بين هذا الاسم والاسم الوارد فى موجز الإمبراطورية لا تدع مجالاً للشك فى أن الموقع الذى أشارت إليه لا يتعلق بهذا المكان. وكان سيملاز قد أراد- قبل دانفيل- تصحيح اسم سيليلى ليصبح سيلينون الوارد فى المذكرات فى الجزء السفلى لطيبة: ولكن هذا التصحيح غير موفق على الإطلاق ولم يمكن إنساده إلا إلى التماثل الضئيف بين الكلمتين.

(\*) استرابون الجغرافيا، الكتاب ١٧.

وفيما يتعلق بأطلال المدينة المصرية، نرى تطبيق اسم قديم قد سبب لنا حيرة كبيرة حتى الآن وهو مصري بالفعل ألا وهو فتوتيس الذى يشير إليه بطليموس على هذه الضفة من النيل فى الجنوب بـ أبولينويوليس ماجنا<sup>(١)</sup> أما سيكارد فقد وضع - فى أبحاثه عن الجغرافيا القديمة - وهذه المدينة فى مضيق جبل السلسلة ذاته. ولكن عدم صحة هذا التحديد واضحة لأن الدليل الوحيد الذى يمكن أن نستند إليه - وهو ما قاله بطليموس - يشير بصراحة إلى فتوتيس كما لو كانت واقعة وسط الأراضى بعيداً عن النيل: ومثل هذا الوضع لا يمكن أن يكون فى المضيق حيث يحيط النهر بالجبل مباشرة ولكن على النقيض من ذلك ينطبق على الأطلال التى وصفناها. توضح هذه الملاحظة - فى آن واحد - تقطعين من الجغرافيا القديمة طالما أن فتوتيس كانت متعلقة بهذا الموقع، فلم يعد سوى الموقع الرومانى الذى يمكن أن نضعه فى هذا المضيق.

## المبحث الثانى: ملاحظات عن مواد البناء المستخرجة من المناطق المحيطة بجبل السلسلة لتشييد المباني القديمة

أصبحت دراسة حالة المحاجر القديمة سهلة إلى حد ما بسبب موقعها على ضفتى النيل، فلقد كانت هذه المحاجر - على الرغم من ذلك - مثل جميع أعمال قدماء المصريين سبباً للعديد من الأخطاء. وكانت هناك صعوبة فى الاقتناع بأن تكون هناك آثار بمثل هذه الشهرة بسبب قدمها وثرائها وكثرة الزخارف التى تزينها، شيدت بمواد بناء عادية وبدائية أو غير متقنة. ولقد اعتقد معظم الرحالة مستندين إلى مخيلتهم أكثر من نظرهم - أنهم قد رأوا - فى طبقات الأرض والآثار ذاتها - أحيانا الجرانيت الصلب والنفيس المستخرج من المناطق المحيطة بأسوان<sup>(٢)</sup>، وأحيانا أخرى الرخام السماقى والصخور المتنوعة فى شبة

(١) التى أصبحت اليوم إدفو.

(٢) لقد سبق وأشرنا إلى أن الجرانيت لم يعد ظاهراً على ضفتى النيل على مسافة تستغرق ساعة زمن سيراً على الأقدام شمالاً أسوان، والمصريون الذين قاموا بنحت كمية كبيرة منه استخدموه رغم ذلك بكميات ضئيلة فى منشآت الصعيد.

الجزيرة العربية وأحيانا البازلت. واكتفى آخرون باستخدام الرخام محتذين حذو الآثار القديمة فى اليونان وإيطاليا<sup>(١)</sup>. والواقع أنه لا يوجد فى هذه المحاجر - كما هو الحال فى مبانى صعيد مصر - أى من الرخام السماقى أو البازلت أو الرخام أو الأحجار الجيرية على أى شكل كان<sup>(٢)</sup>. ولا يوجد فى كل هذه المساحة - على ضفتى النيل - سوى طبقات من الحجر الرملى به حبيبات من الحجر الصوانى مرتبطة فى ما بينها بمادة بروتينية ( الفلوتين ) كلسية، ومن هذا الحجر - تم بلا استثناء - بناء الآثار التى لا تزال موجودة من أسوان وحتى دندرة<sup>(٣)</sup>.

وإذا ما أردنا أن نقدم فى كلمات قليلة فكرة عن هذا الحجر الرملى يستطيع العالم كله أن يستوعبها فى ما يمكن مقارنته مع ذلك الشائع استخدامه لتبليط الطرق فى ضواحي مدينة باريس والمسمى حجر (النافورة الزرقاء). ولكنى أعترف أننى لا أجازف بمرض هذه المقارنة إلا لعدم وجود مصطلح مقارنة سليم معروف بمثل هذه الطريقة. فالحجر الرملى المعروف باسم " الحث " (حجر رملى

---

(١) يذكر أن الشكل الخارجى لهذا الجزء من الصعيد لم يكن معروفًا تمامًا قبل الحملة وأن الروايات المؤخرة والسليمة ترجع الأرض الجيرية إلى أسوان.

(٢) يتعين على ذلك استثناء مبنى قد دمر كله تمامًا على الضفة اليسرى للنيل فى مدينة طيبة : فقد كان مشيداً بالحجر الجيرى الموجود فى الجبال المجاورة. ويذكر أن سكان القرى الموجودة بالمناطق القريبة قد قاموا ببناء أفران جيرية كانوا يفدون بها بمواد بناء هذا الأثر، وهو الأمر الذى كان يجنبهم السير مسافة نصف فرسخ للتوجه إلى الجبل.

(٣) لقد حددت - على مسافة فرسخ واحد شمالى أسوان - المحاجر الموجودة فى الجزء الجنوبى أى المحاجر التى تقابلها دون الخروج من الوادى، ولكن إذا ما أردنا التوغل فى الجبل فسوف نكتشف بالتأكيد آثار استغلال للأحجار فى الجنوب فى جميع الأماكن التى يأتى فيها الحجر الرملى بعد الجرانيت. وتقع المحاجر الموجودة فى الشمال على الضفة اليمنى للنهر على بعد خمسة فراسخ جنوبى إسنا فى مصب واد صغير حيث تستغل كربونات الصوديوم وتتماقب الجبال التى تضم هذه المحاجر الجيرية يهتم أن يتم اكتشاف محاجر أخرى فى الشمال إذا ما توغلنا داخل الصحراء. وتظهر على حافة النهر أعداد كبيرة من الكتل المنحوتة والجاهزة للشحن، وهو الأمر يدعو إلى افتراض أن هذه المحاجر من بين المحاجر التى استغلها فى وقت حيث إلى حد ما المصريون. ومما لا شك فيه أن هذه المواد كانت مخصصة لأحد هذه الآثار الذى توقفت عملية بنائه على أثر الثورة التى أحدثها فى مصر غزو الفرس ويبدو من الصعب أن نشرح بطريقة أخرى لماذا تم ترك أحجار منحوتة وجاهزة للاستخدام على هذا الشاطئ؟

كلسى رخو ) الموجود فى المناطق القريبة بمدينة جنيف يكون أنسب للمقارنة. وفى جبال الألب وفوساج وفى المناطق المجاورة للأراضى الجرانيتية بصفة عامة نرى حجرا رمليا شبيهاً بذلك المستخدم فى تشييد الآثار المصرية. ولقد رأيت مرات عديدة أن ذات الحجر لا يمكن تمييز عيناته عن تلك التى تم استخراجها من مصر، ولكن بما أن حجر النافورة الزرقاء أكثر شهرة فسوف نمكف على عقد مقارنة للوقوف على الفروق بينهما .

وتتنوع الفروق - بادئ ذى بدء - بين الألوان فى الحجر الرملي المصرى الذى يتميز فضلا عن ذلك بوجود بقع صغيرة سوداء أو صفراء مكونة من بعض أجزاء الطين المصلصالى المزوج بكتل حجرية من بقايا الصخور وأكسيد الحديد .

وهناك أشكال متنوعة منه تتضمن رقائق الميكا السوداء والصفراء والفضية الوفيرة إلى حد ما، ولكنها متناهية الصغر حتى ليصعب أحيانا تمييزها. والمعروف أن هذه المادة قلما توجد فى الحجر الرملى بالمناطق التى تفصلها مسافة كبيرة عن طبقات الأرض الأولى .

ويغلب على الأجزاء التى تأخذ لونا موحدا اللون الرمادي أو المائل إلى الاصفرار أو تكون بيضاء تماما. وهناك أجزاء أخرى تميل إلى اللون الورى أو إلى درجات متنوعة من اللون الأصفر، وأخرى تحددها عروق بنفس اللون ذات تماريج مختلفة. ولا تحول هذه الألوان المتنوعة دون اكتساب هذه الآثار - البراقة دائما باللون زاهية - شكلا رماديا أو مائلا إلى البياض و أحيانا تأخذ الواجهات المعرضة للتلف بسبب الهواء - لونا داكنا يختلف تماما عن ذلك الموجود فى المساحات التى اكتشفت مؤخرا. ويذكر أن مرجع تلف هذه الأحجار هو الأجزاء المعدنية المنتشرة فى المادة الفلوتينية الموجودة بالحجر.

والأمر اللافت للنظر هو أن مساحات المعابد ليست فى حالتها الأولى ، فقد عثر فى أماكن عديدة على بقايا أجزاء ملونة، ربما يكون قد تم قديما تلوين جميع المباني.

وتجدر الإشارة إلى أن الحجر الرملى فى طيبة يتكون من حبيبات رملية مستديرة إلى حد ما وتكثر بها الزوايا وهى غير متساوية ولكنها مد مجة أكثر من تلك التى نقاترنها بها . ومن السهل معرفة سبب هذه الفروق متى عرفنا أن الجبال الأصلية التى استخرج منها هذا الحجر تقع فى مناطق مجاورة ؛ وحيث إنه سيتم وصف هذه الجبال فى جزء الدراسات الجيولوجية فسنتفى بوصف ما يتعلق فقط بالآثار .

وصلاية الأحجار الرملية المصرية غير شديدة ؛ بحيث يسهل تفتيتها إذا ما خدشت بالأظافر، وهى على درجة صلاية واحدة فى كل كتلة . والأمر كذلك بالنسبة لمقاومة التصدع فتعتبر ضعيفة ولكنها على درجة واحدة من الصلاية . وهذه الأحجار لا تحتوى على ثغرات ولا فراغات . ونادرا ما يقطع اتصال كتل الأحجار بعض العوارض المسماة " اختلالات " أو بسبب شقوق داخلية ؛ وهذه مميزات قيمة تخطى بها العمارة المصرية حيث كانت القباب غير معروفة وحيث كان طول الأحجار المستخدمة فى الأسقف والأعتاب يصل من سبعة إلى ثمانية أمتار<sup>(١)</sup> . ومن ثم ينبغى أن نعترف على ضوء ذلك أن المصريين قد منحوا عناية كبيرة وقاموا بعمليات بحث شديدة من أجل اختيار الطبقات التى استغلوها .

واعتبارا من مدينه أسنا و حتى مدينه ادفو، يكون الحجر الرملى الموجود أكثر نمومة عنه فى الجزء المتوسط أو الجزء الجنوبي . وعادة ما تكون الأجزاء العليا هي الأكثر هشاشة . وقد تم نزع هذه الأجزاء دون عناية، ومن الواضح أنه لم يكن هناك غرض عند انتزاعها سوى استخراج الأجزاء السفلية التى كانت أحجارها . الأكثر صلاية على درجة نقاء أفضل للاستخدام فى العمارة . وقد تم كسر الأجزاء الأولى ببعض الأوتاد ؛ لأنه لم يظهر فى أى من الأطلال ولا فى الأجزاء الموجودة بالجزء العلوى من الجبل أى آثار لاستخدام أدوات على عكس ما هو موجود فى الجزء السفلى للمنحدر .

ولا يوجد من بين بقايا المنشآت القديمة ما يدعو إلى الافتراض بأن المنازل الخاصة كانت مشيدة من الأحجار . فاطلال المدن القديمة لا يوجد بها سوى آثار

---

(١) من خمسة إلى خمسة وعشرين قدما .

الفخار وكسر الطوب النيئ وأكوام من التراب، حيث يمكن أن نستنتج أن مواد البناء المستخرجة من محاجر السلسلة وبعض المحاجر الأخرى للحجر الرملى فى المناطق المحيطة قد استخدمت جميعها فى المباني العامة. ولا يمكن التوصل إلى جميع المحاجر فى طيبة. غير أن الملخصات التى كتبت عن كم عمليات استغلال المحاجر تدعو إلى الاعتقاد بوجود عدد من الآثار يفوق عدد الآثار التى عثر اليوم على أطلالها.

وليس من السهل تخمين الطريقة التى اختفت بها الآثار المشيدة من الحجر الجيرى طالما نرى فى كل مكان أفران جيرية على أطلالها. كما أن هذه الآثار استغلت منذ عدد من السنين كما لو كانت محاجر، إلا أنه لم يمكن استخدام الحجر الرملى فى البناء، ولم يقيم سكان مصر الحاليون باستغلاله على أى شكل كما لم يقوموا بتخريب المباني المكونة منه. وحينما نفكر - فضلا عن ذلك - فى أن الكتل ذاتها استخدمت على التوالى فى تشييد آثار مختلفة، ندهش من أن كمية مواد البناء المستخرجة من المحاجر تزيد على كمية مواد البناء التى تستخدم اليوم.

وترى هل يمكن أن نعزى هذا الفارق إلى قدم عادة استخدام الحجر الرملى فى البناء ؟ هذا هو أحد الأسباب بلا شك ولكنى أعتقد أن هناك أسبابا أخرى غير معروفة اليوم، من بينها عادة الإغريق والرومان المتمثلة فى جلب الرمال التى كان يستخدمها نحاتوا الأحجار - من الحبشة أو طيبة العليا - وكذا الرمال التى كان النحاتون يستخدمونها فى صقل وتلميع أعمالهم. يقول بلىنى : كانت هناك مراكب تخرج من ميناء الإسكندرية مشحونة تماما بالرمال التى لم تكن سوى فتات الحجر الرملى . يذكر أن معابد الصعيد المشيدة من حجر يسهل تفكيكه ربما تحولت إلى رمال مثل آثار مصر الوسطى التى تحولت إلى جير. و الأمثلة كثيرة بين الآثار المصرية التى هدمت وسويت بالأرض وكانت حجارتها على درجة كبيرة من الهشاشة.

ونشيد ونفتخر بالبريق واللمعان المميز للأسطح فى الآثار المصرية، حتى أنها قورنت أحيانا بالرخام، إلا أنه يوجد هنا مجال - للقليل و القال - فهذه الأنواع من

الحجر الرملى غير قابلة على الإطلاق للوصول إلى درجة اللمعان التام كما أن فحص الآثار لم يثبت عكس ما أقوله هنا. ولكن على الرغم من العناية التي أوليت لهذه الآثار لتوحيد شكل المسطحات إلا أنها احتفظت في كل مكان بشكل محبب وخشن الملمس.

أما النقوش البارزة التي تغطي أجزاء المعابد كافة، فقد كانت محط دهشة و إعجاب كل الرحالة سواء من حيث جودة و إتقان العمل أو عظمتها التي تفوق حقا كل تصور. ومن بين الصمويات الواردة في هذا الحجر تبرز طبيعة المادة التي تعد بمثابة حائل لأعمال النقش الأمر الذي يدعو إلى الأخذ في الاعتبار طبيعتها المحتوية على حبيبات الصوان وخامتها الخشنة. ولكن هذا الافتراض غير سليم، لأننا نشعر - بعد تفكير بسيط - أن التجانس بين كل الأجزاء وعدم شدة الصلابة - الذي من شأنه تسهيل عملية خدشها بحد الآلة بسهولة بدلا من تفتيتها - كل ذلك يقدم - على العكس - تسهيلات عديدة في التنفيذ السريع والمريح للدقائق الحساسة والكتابات الهيروغليفية وأنواع أخرى من رموز النقش ومتى رسمت الأشكال يستطيع الصانع - الأقل مهارة - رفع المادة المغلفة لها سريعا ثم يشذبها ويعطيها البروز الضئيل دون أن يخشى إتلافها. ولكى أقتنع بذلك، قمت بالتجربة، فقد حاولت تقليد بعض الكتابات الهيروغليفية بأن قمت بنقش الحجر مستخدماً قطعة حديد حادة وقد دهشت لسهولة ذلك والسرعة التي تستجيب بها هذه المادة للأداة المستخدمة في أى اتجاه ولأى شكل يريده الفنان.

ولا أخشى أن أؤكد أن الوقت الذي يستغرقه المصريون والنفقات التي يتكفونها لتفطية المباني المصرية بالنقوش كادت تكفى لتفطية الجزء الخامس إذا ما كانت تلك المباني قد شيدت من الرخام على غرار مباني اليونان.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الاعتبارات والتسهيلات في استغلال وقطع الأحجار دفعت المصريين إلى تفضيل هذه المادة على غيرها في الاستخدام ليس

فقط في الأماكن التي تمتد فيها جبال الأحجار الرملية ولكن أيضاً في تشييد الآثار الواقعة على بعد حوالي خمسين فرسخاً<sup>(١)</sup>.

وكل ما سرده للتو يتأكد بفحص النقوش المقارنة مع درجات الصلابة المختلفة للأحجار الرملية المستخدمة في الآثار<sup>(٢)</sup>.

### المبحث الثالث: طرق استغلال الحجر التي استخدمها القدماء المصريون

توجد أكبر المحاجر في الهواء الطلق على شكل انحدارات يصل ارتفاعها من خمسة عشر إلى ستة عشر متراً<sup>(٣)</sup>، وتكون أحياناً مقطوعة عمودياً من حيث الارتفاع، وأحياناً أخرى تكون مقسمة إلى درجات كبيرة. وهذه الجدران غالباً ما تكون متعامدة فيما بينها ومغطاة في جميع الاتجاهات بآثار الأداة التي كان يستخدمها المصريون.

ويمكن الحكم على طريقة استغلال المحاجر<sup>(٤)</sup> سواء عن طريق كتل الأحجار المتناثرة في المناطق المحيطة أو الأعمال التي لم تستكمل تماماً.

---

(١) تقابل آثار مشيدة من الحجر الرملى حتى أبيدوس (العربة المدفونة).

(٢) في دنيرة - وفي أحد المعابد الذي يغطى بأكثر النقوش إقناً فإن صلابة الحجر غير شديدة - وفي كوم أمبو - على المكس - حيث الحجر الرملى يكون صلماً ذا نسيج قوى وحيث يكون من الشاق والصعب اشتغاله فإن النقوش ضئيلة البروز تكون - عامة - أكثر استدارة وأكثر وضوحاً عما هي في الآثار الأخرى إلا أنه لا يمكن تطبيق هذه الملاحظة على المعبد الصغير غربى فيه على الرغم من صلابة الحجر المستخدم في هذا البناء فإن الأشكال تبدو في غاية الإقنات والأنافة المعروف بها طراز الفنون المصرية. ولكن هذا الأثر قد حظى بعناية أكثر عن الآثار الأخرى، وهو ما يمد استثناء واضحاً - بالنسبة للقاعدة التي قدمتها - وله أسبابه وتفسيراته في العناية الخاصة التي حظى بها.

استشعر اعتراضاً على ذلك يمكن أن نلاقى اعتراضاً يتمثل في الآثار المشيدة من الجرانيت والأحجار الصلبة حيث تم تنفيذ النقوش بدقة شديدة وحرية لا يمكن الشموخ بها رغم صلابة الحجر وإثماً كان ما يشوب هذا الاعتراض من المخادعة إلا أنه غير سليم وينقصه الدقة، لأن الطرق التي كلفت تتبع في الصخور الصلبة ليست نفسها هي التي تلجأ إليها في الحجر الرملى إذ لا يتطلب نقش الحجر الرملى السرعة الشديدة وهكذا لا يوجد أى وجه للتقارب بين مختلف الآثار.

(٣) من خمسة وأربعين إلى ثمانية وأربعين قدماً.

(٤) لوحظ وجود هذه الأعمال في أماكن عديدة في جبل السلصلة، وفي شمال أسوان.... إلخ.



وتجدر الإشارة إلى أن آثار استخدام الآلات التي تأخذ شكلاً غير منتظم وضيق جداً وتغطي الأسطح العمودية للحفر الموجودة . تبدو من بعيد . كما لو كانت شبكة

فهي عبارة عن مضلعات متوازية على بعد من أربعة إلى خمسة ملليمترات<sup>(١)</sup> فيما بينها، وتبرز بارتفاع حوالى ملليمترين ويصل طولها إلى حوالى ديسيمتر واحد<sup>(٢)</sup>.

ومما يذكر أن أحجارنا المنحوتة، المربعة الشكل، التي استخدم في تجهيزها أداة حادة تأخذ الى حد ما نفس الشكل ولكنها أقل من حيث درجة الانتظام.

وأحياناً تكون المضلعات أفقية وأحياناً أخرى مائلة بصورة طفيفة ولكن جميعها في اتجاه واحد غير أنها تميل بالتناوب في اتجاه مختلف وتحدث في الاتجاه الأفقى سلسلة من العلامات المنفرجة . ومن الاتجاه العمودى تتوازى هذه الأحجار وتتجه نزولاً في أعمدة طويلة مميزة ومتعرجة إلى حد ما . وتتلامس هذه الشرائط الجانب وتتشابك مضلعاتها من اليمين واليسار مع مضلعات الشرائط المجاورة<sup>(٣)</sup> .

توجد شجوج عميقة باتساع إصبع أو إصبعين بطول يصل أحياناً إلى أكثر من ثلاثة أمتار حول إحدى الكتل في الأجزاء الملتصقة بالصخرة . والجداران الخارجيان لهذا الشق مزينان بهذه الشرائط المتعرجة المتوازية التي وصفناها أعلاه.

وقلما يساورنا الشك . بمد ذلك . في أن هذه الآثار هي تلك الخاصة بإزميل طويل كان يتم تعشيقة عمودياً في الفتحات الضيقة والعميقة . فكل دقة كانت تحدث تعرجاً عميقاً كان طوله يصل إلى عرض الآلة الحادة القاطعة .

---

(١) اثنان أو ثلاثة خطوط.

(٢) من ثلاث إلى أربع بوصات.

(٣) لم نقدم رسومات عن هذا التقسيم في معاجر الحجر الرملى . ولكن يظهر ذلك في رسم كتلة جرانيت مأخوذة من أسوان، حيث تم التعبير عن الرسومات بصورة أكثر انتظاماً (انظر اللوحة رقم ٣٢).

وإذا ما أردنا معرفة لماذا كانت آثار الآلة المستخدمة تكون سلسلة من العلامات في الاتجاه الأفقى، فلنحاول تمثيل الشكل والطريقة التى كان العامل يتبعها فى عمله وهو فى مكانه فوق إحدى الحفر: بدلاً من أن يمسك بالآلة عمودياً، كان يميل بها قليلاً ناحية الجانب، ويوجه إحدى زواياها ناحية الحجر ليبدأ عمله بطريقة أسهل. والآلة المستخدمة التى تضرب بطريقة مسطحة . يكون رد فعلها ضئيلاً . ولكن بعد عدة ضربات متتالية وحتى لا يتم إدخالها بصورة أعمق فإن العامل يرجع إلى الوراء قليلاً ويضرب بجانب المكان الذى دخل فيه لتوه، وحينئذ يميل بالآلة فى اتجاه معاكس لأن الجزء الذى تقل فيه المقاومة هو الجزء الذى تم تخليصه للتو، وينبغى أن تعمل زاوية الإزميل فى الجانب الملاصق للصخرة : ومن خلال هذين الوضعين المتناوبين يحدث أشكالاً مقلوبة "٧" أو "٨" أو علامات منفرجة جداً. ويستمر العمل بهذه الطريقة حتى طرف الشج الموجود ليأخذ فى النهاية الشكل المتعرج الذى تحدثنا عنه.

ولنر إذا ما كانت الأمور ستسير بنفس الشكل إذا ما استخدمنا الآلة أفقياً . يلاحظ أنه بدلاً من انتهاء الإزميل بقاطع حاد عريض، كان ينبغى أن يكون له طرفاً مدبباً يحدث فى كل دقة أخدود طوله من ثلاث إلى أربع بوصات. ولكن كيف كان يستخدم ؟ وأى قوة تلك التى كان يستلزمها، فالمضلمات كانت ستكون . وفقاً لهذا الافتراض . متعرجة وغير متساوية تقريباً فى حين إنها غالباً ما تكون مستقيمة ومتساوية ومتوازية.

وكيف كان يمكن إعطاؤها هذا الميل المتناوب على شكل علامة ؟ هذا ما يستحيل شرحه وتفسيره . أضف إلى ذلك صعوبة تشغيل مثل هذه الآلة فى شق يصل طوله إلى عشرة أقدام بدلاً من قدمين أو ثلاثة إذا ما عملنا بالاتجاه العمودى<sup>(١)</sup> .

---

(١) قد اتساع أيضاً عن كفة صنع هذه الآلة، لأنه من غير المؤكد . بالرغم مما قيل حول هذا الموضوع . أن يكون المصريون قد عرفوا الحديد القديم . وسأوضح فى أماكن أخرى أن هناك أسباباً قوية تدعو إلى التشكك فى عكس ذلك.

وعلى جدران بعض المحاجر، يبدو عدم انتظام الأشكال على مسافات شبه متساوية مشيراً إلى الأماكن التي توقفت فيها أعمال قطع الحجر، كما تتعلق هذه المسافات إلى حد ما بأبعاد الكتل العادية.

وتجدر الإشارة إلى أن تقسيم المحاجر — بالنسبة لتسهيلات استخراج الحجر — لا يقدم شيئاً خاصاً: ونلاحظ فقط أن المصريين قد عنوا بقدر الإمكان باستخراج وتخليص — أحد جوانب الحفر بحيث تمثل كل كتلة ثلاثة أوجه متحررة عبارة عن الواجهة الأفقية العليا وواجهتين عموديتين.

ولقد عرفنا لتونا ما هو الإجراء الذى كان يستخدم فى فصل الواجهتين العموديتين الملتصقتين بالصخرة. ولم تكن هذه الطريقة تطبق على الواجهة الأفقية: فقد كان العمال يستغلونها فى تسهيل تقسيم الحجر فى اتجاه قاع الجبل، وكان يتم فصل الكتلة من القاعدة فقط بمساعدة مدقات. ولم أتمكن على الإطلاق من العثور على آثار إزميل على أى واجهة أفقية ولا أعرف ما إذا كان أحد لاحظ ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أن طبقات الحجارة غير ملتصقة بطريقة شديدة فى انحدارات المحاجر حيث توجد الواجهات منتصبة تماماً، ولكنها واضحة تماماً فى جميع الأجزاء الخالية من العلامات ويمكن أن نحكم على ذلك من خلال العدد الضئيل للرسومات الممثلة لهذه الصخور. وإذا ما كانت بعض الكتل الموجودة فى هذه المباني قد قطعت بطريقة مائلة بالنسبة لاتجاه الطبقات، فإن ذلك يعتبر - كما ذكرت - استثناء للقاعدة العامة وقد حدث هذا - على الأرجح - لأن هذه الحجارة قد تم نحتها للمرة الثانية.

سأضيف ملاحظة لتأكيد ما قيل عن استخدام الأزاميل؛ لقد كان المصريون يستخدمونها كذلك فى تقسيم الكتلة إلى جزئين. توجد أحجار عديدة بها شجوج معدة لاستقبال الأزاميل، وهى متراصة فى خط واحد يعبر الحجر ويبلغ طولها حوالى بوصتين وعرضها بوصة واحدة. ولقد قمت بإحصاء ستة منها أو سبعة فى مساحة متر واحد.

والأمر الذى يدعو للأسف هو أن المصريين الذين غالباً ما قدموا مختلف أعمال الفنون سواء فى النقوش البارزة أو الرسومات التى تزين المقابر المجاورة، لم يفكروا إطلاقاً فى رسم مراحل استغلال المحاجر، ومثل هذه الرسومات كانت ستجنبنا الكثير من التفاصيل التى اضطرنا إلى الدخول فيها.

### المبحث الرابع: عن عمليات استغلال المحاجر تحت الأرض وعن المقابر الموجودة فى المناطق المحيطة بجبل السلسلة

بعيداً عن هذه المحاجر الموجودة فى الهواء الطلق، توجد محاجر أخرى أقل حجماً ومجهزة على شكل كهوف ومزينة سواء من المدخل أو من الداخل بنفس الروعة والجمال التى تحظى بها المقابر. لقد استفاد المصريون من عمليات استغلالهم ليكونوا آثاراً دينية بأقل التكاليف نجد الكثير منها على الضفة اليسرى للنيل(\*).

أحياناً يأخذ مدخل هذه المقابر شكل المعبد ويحمل زخارف مميزة: الأقراص المجنحة، والشمابين ذات الرقاب المنتفخة الموضوعة فوق إفريز الباب. ويوجد أيضاً شرائط طويلة من النقوش الهيروغليفية التى تزين أيضاً الأجزاء الأخرى للواجهة كما هو الحال فى المعابد.

وعلى الرغم من أن الأروقة منحوتة فى كتلة الصخرة وكذا الأعمدة وتيجانها وأسطحها، إلا أن تقسيمات الحجر الطبيعية التى تأخذ شكل القواعد تعطىها هيئة البناء.

ويتكون الجزء الداخلى من المقابر من سلسلة غرف واسعة إلى حد ما وأحياناً مزينة بنقوش بارزة. وأبواب الاتصال بباب المدخل مزينة مثل المدخل بالأقراص المجنحة والشمابين كما أن الأفاريز بها مزينة بنتوءات.

---

(\*) اختلط الأمر على الكاتب هنا، واعتقد أن المقابر الصخرية تمثل محاجر تم استغلالها وزخرفتها (المراجع).

ويمكن الإلمام بفكرة عن الأروقة من خلال اللوحة رقم ٤٧ التى رسمها السيد بلزك، ولكن الفتحات التى نراها فى هذه اللوحة لا تؤدى إلى مقابر، فهى مجهزة فى كتلة صخور منفصلة عن الجبل مفتوحة تماماً.

وبالقرب من هذا المكان ترتفع دعامة مريمة الشكل يعلوها تاج عمود واسع ومضغوط ومنحوت بخشونة ويأخذ شكل عيش الغراب تقريباً. وهذا الشكل الغريب يلفت الأنظار. أراد كثيرون من الرحالة التعرف على أحد الأعمدة التى كانت معلقة بها سالفاً السلسلة الحديدية العابرة للنهر. ولم يكن ذلك سوى دعامة لم تستغل فى هذا الجزء من الجبل لتكون دليلاً على قدم حالته. وعلى هذا تعتبر أثراً مهماً لأنه يوضح بالرغم من ضخامة حجم عمليات الاستغلال التى عثرنا على آثارها أنه من الممكن أن يكون هناك آثار لن نتمكن بعد ذلك من اعتبارها مريثة : ما هو عدد أجزاء الجبل التى أمكن انتزاعها دون أن نأخذ احتياط ترك أدلة مشابهة؟ يذكر أن خلف هذا المكان يوجد طريق عريض من خلال الجبل يمثل دليلاً جديداً على صحة هذا الافتراض.

ومن بين الأروقة التى تحدثنا عنها لتونا، يوجد رواق به خمس فتحات متشابهة من حيث الأبعاد، ولكن الفتحة الموجودة بالوسط مزينة بحروف هيروغليفية. وكانت هذه الأبواب الخمسة تعتبر مدخلاً لفرفة أو ممر مواز للواجهة. ويبلغ طولها - فى هذا الاتجاه - من ستة عشر إلى سبعة عشر متراً وعمقها ثلاثة أمتار. فى الوسط، قبالة الباب المزين بالكتابات الهيروغليفية يوجد باب داخلى يؤدى إلى غرفة كبيرة تم بداخلها نحت سبعة أشكال واقفة . وتوجد أشكال مشابهة فى عديد من المقابر المجاورة ولكن بأعداد مختلفة.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأشكال قد ظهرت خشنة التنفيذ للغاية وقد شوهاها الرهبان القدامى الذين كانوا يسكنون هذه المقابر ، ولكن ذلك يعد شيئاً ملحوظاً فى قطع النحت أو النقش المجسم. ولم نر أي شيء مشابه لذلك فى أماكن أخرى عدا مقابر قديمة تهدمت فى الكاب أسيوط. وسنرجع إلى اللوحات الخاصة بهذين المكانين لتكوين فكرة عامة عن نوع النقش .

ويوجد فى بعض المقابر أشكال جالسة عادة ما يصل عددها إلى اثنين أو ثلاثة ومن الجنسين: تتميز أشكال الرجال بالذقون المكتتزة والطويلة التى تنتهى بشكل مربع وكذا بطريقة تصفيف شعورهم التى تنزل أطرافها لتصل إلى الأكتاف فى حين تنزل أطراف شعر النساء إلى صدورهن وتغطى جزء من الثدي. وفى معظم المجموعات يمسك أحد الأشكال - عادة المرأة - فى يده زهرة اللوتس مفتوحة ويحتضن باليد الأخرى الشخصى الجالس بجانبه. يرجع أن المراد كان تمثيل زوجين. فزهرة اللوتس المفتوحة والشائع وجودها فى المقابر هي رمز المسيرة الأخيرة عند مفارقة الحياة - وتشير إلى أن هذه الأشكال خاصة بأفراد دفنوا فى هذه المقابر .

أشار أحد الرحالة المحدثين - المعروف عنه صحة ما يقوله<sup>(١)</sup> إلى ملاحظة شائعة ولكن لا يمكن تأكيد صحتها وهى أن المحاجر التى ياخذ شكل المقابر لها نفس عدد الأشكال المكونة للمجموعة المنحوتة وهو الأمر الذى من شأنه إزالة أى شك حول موضوع هذه النقوش .

وتوجد أيضا رسومات داخل مقابر عدة على بطانة سميكة إلى حد ما تغطي جذرائها وغالباً ما تمثل قرايين للآلهة : نميز منها الفواكه وأجزاء حيوانات وطيوراً وخبزاً وأواني من مختلف الأشكال. وهذه الرسومات فى حالة جيدة إلى حد ما وقد نفذت - كما هو شائع فى المباني المصرية - بألوان خفيفة وعددها ينحصر فى الأحمر والأصفر لتلوين أعضاء الرجال والنساء والأخضر والأزرق اللذين يشكلان مع الأسود والأبيض أغلب ألوان الرسومات المصرية<sup>(٢)</sup>.

---

(١) السيد دونون.

(٢) ويرى الأشخاص الذين لم يتمكنوا من دراسة الألوان التى استخدمها المصريون إلا على الآثار الصغيرة التى نقلت إلى أوروبا أن هذه الألوان أكثر تنوعاً مما عليه فى الطبيعة لأن جزءاً كبيراً من هذه الآثار عبارة عن مواد صناعية ومصروقة فى النار حيث تمرضت لأضرار كيميائية كما سنرى بالتفصيل فى بحث عن الصناعة المصرية.

## المبحث الخامس: شكل المنطقة

توجد بمد أحد الوديان الزاهية والخصبة طريق ضيقة من سلسلة الجبال ذات الشكل الواحد التى لا يوجد أى شئ يغطى جديها، ونلاحظ هنا وهناك انحدارات منحوتة بالإزميل، ويوجد أسفلها رمال وأكوام من الانقراض وقطع من الصخور أحياناً خام ومكدسة بلا ترتيب، وأحياناً نصف منحوتة ومتناثرة على الأرض. ويجرى بين هذه الجبال نهر عريض وسريع يفيض بغزارة فى بقية مجراه إلا أنه لا يمكن أن يؤثر فى هذه الأماكن الشديدة الجذب. كان هذا هو موقع المحاجر الرئيسية.

ويوجد بالأماكن التى يتسع فيها الوادى بعض الأراضى التى تحظى بمواصفات طبيعية أفضل، وبعض السهول كما فى المناطق المحيطة بإدفو حيث تمتد الرقعة الزراعية إلى مسافات بعيدة. بيد أننا لا نلاحظ وجود أى شئ سوى شريط من الخضرة يعد أحد الشواطئ وعدد قليل من الأكواخ المبنية من الطين ترتفع حولها الجذوع الهزيلة لبعض أشجار النخيل.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الخليط من الزراعة والجذب الذى يمثل مواقع جذابة إلى حد ما يشوبه بعض الكآبة والحزن كما لو كانت صحراء بمعنى الكلمة. وعلى ذلك فإن حداثة المنظر وتناقضه مع بقية مصر والآثار العديدة لأعمال الرجال القديمة فى هذه الأماكن المهجورة تشغل البال وتلقى بالمسافر فى بحر التأملات الجذابة.

وليس ثمة شك فى أنه متى وجدنا أنفسنا فى هذه الأماكن، دون أى معلومات عن آثار مصر، ولا أية فكرة عن عبقرية السكان الذين كانوا يقطنونها، فإن شكل هذه المحاجر التى تجردت المجردة من فائدتها الرئيسية سيولد إحساساً كبيراً من الدهشة وربما إعجاب قاتر بالنسبة لمددها ولمساحة بعضها. ولكن حينما قمنا بزيارة الصعيد خطوة بخطوة وتعرفنا على عدد آثاره ومساحاتها والنقوش الكثيرة التى تغطيها، وحينما توصلنا - عن طريق عقد مقارنات عديدة - إلى معرفة عصور هذه الآثار والتعود رويداً على هذه الأشكال الغريبة أمكن بلا

تحيز. إبداء رأى فى الطابع الخاص لهذه العمارة وتمييز. من خلال غرابة زخرفتها. التوافق ما بين التماسق والزخارف وأغراض المباني وهو ما نعتز ونفتخر به ولا نجد له مثيلاً فى أى مكان آخر، ويمد ذلك دليلاً على أسبقية الفن فى هذه المنطقة. والمرء الشفوف بما تثيره هذه الأعمال القديمة من أهمية، الذى يملكه شعور بالاحترام لهذا الشعب القديم الذى نفذ هذه الأعمال، ويقوم بممارسات بحث سريعة وتساوره الرغبة فى الوصول إلى الأماكن التى استخرجت منها مواد بناء هذه الآثار، فى ليتعلم ويستفيد متأثراً بما يرى أكثر من أى شئ آخر.

ولا يوجد هنا أى شئ يعوق التفكير أو يوقفه فى حيز الاهتمام بظواهر لها أهمية محلية. فالأعمال التى نراها خاصة بالمنطقة كلها وتنتمى إلى جميع العصور. فمن هنا خرجت الآثار الموجودة اليوم وآثار كثيرة سبقتها بقاياها مستخدمة نرى فى المباني المعاصرة. وعلى مر هذه العصور الطويلة التى يتوه فيها الخيال يمكن التفكير بأن هذه الأعمال كان لها نفس الغرض والطابع كما أن طرق تشييدها كانت واحدة. فكلها على هذه الدرجة من الإتقان. منذ العصور القديمة. وتوافق الغرض منها. وفى وسط هذه الأشياء تتوالد الأفكار لتشهد على حقيقتها ويشعر العقل أنه مأخوذ بقدم الحضارة المصرية وثبات هذه المنشآت على حالتها فى هذه المنطقة.

وكلما توقفنا فى هذه النقطة نشعر لماذا يختلف المصريين عن أى شعب ؟ ولماذا كان من الأهمية دراسة أعمالهم هذه وعبقريتهم ؟ ولكن تفاصيل كثيرة تبعدنا عن موضوعنا؛ وكيفنا الإشارة إلى بعض الانطباعات التى يولدها فى نفس الرحالة منظر هذه الأماكن، وإيضاح علاقة الأعمال القديمة التى يراها مع الأعمال المنتشرة فى بقية أجزاء الصعيد.





## الفصل الخامس وصف آثار إدفو بقلم السيد جومار

### المبحث الأول : ملاحظات عامة وتاريخية

يعد أكثر الأجزاء قَدَمًا في الصميد، مكان شبه مجهول في أوروبا، يضم أحد أجمل الأعمال القديمة؛ ألا وهو معبد إدفو الذي يمكن أن نقارنه من حيث التخطيط وجمال التفاصيل والتفصيل وثراء الزخارف بأجمل أعمال فن العمارة.

وإدفو هي قرية كبيرة إلى حد ما في الصميد تقع على الضفة اليسرى للنيل ما بين أسوان وإسنا على بعد خمسين ألف متر<sup>(١)</sup> فوق إسنا، وتفيد الملاحظات الفلكية الجديدة أن هذه القرية تقع على ٤٣° ٥٨' ٢٤ - شمالي خط العرض على خط طول ٤٤° ٣٣' ٤٠ - شرق باريس وتبعد عن النهر بحوالي كيلو متر ونصف<sup>(٢)</sup>. وأغلب سكانها من المسلمين والباقي من المسيحيين الأقباط. ويشتهر عدد كبير من السكان بصناعة الفخار في أشكاله العديدة ولا سيما البلاص<sup>(٣)</sup>

---

(١) عشرة فراسخ.

(٢) ثلث فرسخ.

(٣) نوع من الجرار الشائع استخدامها في مصر.

الذى يصنع من الطين الصلصالى المستخرج من الجبل المجاور ويستخدم هذا الطين لصناعة بعض الأواني وحبيباته ناعمة ومخلوطة بالطين والرماد و يأخذ لونا أحمر جميلا بإدخاله النار. ويذكر أن الصناعة المتوارثة جعلت هؤلاء السكان الفقراء يحتفظون بالمعدات القديمة للبلاد، ولا سيما تلك الخاصة بالأشكال الجميلة للمصور القديمة: فالواقع أن آله الخزاف فى إدفو وانحناءات الأواني المصنعة التى رأيتها هناك تمثل تماما ما اكتشفناه من رسومات مماثلة مصرية.

ونجد فى إدفو كثيراً من العريان من قبيلة المبابدة إحدى القبائل الشهيرة التى تتردد على مصر سواء من حيث المعدات أو من حيث الشكل و المظهر أو بالشعور الطويلة غير المعروفة فى الشرق. لقد رأيت فى هذه القرية مجموعات كبيرة من أفراد هذه القبيلة مسافرين فى النيل على حزم من نبات الأسفل والبوص وجذوع النخل ويضعون ملابسهم وسلاحهم فوق رؤوسهم<sup>(١)</sup> مما يدل على أن الخطر الذى تمثله التماسيح ليس بالصورة الشائعة، ذلك لأن التماسيح تكثر فى إدفو.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الضيعة كانت مشهورة بتجارة الخزف وأنها أول مكان بعد الجنادل . يكثر فيه أسباب العيش. ولن أتوقف لوصفها أكثر من ذلك ولكن ما يلفت النظر هو أن جميع المدن الكبيرة فى مصر القديمة كان لها نفس مصير هذا المكان تبقى لنا منها أثاراً كبيرة، وتفرق سكانها فى المدن الأكثر ازدهاراً. بدءاً من مدينه طيبة حتى منف وهليوبوليس. ولم يبق من المدن الأولى سوى ضيعات صغيرة أو مناطق معزولة .

وتركت المدينة المزدهرة قديماً وتوجد ادفو مكانها اليوم آثاراً ضئيلة تدل عليها، ولكن الرواية لم تحتفظ لنا بأى ذكرى وما يقوله لنا عنها المصريون يتلخص فى كلمات قليلة. ونحن ندين لليونانيين الذين احتلوا مصر بالاسم

---

(١) تدفق المبابدة إلى الصعيد بالقرب من أسوان (انظر دراسة السيد دويوا إيميه لمزيد من التفاصيل عن قبائل المبابدة).

الوحيد الذى احتفظت لنا به العصور القديمة، فقد أسموها مدينة أبولو الكبيرة مما يميزها عن مدينة أبولو الصغيرة الواقعة على بعد عشرين ألف متر ونصف فوق مدينه طيبة<sup>(١)</sup> . ولكن هذه التسمية والتسميات الأخرى الشبيهة لا توضح أبدا الأسماء الحقيقية القديمة للاماكن فى مصر<sup>(٢)</sup> . واليونانيون الذين يرجعون كل شئ إلى علم الأساطير يرون آلهتهم فى كل مكان، وهكذا قاموا بتوزيع آلهتهم على مدن مصر القديمة.

كانت مدينة أبولو الكبيرة تقع . كما يقول استرابون بين إسنا وأسوان جنوب مدينة الصقور . وقد وضعها بلينى فى مصاف أشهر المدن فى الصعيد وذكر مقاطعة أبولويوليت التى أعطتها اسمها . وهى معروفة باسم أبولوتو العليا فى مذكرات انطونيانوس وتقع على بعد اثنين وثلاثين من اسنا ، ومعروفة فى مذكرات هرقل باسم ابولونياس بين إسنا<sup>(٣)</sup> وكوم أمبو . ثم جاءت فى مذكرات الإمبراطورية بنفس الاسم الذى أخذته فى مذكرات انطونيانوس وجاء مكانها بين أسوان وكونتلاتو.

وتجدر الإشارة إلى أن كل هذه المواضع توافق تماما إدفو، والمسافة المحددة فى مذكرات انطونيانوس تتعلق بها بإيضاح شديد . فمسافة الاثني والثلاثين ميل ترجع الي ٤٧, ٤٠٠ متر<sup>(٤)</sup> . وهى بالتحديد المسافة من أدفو إلى إسنا المسماة قديما لاتوبوليس<sup>(٥)</sup> .

ويضع بطليموس . فى وصفه الجغرافى هذه المدينة على خط عرض ٤٠ - ٢٤ وكل هذه الخطوط تم حسابها ابتداء من أسوان فهو يفترض أسوان فوق المدار أى على خط عرض ٥٠ - ٢٣ ، وهو ميل كان يعمى فى عصره إلى فلك البروج،

---

(١) خمسة فراسخ.

(٢) لن أبحث هنا عن الاسم القديم لإدفو، وسأتناول هذه النقطة فى عمل عام عن الجغرافيا المقارنة.

(٣) فى الجدول الذى يمرف باسم «التيوديسى» يجد كلمة تتييترا بين كوما أمبو وإسنا قرأتها ابولينويوليس، والمسافات المعطاة خاطئة إلى حد كبير.

(٤) فى بحث عن النظام المترى القدماء المصريين أقدم تقييمهما واضحا عن «الميل» المذكور فى الدراسات.

(٥) انظر خريطة مصر.

ولكن بما أن أسوان تقع على خط عرض ٢٣ " ٥ - ٢٤ . يتعين أضافه حوالى ١٥ . لخط عرض ادفو الذى أشار إليه بطليموس . ولا تختلف الملاحظة التى قدمها سوى فى ثلاث أو أربع دقائق من الملاحظة الأخيرة . من المعروف أن فارق الدقائق الأربع غير ذى أهمية بالنسبة لبطليموس ولا سيما فيما يتعلق بالمواضع الجغرافية .

وليس ثمة شك فى أن أبولينوبوليس ماجنا كانت موجودة فى نفس المكان الذى توجد فيه قرية إدفو ، وهذا الأمر تكهن به الجغرافيون ولكنهم لم يبرهنوا عليه . ففى عصر هادريان كانت هذه المدينة تخطى بأهمية كبيرة حيث سكّت فيها ميدالية لتكريم الإمبراطور باسم سكان منطقة أبولينوبوليس . وترجع إلى العام الحادى عشر لهادريان ويمثل من جانب رأس الحاكم ومن ناحية أخرى شكل أبولو وهو يحمل قوساً فى يده <sup>(١)</sup> ولكن فى نهاية القرن الرابع فى عصر الذى بدأ فيه أميان مارسلان تأريخه ، فقدت هذه المدينة مكانتها وكانت المدن الرئيسية فى الصعيد هي طيبة هي فقط و أرمنت و الشيخ عبادة <sup>(٢)</sup> .

ولم يعرف هيرودوت مدينة أبولينوبولس أو أغفل الحديث عنها . ومما بدعو للدهشة أن يتم إغفال معبد على مثل قدم وأهمية معبد إدفو . ولكن إذا عرفنا أنه لم يتحدث عن عدد من المعابد الرائعة فى فيلة القديمة دندرة وإسنا وكوم أمبو ؛ فإن هيرودوت لم يعرف . فيما يبدو . من الصعيد سوى مدينة طيبة بالرغم من قوله بأنه ذهب إلى فيلة الحديثة . أما عن وصفه لمصر فهو غير كامل فى ما عدا ما يتعلق بالدلتا . ولم يشر ديودور الصقلي إلى المعبد الموجود فى ادفو . كان يتعين أن يتم تركيز الأسلحة الرومانية على ضفاف النيل حتى يتم معرفة مصر أو على الأقل زيادتها من ناحية إلى أخرى . فطالما قام الشعب المصري بوضع حواجز فى مواجهة الفضول الأجنبي وطالما حافظت العادات المحلية على استقلالها عن الإمبراطورية حتى قبل أن تكون هناك منشآت .

---

(١) انظر تاريخ البطالمة ، بقلم هيلان .

(٢) أميان مارسلان ، الكتاب ٢٢ ، ص ٣٤٠ ، باريس ، ١٦٨١ .

وتجدر الإشارة إلى أن الحالة التي كانت عليها مصر فى عهد الإمبراطورية الرومانية والعرب أتاحت استكشاف كل أنحائها . فمنذ رجوع الاتصالات الكتابية دفعت أوربا بعدد كبير من الرحالة ، إلا أن وجود دين مختلف وعادات أخرى لا تقل تمصبا عن العادات القديمة كانت تقف بمثابة عقبات أمام الاكتشافات حتى تمكن شعب قوى مثل الرومان من إيفاد جيش ذى كفاءة عالية على ضفاف النيل وبعض المراقبين الذين ذهبوا حتى الأجزاء الأكثر سرية والأكثر بعداً فى البلاد . وقد كانت منطقة الصعيد تمثل - فى نظرهم - عجائب تكاد تكون غير معروفة فقد تأكدت افتراضات العلماء والكتاب الشهيرة وثبتت آمالهم وتحققت رغباتهم<sup>(١)</sup> وربما تكون الآثار الموجودة فى ادفو نتاج إحدى الفتوحات الأكثر قيمة من هذه البعثة الهامة .

وتضم قرية إدفو مبنيين قديمين لهما نسب مختلفة تماماً إلا أنهما فى حالة جيدة حتى أنه لنخطف إذا ما أطلقنا عليهما كلمة أطلال ، إذ يكفى إزالة الرديم لتظهر آثاراً تكاد تكون سليمة<sup>(٢)</sup> .

والمعبدان على زاوية مستقيمة تقريباً ، والمسافة بينهما صغيرة : وهما موجودان فى الشمال الغربى للقرية أسفل سلسلة تلال مكونة من أطلال المدينة القديمة ومنطقة بالرمال . وهذه المرتفعات مليئة - كما فى كل مكان آخر - بشقاقات الفخار والطوب المسحوق ، وكل أشكال الأنقاض . لم يتم قياس المساحة التى يشغلها المعبدان ولكنها تبدو كبيرة جداً حينما ننظر إليها وقت الغروب . ويوجد على ضفة النيل آثار توضح الحالة القديمة للمدينة : وهى بقايا رصيف حجرى ودرجات كانت تؤدى إلى النهر .

ويشرف المعبد الكبير من مسافة كبيرة على القرية وبقية أنحاء المنطقة : ولهذا أسماء السكان القلعة . ومن فوق أطلال الكاب على بعد أكثر من فرسخين

---

(١) انظر بوسويه ، موجز حول تاريخ العالم ، رولان ، التاريخ القديم ، ودانفيل ولانوز ، دراسات أكاديمية المخطوطات ، المجلد ٦١ - ١٢ .

(٢) سأطلق على المعبد الموجود فى الشمال المعبد الكبير والآخر المعبد الصغير .

لاحظت هذا المعبد الذى يرتفع فى إدفو. ولكن الأمر اللافت للنظر هو أنه تم بناء وتشيد جزء كبير من القرية على سطح الأثر ذاته : وهذه الملاحظة التى أخذت فى فيلة ودندرة وفى مكانين آخرين واضحة أكثر فى إدفو من أى مكان آخر بسبب الارتفاع العالي للمبنى. ويستحيل - إذا نظرنا من بعد ولأول وهلة أن نتخيل أن المنشآت الحديثة المشيدة على سطح المعبد وبجواره تكون مساكن حقيقية<sup>(١)</sup> ولكن حينما يقترب المسافر إلى حد ما ليقنع بما رأى، وحينما يرى الفلاحون البؤساء الذين يسكنوها فى ذهاب وإياب من كوخ إلى آخر، ويرى الممرات المبنية على السطح<sup>(٢)</sup> ، لا يفعل سوى التفكير فى مثل هذا التناقض و تتملكه الأوهام، وتبدو مثل هذه الأعمال العظيمة فى مخيلته كما لو كانت من صنع قوة خارقة للطبيعة، ولا يعرف أن يقنع نفسه بأن أسلاف هؤلاء الفقراء تمكنوا من رفع هذه الواجهة أكثر من قصر اللوفر الفرنسى بحوالى الثلث، بناء صفات الأعمدة الفاخرة وهذا الرواق وهذا السور ، ولابد وأنهم نقشوا على هذه الزخارف الكثيرة التى تدهش النظر فى كل جهة، ولابد أنه كان بينهم ذهن قادر على تصور وتصميم تخطيط عمارة يمثل هذا الكمال والإتقان<sup>(٣)</sup>، ورجال يمثل هذه القدرة والمثابرة لتنفيذها. بيد أن السكان الأصليين لا يزالون يشغلون نفس الأرض كما أن المناخ لم يتغير ولا يزال النيل يفيض على الأراضى، كما أن الطبيعة الخصبة تزود هذا المكان بخيراتها. ولكن مصر فقدت نوايسها ولم يعد للمصريين وطن.

وتجدر الإشارة إلى أن المشاهد الذى يألف أوجه الجمال الراقى للعمارة المصرية يجد فى إدفو ما يثير فيه الانتباه من جديد. فهنا - أكثر من أى مكان آخر - يُكوّن فكرة عن تتساق وانتظام التخطيطات، لأن هذا الأثر - الذى يعد من أكبر الآثار فى الصعيد - لا يزال أكثرها إتقاناً وصيانة: وأنا لنستغل بسرعة هذه الفرصة لدراسة فن تقسيم الآثار، وهو فن لم يترك - من خلاله - المعمارىون

(١) انظر اللوحة رقم ٤٨.

(٢) انظر اللوحة رقم ٤٩.

(٣) انظر اللوحة رقم ٥٠.

القدماء شيئاً إلا وأكملوه. والآن نجوب باشتياق شديد كل أجزاء المبنى وعن طريق معرفة تفاصيلها المتناسقة فيما بينها، سنكون فكرة عامة ومتكاملة عن تكوينه.

### المبحث الثاني: وصف المعبد الكبير وحالته الراهنة وبنائه

لقد أشرت إلى المعبد الكبير يقع ناحية الشمال الغربى للقريه. ويفطى المدخل مجموعة من منازل الفلاحين وأكوام من التراب ترتفع حتى المستوى الأعلى من حائط السور أى حتى ثلث ارتفاع الواجهة. تخفي هذه الانقاض مجموعة أشكال كبيرة حتى الرؤوس حيث نرى مجموعة تيجان تابعة لها تظهر خارج التراب<sup>(١)</sup>. والباب تغلقه ألواح خشبية كبيرة ليست موضوعة بصورة جيدة. ومن ثم لا يمكن دخول المبنى من هذه الناحية. إذ يتم دخوله من ناحية الشرق عن طريق صمود منحدر سهل مكون من الانقاض ويصل حتى مستوى الجزء الأعلى لحائط النطاق: ويكون النزول عن طريق منحدر مماثل يصل حتى زاوية الرواق.

وتحيط المنشآت الحديثة بالمعبد من الشرق والجنوب، أما أطلال المدينة القديمة فتحيط به من ناحية الغرب والشمال مما يكون إطاراً يميل إلى اللون البنى ليسهل تمييزه فى الضوء. ونرى جميع الآثار المصرية بنفس الطريقة تنفصل عن المباني التى تحيط بها.

والمعبد الكبير ذو محور سليم : حينما نطبق جانب البوصلة على واجهة الرواق، نلاحظ أن العقرب يسجل ١٥ — فى الغرب وهو ما يشكل تقريباً الحد المغناطيسى، ولكن يتعين تجنب استخلاص أية نتيجة. فالآثار المصرية ليست موجهة، فالقاعدة الوحيدة التى نلاحظها — وليس لها استثناء — أنها موجهة عادة ناحية النيل.

يبلغ الطول الكلى للمعبد ـ بما فى ذلك الواجهة ـ مائة وسبعة وثلاثين إلى مائة وثمانية وثلاثين متراً<sup>(٢)</sup>، ويصل عرض الواجهة إلى تسعة وستين متراً<sup>(٣)</sup> أى

(١) انظر اللوحة رقم ٤٩.

(٢) حوالى ٤٢٤ قدماً. انظر اللوحة رقم ٥٠ لمعرفة المقاييس المضبوطة. (٣) حوالى ٢١٢ قدماً.



أن طول المعبد ضعف العرض. ويصل أعلى ارتفاع إلى حوالى خمسة وثلاثين متراً<sup>(١)</sup> كما أن ارتفاع المعبد - المأخوذ فى الرواق الأول - يبلغ أكثر من سبعة عشر متراً<sup>(٢)</sup> يبلغ أكبر عرض للمعبد سبعة وأربعين متراً<sup>(٣)</sup> يصل الارتفاع من قاعدة أكبر الأعمدة إلى أكثر من مترين (ما يقرب من ٢٠ قدماً للمحيط) والارتفاع من أسفل الأسقف المزينة إلى ما يقرب من ثلاثة عشر متراً<sup>(٤)</sup> أما تاج العمود فيصل محيطه إلى أكثر من اثنى عشر متراً أو سبعة وثلاثين قدماً.

ولن أزيد أى شئ على ما قلته بخصوص الأبعاد العامة للمعبد لأن تفقد اللوحات يوضح ذلك بصورة أفضل وأدق . وما سبق يكفى لإعطاء فكرة عن أبعاده غير العادية، سأرجع فى نهاية هذا الوصف إلى الحديث عن المقاييس الرئيسية التى تمثل دلالات ملحوظة للغاية.

وهذا الأثر مشيد من الطوب الرملى ذى الحبيبات الرفيعة و الصلابة الشديدة، إلا أنه يتميز بتقبل عمليات الصقل سواء الشديدة أم البسيطة. وتبدو النقوش ولاسيما تلك الموجودة فى الصالة أكثر رقة ودقة عن أى مكان آخر.

والرديم - إذا ما جاز التعبير - المرتفع داخل المعبد يعتبر ضئيل الحجم فى الفضاء الذى يسبقه، كما أن أرضية صفات الأعمدة ومحيط المعبد غير منقطعة به تماماً. فالأرضية الأصلية واضحة خلف السور، وكذا الأساسات المرتفعة قليلاً التى يركز عليها السور. وهكذا فإن المين - تلاحظ فى الداخل - ارتفاع الباب الكبير للمدخل وكذا جزئى الصرح وحالة الأعمدة ذات الاثني والثلاثين عموداً التى تشكل صورة رائعة. وللاستمتاع بهذا المنظر كما صور فى اللوحات<sup>(٥)</sup>، يكفى اختفاء بعض الأكواخ المشيدة من الطوب والمبنية بين الأعمدة حيث يتكدس السكان مع قطعانهم.

---

(١) ١٠٧ أقدام.

(٢) ٥٣ قدماً.

(٣) ١٤٥ قدماً.

(٤) ٤٠ قدماً.

(٥) انظر اللوحة رقم ٦١.

وتترك الحالة الحالية أثراً في هذه اللوحة بما فيها من تناقض لا يمكن تصويره للإسطبلات المغبرة بالتراب مع الأعمدة المنحوتة بفخامة، وهذا الطوب الأسود غير ذي القيمة مع الأحجار المكونة لخارجيات السطح وكذا تناقض المشاعر التي تحرك النفس مع اللامبالاة التامة التي يعيش فيها الفلاحون خلفاء الكهنة السابقين الظاهرين في المعبد وكأنهم يتزهون تحت أسقف ممراته هائمين في تأملاتهم العلمية.

وسأوضح من خلال ذلك التناقض الصارخ بين الفقر والبؤس من ناحية، والأبهة والفخامة من ناحية أخرى، وهو حديث يدهش المتأمل، لكن الكلام يمجز عن وصف ذلك والتعبير عنه.

دخل أحدنا أحد الأكواخ المبنية تحت الرواق، فرأى أسرة من اللاجئين البرابرة<sup>(١)</sup>، كانت الحرب قد اضطرتهم للنزوح من الجبال. وكان هذا الكوخ عبارة عن حظيرة للحيوانات تزينها الأعمدة والنقوش، ويسكنها مجموعة من الرجال والنساء والأطفال العرايا الذين يمشون فيها جنباً إلى جنب مع الماشية. وقد روى لنا الأب أن عثمان بك وحسن بك ورجالهما قد نهبا الحقل الذي كان يمتلكه، وذلك أثناء هروبهم إلى ما وراء الجنادل. وحين سألنا عن مدى ارتياحه في مأواه الجديد، أجاب وهو يشير إلى كتلة من الجرانيت وسط الكوخ، أنه لا يستطيع نقلها. ثم أردف قائلاً إنه لا يوجد سوى هذا الحجر الذي يضايقه.

وكان بعض الرديم والأطلال التي يصعب معرفة مصدرها تسد داخل كتلتى الصرح والسلالم نفسها، وذلك وبصفة خاصة، من جهة الشرق؛ فكان الدخول إلى المكان من الجهة الأخرى يتم من خلال باب يفضى إلى أسفل الصالة. وقد وجدت في الحجرات والسلالم بعض اللقائف ومجموعة من عظام الموتى وبقايا موميאות : وقد لفتت هذه الظاهرة الأنظار أيضاً في فيلة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) هم نوبيون كانوا يسكنون أعلى أسوان .

(٢) انظر الفصل الأول المبحث الرابع.

ولكى نحكم على مقدار الرديم الذى يغطى هذا المبنى، على المرء أن يصعد فوق أسطح المعبد؛ حيث يرى قرية صغيرة مبنية من الطين، قائمة هناك منذ قرون. ولا شك أنها تجددت أكثر من مرة : فكان كل جيل من السكان يهيل على السطح حطام هذه المساكن الهشة مما كوّن ما يشبه الجبل، حيث لا يجد الفلاحون وسيلة أخرى للتخلص من الحطام. وكانت قاعات معبد إدفو تضيئها نوافذ فى السقف على شكل فتحات : ومن خلال هذه النوافذ كان يتم يومياً إلقاء كل ما يتخلف من الاسطبلات والحظائر من رمد وأسمدة وقاذورات بحيث امتلأت بها القاعات والصرح شيئاً فشيئاً حتى أعلاها تقريباً؛ ومن ثم أصبحت المخارج مسدودة تماماً. وكان سكان السطح يستخدمون بعض هذه القاعات كمخازن سرية ومأوى لهم، ولأسرهم، ولأبنائهم ولماشيتهم، ولكل ما كانوا يريدون حمايته من جشع الحكام وطمعهم وتمديات الأعراب، فكانوا جميعاً يعيشون كالسجناء فى هذا المأوى بلا هواء ولا نور، معرضين أنفسهم لخطر الاختناق من شدة الحرارة والقاذورات. وهكذا حوّل الفلاحون بعض الصالات والقاعات التى يصل ارتفاعها إلى عشرة أمتار<sup>(١)</sup>، إلى حظائر واسطبلات بل والأغرب من ذلك إلى سراديب حقيقة.

ونستطيع أن ندرك مدى الصعوبات التى ينبغى أن يواجهها الأوربي لى يدخل مثل هذا الحصن المغطى بالرديم. لقد كان على أن أكتشف مكان النوافذ التى سبق أن تحدثنا عنها، وهو ما توصلت إليه عن طريق التماثل مع المعابد الأخرى، وكانت فى الجزء الأيمن من السطح، بعد سلم صغير يُرى فى هذا الموضع<sup>(٢)</sup>، غير أن جدراننا من الطوب كانت تحول بينى وبين الدخول؛ فكان لا بد من اقتحام المدخل بين صراخ النساء وعويل الأطفال. وقد دخلت من فتحة إضاءة على السطح تسمح بمرور جسم الإنسان وفى فمى شمعة وبيدى مقياس، فوجدت

---

(١) واحد وثلاثون قدماً .

(٢) انظر اللوحة رقم خمسون ، الشكل الأول . عند النقطتين P . O .

نفسى فى قاعة مليئة بالخفافيش، ارتفاعها لا يزيد على المتر ونصف المتر<sup>(١)</sup>. ومن هذا المكان، ومن فتحة أخرى، تسللت إلى القاعة الثانية فوجدته مطموراً حتى أعلى الأعمدة. وحيث كانت جميع أبواب الاتصال مسدودة، فلم يكن من الممكن زيارة القاعات إلا قاعة تلو قاعة، عن طريق الدخول من فتحات الإضاءة، وكذلك من فتحات فى الأسطح أحدثها الأهالى فى عدة مواضع.

وكانت الصالة الخارجية أو الأولى أقل ردماً بالنسبة للآخرى، وبخاصة جهة الغرب، مع أنه كان يوجد بها من الناحية الأخرى أكوام من الأتربة والأطلال يزيد ارتفاعها على عشرة أمتار. كما كان باب المعبد مسدوداً تماماً، ولم يكن مكشوفاً منه سوى الكورنيش. وكذلك كانت تيجان الأعمدة مكشوفة من جهة الشرق، ولكن كان من العسير المرور تحت الأسقف المزينة. وعلى ذلك فقد كان العديد من هذه الأعمدة الجميلة مغطى تقريباً. وكان لابد لمعرفة ارتفاعها وزخارفها من أن نحفر حول واحد منها كان أقلها ردماً، حفرة عميقة تبلغ من ستة إلى سبعة أمتار<sup>(٢)</sup>. وعلينا أن نتخيل هنا رحالة ينزل فى هذه البئر، وهو معلق فى حبل، ومعه قلم ومسطرة ومثمل، ويقوم برسم وقياس جميع أجزاء محيط يمتد إلى مسافة ستة أمتار ونصف<sup>(٣)</sup>.

وكان أثر هذه الصالة المطمورة على هذا النحو من الصعب وصفه، بقدر ما كانت رؤيته مدهشة للناظر، لأن متعة النظر لهذا المشهد كانت مقرونة بفضول شديد لمعرفة ما كان خافياً عن العين، دون أمل فى إشباع هذا الفضول، وسوف تتوآى إحدى لوحات المصور القديمة - خيراً من الحديث - وصف حالة الصالة والانطباع الذى تثيره فى النفس<sup>(٤)</sup>. ماذا يمكن أن نتصور أبهى وأعظم وأبسط، فى الوقت نفسه، وأغنى وأرق، من هذه التكوين الجميل من الأعتاب والطبليات

---

(١) خمسة أقدام تقريباً .

(٢) من خمسة عشر إلى عشرين قدماً .

(٣) عشرون قدماً .

(٤) انظر اللوحة الخامسة والخمسين .

وتيجان الأعمدة التى أحسن اختيارها فى تناسب رائع، ونحتت بكل دقة، وزينت بزخارف خفيفة متوافقة، تتوازن جميع خطوطها بكل هذا القدر من التناغم ؟ كانت هذه التيجان الهائلة تكتسب قيمة أكبر من أكوام الأتربة التى تخرج منها، كان المشاهد الذى يراها من مستوى الأرض، أى من بعد ثلاثين قدما، لا يمكن أن يدرك تفصيلاتها وتناسبها العظيم، كما يتوافر له ذلك من هنا فوق هذا الردم من الأطلال الذى يرفع النظر إلى مستواها. ومن هنا فقط يمكن أن نستمتع بمنظر رأس النخلة هذا الذى يكون فى الطبيعة رائعا، والذى تمكن الفن المصرى القديم أن ينقله بكل روعة فى العمارة، لكى يجعل منه تاج عمود محلى. ونعرف أن السعف الجميل الذى تشكل قمة النخلة يبلغ ارتفاعه من عشرين إلى خمسة وعشرين قدما<sup>(١)</sup>؛ أما الجزء السفلى، فهو مائل قليلا ومستو ومعتدل تماما، والقمة تتحنى بالثقل، وكان لابد من مثل هذه التيجان الكبيرة فى إدفو لإعطاء فكرة عن جميع هذه التفاصيل ولكن انظروا كيف نسخ الفنان نموذج<sup>(٢)</sup>.

إن انحناء قمة الفصن، نجده هنا فى أعلى التاج؛ وهو الذى يضى عليه هذه الاستدارة الجميلة التى يزيد من جمالها تأثير المنظور، وهو ما كان يعرفه تماما المعماريون فى مصر القديمة. إن سعفة النخلة تكون بطبيعة الحال أعرض فى أعلاها منها فى أسفلها، وهذا أيضا ما ينقله التقليد، وهو ما أعطى الفكرة والطريقة لجمع سائر السعفات على شكل سلة. وأخيرا فإن عدد الأفرع وترتيب البلح وحتى قشور الجذع<sup>(٣)</sup>، كل ذلك خضع للتقليد، ولكنه التقليد الذى يوجهه الذوق والذكاء. إن جمال هذه التيجان مشهور بحيث لا ينبغى أن أتوقف أكثر من ذلك من أجل وصفها.

وقد سبق أن قلت إن البناء الأثرى أصابه بعض التلف فقد تأثرت كثيرا الستائر الحجرية والجزء العلوى من كتلتى الواجهة الخارجية الذى أصابه التلف بصورة ملحوظة، وكان الشيء النادر هو أن النقش نفسه تأثر قليلا ولكن أقل من

---

(١) قمت بقياس إحداها فى قلوب وكان ارتفاعها ثلاثين قدما تقريبا .

(٢) انظر اللوحة رقم ٧٥ الشكل ٥، واللوحة رقم ٨٩ الشكل ٥.

(٣) بقايا الفروع التى تقطع كل عام .

العناصر المعمارية<sup>(١)</sup>. وقد احتفظت هذه الكتل الضخمة وهي التي يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من الثلاثة الثلاثين مترا<sup>(٢)</sup>، بحالتها، بحيث لم يتلف منها أى مدماك من الحجارة. فحينما يكون المرء فى القمة، ويحيط العين على امتداد الأسطح، فإنه لا يلمح سوى سطح مستو تماما، أقول سطح، مع أنه مغطى بالنقوش، لأن هذه النقوش غائرة<sup>(٣)</sup>. وأخيرا فإن هذه الزوايا البارزة المزينة بالشرائط الكبيرة لا تزال تحتفظ بخطوطها مستقيمة تماما. وهذه الملاحظة وحدها تعطى فكرة عن مدى الإتقان والمهارة عند الممارين فى مصر القديمة.

ولو لم تكن الآلة المستعملة على هذه الدرجة من الكمال، ولو لم يكن قطع الأحجار بهذا القدر من الدقة عند المصريين، فكيف سيتسنى لنا، بعد كل تلك القرون، أن نمش على هذه الخطوط الطويلة، وهذه الأسطح الشاسعة، على حالتها التى خرجت بها من إزميل النقاشين، فى حين أننا نجد منشأتنا فى أوربا تنهار بعد عدة قرون. والمباني الإغريقية والرومانية، وهى أقوى من مبانينا، تندر فيها الأحجار والمداميك السليمة التى لم تتأثر بمرور الزمن؟ ومن الخطأ أن نرجع إلى عامل الطقس وحده مثل هذا الفارق الكبير؛ فالإغريق والرومان شيدوا المباني فى مصر القديمة، إلا أن منشأتهم لم يمد لها وجود.

ولقد تناولنا فى موضع آخر، بشئ من التفصيل عملية البناء عند قدماء المصريين<sup>(٤)</sup> وسأقتصر هنا على ما يختص بأثر إدفو.

وكانت الكتلتان الهرتان اللتان تسبقانه جديرتين بالدراسة بشكل خاص بسبب النظام الكامل وروعة التنفيذ التى نلاحظها فى السلمين، هما سلمان

---

(١) فى اللوحة رقم ٤٩ أشار الفنان إلى الكثير من الأجزاء المنهارة ، وهى لوحة أمنية توضع الهيئة العامة والشكل الرائع .

(٢) مائة وعشرة أقدام.

(٣) تم شرح هذا النوع من النقوش المصرية فى المبحث الرابع من الفصل الأول.

(٤) انظر المبحث الثامن من الفصل الأول .

حلزونيان مستطيلان يتكون كل منهما من إحد عشر دوران، ثماني درجات في جهة وخمس درجات في الجهة الأخرى. وهناك أربعة طوابق من الحجرات<sup>(١)</sup>. واثنان وأربعون قرص درج يدخل إليها الضوء من فتحات ضيقة على شكل منشور؛ والحجرات مضادة أيضا بنوافذ بالشكل نفسه، لكنها أكبر، غير أن الضوء الذي يأتي منها كان ضعيفا جدا بسبب سمك الجدران الشديد. ولقد تسللنا إلى هذه السلالم من أحد الأبواب الموجودة في نهاية الأروقة في مستوى الأسطح. ويبلغ ارتفاع كل درجة اثني عشر سنتيمترا تقريبا، أو أربع بوصات ونصف؛ ومن ثم كان من السهل جدا الوصول بسرعة إلى القمة، بالرغم من ارتفاعها الشاهق؛ بل إن الرحالة ليشرع بالارتياح وينوع من المتعة وهو يصعد هذه السلالم، لأنه، وقد تعود على صعود سلالم أخرى أكثر صعوبة، فإنه يبذل في صعودها المجهود المعتاد، ومن ثم ينتج لديه فائض قوة وخفة ظاهرة.

إن المداميك الحجرية التي تشكل هاتين الكتلتين تطنى على جهتي الباب؛ كما نجدتها أيضا داخل السلمين وبالارتفاع نفسه أي خمسة ديسيمترات<sup>(٢)</sup>. وباستثناء بعض أوجه التفاوت الذي شاهدناه، فإن الدقة كانت هي القاعدة في كل شيء،<sup>(٣)</sup> كذلك كانت جميع الزوايا البارزة زاهية، والوصلات مغلقة تماما، مع أنها جميعا موصولة بالملاط. ولعل أكثر ما يسترعى الانتباه هو الميل الذي تتسم به كتلتى الباب؛ هذا الميل جعل بحيث إن المداميك الداخلية، والممتدة حتى الأرض، تصل بالضبط إلى الجزء السفلى للموارض لا في فراغ الفتحة<sup>(٤)</sup>، لقد

---

(١) انظر اللوحة رقم ٥٢. ويفترض (بوكوك) وجود ستة طوابق من الحجرات. ومن المرجح وجود أكثر من أربعة ولكننا لم نشاهدها ربما بسبب الانقراض التي تملأ الأجزاء السفلية، وأنا أشك في أن بوكوك نجح في ذلك أكثر مما نجحنا نحن ولعله أخذ بالتماثل. وينبغي أن نلاحظ أن الطابقين السفليين ربما لم يكونا مضامين لأننا لا نلح في هذا الارتفاع أية فتحة في الجوار، سواء من الداخل أو من الخارج، كما نشاهد ذلك في غيره.

(٢) ثماني عشرة بوصة ونصف.

(٣) لوحظ أن بعض الطبليات غير العمودية على تيجانها وعدم تساوى في أقطار الأعمدة.

(٤) انظر اللوحة رقم ٥٢ وشرح اللوحة. الميل في هذه الكتلة ١ على ١١ تقريبا.

تجنب المصريون القدماء دائما، وبكل عناية فائقة، الميل أو الانحراف الذى يمكن أن يحدث أثناء البناء.

لقد سبق وأن دهش القارئ وهو يستعرض اللوحات، من التجاويف المنشورية الشكل الموجودة إلى يمين ويسار باب الدخول<sup>(١)</sup>، وعمقها رأسى. إن هذا الشكل الغريب فى مظهره، والخاص بالمجارى التى تشاهد على جميع الواجهات الخارجية تقريبا، كان له تفسير جميل حصلنا عليه من المصريين أنفسهم. فقد وجدنا فى أقدم معبد فى طيبة لوحة منقوشة تمثل مدخلا مشابها؛ وأمام كل من هذه التجاويف صورة شجرة كبيرة تشبه شجرة الصنوبر العارية من غصونها، تعلوها حراب طويلة جدا أو بيارق، وعند شرح طيبة سوف نتناول بمزيد من التفاصيل هذا النوع من الصواري الخاصة بالنصر.

ويمكن أن نأخذ فكرة عن مدى العناية التى بُذلت فى وضع وتنفيذ هذه المجارى، إذا علمنا أن الواجهة الرأسية للعمق ممتدة، و تمر بكل دقة بجوار إطار الكورنيش العلوى : وهكذا فإن الصواري التى كانت توضع فيها كانت تتطبق على هذا الكورنيش<sup>(٢)</sup>. ومن اليسير أن نتصور التأثير الجميل الذى تحدثه هذه البيارق الأربعة التى تزين خطوط العمارة الطويلة، والتى يربو ارتفاعها فى إدهو على مائة وخمسين قدما : وسأقتصر على الإشارة إلى وجود نافذتين عموديتين على كل مجرى من المجارى، وهى النوافذ نفسها الخاصة بالحجرات الداخلية الكبرى، وتساعد فى نصب دعم هذه الصواري الكبيرة على الجدران؛ وهو ما يتم فوق مدارين متحركين فوق محور يتصلان من الأمام بواسطة خوابير أو مسامير كبيرة<sup>(٣)</sup>.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٥١ .

(١) للتأكد من ذلك، يجب أن نقيس فى اللوحة رقم ٥١، ارتفاع القمة الخاص بهذه المجارى ثم نأخذ منها عمودا على إحدى الزوايا البارزة المائلة فى اللوحة ٥١، ثم نرسم عمودا عند نقطة التلاقي. سنجد أن هذا العمود يمر على بعد ثلاثة ديسيمترات من الإطار، وهى المسافة اللازمة لعمل الصواري.

(٢) لوحة منقوشة فى معبد الأقصر القديم تعرض جميع هذه التصيلات . انظر دراسات المعصور القديمة المجلد الثالث لوحة ٥٧ .



ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى اتصال المجارى بالنوافذ، وبخاصة أنه قدم حلاً لمشكلة مهمة وعسيرة تختص بالنوافذ. فهذه النوافذ تبدو وكأنها مشقوقة فى النقوش، ولأول وهلة نعتقد أنها لاحقة لبقية البناء. غير أن هذا الرأى لا يقوم على أساس؛ وذلك أن جميع الفتحات التى تضىء السلالم، وحتى الأبواب التى تدخل فى الكتل، توجد جميعاً فى حالة واحدة، وهو ما يتناقض مع الرأى الذى يقول بأن هذه النوافذ وهذه الفتحات وهذه الأبواب، وهى مفيدة ولا غنى عنها فى التخطيط المبدئى للأثر، لم يتم التفكير فيها إلا بعد جهد جهيد، ثم تم تنفيذها فى عصر لاحق، مع المخاطرة بإلحاق الأضرار بزخارف كثيرة التكاليف. فمن ناحية يتعرف المرء على الإزميل نفسه المستعمل فى الأماكن الأخرى: فالزوايا البارزة على الدرجة نفسها من الدقة والنقاء؛ كما أن أسطح الأحجار المقطوعة تحمل لون العمر نفسه؛ وأخيراً فإن حوافى الأشكال. والزخارف واضحة تماماً، بحيث لا يشك المرء فى أن هذه الفتحات ترجع إلى العصر نفسه وأنها نفذت باليد نفسها التى أتمت بقية العمل كله.

ولكن كيف نفسر حالة هذه الصور الجزئية للألثة، وهى حالة تتعارض مع الأفكار التى لدينا عن الفكر الدينى عند المصريين القدماء؟ فى اعتقادى، أنه ليس هناك سوى تصور واحد، وهو أن نتخيل أبواباً خشبية أو معدنية كان يتم فتحها وغلقها عند الحاجة. كانت هذه الأبواب بلا شك مزينة ومنقوشة بحيث تكمل الأجزاء المجاورة للجدار أو السور. ومن نافذة القول أن نضيف أنها اتمدلت بها صورة جيدة مريحة للعين؛ لأننا نعرف المهارة التى بثها العمال المصريون فى كل مكان. ولن يسأل أحد عن الحالة التى وصلت إليها هذه الأبواب فى بلد ينقص فيه الخشب والمعادن؛ وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنها كانت من المعادن. نعرف مقدار الطمع الذى دفع الفلاحين والأعراب إلى الاستيلاء على كل قطعة صغيرة من المعدن الموجود فى الآثار القديمة، ويشهد على ذلك التخريب الذى مارسوه فى انتزاع الألسنة المعدنية التى تربط بين الحجارة. لقد توقفت لوصف هذه النوافذ، لأن الناس بصفة عامة، لا يعرفون الكثير عن الطريقة التى كان القدماء

يضيئون بها معابدهم. ولكن هذه الفتحات الخفية، التي تفتح وتغلق عند الحاجة، لا تخلو من مثيل لها في المصور القديمة، فيبدو أن الأفاريز في المعابد الإغريقية كانت تُشق أحيانا بفتحات تؤدي هذه المهمة. وفي الفصل الأول من مسرحية ( إيفيجيني في طروادة ) نقرأ هذه المبارات على لسان "بيلاذ" مخاطباً "أورست" وهو يشير له إلى معبد "دايان" التي جاء لأخذ تمثالها :  
انظر إلى هذه الأفاريز؛ علينا أن نتسلل خلال الفراغ الموجود بها "

(يوربيديس، إيفيجيني، المشهد الثاني من الفصل الأول)<sup>(١)</sup>.

وإذا انتقلنا إلى فحص الصالتين ، فسوف نجد أن الكتلة السميكة التي تصلهما تحتوى على فراغ أو ممر جُمِل لتخفيف ثقل البناء؛ كما نجد أحجاراً مستعرضة تشكل عصابات تستخدم في الربط بين جانبي الجدار. وهذه الممرات شائعة في الآثار المصرية، ومع أنني لم أكتشف منها شيئاً في الجدران الجانبية في الصالة الكبيرة ، إلا أنني لا أشك في وجودها هناك.

لقد تسلفت إلى الممر الذي نشاهده في الصورة<sup>(٢)</sup> من خلال فتحة ضيقة جداً؛ ومن ثم فمثل هذه الفتحات يمكن أن تكون مسدودة في مواضع أخرى.

وأختم ملاحظاتي هذه حول " بناء " معبد إدفو الكبير، بالإشارة إلى ضخامة حجارة الأسقف؛ فأصغرها حجماً يبلغ طوله ثلاثة أمتار<sup>(٣)</sup>؛ أما أحجار سقف الرواق الثاني عند الجزء الأوسط من جدران بين الأعمدة فتبلغ ما يقرب من

---

(١) لا يوجد أي احتمال أن يكون الشاعر قد سمع عن الفتحات التي تسميها الزخارف الثلاثية ، فهو طراز نادر الاستخدام ، ولذا فربما يشير في عباراته إلى الفراغات التي تتميز بها هذه الزخارف ذاتها، ذلك أن الكلمة المستخدمة في النص يمكن أن تعني -بالإضافة إلى الفتحات والفراغات - فتحة بينية ، ومسافة بين فتحتين ، مثلما أوضحنا ، ويناسب هذا المعنى أكثر مع الأفاريز الدورية ، وهو الطراز الذي يقتد أن الزخارف الثلاثية أو " التريجليف " تمثل امتداداً له .

(٢) انظر اللوحة رقم ٥٠ ، شكل رقم ٢ ، الموضع ee ، وشكل رقم ٤ الموضع gg .

(٣) تسعة أقدام .

الخمسـة أمتار<sup>(١)</sup>؛ وأخيرا فإن أحجار سقف الصالة الكبيرة تبلغ ستة أمتار<sup>(٢)</sup>، وسمكها يبلغ مترين<sup>(٣)</sup> والمجيب أنه ما من حجر من هذه الأحجار الهائلة تحول عن مكانه، كما لا يرى المرء أى صدع أسفل الأسطح ولا تفكك أى جزء متصل. مما يدل على أن الأحجار قد تم اختيارها بعناية فائقة، كما تم التقطيع بكل دقة، ووضعت الأساس كما ينبغي.

### المبحث الثالث: حول وضع المعبد الكبير

لا يمثل وضع المعبد الكبير أية تعقيدات بالرغم من اتساعه وتقسيماته، فالتصميم سهل ميسور، لأن التماثل فيه أو التناسق يبلغ درجة الكمال. كما أن تتابع الأقسام على درجة كبيرة من النظام.

وعلىنا أن نتصور بناء معبد محاط بالممرات ويسبقه قاعتان وبهوان للأعمدة؛ هذا هو المعبد بكل بساطة. وهذه الكتلة محاطة بفناء عام، فى نهايته باب يقع بين كتلتين ضخمتين هرميتى الشكل، بين هذا الباب وباب البهو توجد مساحة فضاء كبيرة جعلت منها الواجهة بإقامة أعمدة حولها. وهذان الجزءان الكبيران اللذان يشمل أحدهما الآخر وهما المعبد والفناء، متشابهان، وهما على شكل حرف T، أى أن بهو الأعمدة أعرض من المعبد، كما أن الواجهة الكبرى أكبر من الفناء. ونسبة الطول بينهما هي ١ إلى ٢.

وينتج عن هذا الوضع الخاص بالفناء وواجهة البهو، أن أصبح الفناء محاطا بالأعمدة من الجهات الأربع؛ ستة أعمدة لواجهة البهو وهى أكبر الأعمدة، وفى الجهة المقابلة عشرة أعمدة، أما الجانبان ففى كل منهما اثنا عشر عمودا، ليكون

---

(١) خمسة عشر قدما .

(٢) ثمانية عشر قدما .

(٣) ستة أقدام .

مجموع الأعمدة ثمانية وثلاثين، إذا ما حسبنا أعمدة الزوايا التي تشترك في صفيين. وهذه الأعمدة تشكل رواقا مغطى عظيم الاتساع ومتصلا باستثناء المدخل<sup>(١)</sup>. فمثل هذه الأماكن الرحبة كان لابد منها في ظروف طقس مرتفع الحرارة. ولقد حقق المصريون القدماء كل ما من شأنه أن يجذب النظر من خلال كثرة الأشكال والنسب، وما أروع ذلك الفن الذي توصل إلى المزج بين التصميمات بكل هذا القدر من النجاح والتوفيق، فحقق الفائدة والفخامة في المعمار.

وما ينبغي ملاحظته في هذا الفناء وهذا الرواق هو أن كل عمود، في اتجاه بهو الأعمدة له قاعدة أكثر ارتفاعا من سابقتها. وهكذا فإن مساحة هذا الفضاء كله وهي التي يبلغ عرضها ثلاثة وأربعين مترا تقريبا<sup>(٢)</sup> تنقسم إلى اثني عشرة درجة بمرص المسافة بين العمودين، أي أربعة أمتار أو اثني عشر قدما. بالإضافة إلى الارتفاع وهو أربع بوصات ونصف، بحيث إن آخر هذه الدرجات يستقبل البهو ويكون بمثابة الساحة الأمامية للمعبد<sup>(٣)</sup>.

وهل هناك في فن العمارة أعظم من هذا الصرح؟ لقد فشل الدارسون في العثور على شيء مماثل، سواء عند الإغريق أو عند الرومان الذين عملوا أكثر من سابقيهم في سبيل الأبهة والعظمة. علينا أن نعود إلى العصور القديمة، إذا أردنا أن نمطى هذا التصميم حقه من التقدير، ونتصور الطقوس الهائلة التي يصفها لنا أبو التاريخ هيرودوت فيقول "هذه هي اللحظة التي ينحرف فيها النيل عن مجراه لكي يفر مصر بالمياه؛ هذا حفل فيضان النيل"<sup>(٤)</sup> وهذا هو أمير البلاد. يحيط به رجال الدين والأعيان وقد ارتدى الجميع أبهى الثياب. يتقدم لكي يقدم للآلهة فروض الشكر والعرفان. ها هو ذا على عتبة الرواق وقد شغل جمهور من

---

(١) يبلغ محيط أعمدة بين الجدران  $\frac{5}{6}$  م .

(٢) مائة واثان وثلاثون قدما.

(٣) انظر اللوحة رقم ٥٣ واللوحة رقم ٥٤ . اختلاف المستوى بين أرض المدخل وعتبة الرواق هو سبب هذه الدرجات المتتامة الموجودة في اللوحات والتي لدينا مثال آخر لها في طيبة .

(٤) انظر هيرودوت ، التاريخ ، الكتاب الثاني ، وهيرودور ، أثوبيات ، الكتاب التاسع ، ... إلخ.

العلماء الدرجات السفلى، يتبعهم المحاربون والشعب يملأ الساحة الأمامية. والآن، علينا أن نتصور هذا الموكب الضخم وهو يتقدم فى بطاء وهوادة وفى نظام دقيق وصمت عميق لا يشقه سوى الحان الأناشيد المقدسة وعزف الآلات الموسيقية المصاحبة". وهذا الحشد الهائل الذى يتوزع فى نظام على اثنى عشر طابقاً، ألا يعرض لنا لوحة تعمل فىنا عمل السحر خاصة حينما يتمكن سائر المشاهدين من احتوائه بنظرة واحدة ؟

وقبل أن نفادر هذا الفناء ندخل المعبد، علينا أن نلقى نظرة أخيرة على الباب الذى يسبق الفناء. هذا الباب كان ذا مصراعين؛ وما زال المرء يرى شقوق المحاور التى كانت تمسكهما. وعلينا أن نتخيل مصراعى باب يصل ارتفاع كل منهما إلى ما لا يقل عن ستة عشرة متراً<sup>(١)</sup> فى عرض يبلغ ثلاثة أمتار ونصفاً<sup>(٢)</sup>. لماذا لم يبق أى أثر لمصراعى هذا الباب الهائل ؟ وهل كانا من الحديد أم من الخشب ؟ هذا ما لا نعرفه. كانت الفجوتان المحفورتان وسط سُمك البناء مخصصين لاستقبالهما لأن طول هاتين الفجوتين مساو تماماً لنصف مسافتهما عند السُمك الضرورى لمحوريهما<sup>(٣)</sup>. وهناك أبواب أخرى لها مصراع واحد. وفى هذه الحالة، لاحظت الشيء نفسه، أى أن طول الفجوتين مساو تماماً لمسافتهما. وتلك هى الدقة المطبقة فى جميع المنشآت المصرية القديمة.

يبلغ طول هذا الباب ثلاثة أضعاف عرضه. ولو قل العرض عن ذلك لأصبح الشكل رديئاً جداً فى تناسبه، وغير محتمل للنظر. ونحن هنا لا نأخذ على المصريين الافتقار إلى تطبيق مواصفات الجمال والأناقة بقدر ما نأخذ عليهم وقوعهم فى النقيصة المضادة، غير أن القواعد العامة لا يمكن تطبيقها فى مثل هذه الأحجام والأبعاد البالغة الضخامة. إذن فليست هذه القواعد هى ما ينبغى الاعتماد عليه، وإنما ما يهم هنا هو المنظور. وكان المصريون القدماء يدركون أن

---

(١) خمسون قدماً تقريباً .

(٢) عشرة أقدام ونصف .

(٣) انظر اللوحة رقم ٥٠ ، شكل ١ ، الموضع H.

العين لا تحكم على الأشياء إلا من خلال علاقات معينة، ويجعلهم هذا الباب، وهو مرتفع أصلاً، يبلغ من الطول ثلاثة أضعاف العرض، فإن هذا الباب سيبدو أكبر حجماً، وبالفعل، فمع أن ارتفاعه بلغ ستة عشر متراً<sup>(١)</sup>، فإن خداع النظر يجعله يبدو أكثر ارتفاعاً<sup>(٢)</sup>. ومما يسهم كثيراً في إحداث هذا التأثير، ذلك الرواق الموجود في المقدمة وهو الذى لا تبلغ قمته سوى ثلاثة أرباع العارضة. وكذلك فإن الكورنيش الذى يعلو الباب يسهم فى ذلك، وبالمثل الفاصل بين الكتلتين العلويتين وهو أكبر كثيراً من عرض الباب. وذلك هو التأثير الذى يحدثه هذا التوالى للأجزاء ونسبها الدقيقة التى تتوازن جميعاً حتى درجة الكمال وتحقق تأثيراً واحداً، ألا وهو ترك انطباع بالمعظمة لهذا المدخل الأول<sup>(٣)</sup>.

وبيلغ ارتفاع الرواق الأول، بدءاً من العتبة وحتى أعلى الكورنيش، حوالى ستة عشرة متراً<sup>(٤)</sup>، وهو الارتفاع نفسه الخاص بالباب الذى تحدثت عنه قبل قليل. أما مدخله فهو أعرض من عرض هذا الباب، كما أن مدخل الرواق الثانى أقل أيضاً. وكذلك فإن سمك الجدران يقل بالتدرج. وبالمثل الأعمدة، وبالتالى ارتفاعات القاعات. وأخيراً فإن الأبواب الثلاثة التى تلى الرواق الثانى يقل ارتفاعها أيضاً شيئاً فشيئاً. بحيث إن الأخير، وهو السادس، يفضى إلى قدس الأقداس الذى يبلغ ارتفاعه من الداخل عشرة أمتار تقريباً<sup>(٥)</sup> ويعرض خمسة أمتار<sup>(٦)</sup>.

---

(١) حوالى خمسين قدماً .

(٢) انظر اللوحة رقم ٦١ .

(٣) أبواب المداخل هذه من بين جميع الآثار المصرية ، هى التى تبلغ هذا الارتفاع النسبى ، ولها كورنيش مرتفع ؛ ففى العادة ، الأبواب يكون ارتفاعها ضعف عرضها .

(٤) حوالى خمسين قدماً .

(٥) واحد وثلاثون قدماً .

(٦) خمسة عشر قدماً ونصف .

ومما يجدر التنويه إليه في قدس الأقداس هذا حقيقتان مهمتان : الأولى هي أن اتجاهه عكس اتجاه سائر الحجرات التي تسبقه؛ أى أن طوله في اتجاه المحور. أما الحقيقة الثانية فهي أنه معزول عن جميع الأجزاء بواسطة العديد من الممرات. أولها شديد الضيق. ويضاف إلى هذه العزلة التامة سمك الجدران الكثيف. وهكذا يكون قدس الأقداس في مأمن من اقتراب الجمهور العادى أى غير رجال الدين؛ من ناحية، بواسطة ستة أبواب متتالية، ومن الجهات الثلاثة الأخرى، بواسطة أربعة جدران، بما في ذلك الفناء الكبير. أما الظلمة المتدرجة في الحجرات التي تسبقه، فهي تكاد تكون كاملة في هذا الملاذ الجامع للأسرار، باستثناء فتحات السقف التي تفتح وتغلق عند الحاجة<sup>(١)</sup>.

ولن أتوقف لوصف الحجرات والممرات والدهاليز الخاصة بالمعبد التي يتألف العديد منها من طابقين؛ فمجرد إلقاء نظرة على اللوحة كافٍ لمعرفتها. فكان السلم الموجود في طرف المعبد، إلى اليمين، يستخدم في الصعود إلى السطح؛ وفيما يخص وضع الرواقين، فإنى أحيل القارئ إلى اللوحات؛ فأعمدة الرواق الأول يبلغ الواحد منها أكثر من مترين<sup>(٢)</sup> عند القاعدة، والأخرى مترا ونصفاً<sup>(٣)</sup>. أما أعمدة الفناء فتقل ديسيمتراً تقريباً<sup>(٤)</sup>. وهو الشيء نفسه بالنسبة للرواقين، بحيث إن المسافة بين الجزء الأوسط من جدران بين الأعمدة أعرض منها بالنسبة للأجزاء الأخرى<sup>(٥)</sup> وهذا الاختلاف يحقق تنوعاً أكثر، وحركة أكثر بين الأعمدة، أكثر مما تحققه مسافات متساوية. وينتج عن ذلك أن الثمانية عشر عموداً الخاصة بالرواق الأول تتوزع على مجموعتين مريميتين أكثر تمايزاً ووضوحاً وأمتع للنظر.

---

(١) أجدنى مضطراً هنا إلى حذف كل التفاصيل حول قدس الأقداس المصرى الذى يعد تصميمه مثيراً للفضول. فهذه التفاصيل من الأفضل جعلها في مواضع أخرى.

(٢) ستة أقدام .

(٣) أربعة أقدام ونصفاً .

(٤) أربع بوصات .

(٥) قطر الأعمدة بين الجدران  $\frac{1}{4}$  م في الصالة الأولى و  $\frac{1}{3}$  م في الثانية.

وأكثر ما يلفت الانتباه فى هذا التصميم، هو مطابقته لما نقله لنا كاتب قديم باعتباره من خواص المعابد المصرية القديمة. وإليك موجزاً للوصف الذى أورده العالم استرابون لهذه المعابد وذلك فى المجلد السابع عشر من مؤلفه فى الجغرافيا:

"بعد الساحة الأمامية dromos، يجد المرء بهواً كبيراً propylon يتبعه اثنان آخران؛ ثم naos يسبقه ( رواق ) كبير فخم pronaos. ثم المحراب (قدس الأقداس) sêcos وهو لا يمتد كثيراً. وعلى كل جانب من جانبي الرواق توجد أجنحة. وفى الأمام يوجد جداران مائلان، بارتفاع المعبد يتجاوز طولهما المبدئى عرض المعبد بقليل، وبعد ذلك يمتدان مسافة تتراوح بين خمسين ستين ذراعاً<sup>(١)</sup>

إذا استثنينا الساحة والبابين المختفين، أو اللذين لم يكن قد تم تنفيذهما بمد<sup>(٢)</sup>، يصبح من السهل التسليم بصحة هذا الوصف العام الخاص بالمعبد الحالى: إن استرابون لم يكن بوسعه أن يرسم بيده تصميم معبد إدفو بشكل آخر. ففى اعتقاده أن المقصود بكلمة ( البهو والمدخل ) propylon هو مجموع الفناء والباب الكبير بكتلتيه الضخمتين. فالواقع أن تعبير البهو الكبير لا يمكن أن يعنى غير الباب الأمامى، المدخل الرئيسى، وذلك حسب المعنى الأصلى للفظ.

وينطبق هذا المعنى على وصف مداخل أثينا الشهيرة التى لم يكن أمام استرابون إلا أن يستعير اسمها، فلم يكن يملك اسماً آخر للتعبير عن معنى المداخل الهرمية الشكل المتبوعة بأروقة طويلة، والخاصة بمصر القديمة. كانت المداخل دون أن نقارنها بهذه، منشآت أمامية: عبارة عن باب وطريق من الأعمدة والمباني، باختصار كانت مدخلا أوليا يفضى إلى القلعة؛ والدعامات الكبيرة التى

---

(١) النص الذى أورده إيزيلاندر وكذلك نصوص غيره من المؤلفين معيبة . أو باختصار فإن المؤلفين على هذه النصوص أجروا الكثير من التصويبات فى هذه الفقرة ويفسرونها بطريقة أخرى.

(٢) فى طيبة نجد طرق أبى الهول التى تتقدم الفناء " دروموس " جزئى الصرح وهو ما لا نجده فى إدفو.



نشاهدها فيها ربما يكون لها مثيل فى هذه القواعد المتتابعة من عمود إلى عمود والتي سبق أن وصفتها فى إدفو. وعلينا أن نعترف هنا برواق استرابون. أما الـ naos (المقدس) فهو المعبد بمعنى الكلمة الذى يلى الفناء<sup>(١)</sup>؛ وأما الـ pronaos فهو الرواق المكون من ثمانية عشر عمودا؛ وأما الـ sêcos فهو قدس الأقداس الواقع فى نهاية المعبد، وهو نسبيا صغير الحجم، كما قال مؤلفنا. وبالنسبة للجناحين فهما الممران الواقعان يمين ويسار المعبد. وكان الإغريق يزينون هذه الأجنحة بالأعمدة. وكذلك كان يفعل المصريون بصفة عامة، ولكن فى نوع آخر من المعابد غير هذا المعبد<sup>(٢)</sup>.

وأخيرا، فمن منا لا يجد فى هذين الجدارين المائتين اللذين ذكرهما استرابون كتلتى المدخل ٩ فى إدفو يبلغ ارتفاع هاتين الكتلتين، من أعلى الباب، مثل ارتفاع المعبد، يمد الرواق الأول: مقاسهما العلوى يزيد عن ثلاثة أمتار تقريبا على عرض قدس الأقداس<sup>(٣)</sup>. وأخيرا فإن المسافة من أعلى الباب حتى أسفله تبلغ أكثر من ثلاثة وعشرين مترا أى ما يوازى خمسين ذراعا<sup>(٤)</sup> كما أشار استرابون.

وهكذا نجد بين أيدينا وصفا لمعبد مصرى، وصفا من عمل القدامى أنفسهم، ومعبد إدفو يقدم لنا هذا الوصف فى أجزائه الرئيسية. وجميع المعابد الكبرى تقدم لنا نتيجة مماثلة، غير أن معبد إدفو يتمتع بدقة المقاييس ودقة التصميم فى مجمله، وبخاصة الأروقة التى اختفت من المعابد الأخرى، أو لم تحفظ بشكل جيد. إن مثل هذا التقارب اللافت يستحق المزيد من التطوير ومن البحوث المتعمقة: ولكن ينبغى أن نخصص مكانا للمح آخر من التشابه، أجده عند مؤلف آخر لا يقل أهمية عن استرابون.

---

(١) انظر الشرح الخاص باللوحة رقم ٥٠ .

(٢) انظر معبد إدفو الصغير ، اللوحة رقم ٦٢ . يمكن أن نجد أمثلة أخرى منها فى اللوحات ٢٠ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٧١ ، ٩٤ .

(٣) ينبغى أن نفهم من كلمات استرابون (قدس أقداس) . مقاس الكتلتين هنا مأخوذ من مستوى الشريط العلوى.

(٤) انظر الدراسة التى تتناول نظم القياس عند القدماء.

ولقد قام ديودور الصقلى بوصف دقيق لمعبد رمسيس الثانى الجنازى فى طيبة: ونحن نعلم أن هذا الأثر ما يزال قائماً حتى الآن. ونستطيع، بالاستمانة بوصف ديودور، أن نجويه دون مرشد. وليس من بين أهدافى أن أبين تطابق هذا المبنى مع الوصف، ولقد قام بذلك غيرى وبكل دقة وعناية. <sup>(١)</sup> لكننى سأكتفى بذكر الأسماء التى استعملها هذا المؤلف القديم وسمى بها أجزاء المبنى، الذى قمت بتفحصه فى إدفو قبل قليل، وأعنى بذلك الفناء والباب الهرمى.

« نجد أولاً صرحاً طوله بليترونتين وارتفاعه خمسة وأربعون ذراعاً، ثم فناء أعمدة يبلغ طوله أربعة بليترونات، وحوله أعمدة عليها تماثيل طولها ستة عشر ذراعاً، ثم صرح آخر يشبه الأول، ثم فناء أعمدة أخرى.

ومن الواضح قبل كل شيء، أن كلمة (صرح) pylôn يقصد بها المدخل الكبير، أى الكتلتان اللتان يضمنان الباب بينهما، ثانياً، أن الـ péristyle (فناء الأعمدة) هو الفناء المحفوف بالأعمدة وهو بالضبط ما تعنيه كلمة peristylon التى تعنى مكاناً محاطاً بالأعمدة من جميع الجهات، كما هى الحال بالنسبة لفناء إدفو، وكذلك الألفية الأخرى المشابهة. وهذا واضح بحيث إن أية مناقشة تعد تزييداً لا قيمة له. وإذا حاولنا تأويل هاتين الكلمتين تأويلاً آخر، لأصبح وصف ديودور، وهو صحيح، غير ذى معنى بكل تأكيد. وهذا ما حدث حينما ترجم المترجمون كلمة بـ Atrium، لجهلهم بالأمكن التى كانوا يتحدثون عنها.

وهذه الكلمة، وهى قليلة الاستعمال عند المؤلفين، اختارها المؤرخ لوصف بناء ريب تماماً عن الإغريق، فلم يجد فى لفته الكلمة المناسبة للدلالة على هذه الأبواب الهائلة، كما نضل نحن الفرنسيين فنشتق كلمة portail (بوابة) من كلمة porte (باب) لنعبر بها عن مدخل الكنيسة الكبير.

وعند أرسطو نجد كلمة بالمعنى نفسه حينما تحدث عن قصور بيرسيبوليس، فهذه الآثار الفارسية كانت، كمثيلتها عند المصريين، يتقدمها أبواب ضخمة <sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر وصف طيبة العالم جولوا.

(٢) انظر رحلات تافرنيه ولو برون ونيبور.

وهذان البلدان هما الوحيدان اللذان نجد فيهما مثل هذه الأبواب، وبلاد فارس هي أيضا الوحيدة التي نجد في آثارها بعض التماثل مع آثار وادي النيل<sup>(١)</sup>.

إذا كان ثمة شك فيما قمت به من تطبيق لكلمة فيكفى أن نتفحص المقاييس التي يقدمها ديودور. فالواقع أن واجهة البناء يبلغ طولها أربعة وستين مترا تقريبا، أى بليثرونتين، أما ارتفاعها فيبلغ خمسة وأربعين ذراعا<sup>(٢)</sup>. وأما فيما يختص بفناء الأعمدة، فشحج نجده على جانبيين، يتألف من أعمدة، وعلى الجانبين الآخرين، يتألف من دعائم تزينها تماثيل يبلغ ارتفاعها ستة عشر ذراعا.

ولقد وجدت أيضاً في النسخة الإغريقية من التوراة، كلمة مستعملة مراراً وبالمعنى نفسه الذي أعطيته لها هنا<sup>(٣)</sup>. وأخيراً، فإن كليمنى السكندري يستخدمها أيضاً. وفي اعتقادي، يصبح من المستحيل، بعد هذه المقارنات، التشكيك في معنى الكلمتين اعتقد أن ميزة استعمال كلمة واحدة استعمالها مؤلفون كبار، لتسمية ما قد لا نمبر عنه إلا بكلمات عديدة، تحدونا إلى تبنى هذا التعبير: ولم يكن من العسير اختيار كلمة pylône ( صرح ) للتعبير عن مجموعة الكتلتين الهرميتي الشكل والباب الواقع بينهما؛ ولن أستعمل في يلي غيرها.

والآن، فبمضاهاة هذه النتيجة مع ما استخلصته من (استرابون) أكون واقفاً على أرض صلبة حينما أطلق كلمة صرح على المدخل الكبير، وكلمة ( فناء أعمدة) على الفناء المحفوف بالأعمدة، وأخيراً كلمة أو ( المداخل ) على مجموع

---

(١) ليس المراد هنا المضاهاة بين أسلوبى العمارة عند هذين الشعبين، لأن تشابهما يمد تقريبا مثل مضاهاة رسم كاريكاتورى مع لوحة، على الأقل كما نحكم من خلال الرسومات التي لدينا عن الآثار القديمة لتشيلمينار.

(٢) انظر الدراسة حول نظم القياس.

(٣) انظر سفر الخروج.

البوابة وصف الأعمدة. وهناك مصدر موثوق به قد استعمل هذه التسمية الأخيرة؛ وأقصد بذلك بعض الكتابات الإغريقية الموجودة على العديد من الأبواب المصرية<sup>(١)</sup>.

### المبحث الرابع: حول زخارف المعبد الكبير

بعد أن بحثنا في موضوع بناء وتصميم المعبد الكبير في إدفو، وأثبتنا التطابق بين هذا التصميم وبين وصف القدامى له، سأحدث عن زخارفه. وإذا كان القارئ قد قرأ بعناية الفصول السابقة، فقد تكونت لديه مسبقاً أفكار عامة عن أسلوب الزخارف المصرية، وهو أسلوب واحد لا يتغير في كل نوع من المباني، ومتنوع فيما يختص بالتفاصيل، لكنه دائماً خاضع للتصميم، وهو ما أثبت فيه المصريون المعرفة والنزق. فماذا يعنى في الواقع فن العمارة الخاضع للزخرفة، كالكثير من الأمثلة التي نشاهدها عند الشموب الحديثة؟ إن الأشكال هنا والخطوط العامة لا يطمسها شيء، مع أن الأسطح جميعها منقوشة بالف طريقة، إن أكثر المباني زخرفة في العالم هي التي لا تلمح فيها الزخرفة إلا قليلاً، وتبدو فيها الأسطح ملساء، مع أنه لا يوجد جزء واحد من أجزائها عارياً<sup>(٢)</sup>.

لنتفحص واجهة رواق إدفو ( اللوحة ٥٢ ) بدءاً من عتبة الباب حتى الأجزاء العلوية للجدران ، مروراً بالأعمدة والتيجان والقواعد والجدران والطليليات والموارض والأفاريز والكرانيش، فكل شيء مغطى بالنقوش<sup>(٣)</sup> ومع ذلك فإن خطوط هذه الأعمدة والأعتاب ، وتقاطيع هذه الكرانيش التيجان ، كل ذلك سليم لم يمس وعند المدى الذي تضطر ضخامة البناء العين أن تحط عليه، فإن المرء لا يلمح سوى الأشكال العامة.

وهذه سمة من سمات العمارة المصرية، وهي في اعتباري إحدى السمات التي تحقق لها تميزها العظيم؛ فالرجال الذين عرفوا كيف يمزجون ويوفقون بين مثل

---

(١) انظر الدراسة حول النقوش التي جمعناها من مصر.

(٢) نستثنى من ذلك نقوش الكرانيش وأسفل اتيجان وقواعد الأعمدة وسائر الأماكن الضيقة التي

يكون تأثير النقش فيها سيئاً .

(٣) الزخارف تغطي أيضاً عمودى المقدمة، لكننا لم نستطع أن ننقل زخارفهما .

هذه الأوضاع الصعبة، هم أنفسهم الذين فكروا أن يكسوا أثراً بأكمله بالألوان؛ وهى فكرة جريئة، تمثل معضلة من الصعب التغلب عليها : فكان ينبغى اختيار هذه الألوان وتوزيعها بكل دقة، بحيث لا تشتت الانتباه، ولا تفسد التناغم بين النسب<sup>(١)</sup>. ذلك ما تمكن هؤلاء الرجال من عمله فى كل مكان بالنسبة للزخارف، ولعل الميزة التى يتمتع بها معبد إدفو هى أنه يُعدّ مثالا كاملا لذلك.

إن مجرد انتباه يسير يكفى لتفسير هذا الربط الرائع بين الزخارف العمارة بمعنى الكلمة. فالنقوش وهى قليلة العمق وقليلة البروز، تظهر لطيفة هادئة على قاعدة ملساء تماما؛ وهى المقام الثانى، فإن التماثل التام الكامل يسود فيما يختص بتوزيع الزخارف. فنحن دائما أمام لوحات ذات ارتفاع واحد، جميعها لها أطر وموضوعة بشكل متواز على واجهات الجدران أو موضوعات تتكرر من مسافة لأخرى على الأفاريز والأعمدة والكرانيش وربما تمثل أخيراً أعمدة هيروغليفيات. تملأ المسافات بين المناظر: فسائر النقوش الخارجية تكاد تكون سطحية بالنسبة لكثرة البناء: إن تتابع هذه النقوش، وتناقصها التدريجى من أسفل إلى أعلى، وثراء تفصيلاتها ودقتها التى تزداد باستمرار، وأخيرا عمل الإزميل الرقيق، كل ذلك كان وراء تناسق هذه النقوش وتناغمها مع العمارة.

إذا رفع المرء بصره إلى كتلتى الصرح ( لوحة رقم ٥١، ٥٢ )، وإلى واجهة الرواق ( لوحة ٥٣ ) وإلى فناء الأعمدة ( لوحة ٥٤ )، فسوف يرى فى جميع هذه الأجزاء نفس النهايات العلوية، أى حلية كبيرة أو شريط يحيط بها وينزل على الجوانب، كما يرى كورنيشاً مجوّفاً فى مجرى، بسيط الشكل لكنه رقيق بديع؛ وفى المنتصف قرص مجنح، مضاف إليه على اليمين واليسار، نوع الأفمى المسمى الكوبرا ، والأجنحة ذات ثلاثة صفوف من الريش، التى تمثل جناحى الصقور. هذه الحلية التى ينبغى أن ننظر إليها باعتبارها إله الحرارة والنور، ذات تأثير بالغ على جميع الأبواب المصرية<sup>(٢)</sup>. وتعد نسبها غاية فى

---

(١) انظر اللوحة رقم ١٨.

(٢) انظر اللوحة رقم ٢٧ شكل ١، ٢، واللوحة ٤٣ شكل ٢٠، الخ.

الجمال، وفي تناغم تام مع بقية الشكل، بحيث لا يصدم المرء إذا شاهدها تتكرر بصفة دائمة. ويرفع من قيمتها أكثر توزيعات الخطوط الهيروغليفية والنقوش والحليات الرقيقة التي تشكل نوعاً من التضاد مع تزايدها الكبير في أغلب الأحيان؛ وكذلك النقوش البسيطة التي تملو الكورنيش وهي عارية باستمرار، مما يريح النظر ويجعل الكورنيش يظهر أفضل على أشكل التخلي للسماء . ومما يلفت النظر أن يكون نقش هذا القرص وجناحيه بارز في حين يتم نقش الخطوط والحليات الخاصة بالكورنيش بطريقة غائرة. وأخيراً فإن الحلية التي تفصله عن العتب تكون دائماً مزينة بشريط ملفوف، ويكون منظرها الجانبي على شكل نصف دائرة ممدودة.

إن الزخارف في إدفو تظهر كاملة، كما أسلفت. ومن الأسهل على المرء أن يأخذ من خلالها، فكرة عن القواعد المصرية؛ فلو لم يكن هذا الأثر موجوداً لما عرفنا هذه القواعد إلا من خلال المضاهاة بالآثار الأخرى. ففي إدفو يمكننا دراسة تيجان الأعمدة، فزخارف هذه التيجان مختلفة، ولكن الاختلاف ليس فيه ما يصدم، لأن الأجزاء الدقيقة واحدة دائماً. فحين يكون المرء في موضع يسمح له باحتواء الرواق بنظره، فإنه لا يرى لها سوى شكل عام يشملها جميعاً : وحينما يقترب أكثر ليميز التفاصيل ، فإنه لا يلمح سوى واحدٍ أو اثنين من هذه التيجان، وتستمتع العين بتنوع الحليات.

وفي المقام الثاني، فإن هذه التيجان التي تختلف في صف واحد من عمود لآخر، تتكرر بشكل متماثل في الواجهة، وكل منها له وجاهته، وهذا ما يمكن ملاحظته في منظور الفناء<sup>(١)</sup>. هذا التماثل المتنوع قد يكون له قيمة أكبر وجاذبية أكثر من مجرد المساواة الكاملة.

ورواق إدفو له هذه المواصفات. فالتيجان متماثلة على يمين ويسار المحور، كما نشاهد ذلك في الأعمدة الستة الخاصة بالواجهة، وكذلك الحال بالنسبة للتيجان الاثني عشر الأخرى<sup>(٢)</sup>.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦١.

(٢) انظر اللوحتين ٥٤، ٥٦.

يتكرر تاج واحد أيضا من مسافة لأخرى. أما التاج ذو سعف النخيل الذى سأسميه "بالشكل الإصبعى" الركتيلى<sup>(١)</sup> فيكون مرة واحدة فى كل جانب من جانبيه الفناء،

وفى كل نصف من الرواق الأول، بمجموع أربع مرات. وهذا هو التاج التاسع فى صفة الأعمدة. أما سابغ تيجان الرواق فهو نفسه القائم فى الزاوية وهو يتكرر ثمانى مرات فى المجموع. وهو من أكثرها تكراراً وبساطة. ويتميز بأن له أربع سعفات تخرج من فتحات واسعة تتطابق مع زوايا العنبلية الأربعة.

أما التاج الرابع فى الرواق، فهو فيتكرر ست مرات. وهو كالسابق، مزين بأربع سعفات. هذه السعفات فوق قاعدة مزينة من الجوانب. أما أكثرها تكراراً فهو الأول فى الرواق، وهو أيضا الأول عند الدخول، نجده مكرراً أربع عشرة مرة فى الفناء، ونجده أيضا فى الرواق الثانى. وهو تاج مزين بأربعة كؤوس لوش كل رأس منها يعتمد على ثلاث حليات. أما الثانى والسادس فى الرواق فلم يتكررا<sup>(٢)</sup>.

ويصدق ما سبق على الثمانية عشر تاجاً فى الرواق الأول. ولكن، كما رأينا، فإن ثلاثة منها توجد فى الفناء، وهى الثلاثة الموجودة فى الواجهة. جميع هذه التيجان غاية فى الإتقان، بالرغم من ضخامة حجمها، وجميع الحليات التى تزينها حضرت بدقة فائقة.

إن الأجزاء الدقيقة العامة فى الاثنين والثلاثين تاجاً فى فناء الأعمدة، والثلاثين تاجاً فى الرواقين هى نفسها لا تتغير، كما أسلفت، أى على شكل جرس مقلوب وهو شكل مأخوذ من كأس زهرة اللوتس أو البشنين. لا يستثنى من ذلك إلا التاج الدكتيلى الشكل أو ذو سعفات النخيل، وكذلك ثانى تيجان فناء الأعمدة.

---

(١) انظر فيما سبق.

(٢) هذا هو النظام الذى تتكرر بموجبه تيجان الرواق، وذلك فى اتجاه باب الصرح ١ : ٢، ٥، ٨، ١١، ١٣، ١٥ متشابهة؛ ١٢، ١٦ متشابهة؛ ٧، ١٠، ١٤ متشابهة أيضا.

هذا التاج الأخير قد رأيناه ولا شك فى فيه، سبب وشكله بيضاوى مقطوع، وهو مختلف تماما عن الأجزاء الدقيقة المادية. وحتى الآن لم نعرف أصله، ولكن من السهل أن ندرك أنه، كغيره، مأخوذ عن الطبيعة: فهو صورة لثمرة اللوتس كما وصفها هيرودوت و أثيناىوس وثيوفراست. ولامجال للشك فى ذلك إذا رأينا أن أثيناىوس يضاهاى ثمرة اللوتس بشمع عسل النحل<sup>(١)</sup>.

ومما يؤكد أيضا، وبما لا يدع مجالا للشك، أن هذا التاج ذو شكل الكأس هو تقليد لوعاء زهرة اللوتس، هو أننا نراء تارة مغطى بوريقات رفيعة وحادة<sup>(٢)</sup>، وتارة بوريقات بيضاوية الشكل وغير متساوية<sup>(٣)</sup>: هذا وإن هاتين الصفتين تتمةيان تماما لثمار اللوتس الأزرق والأبيض<sup>(٤)</sup>. وأخيرا فإن هذا النبات الأخير هو أكثر النباتات التى أظهرها المصريون فى المناظر، كما تؤكد ذلك الآثار التى ما تزال مكسوة بالألوان فى الرسوم الخاصة بالمقابر البرديات<sup>(٥)</sup>.

هناك فقرة وجدتها عند أثينيس يمكن أن تؤكد أفكار القارئ بخصوص التقليد المأخوذ عن اللوتس. ففى خلال وصفه للتالاميجون وهى السفينة التى يقودها بطليموس فيلوياتور، يصل إلى وصف قاعة مصممة على الطريقة المصرية مزينة بالأعمدة، فيقول: "جميع التيجان أشبه بالزهور التى تنفتح، وبدلا من اللفافات والأوراق البارزة على طريقة الإغريق، نشاهد فيها كؤوس اللوتس المائى و ثمار النخيل الصغيرة ، والكثير من الأنواع المختلفة من الزهور؛ وهى القاعدة، حفرت زهور اللوتس وأوراق متداخلة ، الخ"<sup>(٦)</sup> ويمكن التأكد من هذا الوصف المثير من اللوحات التفصيلية.

---

(١) أثيناىوس، الكتاب الأول، المقطع الثانى.

(٢) انظر اللوحة رقم ٢١ شكل رقم ٢.

(٣) انظر اللوحة السابقة شكل رقم ٨، واللوحة رقم ٥٤ .

(٤) انظر دراسة السيد سافينى عن اللوتس الأبيض ( جريدة يوميات مصرية، العدد الأول ص ٧٣،

و " ملاحظات حول اللوتس المصرى " بقلم السيد ديليل ( حوليات متحف التاريخ الطبيعى ).

(٥) انظر بشكل خاص بردية السيد. مارسيل، المجلد الثانى من لوحات المصور القديمة اللوحات

من ٧٢ إلى ٧٥ .

(٦) أثيناىوس. الكتاب الخامس.



إذاً، فليس هناك شك في أصل هذين التاجين. فالأول، وهو على شكل كأس، مأخوذ عن ثمرة اللوتس، والثاني المحفور على شكل الجرس مأخوذ عن الكأس، وهذا الأخير يمكن أن نطلق عليه لوتسى الشكل، فقد أطلق القدماء كلمة لوتس على زهرة النبات، أما الآخر فيمكن أن نطلق عليه ذى الشكل الكراتيرى وفقاً لاسم الإناء الذى أطلقوه على وعاء النبات<sup>(١)</sup>.

وهذا التاج اللوتسى، أيا كانت الزخارف التى تكسوه، شكله ثابت لا يتغير، أى شكل الجرس المقلوب : وهو أكثر الأشكال تكراراً. و خاص بمصر القديمة، ويستحق أن نطلق عليه اسم التاج الوطنى، وكذلك التاج الذى يتخذ من النخلة نموذجاً. فقد استمدت العقيدة عند المصريين من زهرة اللوتس الكثير من الشعارات، كما اتخذت منها العمارة نماذج، والزخارف اتخذت منها أنجح العناصر. كما أن آثار إدفو مثلها مثل غيرها، مكسوة بأوراق هذا النبات المقدس وساقه وأكمامه وأزهاره وكؤوسه وثماره.

وهنا ينبغى أن أذكر زخرفة بسيطة وكبيرة الحجم، نراها خلف المعبد وداخل الفناء<sup>(٢)</sup>؛ تمثل جسمين لأسدين يبدوان خارجين من الجدار؛ وهما جالسان على قوائمهما وبينهما ميزاب ماء. حجم الأسدين كبير ونحتهما غاية فى الجمال. ونعرف مهارة المصريين فى نحت صور الحيوانات. ويظهر الأسدان على مسافة

---

(١) بينما كنت أدرس بعناية عند القدانمى وصفت النباتات التى تسمى بهذه الأسماء، لكى أتوصل إلى النموذج الذى استخدمه الفنانون المصريون، تبين لى أن جميع هذه الأسماء تنتمى إلى نبات واحد فإسم *Ciborium* بدا لى وكأنه يتعلق \_ على وجه الخصوص \_ ببرعم أو ثمرة النبات الذى شكل منه المصريون أوانى، متخيلين أن مياه النيل ستصبح ذات مذاق أفضل فيها. أما اسم *fabā* فيمكن أن يطلق على الحبات التى توجد داخل كأس الزهرة ويطلق اسم *Colacasion* على الجذر، ولعلنا نعرف أن هذا الاسم يطلق اليوم على نبات مختلف تماماً. وأخيراً فإن اسم *Latus* هو اسم خاص بالزهرة \_ وفقاً لما أرى \_ ولا يدهشنا أن عدداً كبيراً من مؤلفى العصر الحديث قد خلطوا بين التسميات المختلفة، وأفترضوا أنها تتعلق بعدد كبير من أنواع النبات، حيث إن القدانمى أنفسهم قد ميزوا النبات بإسم واحد مما بين الأسماء باللوتس الهندى ونعتقد أنه اختفى من مصر، ويعتمد هذا الاعتقاد على دلائل ووقائع. ولكن يبقى لنا أن نقصر كيف تفاضى هيروdot وبقية الكتاب \_ عدا الينايوس (الكتاب ١٠) \_ أحد أنواع اللوتس باللفة القدم فى مصر. وقد ظهر هذا النبات كثيراً على جدران المنشآت الأثرية بلونه الطبيعى. وتظهر لوحة بالسترين الرائعة هذا النبات بصورة واضحة مثلما لاحظها السيد ديليل.

(٢) انظر اللوحة رقم ٥٠ شكل رقم ١ واللوحة رقم ٥٤ .

واحدة من عرض المحراب و قدس الأقداس. أما الارتفاع المائلان عنده ارتفاع الميزاب بين قوائمه، فيوحى بأنهما يستخدمان في سيل الماء من السطح، غير أنني لن أتحدث في هذا المقام إلا فيما يختص بالزخارف.

سبق أن قلت إن معبد إدفو كله مكسو بالنقوش. ومشاهدة الأماكن هي وحدها القادرة على إعطاء فكرة حقيقية عن هذا الكم من الزخارف. أو الفناء الطويل مزين بالنقوش البارزة من أوله لآخره، من الداخل والخارج، ولها تأثير بديع، وحيث إنه أقل ارتفاعاً من المعبد، فإنه يبدو من بعيد وكأنه قاعدة له. وفي الداخل يتحرك المرء بينه وبين المعبد في فضاء فسيح يبلغ محيطه حوالي مائة وخمسة وتسعين متراً<sup>(١)</sup> وتقع عين المرء ناحية اليمين وناحية الشمال على جدار يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشرة متراً<sup>(٢)</sup> تكسوه لوحات رمزية وموضوعات متنوعة مقرونة بكتابات هيروغليفيه كثيرة جداً، جميعها على درجة فائقة من الإتقان والدقة<sup>(٣)</sup>.

وإذا دخلنا الرواق وجدنا الدقة نفسها في جميع النقوش بلا استثناء<sup>(٤)</sup>، وجميع الصور المنقوشة صغيرة الحجم، مما يدل على أن أزميل النقاش كان أدق وأجمل. لنأمل، على سبيل المثال، الأسقف السفلية التي تعتمد على الأعمدة، فسنبجدها مزينة بأرئمين صورة لإيزيس يملو رأسها غطاء رائع يتألف من جسم طائر العقاب وجناحيه<sup>(٥)</sup>. والنقش هنا بارز والحركات مرنة وطبيعية؛ كما أن النسب وأطر الصور، ومنظر الرأس، كلها تفيض سحراً وجمالاً. ومما يضيف مزيداً من الجمال، اللون الرمادي الثابت المتسبب عن الأتربة التي نشرتها الأتقاض والخرائب، بحيث إن النقوش البارزة حينما تضاء لا ترسل سوى انعكاس لطيف على العين، بدلاً من أن تمكس ضوءاً بالغ الشدة، كما يحدث من حجر أبيض اللون.

---

(١) أكثر من ستمائة قدم.

(٢) أرئمون قدما.

(٣) داخل هذا الفناء وحده يحتوى على حوالي خمسين ألف قدم مربع من النقوش.

(٤) لاحظنا على الصرح بعض الصور أقل دقة وبعض الخطوط غير المستقيمة.

(٥) انظر اللوحة رقم ٥٥ ورقم ٥٧ شكل ٦. نعرف أن العقاب يرمز للإلهة إيزيس كما يرمز الصقر لأوزيريس.

وهذا الرواق الحافل بالزخارف وكذلك أعتابه وحتى الأسطح وطبليات التيجان، لا نجد سقفه منقوشا مثل المباني الأخرى. ومن المرجح أنه ربما كان من المفروض أن يكون كذلك، والتكلمة التامة المطبقة على جميع أجزائه الأخرى لا تدل على عكس ذلك؛ وقد سبق أن لاحظنا في فيلة أجزاء لم تبدأ زخرفتها، إلى جوار نقوش تامة بل ومكسوة بالألوان. وهنا أيضا في رواق إدفو توجد بعض الصور في حالة التخطيط المبدئي، وكذلك كورنيش الفناء لم يكتمل تماما. ومما يؤسف له أن هذا السقف لم يتم؛ لأن ثمة ما يدعو إلى أن نتصور أنه كان مخصصا لاستقبال نقوش فلكية كما سنبين فيما بعد.

وسط هذا الرخام من المشاهد، لا يكاد الرحالة أن يركز انتباهه؛ فما أن تقع عينه على موضوع حتى يصرفها عنه موضوع آخر، فهذا ثوب، وهذا غطاء رأس ثمين، أشياء متنوعة، مئات التفاصيل تشغله، فما يكاد يشبع نظره الأولى حتى ينصرف إلى تفحص لوحة أخرى.

الحيرة نفسها تصيب المرء إذا أراد أن ينقل ما يراه أمام عينيه. فكيف يختار وسط هذا الحشد من الأشياء، وكلها جديدة بالنسبة له ؟ وإذا تم الاختيار فآين له بالوقت الكافي لذلك؟ وآين له بالدقة الكافية لكي ينسخ بأمانة مشهدا كاملا بكل ما عليه من كتابات هيروغليفية دقيقة لا حصر لها؟

ولقد قمنا في إدفو بنقل ثلاثة وعشرين موضوعا مستقلاً<sup>(١)</sup>، بصرف النظر عن الأسطح الكاملة للجدران المائلة في واجهات الصرح والرواق<sup>(٢)</sup> وتفصيلاته<sup>(٣)</sup>. وهذه الموضوعات الثلاثة والعشرون، منها عشرة بكل كتاباتها الهيروغليفية، وبخلاف حوالي عشرين نقشا هيروغليفياً<sup>(٤)</sup>. النقش الأساسي فيها مرسوم بالكامل، ويمثل إفريزا كبيرا يشغل كل طول الجزء الداخلي من

---

(١) انظر اللوحات أرقام : ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠ .

(٢) انظر اللوحات أرقام : ٥١، ٥٣، ٦١ .

(٣) انظر اللوحة رقم : ٥٥ واللوحة رقم : ٥٦ .

(٤) انظر اللوحة رقم ٦٠

الرواق، فوق كورنيش باب المدخل<sup>(١)</sup>، ويبلغ طوله أربعة وثلاثين متراً<sup>(٢)</sup>. ولقد تقاسمنا هذه المهمة المسيرة التي يمكن أن تصبح أكثر صعوبة لولا وجود الردم الذي يسد الرواق؛ فقد كان الإفريز على ارتفاع اثني عشر متراً<sup>(٣)</sup> من سطح الأرض يخفيه بروز الكورنيش، فاستخدمنا الردم في الصمود فوق هذا البروز الصغير الذي لا يزيد عرضه على عشرين بوصة فقط، حيث توجب على المرء أن يزحف المسافة كلها وهو في وضع القرفصاء.

ويتألف هذا الإفريز من مائة وخمسين شخصاً أو موضوعاً مختلفاً. ويبدو أن الطابع العام هو الطابع الفلكي، هذا إذا أخذنا في الاعتبار النجوم التي تصاحب هذه الصور، التي تمثل العديد منها أجزاء من أبراج دندرة وإسنا الفلكية. ففي منتصف الإفريز وبالتالي الرواق، يلاحظ المرء سلباً من أربع عشرة درجة، فوق آخرها يضع أحد الأشكال قدمه وهو الأول من بين أربعة عشر شخصاً يتقدمون نحو الدرجات. وجدير بالملاحظة أن الرقم أربعة عشر متكرر دوماً في نقوش المعبد.

وأوجه النظر أيضاً، من بين هذه النقوش البارزة، إلى إفريز آخر يضم قرصاً بداخله أربع عشرة صورة لأشخاص جالسين موزعين على مجموعتين<sup>(٤)</sup>، وقرايين من السلاحف والفلزان والأفاعي<sup>(٥)</sup> وحصان، وهو حيوان يقل تصويره في المعابد، مع أنه يتكرر كثيراً في النقوش البارزة الحربية التي تزين المعابد<sup>(٦)</sup>. وفوق الصرح، في الصف الثاني من صفوف الصور الثلاثة، نرى كاهناً يمسك بمسكتين من سلسلة، ويبدو أنه يقدمهما تكريماً للآلهة؛ كما نجد كاهناً آخر ينثر

---

(١) انظر اللوحة رقم ٥٨ شكل ٢ .

(٢) مائة وأربعة أقدام.

(٣) سبعة وثلاثون قدماً.

(٤) انظر اللوحة رقم ٥٨ شكل ١ .

(٥) انظر اللوحات أرقام : ٥٧، ٥٩، شكل ٦، ٥ .

(٦) انظر اللوحة رقم ٥٧ شكل ٨ .

ذرات البخور فوق لهب يخرج من وعاء<sup>(١)</sup>. وأخيرا وعلى السطح الخارجى للصرح، نشاهد أشخاصا يبلغ ارتفاعهم اثنى عشر مترا، يتأهبون لضرب ثلاثين شخصا آخر أصغر حجما. وقد سبق، فى وصف فيلة، أن عرضنا الأسباب التى تحدونا إلى الاعتقاد بأن هذه القرابين هى رمزية محضة. وبإمكانى أن أورد هنا تفسيراً يعتمد على مظاهر الطقس فى مصر. لكن ذلك سيكون فى موضع آخر.

ويمثل أحد الموضوعات المتكررة فى المعبد عيناً تقدم قربانا وهى مرسومة فى جلاء ووضوح. وقبل أن تنتقل إلى موضوع آخر، نلاحظ هاتين المجموعتين المكونتين من ثلاث سيقان طويلة من اللوتس وموجودتين فى زاويتي الرواق الداخليتين، على يمين ويسار حلق الباب<sup>(٢)</sup>. ونجد الساق الوسطى محاطة بتلافيف أفعى مجنحة تحط على الكأس ويمتد جناحها إلى الكورنيش المجاور، هذان الجناحان هما جناحا الصقر. أما الفراغ القليل الذى يفصل بين زاوية الرواق ومقدمة الجسم، فهو ملئ تماماً بأعمدة اللوتس هذه، والتى ترتفع إلى اثنى عشر مترا<sup>(٣)</sup>، وذلك فى روعة وجمال بحيث إن جناحى الأفعى يشغلان الفراغ الأكبر الناتج عن انحناء النطاق. ولقد برع المصريون فى هذا الفن الذى يتجلى فى توليف الحليات بصورة توازن بين الفراغات والامتلاءات، مع جمل ذلك كله تابعا دائما لأشكال ومواصفات العمارة. كل ذلك فى بساطة ويسر دون أن نلاحظ أى أثر للتكلف أو المشقة. وسوف تثبت الموسوعة عند نشرها صحة هذه الملاحظة.

كما تجلت روعة المصريين فى التوليف بين الأجزاء المختلفة لصور الحيوانات، لتشكّل منها حيوانات خرافية. ولا شك أنهم بذلك يعبرون عن الصفات الخاصة بكل صورة من هذه الصور<sup>(٤)</sup>. فتارة هذا أسد برأس صقر أو كبش ( اللوحة ٦٤)، وتارة صقر برأس أسد أو كبش أو ثور (اللوحة ٥٧). وتارة أخرى أفعى بقدمى

(١) انظر اللوحة رقم ٦١ .

(٢) انظر اللوحة رقم ٥٨ شكل ٣، ٤ .

(٣) سبعة وثلاثون قدما .

(٤) فى بحثى عن الفن المصرى " سأعرض لأهم الأمثلة والملاحظات المستخلصة من دراسة الآثار فى مجال الرسم ونظام الزخارف المصرية.

وذراعى إنسان ( اللوحة رقم ٥٨، إلخ ) وجمران بجناحين ورأس كبش ورأس صقر ( اللوحة رقم ٦٠ )، صقر برأس إنسان، وكبش برأس أسد، وأخيرا صور أناس بعشرين رأس مختلفة لطيور وابن آوى وأسد وأبو منحل وثور وكتب وتمساح وأرنب برى وثمان وقرد، وتشكيلة كبيرة أخرى. هذه التشكيلة عملت بمهارة وفن بحيث لا يلاحظ المرء اختلاف الأجزاء، وبحيث أن الشكل المركب الذى من المفروض أن يبدو ممسوخا ومتناهرا، يبدو فى صورة مقبولة تمثل كائنا معقولا له أصل فى الطبيعة. ولقد صور بعض الأقوام الذين قللوا المصريين مثل هذه المجموعات التى يطلق عليها عادة إسم "الحيوانات الخرافية" ولكن ما أعظم الفارق فى الفكر وفى التنفيذ مما !

ولن أنتهى من حديثى لو أننى أردت أن أقوم بوصف الكرانيش والأفاريز وسائر زخارف المبنى، ويستطيع القارئ أن يلقى نظرة على النقوش لياخذ فكرة عنها؛ أما أنا فسلكتفى بذكر مثال واحد أخذته من أعمدة الرواق. هذه الأعمدة مزينة بحلقات؛ تبدأ بسيطة فى القاعدة ثم تزداد ثراءً مع الصعود. وقد قمنا بنقل الحلقة العليا<sup>(١)</sup>.

ليس هناك أغنى ولا أبسط فى الوقت نفسه من هذا الإفريز ! يمكن أن نلاحظ الوضع البديع لهذه الصور للنساء التى تتعاقب مع صور لصقور، ثم تاتى الكتابات الهيروغليفية لتضيف ثراءً إلى ثراء الزخرفة بشكلها الخالى من أى تشويش، وبطريقة توزيعها .

وفى داخل الفناء، وبجانب الزاوية الشمالية الغربية لاحظت لوحة لطيفة حال حجمها الضخم وزن نقلها. تمثل شخصا برأس أبى منحل يضع إصبعه فوق أحد الأعمدة الهيروغليفية، وهو العمود الثالث والأربعين من بين سلسلة من الأعمدة المتشابهة. ويبدو الشخص فى وضع الكتابة؛ لأنه لا يوجد فى هذا العمود الأخير أية حروف كتابة أسفل يده. هذه الصورة موضوعة يسار اللوحة مما يدل على

---

(١) انظر اللوحة رقم ٥٧ شكل ١ .

أن اللغة الهيروغليفية تكتب من اليمين إلى اليسار ومن أعلى إلى أسفل. وكانت حروف هذه الأعمدة الثلاثة والأربعين سليمة وتستحق أن تنسخ جميعها.

وجميع الصور الإنسانية التي تحدثت عنها مرسومة في أوضاع غاية في البساطة؛ فالحركة مستبعدة في هذه الصور الدينية. فسواء كانت الصورة تمثل قربانا أو ملقسا أو كاهنا يقدم الشكر للآلهة، أو إلهة جالسة تتلقى هذا الشكر، فإنها لا تتضمن أى فعل أو إيماءات أو أوضاعاً متحركة. ذلك إن المصريين لم يصوروا على الإطلاق ملامح انفعالية أو عاطفية في رسومهم الخاصة بالمعابد، فالرؤوس جميعا تعبر عن السكينة، وعلى المرء أن يذهب إلى طيبة ويرى الصور الحربية لي شاهد مزيدا من الحرارة والتعبير.

وهذا الاختيار للأوضاع، وهو ثابت في عصور الدين الأولى، لم يكن ليقبل نظام المنظور، ربما ليكون التقليد أوضح وأجلى. وأنا لا أريد أن أبرر هذا العيب؛ ولكن، إذا كان المنظور يتميز بأنه يوحى بإيهام أكبر حينما يعرض في وقت واحد جميع أجزاء المشهد بالملح الذي يظهر به في لحظة بعينها، فإنه يتسبب في إخفاء العديد من الملامح. ومن ناحية أخرى، فإننا على الأقل لا نختلف في أن الاختصارات تكون شديدة الصعوبة، إن لم يكن من المستحيل التعبير عنها في النقش.

لا يتورع المصريون وهم يرسمون المناظر الدينية في تصوير الاختصارات فيما يتصل بالأكثاف والأذرع. فقد كانوا دائما يفترضون الأطراف متوازية على مسطح النقش البارز، كما نشاهد ذلك في كثير من أعمال النقش البارز الإغريقية؛ لكنهم كانوا يصرون على إعطائها النسب الصحيحة، وأشكالها، وخطوطها الحقيقية<sup>(١)</sup>. وحينما كانوا يريدون تصوير رجل قائم. وهو يرفع ذراعيه، كانوا يظهرهم الكتفين من الأمام. والرأس في وضع جانبي أى من الجنب، وأخيرا الجسم في وضع جانبي أو ثلاثة أرباع. على أية حال، فإن هذا الوضع له نموذج المأخوذ عنه، فهو الوضع المأخوذ عنه. وهكذا، ومع أن وضع هذه الصور البشرية كان يتسم في البداية بشيء من التوتر والغربة غير

(١) ارجع إلى اللوحات: ١٦ شكل ٢؛ و٤٤ شكل ٨؛ و٥٧ شكل ١؛ و٨٠ شكل ٦؛ و٨٢ شكل ١، إلخ.

لم يكن من المستحيل الاحتفاظ في جميع اللوحات بالسمة نفسها في الصور المصرية.

المعتادة، فملينا أن نمتدح أنه يتضمن قاعدة ثابتة لا تتغير تعلمها الفنانون منذ القدم، فعادة لا يستطيعون التحول عنها فيما يختص بالدين، لأنهما ولدا معاً، وأن هذه القاعدة لا يمكن أن تمس. أما فيما يختص بالنقش بمعنى الكلمة أو النقوش المجسمة (طيبة تقدم العديد من البراهين)، فإن المصريين أنفسهم قد أثبتوا براعة كبيرة. إن قطع النحت عندهم هي التي ينبغي أن تفسر وتبرر نقوشهم البارزة<sup>(١)</sup>؛ وهذا إيضاح لا بد من عمله، ولكنه حتى الآن لم يحدث.

أما بالنسبة للوجوه في هذه المناظر، فهي جميعاً تتسم بالدقة والجمال. وصور إيزيس في رواق إدفو<sup>(٢)</sup> يمكن أن تعطى فكرة عن ذلك. ويكفي أن نتأمل قليلاً ملامح الرأس سواء في صور الرجال أو صور النساء، حتى ندرك مدى الفارق بينها، وبخاصة في ملامح الأنف والفم، وبين البروفيل الزنجي الذي نُسب خطأ إلى المصريين القدماء<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان هناك بقية من شك بعد مشاهدة الصور العديدة التي قمنا بنسخها عن الآثار، يمكننا أن نذكر رعوس المومياوات التي شوهدت وجمعت من أقدم الجبانات في مدينة طيبة، وهي التي يوافق شكلها تماماً التماثيل القديمة. ونضيف أن هذه الملامح توجد أيضاً عند العرب، بل وعند الطبيعيين الذين يمشون على الفطرة في أعماق صعيد مصر، حيث الدماء الأوروبية أقل امتزاجاً بالدماء الوطنية.

---

(١) انظر " بحث حول الفن المصري " الذي سبق ذكره. إن تجاوز المنظور في النقش البارز الأثرية المباعة في مجال أوروبا، اتهمت المصريين خطأ بالهمجية في تنفيذ الصورة؛ ولكن هذا الرأي لأساس له من الصحة. إن مثله كمثل حكمنا على فنوننا من خلال أعمال أبعد المهنيين عن إتقان الصنعة. لأن آثار الكاب الظاهرة في اللوحة ٦٩ لا تعلى إلا فكرة ضمنية لما أنجزه المصريون في مجال النقش المجسم، سواء من الجرانيت أو من الألبستر أو من الرخام، أو من الحجر السماقي. وفي المكتبة الملكية تمثال نصفي عثر عليه في أنقاض سيبينيتوس القديمة يدل على اختيار المصريين للأشكال وعلى صنعتهم. كذلك فقد أحضرنا من أبيدوس بقية لوحة ثمينة جداً تتميز بأن أشكالها نقية كما أن المضلات الخارجية نفذت بإتقان بالغ. وانظر أيضاً ما قاله ماكروب عن خبرة المصريين في العلوم التشريحية الكتاب السابع المقطع ١٣ ويذكر أن ملكاً مصرياً ألف كتاباً في التشريح.

(٢) انظر اللوحة ٥٧، شكل ٦.

(٣) أرجع إلى اللوحات : ١٦ شكل ٢، ٨٠ شكل ٦، ٨٢ شكل ١، ومن بين نقوش الكرنك اللوحة ٦٧، المجلد الثالث من لوحات المعصور القديمة.



## المبحث الخامس: أبحاث حول الغرض من المعبد الكبير وعصر إنشائه، استنادا إلى فحص اللوحات الرمزية

لقد قمنا بالتفصيل بشرح أجزاء المعبد الكبير بإدفو، ولم نذكر شيئا عن الغرض منه. ماهى العبادة التى كانت تمارس فيه؟ وإلى أى آلهة المصريين كانت توجه هذه العبادة؟ وفيما كانت تستخدم جميع هذه الممرات السرية؟ لقد وجه القارئ لنفسه كل هذه الأسئلة. ولكن من أين لنا أن نجيب عليها ونشبع فضول القارئ، إذا كان لابد لنا، لكى نحكم على ديانة مصر القديمة وتكوّن عنها رأيا صحيحا، أن نتحدث عن مجموع القوانين والفلسفات والعادات الخاصة بالبلاد؟ ذلك أن هناك رابطا مشتركا بين هذه الأشياء جميعا، وأن الفكر نفسه والفنون نفسها والمبادئ نفسها (مع أن ذلك حدث فى عصور متباعدة) هى التى أقامت مثل هذه الآثار، بحيث إننى أعتقد أننا لا نستطيع أن نشرح العبادة الخاصة بأحد المعابد دون التمرض بالشرح للعبادة الخاصة بجميع المعابد. من العبث الذى ما بعده عبث، بالرغم مما يقال فى هذا الصدد، أن نرى فى هذا الدين مجرد عبادة خرقاء موجهة للحيوانات، وأن نتصور أن التمساح كان يعبد فى هذا المكان، وأن ابن آوى كان يعبد فى ذلك المكان، وأن القرد كان يختص بالعبادة فى مكان ثالث، وهكذا بقية أقاليم مصر. من يصدق أن المعبد العظيم الذى قمت بوصفه قد شيد تعظيما وتكريما لحيوان أعجم، ليس لغرض آخر سوى حرق البخور وإطلاقه على الدوام أمام مثل هذا الحيوان، وجعل إقليم بأسره يختر ساجدا أمامه؟ أمن المعقول أن يصل الجهل والسفاهة والخرافة إلى هذا الحد بهؤلاء القوم الذين سمو بالحضارة إلى مثل هذه الدرجة العالية، وامتلكوا ناصية العلوم المستفيضة فى النظام الكونى، ومارسوا سائر العلوم الطبيعية<sup>(١)</sup>؟

دون أن أحاول هنا أن أرفع النقاب عن هذه الأسرار القديمة، ولكى أعود إلى موضوعى، سأقتصر على القول بأن معبد إدفو، مثله كمثل جميع معابد مصر، ويبدو لى أنه "بانثيون" حقيقى أو مجمع آلهة لشعب بأسره، كان يتم فيه تكريم وتقديس جميع آلهة البلاد، أى سائر الصفات التى يتميز بها اللاهوتان الكبيران:

---

(١) انظر الكتاب الأول لديودور الصقلى الخاص وموجز تاريخ العالم لبوسويه

أوزيريس، شعار النار والهواء والماء، صورة كوكب النهار والنيل باعث الحياة؛ وإيزيس رمز الأرض الخصبة، وصورة كوكب الليل، شقيقة أبولو عند الإغريق، وزوجة وشقيقة أوزوريس عند المصريين.

لن أخوض هنا في دراسة الفقرة التي كتبها سترابون<sup>(١)</sup> حول ديانة سكان إدفو القديمة، لأننا نفتقر إلى المعلومات الكافية حول الطقوس الدينية القديمة في مصر، وحول الهدف منها ومفزاها الخفى. إذا كان سكان هذه المنطقة، شأنهم في ذلك شأن سكان دندرة يشنون الحرب ضد التماسيح، وإذا صدقنا ما ذكره إليان من أنهم كانوا يملقونها فوق الأشجار، ثم يمزقونها ويأكلونها<sup>(٢)</sup>، فهل ينبغى أن نخلص من ذلك إلى أن مسلكتهم هذا كان بسبب كراهية دينية، وبالتالي تعصب بينهم وبين سكان كوم أمبو حيث كان هذا الحيوان يلقي الحماية؟ وهذا البغض المزعوم للتمساح لا يمكن أن يتقبله تفكير عاقل؛ أو إذا صدقنا، فعلينا أن ننسبه إلى عصور حديثة، كالعصور التي كتب فيها سترابون وإليان وجوفينال. نضيف إلى ذلك، أن كثرة التماسيح في مصر العليا دفع الناس في الماضي إلى البحث عن طرق لمطاردها؛ ولعله كان هناك رجال مديون على هذا النوع من الصيد ومكلفون بالقضاء عليها. لقد ذكر كل من هيرودوت وبليني الطلق المختلفة التي كان المصريون القدماء يتقبلون بها على هذه المشكلة<sup>(٣)</sup>، واليوم أيضا فإن لدى السكان وسائل مشابهة للوسائل التي وصفها القدامى.

إن اسم أبولينوبوليس الذى أطلقه الإغريق على مدينة إدفو القديمة يحملنا على الاعتقاد بأن هذا المعبد كان مكرسا بصفة أساسية لحورس<sup>(٤)</sup> الذى جمل منه الإغريق أبولو الخاص بهم، كما يشهد بذلك هيرودوت وديودور وبلوتارخ. كما أن أبولو يسمى حورس في اللفة المصرية، وكان الإغريق يترجمون حورس

---

(١) سترابون، الكتاب ١٧، ص ٨١٧.

(٢) في كتابه بعنوان "حول إيزيس وأوزوريس" يذكر بلوتارخ أن كل واحد من سكان مدينة أبولو كان مضطرا لأن يأكل من لحم التمساح يوما من أيام السنة. وأضاف أنهم كانوا يقتلون أكبر عدد ممكن من هذه الحيوانات ويلقون بها أمام المعابد.

(٣) هيرودوت، الكتاب الثانى، المقطع ٧٠، وبليني الكتاب الثامن، المقطع ٢٥.

(٤) عثرت عند أوزاب على هذا الزعم المؤكد : يقول إن حورس هو الإله المعبود في أبوفو الكتاب

الثالث، المقطع ١١، ص ١٧، باريس ١٦٢٨).

بأبوللو. وكان أبولو هذا قد قتل الثعبان بيتون. وكان حورس هو الذى تغلب على تيفون. فحينما تبلغ الشمس قمة ذروتها، تنشر أكبر كمية من الحرارة ومن النور، وتظهر قوتها بإخراج النهر من مجراه<sup>(١)</sup>؛ حينئذ تدمر سائر مظاهر الشر، كما يتم القضاء على تيفون رمز الوياء والجفاف؛ وتبعث مصر من جديد، وتمتلئ الحقول بالمياه الصالحة والمخصبة، وكل هذه الأعمال الصالحة من صنع حورس أو الشمس فى الانقلاب الشمسى الصيفى<sup>(٢)</sup>.

إن الدراسة الدقيقة لنقوش معبد إدفو تكشف عن الكثير من الرموز التى تنتمى إلى هذه الأسطورة الطبيعية؛ ولكن مثل هذه الدراسة ستقودنا بعيدا جدا، وهى تحتاج إلى كتاب يكون أعم وأشمل. أما أنا فساكتفى هنا بدراسة الصور الأساسية فى الإفريز الكبير الذى سبق ذكره<sup>(٣)</sup>. وقد ذكرت أن الموضوع المهيمن فى هذا الإفريز هو سلم من أربع عشرة درجة؛ وينبغى أن نلاحظ فى نهايته عمود لوتس يمثل ارتفاعه، فى أعلاه "هلال" والجميع متوج "بعين"؛ وفى الخلف شكل صفير برأس أبى منحل. وأنا أرى هنا جميع رموز الاحتفال بالانقلاب الشمسى الصيفى أو بأول أيام السنة؛ فاللوتس يشير إلى زيادة النيل؛ والشمس أو أوزوريس (العين شعارها طبقا لبلوتارخ) وهى فى قمة ذروتها؛ ثم أبو منجل وهو رمز الفيضان<sup>(٤)</sup>؛ وأخيرا الهلال وحافته إلى أعلى، مشيرا إلى القمر الجديد طبقا لهورابولون<sup>(٥)</sup>.

---

(١) تنقل الحرارة القصوى فى مصر وأثيوبيا خلال شهور الربيع الأخيرة كثافة الجو بدرجة عالية مما يجذب الهواء الأكثر كثافة فى المناطق الشمالية، وكذلك المسحب التى تغطى فى هذه الفترة شمال أوروبا والمناطق القطبية؛ ومن ثم، ومع الانقلاب الشمسى الصيفى تقريبا، يكون تغير الحرارة فى مصر وأمطار أثيوبيا التى تؤدى إلى زيادة مياه النيل.

(٢) يذكر ماكروب أن الإغريق كانوا يطلقون على الشمس اسم أبولو حينما تكون فى نصف الكرة الشمالى. أما فيما يخص باسم حورس فانا أزعم أنه مشتق من اسم مصرى قديم على نسق كلمة "حار" فى اللغة العربية.

(٣) انظر اللوحة رقم ٥٨ الشكل رقم ٢.

(٤) انظر التاريخ الطبيعى وعقيدة طائر أبى منجل، بقلم سافيني.

(٥) الهيروغليفية الرابعة لهو - وابولون، الكتابة الأولى.

\* صور الإله جهوتى راعى الآداب والكتابة على هيئة القرد وأبى منجل ( المراجع ).

وأول أشخاص الإفريز هو أيضا برأس أبى منحل يقدم الوعاء، رمز الفيضان، وهو الوعاء المائي عند هورابولون؛ الشخص نفسه نجده أيضا فى الصف الخامس عشرة بعد المسلم، وكذلك فى الصف السابع والعشرين :وهو يمسك بيده نفس الشيء الذى فوق الهلال، أى "عين" أوزيريس حورس؛ وأمامه حروف لا تقل تعبيراً عن الفيضان وعن الانقلاب الشمسى الصيفى، أى أبو منحل، وحروف الماء بالهيروغليفية، والشمس بثلاثة أشعة وهو ما يصور الشمس بكل قوتها؛ وأخيراً "قارب" صفيروهو أقل الرموز غموضاً. وهذا القارب نفسه نشاهده أمام الصورة الخامسة والعشرين مع الشمس المشرقة، وكذلك أمام الصورة التاسعة والعشرين. وأخيراً من بين هذه الكتابات الهيروغليفية الصورة السادسة والعشرون لها مجموعتان من اللوتس، وفى أسفل، نرى عضو ذكورة، رمز الرجولة، والخصوية. وأشير إلى أن أبى منحل واللوتس والوعاء الذى يصب منه الماء ورمز الماء نفسه، هى صورة مكررة فى كل مكان؛ ولكن مشاهدة الصورة ستعين القارئ على التعرف على هذه الأشياء بسهولة ويسر.

ومن المرجح جداً أن يرمز هذا الإفريز إلى ملابسات الانقلاب الشمسى الصيفى<sup>(١)</sup>، ولحظة بزوع القمر الجديد فى الانقلاب الصيفى. ولكن، بعد أن عرفنا الفترة من العام التى يحدث فيها، بقى أن نعرف الزمن السماوى، وبالتالى، العمر الذى يمبّر عنه. هناك صورة امرأة برأس أسد متكررة فى بداية الإفريز، أزعّم أنها كفيّلة بحل هذه القضية. فإذا كان الانقلاب الشمسى الصيفى بمسيرته التراجعية، قد دخل فى برج "الأسد"؛ وإذا كانت الشمس خلال الشهر الأول من العام، عليها أن تقطع، مثلاً، درجات الأسد الخمس الأخيرة ودرجات العذراء الخمس والعشرين الأولى، وإذا أراد الفنان أن يعبر عن هذه الملابس بصورة واحدة، فما كان عليه إلا أن يضيف إلى جسم امرأة، جزءاً من جسم الأسد، والأعراف التى أسس عليها فن النقش جعلته يختار الرأس بدلاً من أى جزء آخر،

---

(١) إن اتجاه بعض الآثار إلى الجنوب ربما يمثل ظاهرة تدسم هذه الفكرة.

ومن ثم فهذه هي الصورة التي قمت بوصفها قبل قليل<sup>(١)</sup>. هذه الصورة تمثل المذراء برأس أسد تمسك بيدها ساق لوتس وهو ما يمثل رمزا آخر للانقلاب الشمسى الصيفى. ونحن نشاهد أيضا العديد من الأشخاص برأس أسد وجميعهم مقترنون بالوعاء المائى. وعلى ذلك فأنا أعتقد أننا نستطيع أن نتعرف فى هذا على بداية السنة فى الوقت الذى يكون فيه الانقلاب الشمسى الصيفى وقد غادر المذراء، و بلغ نجوم برج " الأسد " الأولى، أى الدرجات الأخيرة،

وقد حملتى أهمية معبد إدفو إلى الاعتقاد بأنه محدد بتاريخ تجدد فترة خاصة بالشمرى اليمانية، وهى فترة أزعم أنهم كانوا يخصصون لها آثارا كبيرة، كما سأعرض لذلك فى موضع آخر. هذا وإن إحدى هذه الثورات الظواهر تم التعبير عنها بلغ الانقلاب الشمسى الصيفى درجة الأسد الخامسة والعشرين. ونجد ندرك مدى أهمية مثل هذه الفترة عند المصريين، تلك الفترة التى توفق بين السنة الثابتة، أو السنة الزراعية، مع السنة الفاضلة أو السنة الدينية، وذلك بعد ألف و أربعمائة وإحدى وستين سنة، وهى فترة خير وسعادة للشعب، وذات قيمة عالية بالنسبة للفلكيين المصريين الذين تعد فترة الشمرى اليمانية أعظم اكتشاف لهم<sup>(٢)</sup>.

## المبحث السادس: حول صورة العنقاء التى عثر عليها

### بين نقوش المعبد الكبير وفى آثار أخرى

رمز فترة الشمرى اليمانية هو الطائر الخراشى الشهير الذى يسمى العنقاء. ولا ينبغى أن نشك فى ذلك، إذا عرفنا أن فترة حياته هى نفسها فترة الشمرى

---

(١) حينما يدخل الانقلاب الشمسى فى برج الأسد يكون فى نجوم الذيل وليس فى نجوم الرأس. ولكن من المستحيل رسم صورة بشرية بذيل أسد دون المساس بقواعد الذوق التى تمارف عليها الفنانون. فى أماكن أخرى، عبروا عن زمن قريب لذلك باستعمال ذيل الأسد ولكن مع رسم صورتين منفصلتين كما سأشير إلى ذلك فى حينه.

(٢) يترضى السيد. هوريبه بالتفصيل لطبيعة وتاريخ هذه الفترة فى دراسته حول الآثار الفلكية .

اليمانية، أى ألف أربعمائة وإحدى وستون سنة<sup>(١)</sup>. ومن المثير أن نعثر فى إدفو على صورة هذا الطائر، ولا أعرف أن أحدا لاحظ ذلك فى أى أثر من الآثار<sup>(٢)</sup>. وإذا كانت الصورة التى أذكرها هى فعلا صورة العنقاء، وأن العنقاء هى رمز فترة الشمرى اليمنية، فإن زعمى حول عمر المعبد سيتحول تقريبا إلى اعتقاد.

أولا، يؤكد هيرودوت أنه رأى العنقاء مرسومة على الآثار على هيئة وحجم النسر، ويضيف أنه لم يرها مطلقا إلا مرسومة. من المؤكد إذن أن هذه الصورة موجودة بين الرسوم المصرية. ويقال أن هذا الطائر حينما كان يبلغ نهاية عمره، كان يشكل وكراً من البخور ومن المرّ ويفادر الهند موطنه الأصلي لىأتى لى يموت فى قدس الأقداس معبد هيليوبوليس، حيث كان يبعث للحياة من جديد من رماده، وذلك بعد عدة أيام<sup>(٣)</sup>. ومع أن الرسم الموجود فى إدفو غير كامل<sup>(٤)</sup>، إلا أن المرء يجد فيه الطائر وهو لم يتشكل بعد خارجا من محرقته. وإن الكلمات التى يذكرها بلىنى ، *nde fieri pullum* تنطبق عليه تماما. وقد شاهدت فى أحد المعابد المصرية الفلكية، صورة صغيرة للعنقاء وقد تشكلت من جديد بمنقار وشكل النسر المتميزين. هذا المثال المثير سأتناوله على حدة، أما الآن فسأقوم من فورى بمرض أمثلة أخرى شيقة.

ومن ناحية أخرى ، لم يدع سولان مجالا للشك فى أن هذا الطائر هو شمار السنة الكبيسة وهو الاسم الذى كان يطلق على فترة الشمرى اليمنية. وهذا ما قاله سولان<sup>(٥)</sup>:

---

(١) قام العلامة الكبير صاحب كتاب " بحث حول أصول الأبراج"، بنشر هذه الفكرة فى مؤلف جديد لم أعلم عنه شيئا حينما كتبت هذا البحث، وذلك قبل سنوات عديدة، وقد أوضح هذه الفكرة بصورة أفضل دون الاستعانة بالمنظر الظاهرة على جدران الآثار.

(٢) انظر اللوحة رقم ٦٠ الشكل رقم ٢٢ أسفل كتابة هيروغليفية.

(٣) راجع هيرودوت، الكتاب الثانى، الفصل ٧٢، وبلبنى الكتاب الماشر، الفصل الثانى، وهورابولون وابيخان إلخ.

(٤) ما كنت لأقدم كمثال هذه الصورة وحدها التى رسمت بطريقة خاطئة، ولكن بصورة بدائية جدا، ذلك لأنها قادتني إلى تمحص الصور الأخرى التى سأحدث عنها فيما بعد، ولأنها قدمت لى فى بعضى الصورة الأولى للعنقاء التى أذكرها هنا.

(٥) سولان، التاريخ، المقطع ٢٦ .

ويقول بلينى إن حياته تتوافق مع الثورة فى السنة الكبيسة التى تجدد فصول السنة. وعليه فهذه خصيصة من خصائص الفترة ذاتها. أما هورابوللون فيقول إن العنقاء تشير إلى الاستقرار الذى يحدث بعد فترة طويلة من الزمن. وأخيرا، عندما يحدّد تاسيت حياة العنقاء بألف وأربعمائة وإحدى وستين سنة، فإنه يزيل جميع الشكوك<sup>(١)</sup>، مع أن المؤلفين لا يتفقون على هذه المدة : ذلك لأنه من المستحيل أن يكون مثل هذا التوافق فى العدد مصادفة بعثة.

ولكن من المهم أن نشير إلى أن صورة العنقاء هذه متكررة فى جميع آثار مصر الكبرى، ولم تلاحظ حتى الآن. إنها توجد بصفة عامة فوق قواعد الأعمدة وفوق قواعد المقاعد حيث نجد قدميها مفتوحتين ومبسوطتين ونجمة كبيرة فى الأمام. ولعل هذه النجمة تشير إلى الشمرى الذى كان شروقه قرب الشمس يعلن فى الوقت ذاته عن تجدد الفترة، وزيادة النيل والانتقال الشمسى الصيفى. كذلك ينبغى أن نلاحظ أنها دائما تكون فوق كأس وهو رمز الفيضان. ولا شك أن جميع أعمدة إدفو تشتمل على هذه الصورة ولكننا لا يمكن أن نتأكد منها إلا برسم جميع أجزائها وهذا ما نشاهده كثيرا فى معابد فيلة واسنا. وسأذكر بصفة خاصة نقشين بارزين فى معبد فيله الكبير، لأنهم ملونان ويحملان الصفات الأساسية التى ينسبها كل من هيرودوت لبلينى وسولان إلى العنقاء<sup>(٢)</sup>. أهم هذه الصفات أن الصورة المنقوشة على رأسها عرف أو شوشة.

وهذه الشوشة واضحة هنا تماما. أما هيرودوت، فيشير إلى أن الجناحين جزء منهما ذهبى والآخر أحمر، وهذا ما نشاهده فى النقش السفلى. والشئ نفسه بالنسبة للريش، فهو ذهبى فى الذيل. كما يصف بلينى وسولان الرقبة بأنها ذهبية أيضا. وأخيرا، يتفق المؤلفون الثلاثة على أن لها شكل النسر. ومن الصعب عدم التعرف على منقار النسر فى الطائر الذى عرضته. بالإضافة إلى

---

(١) تاسيت، الكتاب السادس.

(٢) انظر اللوحة رقم ١٦ الشكل رقم ٢ .

قائمتيه الطويلتين، فإن هذا الطائر غالبا ما تكون له ذراعا إنسان مرتفعتان في الهواء. ولن أخوض في تفسير هذه الظاهرة، لكنني سأذكر صورة إنسان رسمتها في "مدينة هابو" وهو جاث على ركبتيه فوق كأس مثل طائر المنقاء وذراعا أيضا مثله مرفوعتان، وأمامه نجمة كبيرة وجناحان منشوران، وأخيرا، وكصفة أخيرة من صفات التشابه، فإن له شوشة فوق رأسه مشابهة تماما للتي قمت بوصفها. هذا الشكل المجيب المجنح يرتبط بأوثق الروابط بالمنقاء.

وآثار طيبة ودندرة تحتوى أيضا على مجموعة كبيرة من الصور لهذا الطائر<sup>(١)</sup>، سيجدها القارئ في الكتب التالية.

والآن، ما تصورنا للبعث الذي يأخذه الدارسون على المصريين فيما يختص بخرافة المنقاء ؟ ما هي فكرتنا عن أنكروا وجود هذا الطائر وصورته أيضا ؟ هل هو ذنب المصريين إذا كان بعض الرحالة الإغريق والرومان، وبعض آباء الكنيسة قد فسروا حرفيا هذه الأسطورة التي لم يدركوا معناها وراحوا يبحثون بشكل جاد ما إذا كان من الممكن أن يعيش طائر طيلة هذه القرون، ثم يبعث من جديد من بين رماده ؟ رمز هزلى ما يزال حتى الآن يقابل بالخرافة، إذا لم ير الغالبية فيه سوى نوع من الجنون الذى يثير الشفقة، بينما يرى فيه الآخرون دليلا قويا يدعم الأسرار الدينية<sup>(٢)</sup>.

ويبدو لى أن الرحلة التي تقطعها المنقاء من الهند إلى مصر لى تموت فيها ثم تبدأ حياة جديدة، تعبّر، بلغة الكناية، عن عودة السنة الثابتة، التي كانت الوحيدة مستعملة عند الهنود؛ والتي تعود كل ألف و أربعمائة وإحدى وستين سنة، لتوفّق في مصر بين حساب الزمن ومسيرة الشمس<sup>(٣)</sup> : فالحياة والرحلة

---

(١) فى الشكل ١ لم يلون الفنان جسم الطائر وانظر أيضا اللوحات : ١٨، ٢٢ شكل ٥؛ اللوحة ٢٣ شكل ٣؛ اللوحة ٧٨ شكل ١٦؛ اللوحة ٨٠ شكل ١٧ .

(٢) لم يجد الآباء حرجاً من ذكر المنقاء بوصفها دليلا على البعث والتجسد .

(٣) انظر هورابولون، البردية الرابعة والثلاثين، هذا المؤلف نفسه، وفى البردية الواحدة والخمسين يقول : " ما إن يتشكل جناحا طائر المنقاء الجديد، حتى يطير مع أبيه نحو هليوبوليس فى مصر، حيث يموت الأب بمجرد وصولهما عند شروق الشمس : وبعد موته يقوم الكهان المصريون بدفنه ثم يمود طائر المنقاء الجديد إلى الوطن الذى ولد فيه . "



والموت والبعث، ثم رحيل هذا الطائر، رمز الشمس، كل ذلك يتفق وهذه الفكرة : وهذا المكان الخاص بالبخور والمرّ يشير إلى المشرق؛ وأخيرا فإن دخوله إلى هيليوبوليس يذكرنا بمدرسة الفلك الشهيرة التي كانت منذ أقدم العصور ترصد الطول الحقيقي للسنة الشمسية.

وختاما نقول، إن العنقاء، بوصفها رمزا لفترة الشمري اليمانية، تشير إلى تنافس السنة الثابتة والسنة الفاضلة عند المصريين القدماء، وهو ما يشار إليه في معابدهم

الأساسية وما يدل على الأرجح، على إقامة هذه المعابد في عصر تجديد إحدى الفترات، وأخيرا يدل ذلك على تشييد معبد إدفو في فترة مثيلة<sup>(١)</sup>.

### المبحث السابع: حول المعبد الصغير

سبق أن قلت إن المعبد الصغير موجود على مسافة قريبة من المعبد الكبير : بين منتصف باب الدخول للمعبد الأول وبين الزاوية الجنوبية الشرقية للصرح مسافة مائة وأربعة وثمانين مترا<sup>(٢)</sup>. ومحور هذا المعبد الصغير يشكل زاوية مقدارها ٦٦ درجة غربا مع خط الزوال المغناطيسي، أما طوله فيبلغ أربعة وعشرين مترا<sup>(٣)</sup>. عرضه يبلغ أربعة عشر مترا ونصفا<sup>(٤)</sup>. وأما الارتفاع فسبعة أمتار ونصف<sup>(٥)</sup>. وهو يتألف من قاعتين ومحاط من الجهات الأربع برواق أعمدة. وفي الزوايا دعائم ضخمة؛ والواجهتان الجانبيتان يتألف كل منهما من ستة أعمدة، أما الآخرين فكل منهما يتألف من عمودين؛ أما الجدران بين هذه الأعمدة الأخيرة فهي أكثر اتساعا. وهو ما يفرضه الوضع العام، والملاحظ أنها محكومة بعرض المعبد التي تمثل ثلثه.

---

(١) بسبب حدود بعث الضيقة فإنني أرجئ لبحث آخر الحديث بشكل أوسع حول شكل وأسطورة العنقاء الذي قال عنها تاسيت.

(٢) حوالى خمسمائة وسبعة وستين قدما.

(٣) حوالى أربعة وسبعين قدما.

(٤) خمسة وأربعون قدما.

(٥) حوالى ثلاثة وعشرين قدما ونصف.

وهناك سلم ضيق جدا، يبدأ من الباب الثانى الذى يستعمل للصمود فوق السطح : ولا يتجاوز عرضه نصف المتر<sup>(١)</sup>. وهو مبنى بطريقة جيدة من جزئين، غير أن أحد جزئيه ملتصق بجدار المعبد بدلا من أن يدخل فى سمك الجدار، مما جعل القاعة الأولى أقل تماثلا بين جزئيهما ، والبايين ليمسا فى المنتصف.

والمعبد مغطى بالرديم من الخارج. والممودان الجانبيان مدفونان حتى أعلى التاجين، والأروقة مليئة بالرديم إلى ارتفاع أربعة أمتار ونصف<sup>(٢)</sup>؛ أما المدخل وقاعات المعبد فالرديم فيها أقل. وبصفة أساسية، تعد الأرض أكثر ارتفاعاً من رواق الشمال؛ فبين الانقراض والسقف تقل المسافة عن طول إنسان. ولما لاحظت أن الإفريز الذى يزين عتب لهذا الرواق سليم تماما من أوله لآخره فقد أردت أن أرسمه بالكامل، وهى مهمة سهّلها وجود هذا الرديم الذى رفعنى إلى مستوى النقوش. فوجدت الأرض مرتفعة عند القمة، بحيث إن العتب كان فوق التراب، ونتيجة لذلك لم يكن هناك نور. فتوجب على أن أزحف على بطنى فى هذا الجزء من الرواق، على ضوء شمعة، ولم أتمكن من رسم هذا النطاق الطويل من الصور إلا بعد مشقة بالغة<sup>(٣)</sup>.

إن التصميم الذى قمت بوصفه يتوافق جيدا مع تصميم المعبد وهو نوع من المعابد الإغريقية المحاطة بأعمدة من الجهات الأربع. أما الدعامات التى تشغل الزوايا فهى تقوم مقام الممود البارز أو الباراستات وهى، كما يذكر فيتروف، بروزات فى الزوايا تحل محل الأعمدة.

ويبلغ قطر الممود فى هذا المعبد أكثر قليلا من ثمانية ديسيمترات ونصف<sup>(٤)</sup>. ويتقسم الارتفاع الكلى للمعبد إلى عشرة أقسام، فإن الممود الكامل يمثل ستة أقسام، ودون التاج، خمسة أقسام؛ أما الطبلية ، فقسمين، خرجة السطح قسمين، وهذا يعنى أن ارتفاع الأعمدة، بدءاً من الأرض حتى العتب، يمثل أربعة أضعاف خرجة السطح.

(١) تسع عشرة بوصة.

(٢) أربعة عشر قدما.

(٣) أنظر اللوحة ٦٢ الشكل ١، الجانب ب، واللوحة رقم ٦٤ .

(٤) قدمان وثمانى بوصات.

وعلى مسافة أربعة عشر مترا<sup>(١)</sup> من مدخل المعبد، نجد عمودين مطمورين لا نشاهد منهما سوى التاجين؛ وعلى مسافة منهما أطلال مبانٍ مختلفة تماماً تحت الرديم. ويبدو أنه كان يوجد في هذا المكان مبانٍ ممتدة، غير أنه من الصعب الجزم بأنها كانت مرتبطة بتصميم المعبد، ليس هناك سوى الحفائر لتدلنا على ذلك. ولم يكن هناك وقت للتفصيل.

أما المباني الصغيرة التي تصاحب عادة المعابد الكبرى، كما هي الحال هنا في إدفو وفي دندرة وفي أماكن أخرى، فلها تصميم ثابت يختلف تماماً عن التصميم العادي. فهي تتألف دائماً من قاعة أو قاعات محاطة بأروقة من الأعمدة أو الدعامات. هذا الجزء يكون مسبقاً بفناء من الأعمدة الأكثر ارتفاعاً، وأحياناً يكون هذا الفناء مختلفاً، وأحياناً لم يشيد بالمرّة، كما نلاحظ ذلك في إدفو، وفي دندرة، الخ. وأحياناً يكون هذا الفناء قائماً، والمعبد غير موجود، كما نشاهد ذلك في فيلة؛ لكننا نجد في أرمنت الفناء والمعبد كليهما، وهذا المثال يبين ما كان عليه التصميم الكامل للتيفونيوم أو<sup>(٢)</sup>.

واسم تيفونيوم يتلاءم مع هذه المعابد الصغيرة لأن صورة تيفون (صورة الرب بس) والصور التيفونية تتكرر فيها كثيراً. وقد استعمل استرابون هذا الاسم<sup>(٣)</sup>. وتظهر صورة تيفون في المعبد فوق تيجان الأعمدة وبالنقش المجسم على طبليّة تاج عمود مرتفعة ولها عرض جذع العمود نفسه. هذه الزخرفة المتميزة وهذه الطبليات ذات الارتفاع غير العادي، تمثل إحدى السمات الأساسية للتيفونيوم أو المعابد الصغيرة وتضفي عليها شكلاً خاصاً. وقد حاولنا أن نقدم فكرة كاملة عنها عن طريق وصف معبد إدفو الصغير الذي رفعت عنه الأنقاض تماماً ويحتفظ بجميع الزخارف<sup>(٤)</sup>.

---

(١) ثلاثة وأربعون قدماً.

(٢) انظر اللوحة ٩٤ ووصف أرمنت.

\* بيت الولادة.

(٣) استرابون، الكتاب ١٧، ص ٨١٥.

(٤) انظر اللوحة رقم ٦٥.

وهناك ملاحظة عامة أخرى تختص بالمعابد الصغيرة، هي أن اتجاهها عمودى على المبانى الكبرى الملحق بها. وهذه العمودية جديرة بالاهتمام<sup>(١)</sup>. وهنا، فى إدفو، تبلغ الزاوية التى تشكلها محاور المعبدتين ٩٩ - وحيث إن المعبد الكبير يتجه بالضبط نحو الجنوب، فإن التيفونيوم يتجه نحو الشرق. ولا شك أن هذا الاختلاف له أسبابه، ومن المهم اكتشافها؛ لكننى لن أتوقف لبحث ذلك.

أما الطبلية الكبيرة التى تعلو الأعمدة، فهى ليست منقوشة دائما؛ ولكن فى هذه الحالة فمن الواضح أن هذا يرجع إلى عيب فى إنهاء الزخارف، وأن هذه الطبلية كان من الواجب أن تشتمل على صورة لتيفون فوق الأوجه الأربعة، وتشبه الصورة التى نشاهدها فى إدفو<sup>(٢)</sup>. وقطع هذا الشكل الأخير يقل قليلا عن الحجم البشرى. ويدل الوضع الذى تمثله على شيء من العزابة؛ فالساقان منفرجتان واليدان معتمدتان فوق الردفين؛ وثمة حزام معقود خلف الظهر وينزل بين الساقين؛ والأطراف قصيرة؛ والحجم غير متوازن، وبالذات الرأس فهو أقل توازنا. هذا الرأس، الذى يكاد أن يكون دون جبهة وأعرض كثيرا من المعتاد وبه لحية، يتسم بالفراشة أكثر مما يتسم بالمسوخ ويكاد أن يكون صورة هزلية. فالوجه باسم؛ أما المينان وركنا الفم والوجنتان فمسحوبة إلى أعلى. والأسنان مكشوفة. وكل هذه الملامح نقشها أزميل دقيق صارم وتكشف عن معرفة ما بالتشريح الخارجى<sup>(٣)</sup>؛ أما عضلات الحاجبين التى تجمعدهما والعضلات التى تطبق على الحاجبين، وتلك التى تبسط الأنف وتوسعه، وتلك التى ترفع وتشد الشفة العليا نحو الأذن. باختصار، جميع العضلات التى تشارك فى تمبير الضحك رسمت بكل دقة. ولم يكن فى وسع الرسم أن يبرز كل هذه التفاصيل بسبب صغر الحجم، ولكننا سنجد مثل هذه الصور بشكل أكبر حجما ضمن لوحات المجموعة<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر المساقط الأفقية لكوم أمبو فيله، الكرنك وندرة.

(٢) انظر اللوحة ٦٢ .

(٣) فيما سبق

(٤) انظر اللوحة ٩٦ شكل ٢ واللوحة ٩٧ شكل ١، وكذلك لوحتى تيفونيوم وندرة المجلد الرابع من

لوحات المصور القديمة.

بروز هذه الأشكال الخاصة بتيفيون، كما قلت، تقارب نصف النقش الجسم؛ فالأرجل تحط فوق التيجان. وهذا التاج من النوع الأكثر شيوعاً، وهو الذى شرحتة فى المعبد الكبير، وبالذات فى الرواق الثانى، حيث يحمل صورة إيزيس. وبصفة عامة، فإن المعابد المخصصة لإيزيس والأجزاء المخصصة لهذه الإلهة فى المعابد الأخرى تشبه كثيراً فى زخرفتها معابد تيفون؛ وهو ما سنراه فيما بعد فى هذا المؤلف. وزخارف تيفونيوم إدفو دليل ومثال على ذلك.

والواقع أن جميع النقوش تحتوى إما على صورة تيفون أو صورة إيزيس وابنها حورس. أما الإفريز الذى يعلو القاعة الكبرى فهو يتألف من صور لتيفون ونيفتيس تتكرر وتتعاقب مع صور لحورس و حريو قراط فوق زهرة لوتس<sup>(١)</sup>. كما نشاهد إيزيس وابنها فى كل مكان كأنهما يطردان الأرواح الشريرة. فى إحدى هذه اللوحات التى لم يسمحنى الوقت إلا لنقل جزء منها، نشاهد إيزيس وسط زخم من سيقان اللوتس. وفى أغلب الأحيان ترضع ابنها أو تحمله فوق ذراعيها. ويجوار حورس يشاهد المرء صورة برأس تمساح وذراعى إنسان وجسم خنزيرة فاغرة فمها، وهى صورة نفتيس<sup>(\*)</sup>. أخت تيفون فى الأساطير المصرية، وهى رمز الأرض القاحلة المقيمة، فى مقابل إيزيس رمز الأرض الخصبة. وتختلف غالباً برأسها وصفاتها؛ ولكن الجسم واحد لا يتغير، وفى بعض الأحيان يكون رأسها رأس فرس النهر.

وهذا الشكل الممسوخ من ذوات الأربع نشاهده كاملاً مصوراً فى إفريز رواق الجنوب<sup>(٢)</sup>، قائماً فوق شكل مكعب، مع باقة أو حزمة نبات خلفه. والمرء يتمرف عليه من ساقيه الضخمتين القصيرتين، ومن رأسه الهائل الشبيه برأس الثور، وقدمه المشقوقة إلى أربعة أظافر، وذيله بالغ القصير<sup>(٣)</sup>. ومن الغريب أن يجد

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٣ الشكل ٥.

(\*) هى صورة الربة تاورت ربة الخصوبة وراعية الأمومة والأطفال ( المراجع ).

(٢) انظر اللوحة رقم ٦٣ الشكل ٦.

(٣) انظر التاريخ الطبيعى لببفون ١٧٦٩، المجلد العاشر، ص ١٨٧

المرء فوق الآثار صورة هذا الحيوان الذى اختفى من مصر. وسنشاهد منه فى اللوحات صوراً أخرى بصفات أدق وأكثر تفصيلاً. ومن المعروف أن فرس النهر كان رمزاً لتيفون وكذلك التمساح<sup>(١)</sup>. وسأذكر هنا فقرة لأوزاب يبدو أنها ترجمة لجزء من هذا الإفريز نفسه. يقول أوزاب: " فى مدينة أبوللو أو حورس، يُرمز لهذا الإله بإنسان برأس باز، يحمل حرية ويطارد تيفون المصور على شكل فرس النهر<sup>(٢)</sup>". ومن اليمير على القارئ الذى يشاهد النقش أن يتعرف فيه على هذا الوصف؛ فحورس ذو رأس الصقر هو ثانى صورة خلف هيكل فرس النهر. وهذا التشابه الغريب يستحق مكانته فى الوصف.

ويلاحظ المرء فى المعبد إفريزا يصور ست نساء يمسكن فى أيديهن أقراصا، وآخر يتألف من ست نساء جالسات يحملن فرس نهر صغير فوق أذرعهن، وفى أحد النقوش المحفورة نجده واقفا فوق ركبتى شخص برأس صقر.

ويتميز إفريز رواق الجنوب وإفريز رواق الشمال اللذين تحدثت عنهما، عن الموضوعات الأخرى بالمدد الكبير من الأشكال التى يتألفان منها والتى تشكل ما يشبه الموكب، ومن خلفها العديد من سيقان اللوتس. وكثير من هذه الأشكال يحمل فى يده سكيناً أو حرية أو قوساً أو سهماً؛ وفى إفريز الشمال، نشاهد أسدين قائمين يحمل كل منهما سكيناً. ولم يرسم من إفريز الجنوب سوى جزء؛ أما إفريز الشمال فقد رسم بالكامل، باستثناء أعمدة الكتابات الهيروغليفية الموجودة فى النهاية التى أظهرناها فى الرسم مهشمة<sup>(٣)</sup>. ومن بين هذه الأعمدة خمسة وسبعون عموداً محفوظة بالكامل، ومن المؤسف أن الوقت لم يسمح لنا لنقل هذه النقوش الطويلة.

ويتألف موكب هذا الإفريز الشمالى من خمس وأربعين صورة، المشرة الأولى منها تتجه نحو خلف المعبد، وجميعها يمسك علامة الحياة رمز القوة والألوهية؛

---

(١) بلوتارخ، إيزيس وأوزيريس.

(٢) أوزاب، الكتاب الثالث، المقطع ١١، ص ١١٧ .

(٣) انظر اللوحة رقم ٦٤ .

أما الأخرى فتدير لها ظهورها، وهى بصفة عامة تحمل أسلحة كما أسلفت. والغالبية منها أمامها جملة هيروغليفية قصيرة تتألف من أربعة إلى خمسة حروف، وأحيانا من حرفين بل وحرف واحد. أما الأشخاص فلهم رأس كبش، أو أفعى، أو كلب، أو عقاب، أو عجل أو أسد أو أرنب برى، الخ. وتحت الرسم يلاحظ المرء لوحة مثبتة جيدا، تتألف من ابن آوى وأمامه حية الكوبرا، كذلك نلاحظ الأسد ذا رأس الصقر الجالس فوق أفعى تتلوى تحت ثقل هذا الأسد الخرافى. وهذه الصورة الأخيرة هى إحدى أشكال أبى الهول التى لم توصف، وكنت قد لاحظته فوق أعمدة كوم أمبو. ونلاحظ كذلك فى منتصف الإفريز تقريبا بجمة فوق مكعب تتقدمها أربع أفاعى. وسأختم حديثى بذكر مجموعة من الأشكال الجالسة نشاهدها فى الداخل، تكررت ثلاث مرات للإشارة إلى ثلاث أشكال. فقد اعتاد المصريون بهذه الطريقة التعبير عن الجماعات، فالشعب فى وضع العبادة يمثل ثلاثة أشخاص متتابعين ساجدين، أو شخص واحد ثلاثى الهيئة.

لقد قلت ما فيه الكفاية عن نقوش تيفونوم إدفو للمساعدة فى الكشف عن الفرض الأساسى منه. فنحن نتعرف فيه، كما هى الحال فى المعبد الكبير، على تصوير الملقوس الخاصة بالانقلاب الشمسى الصيفى. وصورة إيزيس وهى محاطة باللوتس<sup>(١)</sup>، تشير فى وضوح إلى " الأرض تغمرها مياه الفيضان ". أما أزهار اللوتس التى تشكل خلفية الإفريزين الطويلين اللذين تحدثت عنهما، فهى تشير إلى الفترة نفسها من العام. كذلك فقد لفتنا الأنظار إلى ذلك الأسد ذى رأس الصقر القائم فوق أفعى<sup>(٢)</sup>؛ ويتسم بصفات القوة والألوهية. أما الصقر، رمز الشمس، فهو يشير هنا إلى القدرة المطلقة لهذا الكوكب وقد بلغ ذروته؛ كذلك فإن الأفعى التى يسحقها هذا الشكل هى رمز للأعمال الشريرة التى يتم القضاء عليها مع تجدد السنة.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٣، الشكل ٤.

(٢) انظر اللوحة رقم ٦٤.

وأول شخص فى هذا الإفريز نفسه هو شكل برأس أبى منجل ومن الواضح أنه هو الذى يبدأ إفريز رواق المعبد الكبير<sup>(١)</sup>؛ ويشير فيه أيضا إلى أول شهر السنة أو شهر الانقلاب الشمسى الصيفى. وتذكرنا جميع هذه الصور التى تحمل السهام بيرج القوس الذى يمثل فى نظام الأبراج نهاية الربيع واقترب الانقلاب الشمسى. أما عن المعصر الذى تنتمى إليه هذه المناظر ، فيبدو لى أنه محدد بصورة الأسد وهى منتشرة فى الإفريز، خصوصا بالأسدين القائمين اللذين يمسكان السكين. فلكى يعبر الفنان بالرمز عن أن الشرور فى برج الأسد قد قضى عليها، هل يستطيع أن يتصور أفضل من تسليح صورة هذا الحيوان نفسها؟ ولكن ما يشير بالضبط إلى هذه الفترة هو أيضا الأسد الذى يشغل منتصف الرواق<sup>(٢)</sup>؛ فهو الصورة الأساسية فى الإفريز بالمكان الذى تشغله ويحجمها. وحينما قرن الفنان رأس الصقر بالأسد، فإنه، فى رأى، قد أشار بصورة بارعة إلى أن الشمس كانت فى ذلك الوقت فى برج الأسد، لأن للصقر كان رمز الشمس. وبذلك فإن هذه الصور المركبة التى تبدو لأول وهلة تكوينات خيالية، أو لا تلفت الانتباه إلا بما فيها من فن وذوق فى الرسم، قد تخيلها المصريون القدماء لتصوير مظاهر الطبيعة وإعطاء صور محسوسة عنها<sup>(٣)</sup>. وإذا كان هذا الزعم يقوم على أساس صحيح، وإذا اتفقنا على أن بناء المعبد أرادوا بالنقوش التعبير عن عصر إنشائه، فقد أصبح هناك ما يحملنا على أن نختم بحثنا بأن هذا الصرح يرجع تاريخ إنشائه إلى المعصر الذى وقع فيه الانقلاب الشمسى الصيفى فى برج الأسد. وأن الفنان صور فيه لحظة تجدد الفصول؛ لكننا لا نجد هنا حداً، كما هى الحال فى المعبد الكبير، ولا إشارات كافية لتحديد زمن معين.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٨، شكل ٢، وانظر كذلك ما سبق.

(٢) عندما نرسم فى اللوحة أعمدة النقوش الهيروغليفية الخمس والمبهمين فسوف نجد هذا الشكل فى منتصف الإفريز .

(٣) ليس هنا مجال الاستطراد فى هذه الملاحظة. اقترح أن نقوم بذلك فى دراستى حول الفن المصرى .





## المبحث الثامن

### بيان بالأبعاد الأساسية للمعبد الكبير

سأختم هذا المبحث ببعض المقارنات حول نسب وأحجام معبد إدفو الكبير. فمن المفيد أن نعرف الدقة التي طبقها المصريون في هذا الجزء من التصميم، والقواعد التي وجهتهم في عملهم. وكذلك سنعرف عناصر نظامهم في المقاييس الذي كان مادة أبحاث كثيرة قام بها المحدثون وهي التي سأحاول أن أعرضها في دراسة خاصة. وقد بدأت فعلاً بالإحالة إليها في ثانيا هذه المذكرة.

ولزيد من الوضوح والاختصار، سأورد فيما يأتي، وفي عمودين، مقاييس الأبعاد الرئيسية والأرقام التي تشير إلى علاقتها.

الأبعاد	الطوال
بالمتر	التقريبية
الطول الإجمالي للمعبد	... .. ٨٢ ١٣٧م ... ٣٠٠
المرض الخلفي	... .. ٤٨, ٤٧ ... ١٠٠
الصرح : الطول (١)	... .. ٢٨, ٦٩ ... ١٥٠
الارتفاع	... .. ٩٧٤ ٣٤ ... ٧٥
العرض	... .. ٩٩ ١٠ ... ٢٤
البروز عن السور	... .. ٩٩ ١٠ ... ٢٤
عمق الباب	... .. ٢٦١ ١١ ... ٢٥
عرض الباب	... .. ٣٦ ٥ ... ١٢
الصرح : ارتفاع الباب حتى العتب	... .. ٦٣١ ٢٢ ... ٥٠
ارتفاع الباب تحت العتب	... .. ٤٣٢ ١٥ ... $\frac{1}{3}$ ٣٣٣

(١) هذا البعد يمثل المرض الإجمالي للمعبد.

الأطوال بالمتر	الابعاد التقريبية	
٣٤ ٤٦	٧٥	عرض الفناء من صفة أعمدة لآخرى
١ ٢٨١	٣	قطر أعمدة الفناء
٢ ٥٦	٥,٥	الستائر الحجرية فى الفناء
١١ ٤٨	٢٥	ارتفاع السور
٣٣ ١٣٤	٧٢	عرض خلفية المعبد، فى مواجهة جدار السور
٤٠ ٥٥	٩٠	الرواق الأول : - الواجهة
١٨ ٧٠٥	٤٠	- الجهة الخارجية
٣ ٧١	٨	- بروز خارج المعبد
٣٤ ٨٧	٧٥	- الطول الداخلى
		- العرض بين المقدمة وجدران
١٤ ٠٥	٣٠	ما بين الأعمدة (١)
١٥ ٦٧٤	$٣٣ \frac{1}{3}$	- الارتفاع أعلى العتبة
١٧ ١٦٤	٣٧,٥	- الارتفاع أعلى الأرض الخارجية
٢٠ ٤١	٤٥	الرواق الثانى : الطول
١٣ ٣٤٥	٣٠	العرض
٢٠ ٤١	٤٥	طول القاعة التى تلى الرواق الثانى
١٣ ٥٣٥	٣٠	طول القاعة التى تسبق قدس الأقداس
٤ ٥١	١٠	عرضها بدءاً من المقدمة
١١ ٣	٢٥	مسافة الأسدين بالنسبة لخلفية قدس الأقداس

(١) هذا العرض مساوٍ لعرض جانب الرواق نفسه.

ونلاحظ من أول وهلة فى هذا الجدول أن الأبعاد البسيطة هى الأكثر تكرارا،  
مثل : ٢٥، ٣٠، ٧٥، ٩٠، فقد تكرر كل منها ثلاث مرات.

وهامى الأبعاد النسبية وهى نفسها :

- ١- بروز الصرح عن السور مساو تماما لعرضه.
  - ٢- عمق الباب مساو لارتفاع السور وكذلك مسافة الأسدين خلف المعبد.
  - ٣- الارتفاع الإجمالى للصرح مساو لعرض الفناء والطول الداخلى للرواق الأول.
  - ٤- طول الفناء، بدءاً من أول عمود حتى آخر عمود، مساو لعرض المعبد داخل السور.
  - ٥- ارتفاع الرواق هو نفسه ارتفاع باب الصرح تحت العتبة العليا.
  - ٦- عرض قدس الأقداس هو نفسه عرض القاعة التى تلى الرواق الثانى .
  - ٧- وأخيرا، فإن الرواقين عرضهما واحد . وبذلك يكون طول المعبد، شاملا كل شئ، ضعف عرضه، وهذا العرض ضعف الارتفاع.
- ونلاحظ كذلك أن عرض الصرح ضعف عرض الباب، وارتفاع الباب أربعة أضعاف، وعرض ظهر المعبد ستة أضعاف.
- أما الطول الإجمالى للمعبد، فهو ثمانية أضعاف ارتفاع الرواق، وأربعة أضعاف ارتفاع الصرح، وضعف طوله.
- وبذلك يكون طول الصرح ضعف ارتفاعه.
- ارتفاع الرواق ثلث ارتفاع الصرح، وربع العرض الأمامى للمعبد، أما ارتفاع القاعة فيبلغ ثلثه .

بروز الرواق ثلث بروز الصرح. وعرض الرواق من الداخل ثلث واجهته.

طول قدس الأقداس ضعف عرضه. نصف قطر عمود الفناء يقسم معظم الأبعاد التى ذكرتها قبل قليل. أول الأعمدة ارتفاعه يساوى نصف قطر مع الطولية أربع عشرة مرة، أما العمود الأخير فاثنتى عشر. أما خرجة السطح

فثلاثة؛ والتاج، اثنان. وأعمدة الرواقين تساوى أيضا ضعف نصف قطر اثنتى عشرة مرة.

وأخيرا إذا اعتبرنا ارتفاع العتب نصف قطر، وهذا الارتفاع هو دائما نصف خرقة السطح ، فسوف نجد، العمود الأول فى الفناء، بما فيه الطولية، يضم تسعة أنصاف أقطار، وأعمدة الرواق الأول تضم ثمانية أنصاف أقطار.

ومن اليسير بالنسبة لى، ولكنه يسبب الملل للقارئ، أن أعدد هذه المقارنات؛ ولقد ذكرت منها ما يكفى للتدليل على أن المصريين القدماء كانوا يجيدون وزن كتل مبانيهم بكل فن ودقة. كما كانوا يطبقون فى ذلك قواعد أكيدة لتحقيق التناسب بين جميع أجزائها. ومن ثم، هذا تفسيرى لسبب التناسق أو التناغم الذى تصادفه العين فى معبد إدفو.

## الفصل السادس

### وصف أنقاض الكاب

بقلم : سان جينى

### كبير مهندسى الطرق والكبارى

خلال استعراضه لروايات الجغرافيين القدامى، وبفطنته المعتادة، حدد العالم الجغرافى الشهير دانفيل، وبكل دقة، موضع إيليثيا أو مدينة لوسين. فقد جعلها على الخريطة التى رسمها لمصر القديمة فى مكان ينطبق على قرية الكاب الحديثة. وقد علمنا، فى الواقع، أنه بالقرب من هذه القرية على الضفة النيل اليمنى، على بعد فرسخين تقريبا شمال إدفو توجد أنقاض كبيرة .

ولا تختلف الضفة التى تقع عليها هذه الأنقاض فى مظهرها تقريبا عن بقية ضفاف النهر جنوب الدلتا؛ وإد أجرد، الشريط المتاخم منه للنيل مزروع، والباقي أرض قاحلة غير قابلة للزراعة لا يصدّ غزو رمال الصحراء عنها سوى قنوات الري وزراعة الحقول وغرس الأشجار. وهذا الوادى تحفه فى العمق سلسلة مرتفعة قليلا من الصخور الجيرية المارية تماما يفشاها لون أبيض على نمط واحد، وفى بعض المناطق تتخللها المقابر المظلمة . وإذا أبحر الرحالة إلى الشمال قليلا من الكاب يلمح أمامه فناءً واسما مربع الشكل<sup>(١)</sup>، يبدو كأنه

---

(١) انظر اللوحة رقم ٦٦ الشكل ١ .

مساحة مستقطعة من الأرض ترتفع وسطها تيجان مجموعة من الأعمدة وبعض حطام من جدران سميكة متناثر بغير نظام. أما الطريق<sup>(١)</sup> التي توصل من قرية الكاب<sup>(٢)</sup> إلى قرية المحمد، فهي تقسم الوادى من منتصفه، وتفصل الأرض المزروعة عن الصحراء<sup>(٣)</sup>.

وفى منتصف المسافة تقريباً بين السور وقرية المحمد، يكتشف المرء معبداً صغيراً معزولاً<sup>(٤)</sup>؛ بعده بقليل تحاول العين المتشككة أن تتبين حقيقة ما يمكن أن تمثله كومة ضخمة من الأحجار<sup>(٥)</sup> مشقوقة بصورة غريبة بحيث يخيل للمرء أنها باب كبير. أما الجبل الذى يمثل خلفية هذه اللوحة، فيبدو مثقوباً بفتحات، وسرعان ما يتمرف الرحالة فيه على تلك القبور التي تقترن فى صعيد مصر بأطلال المدن القديمة. فيبدو أن المصريين القدماء قد بذلوا من الجهد والاهتمام فى كل مكان لحفر مئوى الموتى أكثر مما بذلوا فى تشييد بيوت الأحياء، وكان بعض هذه المقابر يشغل ضفة النهر أو منتصف الوادى؛ أما الآخر منها فكان على مشارف الصحراء عند سفح الجبل.

وفىما كنت أعاين بالتفصيل الأشياء التي حدثتكم عنها الآن، وجدت أن السور الكبير<sup>(٦)</sup> مربع الشكل، يبلغ ضلعه ٦٤٠ متراً، أما ارتفاعه فتسعة أمتار. وسمكه أحد عشر متراً ونصف ( أكثر من أربعة وثلاثين قدماً ) وهو مبنى بالطوب الذى يبلغ ارتفاع الواحدة منه ٠,٢٨ م ( أكثر من أربع عشرة بوصة ) فى ٠,٢٠ م فى ٠,١٨ م هذا الطوب نئى؛ وهو من طين البلاد، أو طمى النيل المعجون والمجفف فى الشمس، أو على الأقل على نار هادئة. وقد احتفظ هذا الطين بلونه الطبيعى وهو الأسمر الرمادى. وحيث كان يلزم لبناء مثل هذه المنشآت

---

(٢) انظر bc فى الشكل السابق .

(٢) انظر d فى الشكل نفسه.

(٣) انظر اللوحة رقم ٦٦ شكل ١ عند حرف e .

(٤) انظر f الشكل نفسه.

(٥) انظر g الشكل نفسه.

(٦) انظر h i k g، اللوحة رقم ٦٦ الشكل ٢.

الضخمة، كميات هائلة من الطوب، وحيث لم يكن المطلوب من وراء بنائها سوى إقامة حاجز يحدد المكان المحظور على غير رجال الدين، أو وقف اعتداءات بدو الصحراء، فقد استعمل المصريون طرق غاية فى البساطة لصناعة هذه المواد. ولقد كانت حرارة الشمس الطبيعية كافية فى هذا المناخ لتسوية هذا الطوب. ولاحظنا، فى الواقع، أن ترمومتر (ريمور) الموضوع على الأرض فى هذا الارتفاع كان يصل إلى ٥٠ درجة فى شهر سبتمبر. وعلينا أن نعتقد أن المصريين الذين أثبتوا فى أماكن أخرى أنهم قاموا بأعمال كبرى، سواء فى استغلال أو فى استعمال أكثر المواد ضخامة وقسوة، لا يستعملون مثل هذه المواد البسيطة إلا حينما يحتاجون إلى إقامة رقعة مستقطعة من الأرض. والطوب النئى يتميز على الأسطح بقدرته على التشكل فى صورة بناء بانحدار قليل. وقد ظلت هذه الطريقة محفوظة فى سائر أنحاء مصر، فى تشييد القرى الحديثة.

وكانت الأسوار الكبرى المبنية من الطوب النئى تستخدم عادة فى عمل سور حول معبد، أو قصر، أو مجموعة من هذا النوع من المباني. وفى منتصف أحد جوانب هذا السور أو فى أماكن عدة منه، ينهض باب كبير من الأبواب الحجرية يكون أحيانا مصحوبا برصيف كبير، ويبدو لنا فى أغلب الأحوال، وللوهلة الأولى، معزولا بشكل يثير الغرابة، لأن السور، وهو سهل التدمير، قد اختفى تماما. أما هنا، فعلى العكس، كان السور موجوداً. أما الباب الرئيسى فلم يعد له وجود. وفى الخريطة يتبين لنا أنه كان موجوداً فى الجهة المواجهة للجبل، عند الموقع L<sup>(١)</sup>، وهو موقع غريب، لأنه مقابل للنهر. وكان من الأنسب أن نفترض وجوده أمام الباب m<sup>(٢)</sup> الذى ستتناوله، وأن مكانه قد ردم منذ ذلك الحين. ولعله كان هناك باب آخر عند الموقع O<sup>(٣)</sup> جهة المعبد الصغير المعزول فى الوادى والذى سأحدث عنه فيما بعد.

وقد أجدنى أميل إلى الاعتقاد بأن هذا السور الكبير كان هو سور الكاب، حيث إن هذه الأسوار فى الأماكن الأخرى، كما بدا لى وكما سبق أن قلت، تقتصر

(١) انظر gh I k اللوحة ٦٦ الشكل ٢.

(٢) انظر اللوحة ٦٦ الشكل ٢.

(٣) نفسه.



مهمتها على تحويط مجموعة من الآثار أو المنشآت العامة. ومدينة يبلغ محيطها ٢,٥٦٠ مترا لا تكون مدينة بالغة الصغر؛ فمدننا في أوروبا التي تضم ١٠,٠٠٠ آلاف نسمة لا تكون أكبر من ذلك. ولم نعثر في الوادي المحيط على أطلال تمثل مثل هذه المساحة الكبيرة، ويمكن أن نفترض أن تكون خاصة بمدينة، بل إن المرء لا يلمح داخل وحول الفناء الكبير تلك الأكوام من الأطلال التي تشهد عادة بوجود منازل خاصة حتى لو كانت تهدمت تماما؛ بل على العكس إننا نجد مثل هذه الأكوام داخل السور، حيث يبدو لى أن هذه المنازل كانت موجودة. ومن الممكن أن تكون قد تهدمت منذ ذلك الحين بفعل الزمن والثورات، كما حدث في سائر جهات مصر، ولا نجد لها أثرا. في حين أن المعابد والقصور والمنشآت الكبرى التي من المسير هدمها، والمواد الضخمة التي بنيت منها كانت لا تناسب المباني الخاصة، فهي ما تزال باقية جزئيا، وتظهر لنا منها على الأقل بعض البقايا من الأحجار.

ومن الأرجح أن اتصال حياة المدنية داخل هذا السور حافظ على اتخاذها سكنا حتى هذه العصور الأخيرة. فما زال المرء يشاهد بطول الواجهة الشمالية لهذا الفناء وبداخله، بقايا عدد كبير من البيوت<sup>(١)</sup>؛ وهي تبدو تماما في مظهر بقايا القرى الحديثة. ففيها نعثر على حطام بعض الأواني الفخارية مما يستعمل حاليا في البلاد وقباب يمكن أن نؤكد اليوم أن المصريين القدماء كانوا يجهلون بناءها<sup>(٢)</sup>. إن جميع هذه البيوت يبدو أنها شيدت بشكل أساسي من الطوب النيئ الذي تتألف منه جدران السور الكبير الذي تهدمت بعض أجزائه. واليوم، تتسرب رمال الجبل إلى الداخل من خلال الفتحتين الكبيرتين اللتين أشرت إليهما ورُدم الجزء الأكبر من هذه الأنقاض.

وكما سبق أن قلت، لا زال هناك بعض أطلال من المنشآت العامة لقرية الكاب القديمة. ولكن من الملاحظ أن المرء لا يلمح منها شيئا في الأماكن التي نسبتها إلى البيوت الخاصة، بل نراها كلها متجمعة في فناء آخر مربع<sup>(٣)</sup> مركزه هو

(١) انظر P,P,P, اللوحة رقم ٦٦، الشكل ٢٠.

(٢) الأسقف المقبية التي عثرنا عليها في الكاب من الطوب.

(٣) انظر اللوحة ٦٦ الشكل ٤.

مركز السور الأول وأضلاعه موازية له. نجد فيه على الضلع الجنوبي الغربي، المواجه للنيل، أساسات<sup>(١)</sup> أحد هذه الأبواب الرئيسية الحجرية الموجودة في جدران السور المبنى المبنية من الطوب. وجود هذا الفناء الثاني يؤكد ما سبق أن ذكرته بالنسبة للأول، وهو أن أحدهما كان فناء المدينة والثاني فناء المعبد. فمن المرجح كثيراً أن سكان مصر القديمة اعتادوا على أن يحيطوا بالأسوار - بالإضافة إلى منشأتهم العامة- مدنهم أيضاً، وذلك بواسطة جدران من الطوب النقي. وإذا كنا اليوم لا نجد عادة سوى أسوار المعابد والقصور، فذلك ولا شك لأن أسوار المدن كانت أكثر عرضة لكل أعمال التخريب، وأنها استخدمت منذ وقت مبكر في تشييد المنازل الحديثة التي اقتصرت شيئاً فشيئاً على فناء المعابد نفسها. ومن ناحية أخرى، فإن وجود هذه الأسوار قد امتد بطبيعة الحال مع وجود هذه المنشآت الكبرى التي كانت تمثل جزءاً أساسياً منها.

ويلاحظ أن فضاء الحوش الفناء بأكمله أكثر ارتفاعاً من الأرض المحيطة، يوجد في منتصفه، تلاً صغيراً من الرمال الانقراض. أما معظم المباني المشار إليها في الخريطة الخاصة<sup>(٢)</sup>، فقد أزيلت ولا يوجد منها إلا الأساسات أو الآثار المتبقية فوق سطح الأرض. واليوم لم يعد هناك وجود إلا للجزء U من البناء ٧<sup>(٣)</sup> المشار إليه على هذه الخريطة بلون غامق، والصفين X، ويتكونان من ثلاثة أعمدة مشار إليها بالطريقة نفسها. وهاتان الكومتان من الحطام اللتان لا تزالان قائمتين هما الموجودتان في "المنظر الجذاب" <sup>(٤)</sup> المأخوذ في الموقع A من خريطة الآثار. أما شق الجدار bc<sup>(٥)</sup> الذي يظهر في هذه الخريطة على نحو أطول من أمثاله في القاعات المجاورة، فهو ليس نوعاً من جدران الأسطح كما يمكن أن نتصوره بعد معاينة سريعة للمنظر. وهذا الخداع سببه الردم الذي سد جميع هذه المباني. فالواقع أننا نرى في طرفه الأيسر مدمكاً زائداً<sup>(٦)</sup> كما

---

(١) m في الشكل نفسه.

(٢) انظر اللوحة ٦٦ الشكل ٤.

(٣) نفسه.

(٤) انظر اللوحة ٦٦ الشكل ٣.

(٥) انظر اللوحة ٦٦ الشكل ٤.

(٦) انظر اللوحة ٦٦ الشكل ٣، النقطة ٢.

نلمح أيضا على الجدران الأخرى، نقوشا مختلفة حتى مستوى الوسط تحت الرديم. وفي هذا المستوى تختلف بعض المداميك في المواضع عدداً، ويشير ذلك إلى بدء عملية التهدم. ويبدو أن هذا الجدار كان مجرد غطاء أو سور للتقسيمات الداخلية، بالإضافة إلى أنه لا توجد عليه أية كتابات هيروغليفية بينما أوجه جميع الجدران الأخرى مغطاة بهذه الكتابات. أما الأحجار التي تغطي القاعة الباقية، فيبلغ طولها أربعة أمتار - وكانت تمثل نهاية المبنى - يدل على ذلك الكورنيش المنقوش المائل أسفل هذا السقف داخل الحجرة، كما أننا لا نجد في أى معبد مصرى طابقاً يعلو طابقاً آخر بمعنى الكلمة. وهذا المعبد، كسائر المعابد التي شاهدها، يتوجه مجرى من شريط من الأحجار المستوية، يعلوها أحيانا سطح محاط بحاجز.

وعلى يمين المنظر<sup>(١)</sup>، وأبعد قليلا من القاعة، توجد الأعمدة الستة التي أشرت إليها على الخريطة، وهي ما تزال مغطاة بأعتابها الضخمة. أما التيجان، فهي جميعا متشابهة، وهو ما لا يحدث دائما في أجمل آثار مصر. وهذه الأعمدة الستة كانت تابعة لقاعة داخلية وكانت بمثابة الساحة الأمامية لها، كما كانت مقرونة بالعديد من الأعمدة الأخرى كما يدل على ذلك تقسيمات الأعتاب. ومن ناحية أخرى، فهي ليست متصلة بسيقانها؛ وفي جميع الآثار المصرية، حينما تكون الأعمدة "خارجية" وتشكل صفة أعمدة أو رواقا، فهي تكون منخرطة حتى الثلث أو النصف من ارتفاعها في جدران يمثل سمكها وتشكل سوراً خاصا للمبنى الذي تزينه.

ونخلص من هذه الملاحظات إلى أن المبنى الذي ظلت بقاياها موجودة حتى اليوم، لم يكن يشكل الجزء الأساسى لآثار الكاب، بل لم يكن سوى ملحق لها؛ وأن المبنى الذي يتألف من اثني عشر عموداً<sup>(٢)</sup> المائل أمام باب الدخول الخاص بالسور الثانى كان موجوداً على الخط الرئيسى للخريطة العامة لهذه المنشآت، وأنه كانت توجد في الجهة المقابلة للأطلال التي ما تزال قائمة، كتل أخرى

(١) انظر اللوحة ٦٦، شكل ٣.

(٢) انظر اللوحة رقم ٦٦ الشكل ٤، عند النقطة e.

هائلة أيضا تتبعها : لأن تصاميم المعماريين فى مصر القديمة تتسم عادة بالتماثل أو السيمترية الشديدة وبالبساطة والنقاء العجيبين.

ولا يزال المرء يرى فى مقدمة المعبد الباقي، بقايا حوض مربع، كالذى نشاهده فى هيرمونثيس. هذه الأحواض تكون بعيدة عن قدس الأقداس الذى يزال باقيا. ولعلها كانت تستخدم فى التزود بالماء من أجل القرابين، أو بالأحرى من أجل الاغتسال والتطهر التحضيرى حيث إنها توجد خارج هذه الأماكن المقدسة. وما يزال حوض الكاب يحتوى على الماء، لكنه شديد الملوحة مثل سائر المياه الموجودة فى مصر على سطح الأرض، كما أنه مغطى بالطحالب والحبيبات البلورية المالحة.

وكذلك، وفى حفرة بجوار الحوض، يشاهد المرء تمثالا لأبى الهول يتكون من كتلة من الحجر الجيرى المتجانس اللامع كأنها من المرمر.

كما وجدنا قريبا من الآثار التى كانت لا تزال قائمة، جزئين من تمثالين من الجرانيت الأسود، أحدهما يظهر شكل جانبي وثلاثة أرباع ( اللوحة ٦٩ الشكلان ٥، ٧ ) ويبلغ حوالى ستة أمتار، أما التمثال الآخر (الشكل ٦) فله مقاييس الجسم البشرى ، وليست هذه الأشكال سيئة التنفيذ، لا فى التصميم ولا فى النحت، بل هيئتها واقعية إلى حد ما، وتتمتع بشئ من الرشاقة والجمال فى خطوطها .

ومن الجدير بالذكر أن التماثيل المصرية بصفة عامة أتقن صنعة من النقوش البارزة بروزا خفيفا ومن الرسومات بصفة خاصة . وهذا الاختلاف يتفق ومسيرة الفكر الإنسانى. ففى بداية الفن، كان من اليسير على الفنان، وهو ينحت كتلة حجرية، أن يدور حولها فى جميع الاتجاهات، ومن اليسير عليه أن يقلد نموذجا يمكنه أن يتأمله فى جميع الأوضاع، وينسخ إذا جاز التعبير، قطعة قطعة، مستخدما فى كل لحظة مقاسات مضبوطة؛ أما بالنسبة للرسم، فالأمر ليس كذلك، وبصفة خاصة بالنسبة للتصوير. فهنا لابد للفنان أن يسمو إلى قواعد المنظور، وتأثيرات الضوء والألوان.

ويبلغ المعبد الصغير الذى نصادفه أثناء السير شمال أطلال الكاب نحو الجبل الغربى<sup>(١)</sup>، ١٥ مترا تقريبا طولا، وعرضه ٩,٣ م. أما ارتفاعه، فيبلغ ٤,٧ م. والآن يتم الدخول إليه من طرفيه. ولكن تأكد لنا أثناء معاينة الأنقاض، أنه لم يكن يوجد فى الماضى سوى مدخل واحد لهذا المعبد. ومن ناحية أخرى، فهو يتميز بعمودين يشكلان تناقضا مع الدعامات المرتفعة أعلى الأساسات التى تشغل الجزء الخارجى. وكان من السهل أن نستكمل هذا الأثر فى اللوحات كما نراه هنا، فهو شبيه بمعابد فيله. فالدعامات تشكل رواقا مضاءً حول قدس الأقداس الذى ليس له أية فتحة أخرى غير الباب.

أما جدران قدس الأقداس، فهى مغطاة من الخارج ومن الداخل، بالكتابات الهيروغليفية والمناظر المنقوشة التى تمثل طقوسا دينية. هذا الأثر فى مجموعة دقيق فى تصميمه كما أنه دقيق فى تنفيذه.

ويتجلى هنا ما عرف عن المصريين من صفة القوة التى انعكست على جميع آثارهم، ونجد ذلك فى انحدار جدران قدس الأقداس، وكذلك فى السمك الذى توافر لمثل هذا المبنى الصغير، إذا قارنا هذا الحجم بالارتفاع ومساحته الصغيرة وقد شيدت هذه الجدران، مثل جدران الآثار الكبرى، من الأحجار الضخمة.

ولكن أين نتعرف على معبد "لوسين" بين جميع هذه الأطلال؟ نحن نعرف أن هذه الإلهة كانت تشرف على الولادة وأن الرومان كانوا يعبدون "جونون" تحت هذا الاسم، كما كان الإغريق يعبدونها تحت اسم إيليثيا، لكننا لا نعثر هنا على أى معنى من هذه المعانى أو الصفات. ومن الأوفق أن نتصور أن معبدها هو المعبد الكبير القائم وسط المدينة فقد كان مكرسا لهذه الإلهة ويحمل اسمها.

ومع اقترابنا من سلسلة الجبال العربية نحو الشمال وبالقرب من قرية المحمد، يلمح المرء أن هذه الكتلة الضخمة<sup>(٢)</sup> التى ظننا فى بادئ الأمر بابا ضخما، ليست سوى صخرة بارزة من جسم الجبل سبق استغلال حوافها

(١) انظر f، اللوحة ٦٦، الشكل ١، واللوحة ٧١ الأشكال ١، ٢، ٣، ٤.

(٢) انظر g، اللوحة ٦٦، الشكل ١، واللوحة ٦٧ الشكل ١.

ووسطها للحصول على أحجار من المرجح أنها استعملت فى تشييد المباني التى زرنها قبل قليل.

واستمر هذا الاستغلال بحيث إن الصخرة الكبيرة تبرز من جميع الجهات بشكل قائم فى مستوى الوادى. بعد ذلك تم تقريغ الداخل بحيث تشكّل جانبان قائمان لحمل الأجزاء العليا التى لم يكن من الممكن استغلالها بسهولة. وكذلك تم الاحتفاظ فى المنتصف بدعامة قوية لدعم السقف. وأصبحت الأشكال المنتظمة لكل جزء، وتلك الخاصة بالكتلة بصفة عامة، بالإضافة إلى النور الذى يتخللها، تلوح فى عين المسافر الذى يجوب النيل وكأنها أثر معمارى. وهذا الشيء اللافت للأنظار من بعيد هو الذى جذب انتباهنا بوجه خاص إلى هذا الوادى، حيث كنا نبحث عن أطلال الكاب، فتعرفنا على السور الذى نزلنا بالقرب منه. ومع زيادة الاقتراب من هذه الكتلة المجيبة كان يتجدد أحيانا الاعتقاد الذى كنا قد شعرنا به، وازداد شكنا بسبب شكل طبقات الصخرة التى تظهر متساوية فيما بينها ومتوازية مع الأفق، ولذلك يوجد توافق جيد بين كلا الجانبين.

وبعد أن قمت بمعينة جميع الأشياء التى أثار الوادى من خلالها فضولى، شرعت أجوب الجبل وأنا عائد، فوجدت فيه العديد من المقابر التى أشرنا إليه على الخريطة العام للأنقاض<sup>(١)</sup>. ومن بينها يلاحظ المرء اثنتين رئيسيتين، وقد دُهِشت إذ رأيت فيهما عددا كبيرا من اللوحات حول الحياة الاجتماعية للقدماء المصريين، وهو أمر فريد حتى ذلك الحين بين أنقاض مصر القديمة. حيث لم نعر إلا على معابد مغطاة بصور دينية، بمشاهد حربية. كما نجد ضمن اللوحات الدينية الكبيرة، بعض التفاصيل المتفرقة حول الحياة العائلية، لكننا لم نعر على وصف منظم للمعدات لأنواع الحرف، فى حين أن المرء هنا يجد جميع التفاصيل الخاصة بزراعة الحبوب والحرث على يد الإنسان أو باستخدام الثيران، ومرور المحراث فى أخاديد الأرض، وبنز البذور، واستعمال الزحافة، والحصاد، وجمع

(١) انظر m، اللوحة رقم ٦٢ الشكل ١.

بقايا الحصاد، ودرس الحبوب تحت قوائم الثيران، والتذرية، والتخزين، وتسجيل المحاصيل ( وبالتالي الكتابة )؛ وصيد الأسماك بالشباك وتعليق السمك ، وصيد الحيوان بالشباك، وتحضير الصيد للحفظ، وقطف العنب وتخزين النبيذ؛ والطريقة التي ما تزال مستعملة في مصر لترطيب المشروبات؛ وعودة القطمان؛ وتحميل المراكب، والملاحة بالشرع والمجداف، ووزن الحيوانات الحية عند البيع، وإعداد اللحوم؛ والقربان المائلى (١)؛ والتحنيط وجنازات الأفراد العاديين منذ موتهم وحتى نقل أجسادهم إلى المقابر ؛ وأخيرا الرقص والموسيقى (٢). ويلاحظ في كل هذه المظاهر وجود رئيس لكل عمل من هذه الأعمال. كما نشاهد النساء مختلطات بدون حجاب مع الرجال؛ مما يدل على أن ما يمارس في مصر من تغطية الوجه لم يكن موجودا في مصر القديمة. وكذلك نشاهد نصيب الأطفال في هذه الأعمال المختلفة؛ كما نشاهد الملابس الخاصة بالعديد من الطبقات الاجتماعية. كل هذه الموضوعات منقوشة على الصخر، وملونة بالألوان المختلفة ومحاطة بالكتابات الهيروغليفية (٣).

وما إن أعلن عن خبر هذا الاكتشاف المثير الذي أثار فينا حماساً عاماً أسرع إلينا نصف أعضاء الحملة الذين هبطوا إلى وادي الكاب. أما النصف الآخر الذي كان قد عاد إلى إسنا ، وهى على مسافة تبعد سبعة فراسخ، فقد صعد النيل مرة أخرى خلال الليل واجتمعوا داخل المقابر وراح الجميع يرسمون أكبر عدد ممكن من اللوحات الموجودة داخلها. أما أنا، فقد أخذت نسخاً لكل اللوحات التي كان من الصعب رسمها، وذلك لاستكمال الوصف، أو لإضافة طابع الصدق والدقة على الرسم. وعمد السيد كوستاز الذي حضر بعدى سريعا إلى المقابر، بتسجيل ملاحظات حول العديد من هذه المشاهد التي وصفها فعلا في النسخة الثانية من العدد الثالث ليوميات مصرية (٤).

---

(١) انظر اللوحة ٦٨ واللوحة ٦٩ الأشكال ١، ٢، ٣، ٤.

كل هذا موجود في المقبرة الأولى. الوجبة والقرايين التي تقدم لرب الأسرة هي الأشياء الوحيدة التي لها علاقة بالطقوس الدينية .

(٢) انظر اللوحة ٧٠ واللوحة ٧١ هذه المناظر موجودة في المقبرة الثانية.

(٣) من المرجح أن هذه الكتابات لها معنى مماثل لمعنى اللوحات التي تحيط بها .

(٤) انظر دراسة السيد كوستاز حول مقابر الكاب.

وكانت المقبرتان اللتان نحن بصددهما محفورتين فى الصخرة مثلثهما مثل جميع المقابر الأخرى. كانت الأولى بسيطة الشكل، ويندر وجود مقابر بمثل هذا الصغر فى بقية مصر<sup>(١)</sup>. كان طولها حوالى ٧,٨ م ( أربعة وعشرين قدما ) وعرضها ٣,٧ م ( حوالى أحد عشر قدما وست بوصات). أما سقفها، فتحت على شكل مقبى.

وتتقسم هذه المساحة إلى قسمين، الأول هو المزخرف بالنقوش المكونة. وفى الداخل، على اليمين، يوجد باب<sup>(٢)</sup> كان يستعمل فى الماضى فى تجهيز القاعة الأولى والنقوش التى تزينها، لأنه يقطع هذه النقوش. ويتصل هذا الباب بحجرة أخرى فيها بئر يبدو أنه كان يوضع فيها أجساد الأشخاص الذين دفنوا فى هذه المقبرة. وهؤلاء الأشخاص هم على الأرجح الذين نشاهد تماثيلهم فى المجموعة الموجودة فى الجزء الداخلى من القاعة الأولى. وهذه التماثيل الثلاثة منقوشة نقشا مجسما ، ولقد لحقتها أضرار بالغة؛ فالرعوس بصفة خاصة محطمة . والشخص الموجود فى الوسط رجل لعله رب الأسرة، والجزء السفلى من جسمه مكسو بمئزر ضيق. أما الشكلان الآخران، فيدرك المرء أنهما لسيدتين، ويظهر أنهما تسندان أو تعانقان الشخص الأوسط ، ووضعهما يدل على نوع من الخصوصية أو الحميمية معه، ويوحى بأنهما زوجتان له أو ابنتاه أو اثنتان من الإماء . وبعد ذلك، لا نجد شيئا يخص الآلهة أو الكهنة أو الملوك فى هذه المقبرة. وهذا الطابع بالإضافة إلى صغر حجم هذه المقابر ومظهرها المتواضع والمشاهد المرسومة فيها، يحمل على الاعتقاد بأننا بصدد مقبرة مجرد شخص عادى، لعله مزارع غنى له سطوه.

أما المقبرة الثانية، الموجودة على مقربة من هذه الأولى ، فلها الأبعاد نفسها تقريبا، لكنها أقل جمالا، وأقل زخرفة ولهذا السبب، أو طبقا لتقليد معين، يطلق سكان الكاب على هذه المقبرة حسب أفكارهم " مفارة الوزير " والأخرى " مفارة السلطان " .

(١) انظر اللوحة ٧١، الأشكال ١٦، ١٧، ١٨.

(٢) انظر اللوحة ٧١ \_ الشكل ١٦.



كما نصادف فى الضواحي الكثير من بقايا الموميات المحطمة، وقد عثرنا بين هذه الهياكل العظيمة على فك تمساح. وبالقرب من هاتين المقبرتين ، من ناحية الصخرة الكبيرة، عثرنا على مقبرتين أخريين محفورتين أيضا داخل الجبل<sup>(١)</sup> ، غير أن مداخلها مسدودة بالرمال التى تكثرت فى هذا الموضع. وبالسير بمحاذاة سفح سلسلة الجبال العربية نشاهد مقابر أخرى كثيرة<sup>(٢)</sup> تتفاوت فى أهميتها، لكنها جميعا مليئة بالرديم. ويوجد منها الكثير أمام سور الكاب.

وهذا الكم الكبير من الأنقاض والمقابر، ليدل دلالة كافية على أن هذا الحى من مصر كان فيما مضى مأهولا بالسكان، وأن الكاب كانت مدينة ذات أهمية .

---

(١) h. اللوحة ٦٦ شكل ١.

(٢) انظر L,L,L من الشكل نفسه.

## الفصل السابع

### وصف إسنا وضواحيها

### بقلم : جولوا وديشيلييه

### مهندسا الطرق والكبارى

تقع إسنا<sup>(١)</sup> وهى إحدى المدن الرئيسية فى جنوب مصر، على الضفة اليسرى لنهر النيل، بين طيبة والجندل الأول، وحسب ملاحظات السيد نوويه تقع على خط طول ٤١ ١٤ ٢٠ وخط العرض الشمالى ٢٨ ١٧ ٢٥.

ويبلغ عرض وادى النيل عند إسنا حوالى ثمانية آلاف متر. بعد السهل المزروع، تبدأ الأرض الرملية التى ترتفع فى تدرج خفيف حتى الجبال الجيرية التى تحدد الأفق من الجهتين. ويلاحظ المرء فى سلسلة الجبال العربية فتحة وادٍ يؤدى، كما يقال، إلى البحر الأحمر.

---

(١) إقليم إسنا يحده من الشرق والغرب سلسلتا الجبال اللتان تشكلان وادى النيل. حدودها الطبيعية فى الجنوب الجندل، وفى الشمال «الجبلىن» حيث يقتربان من النهر كثيرا بحيث لا يستطيع المرء المرور إلا إذا دار فى الصحراء.

أما ريف إسنا، فلا ترويه فيضانات النيل العادية، لأن أرضه المرتفعة، تظل في أغلب الأحيان بوراً. وفي الجنوب، وعلى مسافة من المدينة، تبدو ضفاف النيل أقل ارتفاعاً، ومن ثم تتوافر فيها زراعة جيدة. وفي الشمال توجد بعض الحدائق التي يسود فيها جو معتدل نتيجة رى مرتفع التكاليف. وهذه الشواهد الأكيدة على خصوبة الأرض من ناحية، والأرض البور التي تحيط بها، تقدم نوعاً من التناقض، وتشهد كم كان من الممكن الاحتفاظ بالخصوبة في سائر الإقليم لو أن الإقليم استطاع أن يحافظ على قناة قديمة يوجد مصبها على مسافة أعلى المدينة ونشاهد بقاياها في الريف. ولا شك أن إصلاحها سيكون ذا نفع كبير. لكن يحول دون ذلك اللامبالاة الزائدة عند الأهالي. فبدلاً من أن يحاولوا أن يعيدوا إلى إقليم خصوبته القديمة، يهجرونه ويذهبون ويزرعون بعيداً عنه أراضٍ أكثر انخفاضاً، وبالتالي أكثر رياً بمياه الفيضان. وقد تسببت هذه الهجرات في جعل خالية من السكان، وأصبحت وسائل علاج الضرر تقل كلما ضاعف هذا الضرر نفسه من تدميره وتخريبه.

أما جنوب الإقليم، فهو جذاب إلى حد كبير، لأنه، كما أسلفنا، الجانب الذي يستقبل دوماً مياه الفيضانات وتتجاوب فيه الأرض بصورة أفضل مع مجهودات المزارعين. ومن ثم كانت الخضرة فيه أبهى وأقوى. ويشرف على الريف جبل صغير من الانخفاض يبلغ ارتفاعه من ثمانية إلى عشرة أمتار، تلوح من فوقه مدينة إسنا بمنازلها المبنية من الطوب والتي تهدم نصفها. أما ضفة النهر، فتبدو في بعض الأحيان محاطة بعدد كبير من المراكب، وكأنها ميناء يجمع بنشاط تجارى.

شيدت إسنا على ضفة النهر الذي يندفع تياره في هذا الموضع نحو الشاطئ بسرعة، فيتآكل وينهار، وكذلك المنازل التي تملؤه. فيضطّر سكان هذه المنازل إلى مغادرتها والنزوح إلى داخل المدينة التي يزحمونها في انتظار أن يأتي الطاعون ليقضى على الزائد من السكان. وبالفعل يحل هذا الوباء كل عشر سنوات أو

اثنى عشرة سنة تقريبا؛ و يأتى عادة فى أعقاب الفيضانات الكبرى فيعميث فى المدينة الخراب والتدمير<sup>(١)</sup>.

فى الفترة التى وصل فيها الفرنسيون، كانت مدينة إسنا المقر المعتاد لحسن بك وعثمان بك وصلاح بك وهم الأعداء الألداء لمراد بك. وخلال الحروب التى كان يخوضها حكام مصر، كانت إسنا هى تقريبا الملاذ للمهزومين ومثلث إقطاعا لهم. وكانت المسافة الطويلة التى تفصل هذه المدينة عن العاصمة تقلل من خطر الفارين والمنفيين على بكوات القاهرة الذين كانوا يشعرون بعدم القدرة على إصدار أحكام مطلقة تطبق على بعد مائة وخمسين فرسخا من مقرهم، فتركوا لهم حرية التمتع بسلطان لا يهمهم فى قليل ولا كثير. و لم تكن الثروات الحقيقية للبكوات المنفيين ومماليكهم من النوع الذى يسهل انتزاعه منهم، وكان مصدر ذلك هو الاستبداد الذى كانوا يمارسونه على الشعب، فقد عرفوا كيف يصبحون سادة المكان الذى يمثل منافعهم. وكانوا ينتزعون بقوة القهر، ثمرة تعب المزارعين المساكين. ولكن لما كان ترفهم وإسرافهم وبذخهم بلا حدود، فإن كل ما جمعه بالعرف كان ينتقل بسرعة إلى أيدي المهرة والأذكاء من سكان المدينة الذين كانوا يقدمون لهم أسباب المتع. كان الريف يعميش فى بؤس. أما المدينة، فقد حققت نوعاً من الأبهة وجذبت العديد من السكان. وأصبحت إسنا مصدر ترف وموطن نسج يزيد عليها الطلب عن أى من المدن الأخرى فى صعيد مصر. فقد كان يتم فيها صناعة كميات ضخمة من الأقمشة القطنية الخام الناعمة والشيلان المعروفة باسم " حلابة "<sup>(٢)</sup> وكانت تستعمل بشكل واسع فى مصر.

---

(١) خلال العام الأخير من إقامتنا فى مصر، ١٨٠١، عانى صعيد مصر بأسره من ذلك كثيرا، فقد فقدت قرى بأكملها سكانها.

(٢) هذا الشال من أكثر الملابس ضرورة عند سكان مصر وبخاصة لمن يقومون بالسفر، فهو بالنسبة لهم يمثل الفراش والجبّة والخيمة، وبمجرد نزولهم المدينة يلبسونه بطريقة طريفة فيطوفون به رقابهم. وهو أعظم مكافأة يمكن أن يقدمها السيد لخادمه تمييزاً عن رضاه عنه.

ويوجد بها حوالى عشرين سرجة لزيت الخس وخمسة أو ستة مصانع صغيرة للألوانى الفخارية. كما أن البرابرة أو النوبيين كانوا يبيعون فيها الكثير من السلال والمصنوعات الخفيفة المصنوعة من سعف النخيل المصبوغ بألوان عديدة. وأخيرا، فقد كانت قافلة سنّار<sup>(١)</sup> تحمل إليها كل سلع تجارتها وبالذات الصمغ العربى وريش النعام وسن الفيل. ويوجد فى إسنا حوالى ثلاثمائة أسرة قبطية تساهم مساهمة كبيرة فى تجارتها وصناعتها.

والمدينة شكلها بيضوى. أكبر طول لها يبلغ تسعمائة متر من الجنوب إلى الشمال. أما عرضها فيبلغ أربعمائة متر. ويتألف النصف الجنوبى من المدينة من بيوت نصف مهدمة ويغلب عليها مظهر البؤس. وأكثر أحيائها بؤسا الحى الذى يسكنه المزارعون. وفى وسط المدينة توجد أجمل المنازل وعلى وجه الخصوص منزل حسن بك. والميدان العام تزينه مبان متشابهة إلى حد ما، مبنية من الطوب المختلف الألوان. كما نشاهد فيه أيضا مثذنة جميلة. وكثير من المنازل داخل المدينة تعلوها أبراج حمام مريمة على شكل أهرامات مقطوع جزؤها الأعلى. وهذه الأبراج التى يطلونها بالجير للقضاء على الحشرات، ذات لون أبيض ناصع يتناقص تناقصا صارخا مع لون البيوت الأسود.

وفى الطرف الشمالى للمدينة، توجد حديقة تخص حسن بك، وقد شغلها الفرنسيون وجعلوا منها المكان المعتاد لاجتماعاتهم ونزهاتهم. هذه الحديقة التى زرعت بطريقة تناسب الذوق الشرقى كانت شبه مهجورة، لكننا خصصناها لاستعمالاتنا، وصارت تعرف باسم " حديقة الفرنسيين " وهو الاسم الذى قد تحتفظ به طويلا.

---

(١) تم استقبال هذه القافلة فى الصحراء وكان على رأس المستقبلين شيخ دراو وهى قرية أعلى إسنا، وكان هذا الشيخ مكلف من قبل الحكومة بمراقبة القوافل لمنع دخول البضائع المهربة. وكان يصعب القوافل حتى إسنا حيث تدفع الضرائب المقررة وتحصل على إذن بالمرور داخل مصر كلها.

وخلال إقامتنا فى إسنا، قدم لنا شيوخ البلد الكبار وجبة فى هذه الحديقة لم نستطع أن ننساها لغرابتها، وبسبب البهجة التى سادت وقتها. لقد ذكرتنا تلك الوجبة تماما بالأوصاف التى وصلتنا عن مثل هذه الحفلات عند أقدم الشعوب فى المشرق وجعلتنا نحكم إلى أى مدى يعد المصريون محافظين أمناء على عادات العصور القديمة.

لقد دُعِى جميع ضباط الحامية ووجهاء المدينة إلى حديقة الفرنسيين. وفرش الممر الطويل بأكمله بالسجاجيد التى قدم عليها المشاء، وحول هذه السجاجيد جلس الفرنسيون والمسلمون أرضاً. مختلفين، وبالرغم من قلة خبرة المصريين باللغة الفرنسية، والفرنسيين باللغة العربية، إلا أن الحديث لم ينضب عند أى جزء من المائدة. وكان الطعام يتألف من خراف كاملة محمرة محشوة بالأرز، وعدد كبير من أطباق الحلوى كانت بحجمها الصغير تتناقض مع الأطباق الرئيسية، وكان الرجال الذين يقومون بالخدمة يقفون بين كل مسافة وأخرى على جانبى المائدة. ولم تكن ملابسهم أنيقة، لكنهم كانوا يخدمون بهمة. وكانوا يستعملون أصابعهم كما كانوا يستعملون سكاكينهم الرديئة، وكانوا يمزقون أرباع الخراف أكثر مما كانوا يقطعونها. وكانوا يقدمون اللحم بإلحاح شديد بحيث كان من العسير رفضه. وبعد تناول القهوة، نهض المدعوون، وفى الحال حل محلهم خدم الصف الأول الذين حل محلهم بعد ذلك مرعوسوهم. وهكذا شغلت الأماكن أربع مرات بواسطة مدعوين جدد، قبل أن يتم تخليص المائدة من اللحوم التى كانت تغطيها. وكان ثمة مستودع جميل بناء حسن بك بالقرب من حديقته يفدق فى تقديم المرطبات وحدها التى يمكن أن تقدم لنا.

يتسم سكان إسنا بالبرقة والوداعة. وقد مكثنا هذه المدينة قرابة شهرين متتاليين. وعدنا إليها فى فترات مختلفة. وأجمل ذكرياتنا هى التى نحتفظ بها لمدينة إسنا<sup>(١)</sup>. بعد أن تمكنت السرية الشجاعة رقم ٢١ من هزيمة المماليك

---

(١) سافرنا من القاهرة فى ١٩ مارس ١٧٩٩ مع كل من السادة جبرار. كبير مهندسين الطرق والكبارى. ودو بوا إيميه وديشانوا مهندسين عموميين. وديسكوتيل، وروزيير وديبوى. مهندسين مناجم، وكاستيكس، نحاس؛ كنا نشكل لجنة مكلفة من قبل الجنرال القائد بتسجيل كل ما يتعلق بصعيد مصر =

وتشتيتهم، صار جزء منها يتمتع فى مدينة إسنا بالهدوء والسلام. وقد وجد عدد كبير من جنودها متعة وفائدة فى ممارسة مهنهم القديمة. فقامت فى كل مكان مؤسسات فرنسية. وكان سكان إسنا يشاهدونها مستمتعين ويستفيدون منها. وبدأ الشبان المصريون يتعلمون من العمال الفرنسيين فامتزجت العادات والملابس واللغات. بطريقة توحى بأنها قد ذاب بعضها فى البعض الآخر.

وكان المكان المعتاد لرسو السفن، أو ما يطلق عليه ميناء إسنا، يقع على مقربة من منزل حسن بك، فى وسط المدينة تقريباً. وما أن وضعنا أقدامنا على الأرض، حتى شاهدنا سلسلة من المنازل المشيدة بشكل غير متجانس، يحميها من نحر النهر أطلال رصيف قديم ما نزال نلمحه وسط الانقراض. وفى الجهة اليسرى من الميناء، توجد منازل تطل على النيل جرف النهر بعض أجزائها. فى هذا المكان الذى يشبه الخندق، نشاهد بقايا مبانٍ ترجع إلى عصور مختلفة يقوم بعضها فوق بعض؛ ولم تكن المواد المستخدمة فى بناء بيوت الخاصة فى جميع العصور من النوع القيم حتى يرفعها السكان، فكانت أنقاض منزل ما تستخدم

---

= من معلومات حول التجارة والزراعة والفنون والتاريخ الطبيعى والمصور القديمة لهذه البلاد. ومن أهم المهام التى تتولاها لجنة الطرق والكبارى ممانية نظام النيل بدءاً من الجندل الأول ودراسة نظام الرى فى مصر العليا ( انظر بحث السيد جبرار كبير مهندس بالطرق والكبارى حول التجارة والزراعة فى صعيد مصر ).

وكان سير عملنا يتعطل فى أغلب الأحيان بسبب العمليات العسكرية المستمرة فى صعيد مصر. ومع ذلك، فبفضل المثابرة وحماية القوات العسكرية المرسلة لمطاردة المماليك، وصلنا حتى جزيرة فيلة وجبنا مرات عدة شاطئ النيل.

وقد غادر زملاؤنا فى الرحلة على التوالى، إما للقيام بهام خاصة، وإما لينقلوا للقاهرة ثمار أعمالهم ويعوثهم. أما نحن، فقد وجدنا فى دراسة آثار مصر العليا مصدراً لا ينضب للملاحظات المهمة، لذلك استقر بنا المقام فى هذا الإقليم. ونحن ننتهز كل ما يتاح لنا من فرص للقيام برحلات أخرى؛ وقد ركزنا على أنقاض المدن القديمة، مما جعلنا نقيم فى طيبة خمسة وعشرين يوماً متوالية.

وقد كنا فى إسنا حينما التقينا بزملائنا المجتمعين فى لجنتين مكلفتين من قبل الجنرال القائد بزيارة صعيد مصر. وقد شاهدنا معهم مرة أخرى جميع الآثار التى كنا قد قمنا برقمها، وأقمنا مرة أخرى على أطلال طيبة فجمعنا كل المعلومات التى كنا نرغب فيها حول آثار هذه المدينة الشهيرة التى تضم وحدها من الآثار أكثر مما تضم بقية مصر .

فى عمل أساس منزل جديد وبذلك ارتفع مستوى أرض المدينة بشكل سريع. ووسط الانقراض التى تطل على نهر النيل من هذه الجهة، نشاهد كذلك بقايا الرصيف القديم الذى يبدو أنه كان طويلا جدا، كما يلوح أنه شيد فى عصور متتالية متباعدة. وقد تعرفنا فيه على الأعمال التى قام بها المصريون القدماء، والأعمال التى قام بها الرومان ثم العرب. والملاحظ أنه لم تحدث أية أعمال للإصلاح منذ زمن بعيد. ولا يعرف سكان إسنا حاليا طرقا أخرى لحماية أنفسهم من النهر، سوى أن يلجأوا بأنقاض المنازل القديمة على الشاطئ المهدد بخطر المياه.

وفى داخل الميدان الصغير القائم أمام الميناء، يشاهد المرء إلى اليسار شارعا عرضه من عشرة إلى اثنى عشر مترا، وطوله من خمسين إلى ستين مترا يسير بموازية النيل. قبالة هذا الشارع، يوجد منزل حسن بك الذى تجمعت فيه المصالح الرئيسية الخاصة بقوات الحامية الفرنسية. بعد ذلك ينحنى الشارع فى زاوية قائمة نحو الغرب، ثم يتسع بالتدرج ليفضى إلى الميدان الرئيس الذى يبعد عن منزل حسن بك بثمانين مترا. أما الميدان نفسه، فهو مستطيل الشكل يبلغ طوله ثمانين مترا من الشمال إلى الجنوب، وعرضه أربعون مترا. وفى الجهات الشرقية والجنوبية والشمالية منشآت حديثة، مبانيها منتظمة إلى حد ما؛ أما الجهة الشمالية فتجذب الأنظار لأنها تتألف من واجهة وكالة جيدة البناء. وتتكون هذه الوكالة من فناء كبير يحيط به رواق يوصل إلى جميع المحلات التجارية، أعلاه رواق مشابه يودى إلى مساكن التجار والمسافرين<sup>(١)</sup>. أما الجهة الغربية، من الميدان فتتألف من بيوت فى حالة سيئة للغاية وقليلة الارتفاع. ومن الشقوق التى تتخللها يشاهد المرء جانبا من كورنيش أحد المعابد الذى لولا هذا الوضع لظل زمنا طويلا مجهولا بالنسبة للرحالة المحدثين، لأن مداخلة تكاد أن تكون مستحيلة الاستعمال. والواقع أن المرء لا يستطيع أن يدخل إلى هذا الأثر إلا من حارة ضيقة، توجد فى الزاوية الجنوبية الغربية من الميدان، وهى

---

(١) هذا تقريبا هو التصميم المتبع فى سائر الوكالات فى مصر، فهو يتميز بالبساطة فلا نجد فيه أى نوع من الفوضى أو عدم النظام الذى نجده فى غيره من البيوت الحديثة فى مصر.



أيضا مسدودة بالكامل تقريبا بالقمامة والقاذورات التي جلبت من البيوت المجاورة. ولحسن الحظ لم يكلف سكان البيوت أنفسهم مشقة نقل هذه المخلفات حتى نهاية الرواق، بل وضعوها في أقرب مكان لهم ، وبذلك تمت حماية نصف الأثر بواسطة قلعة القاذورات التي أقاموها بأنفسهم. هذه العقبة هي التي توجب علينا اجتيازها. بعد أن تأكدنا أن هذا الممر هو الوحيد الذي يمكن أن يوصلنا إلى داخل الأثر.

### معبد إسنا الكبير

من العسير أن أصور لكم الانطباع الذي أحدثته في نفوسنا الهيئة الداخلية لرواق إسنا. إن عمارته التي لا تقدم لنا آثار مصر الأخرى سوى فكرة بسيطة عنها، تركت في نفس كل منا الانطباع نفسه : فقد تملكنا إعجاب غامض، لا نقوى على التعبير عنه بحال من الأحوال؛ وجعل كل منا ينظر بالتوالي إلى الآثار وإلى زملاء الرحلة، محاولا أن يتأكد إذا كان قد خانه نظره أو عقله، وإذا كان قد فقد فجأة الذوق والأسس التي سبق أن حصلها من دراسة الآثار الإغريقية، وأخيرا إذا كان من الخطأ أن يشاركه فيه الآخرون، أو إذا كان حكمه هو حكمهم. إن الجمال الحقيقي للعمارة التي كنا نشاهدها أمام أعيننا، ضد أفكارنا المسبقة عن الأشكال والنسب الإغريقية، تركنا في حيرة فترة من الوقت. ولكن سرعان ما أعادنا إلى الواقع شعور جامع بالإعجاب. وأسرع كل منا ينقل لزملائه شعوره بمواطن الجمال التي انفعول بها، سواء بنظرة جامعة تشمل البناء كله، أم بتفحص النقاء والرفقة عن قرب في بعض تفصيلات العمارة، النقوش، والدقة في أصفر الكتابات الهيروغليفية.

إن أجمل مديح في نظرنا، يمكن أن نقدمه لهذا الصرح هو أن نصفه وصفا بسيطا صادقا ومفصلاً. لهذا فلن نفعل غير ذلك لكي نجعل القارئ يشاركنا ما انتابنا من مشاعر الإعجاب.

يقوم رواق إسنا على أربعة وعشرين عموداً، محيط العمود ٥,٤٠ م وطوله ١١,٣٠ م بما فى ذلك التاج. هذه الأعمدة الأربعة والعشرون الموزعة على أربعة صفوف، تعلوها طبلديات، ومتصلة ببعضها عن طرق أعتاب تحمل حجارة السقف. أما الجدار بين كل عمود وآخر، فتساوى طوله قطر العمود ونصفه. أما جدار الوسط، فضعف الأعمدة الأخرى. وهو يوصل من الباب الرئيسى إلى المعبد الذى تبرز واجهته فى داخل الرواق. وعلى اليسار واليمين، فى الدعائم التى يشكلها بروز المعبد، نشاهد بايين مسدودين بالانقراض مع باب الوسط، بحيث لا تدع مجالا للتأكد إذا كانت أجزاء المبنى التى توصل إليها موجودة أو لا.

وعمق الرواق ستة عشر مترا ونصف. أما المرض، فضعف ذلك. وهو مفلق من الجانبين بواسطة جدران رأسية ترتفع حتى السقف، لا يصلها النور إلا من خلال المسافات بين أعمدة الواجهة. بل إن هذا النور يعدّ منه جدران تدخل فيها الأعمدة حتى ثلث ارتفاعها. أما مصراعا باب الدخول، فيرتفعان أيضا إلى المستوى نفسه، بحيث إن الداخل كله يشمله ضوء واحد وغامض يتوافق تماما مع الطقوس التى تقام فيه ويتم حجبها عن عيون الجماهير.

وباب الوسط، فى الداخل، كما أسلفنا، مسدود بالانقراض بحيث يستحيل علينا أن نشق فيه طريقا. وكان يوصل إلى داخل المعبد الذى يوافق فى أبهته وعظمته الرواق. وقد حاولنا أن نعطى فكرة عن تصميمه ( انظر اللوحة ٧٢ المجلد الأول ) عن طريق استكمال وإعادةه إلى ما كان عليه طبقا لتصميمات ممبدي إدهو ودندرة. وثمة رواق آخر مزين بأعمدة أقل ارتفاعاً من أعمدة الرواق الأول، وبعض القاعات المتتالية، وأخيرا قدس الأقداس، وهو معزول وسط المعبد نفسه، تلك هى الأجزاء التى يتألف منها هذا البناء وتناولها ترميمنا، ونستطيع أن نؤكد صحتها، طبقا للمعلومات التى لدينا عن العمارة المصرية.

أما البابان الآخران فى داخل الرواق، فقد أوصلنا إلى جزء قد يجد فيه بعض الأشخاص من غير ذوى الخبرة بغمامة الآثار المصرية، شيئا من التناقض. فنحن نرى أن صفة الأعمدة التى تحيط به بمعبد إسنا تترك أثرا عظيما وتثير

الاندهاش، حتى وسط أبرز آثار الصميد، لكننا ما كنا لنجرؤ على رسمها فى المسقط الأفقى لو لم نكن قد حكمنا على أنها جميعا ذات أسلوب مصرى، ولو لم نحصل على تأييد لرأينا، وعلى سلطة قوية لم تتمكن أعمال التخريب التى مارسها الإنسان والمصور من القضاء عليها.

وهذان البابان الجانبيان لا يمكن أن يُفضيا إلى داخل المعبد لأنهما خارج واجهته. فهل يفضيان إلى خارجه ؟ لا يمكن أن نفترض ذلك؛ لأن القموض الذى يطفى على الطقوس المصرية لا يسمح لنا بقبول وجود مخارج متعددة لا طائل من ورائها، ومتقاربة أكثر من اللازم ويصعب حراستها. ففيم كان استعمالهما ؟

ويوجد فى جزيرة فيلة أثر صغير قدمناه فى اللوحة ٢٠ الجزء الأول، لاحظنا فيه توزيعا مشابها لتوزيع رواق إسنا. فباب الوسط يوصل مباشرة لداخل المعبد، والبابان الآخران يفضيان إلى أسفل رواق يحيط بالمبنى. أما المسافات بين كل عمود وآخر، فتبدو مغلقة بجدران مشابهة للجدران التى تتداخل فيها أعمدة الواجهة.

ولقد وجه تصميم هذا الأثر استكمالنا له فى التخطيط الذى يفضى إلى البابين اللذين لم ندرك فى بداية الأمر فائدتهما، وهو هدف مناسب جدا. فالواقع أن هذين البابين كانا يستخدمان للوصول إلى الرواق الذى يحيط بالمعبد ويسهل على الكهنة أن يقوموا فى الداخل بأداء تجهيز الاحتفالات التى نعرف أنها شائعة عند المصريين القدماء. ومن الجدير بالذكر أن هذه التجهيزات المتبعة هى بالضبط التى نجد الإشارة إليها فى زخارف سقف الأروقة. وهذه المسيرة واضحة بنوع خاص فى تتبع ووضع رموز الأبراج التى شاهدناها على هذه الأسقف. فترى دائما الصورة التى تبدأ المسيرة تخرج من المعبد مولية الظهر إلى الداخل، وكذلك جميع الصور الأخرى التى تمثل جزءاً من اللوحة ذاتها، فى حين أنه فى اللوحة التالية والموجودة فى الجهة الأخرى، فإن الصور يبدو أنها تدخل المعبد مولية ظهرها للخارج. إن وصف هذه الأسقف لا يمكن أن يكون مجرد لوحات تظهر فيها الأشياء مرتبة بغير نظام ولا تتابع؛ وإنما هى فى

الحقيقة إشارة إلى مسيرة لصور عليها أن تدخل المعبد من جهة، لكي تخرج منه من الجهة الأخرى. بعد أن تكون قد طافت بالأثر كله.

قد يأخذ علينا البعض أننا نتوقف لمناقشة موضوع قد يبدو للوهلة الأولى قليل الأهمية لكننا نلفت الأنظار إلى أن تقسيم المعابد مرتبط بملاقة وطيدة وحميمة بالطقوس التي تؤدي فيها. وبالتالي، بالديانة نفسها؛ لذلك فإن دراسة الدين وعادات القدماء المصريين من الأهمية بمكان، بحيث لا ينبغي أن نهمل أى جانب فيه.

وعلى الرغم من جميع الأبحاث التي قمنا بها، فإننا لم نجد فى الشوارع الملاصقة أى دليل لأجزاء الأثر الذى نقوم باستكمالها؛ لكننا لاحظنا أن أرضية البيوت، خلف الرواق، تصل إلى ارتفاع ثلثي الأعمدة. كذلك وجدنا بعض الأحجار الضخمة موضوعة فى غير نظام أسفل هذه المنازل، وسلاماً يصل بين أسطح المعبد وأسطح الرواق، فمن المرجح أن يكون المعبد كله مطموراً تحت الأرض، سليماً لم يمس تحت المنازل الحالية. وإن سلامة الجزء الذى عثرنا عليه تحملنا على تصديق ذلك. فالواقع، كيف نفترض أن المعبد تهدم بينما رواقه ظل سليماً بحيث لا ينقص منه ولا جزء بسيط ؟ من الأصوب أن نتصور أن جزأى هذا الأثر لقيا مصيراً واحداً. فسطح الرواق قد صار مغطى بانقراض المنازل التى لن تلبث أن تخفيه تماماً وهى تتراكم عليه، وسيختفى مثلما اختفى المعبد نفسه، ويلقى المصير نفسه الذى ادخرته الأقدار لسائر آثار القدماء المطمورة داخل مدن مصر الحديثة.

يقع المعبد فى مواجهة النيل؛ محوره فى الاتجاه الشمالى الشرقى بزاوية ٦٠ بالبوصلة.

وفى الوضع الحالى لأثر إسنا من المستحيل أن نحكم ونحن على أرضه، على الأثر الذى يحدثه فى الخارج : فهو مطمور ومحاط بالبيوت بحيث لا نستطيع بنظرة واحدة أن ندرك بمجموع ارتفاعه. ولكى ندرك ذلك، قمنا برسمه مستخدمين جميع المقاسات التى تمكنا من الحصول عليها، وعبرنا، بقدر

الإمكان، عن طابع الأثر، وذلك بنقل جزء كبير من الزخارف، ومن أجل التأثير المعماري، بإحلالها محل الأجزاء التي لم يسمعنا الوقت أو الظروف لرسمها.

نتج عن ذلك مقاسات جمعناها. ويبلغ ارتفاع واجهة الأثر ١٤,٨٨م وعرضها عند القاعدة ٣٧,٣٦م. وهي تمثل ستة أعمدة وقائمتين منعنيين للخارج بنسبة واحد على عشرين ويعلوها عتب وكورنيش جميل.

وإذا اتخذنا كوحدة قياس نصف قطر قاعدة العمود فهذه هي الأجزاء المختلفة للارتفاع بالتقريب :

قاعدة العمود	$\frac{1}{4}$
جزع العمود	٥
التاج	١
الطلبية	$\frac{1}{2}$
العتب	$\frac{1}{2}$
الحلية	$\frac{1}{6}$
الكورنيش	$\frac{5}{6}$
الإجمالي	$٨ \frac{1}{4}$

نصف قطر العمود، في الجزء العلوى، يقل بنسبة الثمن عن الجزء المجاور للقاعدة. أما الكرانيش والتيجان فهي شديدة الأناقة، وتغلف على المبنى كله خفة ورشاقة. وتبرز القاعدة عن جذع العمود بمقدار ثمن مقاس ( نصف القطر) كما يبرز غطاء التاج عن بدايته، بمقدار  $\frac{1}{16}$  وعن الجزء العلوى، بمقدار نصف مقاس، بحيث يبلغ التاج مقاسين، أو ٣,٦٠م كنصف قطر، وحوالى ١٠,٨٠م كمحيط. وتبرز الحلية العلوية عن منتصف محيطها، والكورنيش عن منتصف ارتفاعه.

أما الحلية التى تفصل الكورنيش عن المتب، فهى فتمتد بطول جميع الزوايا وأثرها أجمل من الأثر الذى تحدثه الزوايا البارزة المادية المعرضة للتحطيم :  
فهى تشكل إطاراً لجميع اللوحات الهيروغليفية.

وبالرغم من ضخامة باب دخول الرواق وثرائه وجماله، فإن اندهاشنا من وضعه يظل قائماً . وكذلك من وضع الجدران التى بين الأعمدة، لأننا لا يمكن أن ننكر أنها تخفى وتشوه جزئياً أعمدة الواجهة. فلا شك أن المعمارين المصريين كانوا محكومين فى ذلك بالدقة الشديدة التى يلتزمون بها فى اتباع قواعد العرف والتقاليد. فالواقع أن الأروقة المصرية لم تكن مخصصة لما خصصت له الأروقة الإغريقية فهذه الأخيرة لم تكن مخصصة فقط لاستقبال الشعب فى الطقوس الدينية، بل كانت أيضاً تستخدم ملاذاً مؤقتاً من حرارة الشمس وتقلبات الطقس فى الفصول. فالأروقة فى هذه الحالة ينبغى أن يكون من السهل الوصول إليها من جميع الجهات، وبذلك تصبح الأعمدة وقد تخلصت من الجدران بينها ظاهرة بكل أبهتها وجمالها. إذن فهى تختلف بصفة أساسية عن أروقة المصريين التى لم تكن تفتح إلا خلال أيام عدة من السنة، حينما يتم استقبال الشعب لكى يمارس فيها عبادة الإله المؤله فى هذا المعبد. بل إن الكهنة فى بعض الأحيان كانوا يمرضون فيه على الجماهير صورة أو تمثالاً للإله، فهو إذن مكان وسط بين الكهنة والشعب، مكان مقدس، يفترض حظه وحجبه حتى عن أعين الفرياء.

ومن ناحية أخرى، فإن جميع المساحة الداخلية والخارجية للأثر مزينة باللوحات الهيروغليفية. فكورنيش الواجهة مزين بحزوز تتبادل مع جمل هيروغليفية. كما أن هناك قرصاً مجنحاً يشغل عرض المسافة القائمة بين عمودى الوسط. الاعتاب وطبليات التيجان والأعمدة والباب الرئيسى، كلها مكسوة بالكتابات الهيروغليفية موزعة فى مجموعات أفقية ورأسية. وكذلك فإن الجدران بين الأعمدة والزوايا مزخرفة بلوحات تمثل قرابين مقدمة لمختلف الآلهة. وتظهر هذه الآلة جالسة وأمامها حاملو القرابين الذين يبدو أنهم يصلون من الخارج. أما الأجزاء العليا من الجدران بين الأعمدة، فممنقوشة بأفانق منتفخة

تملوها أقراص. وزخارف الجدران الخارجية تتألف من لوحات كبيرة، يظهر فيها عادة الإله ذو رأس الكبش.

وأما نقوش الواجهة ناحية الجنوب، فقد أصابها تلف بالغ؛ ويمكن أن نرجع ذلك إلى ضيق عرض الشارع المطروق والذي تمثل أحد جانبيه. أما أجزاء البناء التي تحف بالأرض، فقد وجدناها مزخرفة بالزهور وببراعم أزهار اللوتس.

وجميع النقوش الخارجية بارزة ويحيوها تجويف ، والنقوش الداخلة بارزة أيضا. أما أعمدة الواجهة الستة، فقد اعتبرت منتمية للخارج. ونقشت مثل الجدران . هذا الاختلاف فى نقش الزخارف بين الخارج والداخل يدل على مدى احتياط المصريين من أجل المحافظة على آثارهم. لأن نوع النقش الذى طبقوه بالنسبة للخارج هو أصح نوع للمحافظة على الأشكال الهيروغليفية من المضار التى يمكن أن تتعرض لها بسبب الموقع، وهى مضار لا يُخشى منها فى الداخل.

وهذان النوعان من النقوش أيضا هما الأنسب مع الطريقة التى تضاء بها اللوحات. ففي الخارج حيث الضوء دائما شديد، فإن الظلال والزوايا البارزة اللامعة تضىء تألقا على الزخارف. أما الداخل، فعلى العكس، فهو إذ لا يتلقى سوى ضوء ضعيف، فإن الظلال لا تسبب أى تناقض، وخطوط النقوش احتفظت بكامل نقائها وصفائها.

وليس داخل رواق إسنا بأقل زخرفة من خارجه. واللوحة رقم ٧٤ تعرض جزءاً من هذه الزخارف . مع أن الفكرة التى تقدمها عنها تعد ناقصة إلى حد كبير، لأن اللوحات غير مصحوبة بالكتابات الهيروغليفية الخاصة بها، والتى لم يسعفنا الوقت لرسمها كاملة، ويعد مستوى هذا الرسم متناسبا مع التفاصيل التى يضمها. ولن نهتم كثيرا بوصف هذه النقوش، كل ما هناك أننا سنلفت الانتباه إلى اللوحة الموجودة فى أسفل منتصف الصف الأول. فهى تصور عملية صيد طيور بالشبكة؛ وهذه الشبكة بداخلها طيور من كل نوع بجميع أوصافها. والأشخاص الذين يقومون بهزها فى حالة حركة فعلية. وبعض أجزاء الزخرفة

جاءت مكبرة فى اللوحات ٧٨، ٨٠، ٨١، ٨٢، لأنها تشتمل على مزيد من التفاصيل، وبالذات لأن جميع الكتابات الهيروغليفية منقولة بالضبط؛ والسقف كله مكسو بنقوش لافتة.

ونجد فى سائر نقوش رواق إسنا، صورة الإله ذى رأس الكبش تتكرر دائما، هذا الإله أصبح جوبيتر آمون الخاص بالإغريق. ونحن نشاهده أعلى باب مدخل المعبد، داخل قرص كبير، وعلى يمينه ويساره كهنة فى وضع العبادة (انظر اللوحة ٨٠ الشكل ٤) ووضع هذا الإله فى أبرز مكان من الأثر، وتكرار ظهوره فى الزخارف الرمزية وجميع الرواق، لا يدع مجالا للشك فى أن المعبد خصص لعبادته. وكذلك فإن جدران ما بين الأعمدة التى تغلق واجهة الرواق، مزخرفة من الداخل بلوحات مشابهة للرسم الوارد فى اللوحة رقم ٨١، فالجدران ليس لها كورنيش من الداخل، ولا يزيد سمكها على نصف قطر العمود. والشكل ٤ من اللوحة ٧٢ يصور القطع المزخرف من رواق إسنا. ومن خلال هذا الرسم، يمكن أن نعكم بصورة أفضل على نسب العمود المستقل والذى لم يفقد هيئته مثل أعمدة الواجهة.

أما قواعد الأعمدة، فلا تحمل أية زخارف. وتتألف زخارف جذع الأعمدة من ثلاثة أجزاء :

١- الجزء السفلى الذى يختلف فى جميع الأعمدة تقريبا، ويمكن أن نشاهد أشكاله فى اللوحة ٧٨، الأشكال ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

٢- الوسط، وهو تقريبا متشابه فى جميع الأعمدة.

٣- الجزء العلوى الذى يختلف فى جميع الأعمدة تقريبا، وتفصيلاته نجدها فى اللوحة ٧٨، الأشكال ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣.

أما التيجان، وتنوعها واثراؤها، فتستحق منا أن ندخل فى بعض تفصيلاتها.

وعدد هذه التيجان خمسة عشرة تاجا مختلفة، وحيث يوجد أربعة وعشرون عمودا، فقد نتج عن ذلك أن تكررت هذه التيجان فى بعض الأحيان. أما التماثل أو السيمترية المطبقة بحذافيرها فى أعمدة الواجهة الستة، فهى غير



مراعاة تماماً في داخل الرواق. نجد في مجلد اللوحات الإشارة إلى الأماكن التي تشغلها هذه التيجان المختلفة، وكذلك زخارف الأجزاء العليا والسفلى من الأعمدة. جميع التيجان فيما عدا الوارد في اللوحة ٧٨ شكل ٣، لها ارتفاع واحد ويبرز واحد من ساق العمود، ومن مسافة معينة تبدو جميعاً متشابهة. ولا نلاحظ سوى أجزائها الدقيقة الجميلة، كما لا نلاحظ جيداً تنوع زخارفها. ولكن بتفحصها عن قرب نشاهد على كل منها الكثير من التفاصيل الرائعة وهي عبارة عن باقات من نباتات البلد مثل الموز وسعف النخيل والكروم وثمرها واللوتس والخيزران، هذه النباتات تظهر معلقة بخمسة أربطة أفقية تشكل جانباً من زخرفة جذع العمود.

يزيد ارتفاع التاج (اللوحة ٧٨ الشكل ٢) عن غيره. مع الاحتفاظ بالبروز نفسه، مما يضاف عليه مزيداً من الجمال. وهو يتألف من ثمانى سعفات نخيل مربوطة حول التاج. وقد اجتمعت لهذا التاج، بالإضافة إلى صفاته الأخرى، صفة البساطة والنقاء لى يحتل المرتبة الأولى بين جميع التيجان التى صنعها المصريون. ومع أن الرسومات التى قام بها الرحالة المحدثون الذين أساءوا نقل زخارفه لم تعط عنه سوى فكرة ضعيفة، فقد جذب انتباه بعض المماريين الذين استخدموا نمودجه فى بعض المنشآت الخاصة؛ إن جماله الفائق يعطى الأمل فى أن نراه ذات يوم يحمل آثاراً كبرى، ويسهم فى تجديد العمارة فى القرن التاسع عشر.

ويختلف الأمر بالنسبة للتاج الوارد فى اللوحة ٧٨ الشكل ٥، ومع ذلك، فبالقاء نظرة على رسوماتنا، لا نستطيع إلا أن نعترف بأن الإغريق أخذوا منه بدون أدنى شك الذوق الذى خلموه على حليات الأعمدة اليونانية. والملاحظ أن كثرة تفاصيل النقش فى هذا العمود يجعل تنفيذه مهمة صعبة، ومع ذلك فقد نفذه المصريون بكل دقة.

وقد رسم الفنانون أعلى هذه التيجان أجزاء بمرتفعات متباينة، للإشارة إلى البروزات الخاصة بزخارفها المختلفة، بعض هذه التيجان يتألف من قاعدة عليا

منتظمة ومتصلة. وبعضها الآخر مقطوع إلى أربعة أو ثمانية أجزاء. والقاعدة العليا للتاج المؤلفة من سبع النخيل مقسمة إلى أقسام بعدد السقف.

فى الرسم المساحى، يبدو الجزء العلوى من التاج ثقيلًا بمض الشيء؛ ولكن من اليسير، أن نلاحظ أن المنظور من شأنه أن يخفى هذا العيب تماما. ويكفى، للتأكد من ذلك، معاينة الرسومات الواردة فى اللوحة ٧٥، مع ملاحظة أن زاوية النظر التى أخذت منها ليست أفضل ما يمكن، وذلك بسبب انسداد الرواق بالانقراض، بل علينا أن نعبر عن إعجابنا للمهارة التى استطاع بها المصريون إخفاء عيب لم يكن فى مقدور قوة البناء أن تتجنبه؛ لأنه ليس فى الإمكان تقليل سمك هذا الجزء العلوى من التاج دون أن نعرضه للتعطيم على الفور.

إن جميع نقوش رواق إسنا نفذت بدقة وبساطة. وأشكال الحيوانات ولا سيما صور الصقر والكبش والأسد والتمساح التى تتكرر غالبا، فقد رسمت بإتقان مطلق. والأثر العام الذى تحدثه هذه النقوش لطيف للغاية؛ فاللون الأسود فى الحجر، والغبار الرمادى الذى حطَّ فوق الأجزاء البارزة، يسهمان فى إبراز هذه النقوش؛ دون إرهاب العين بزحام التفاصيل.

إذا جمعنا سائر أجزاء الأثر الذى قمنا بوصفه الآن، وإذا انتقلنا بالخيال إلى وسط هذه الأعمدة العظيمة الهائلة، تحت هذه التيجان التى تشير ضخامتها الرعب، لولا ما أخذه المعمارىون من محاذير لتغطيتها تحت أجمل النسب وأرقها، وأخيرا إذا تصورنا الجدران مكسوة من الداخل والخارج، بكل امتداداتها، بواسطة لوحات رمزية رائعة فى نقوشها وتآلق بريق ألوانها التى زادت ثراء، لما أمكننا أن نبخل على المماريين المصريين بالتعبير عن إعجابنا. إن سكان مصر، الذين يقيمون وسط هذه الآثار القديمة ينظرون إليها دائما بعين الإعجاب الذى لا يستطيع مرور الزمن أن ينال منه، ويدفعهم إلى نسبتها إلى قوى خارقة تفوق طاقة البشر.

ومن أجل أن نعرض مجموع أجزاء رواق إسنا التى قمنا بتقديمها فرادى، وللحكم عليها حكما مقارنا وإبراز تأثير الضوء والظلال وسط الأعمدة فى هذا

المكان الرهيب، وباختصار، لكي نعطي الانطباع العام لهذا الأثر، رأينا من الضروري أن نعرض المنظور الوارد في اللوحة رقم ٨٢ فإذا كان يحدث انطباعا ما، فلنحكم على مدى الشعور الذي كنا نشعر نحن به، في كل لقطة من اللقطات المدهشة، كهذه اللقطة، التي كانت تعرض لنا.

إن هذا المنظور قد أخذ من ارتفاع مترين أعلى الأرض. وجميع أجزاء الأثر التي كانت موجودة بين عين المشاهد وتصميم اللوحة، قد ألغيت. واستعملنا في الزخارف جميع التفاصيل الواردة في اللوحات السابقة، مع الإحلال محل الأجزاء الناقصة، مما لا يمكن أن يوقع في أى خطأ، ويسهم في تحقيق التأثير العام والصادق لجميع أجزاء المبنى، وذلك بالتنسيق بينها. وأخيرا، فقد افترضنا أن موكبا رسميا كان يدخل المعبد، فاستعملنا، بالنسبة لمجموع شخصيات هذا الموكب وللأزياء، رسماً نقلناه من أحد مباني طيبة، في مدينة هابو.

وقد اختيرت خطوط اللوحة بحيث يكون نظام الأبراج المنقوش على أحد الأسقف السفلية موجودا على التصميم الأول، مما يساعد في الحكم على وضع المسيرة الخاصة برموز الأبراج الإثني عشر. وقد روعي نظامها تماما، فهي موزعة في مجموعتين في اتجاه طول السقف السفلي، وجميع الصور في كل مجموعة الوجوه فيها متجهة لناحية معينة، والرأس نحو منتصف الرواق، أما الثور والحمل، فيعرض السقف. العقرب والسرطان يسيران على السقف في أثر بقية الموكب. وأما الأسماك، فمنتصبة على ذيولها، وأخيرا، فالقوس مقلوب تماما وقدماه لأعلى، لكنه في مسيرته يتبع دائما الاتجاه الذي تتبعه بقية رموز الأبراج.

وهذا نظام الأبراج المصرى الوحيد الذى يظهر كاملا فيما بين الأعمدة، لكن من الملاحظ أنه هنا يحتفظ بوضع مماثل للأبراج الموجودة في مسافتين مختلفتين من المسافات التي بين الأقواس. فالأبراج الستة الأولى تظهر وهي تدخل المعبد، بينما الستة الأخرى تخرج منه، يفصل المجموعتين شريط من الكتابات الهيروغليفية يقسم اللوحة بكامل طولها.

قد يكون رسم الأبراج غير مفصل فى المنظور الذى تقدمه، ونجد هذا الأثر الفلكى معروضاً بشكل أكثر دقة فى اللوحة رقم ٧٩ ، لكن من الضرورى توضيح موقعه فى سقف الرواق حتى يسهل تفهم العمل الذى تم به<sup>(١)</sup> وكانت هذه اللوحة من بين اللوحات التى تم التعبير عنها بدقة لذلك فقد خصصنا لها مكاناً أكبر لتمييزها عن الباقي.

وإذا تمكنا من تقديم تقرير واف وشامل يخص باقى اللوحات الهيروغليفية التى تزين المنظور الذى تقدمه، فإن هذه اللوحة سوف تحظى باهتمام مميز من طرفنا نحن الذين نعتبر غرباء عن التقاليد والمعادن وقوانين قدماء المصريين.

إذن، فكم يوحى هذا المعبد من تكريم للأشخاص الذين يشاهدون قوانينهم، وعاداتهم، ونتائج علومهم، وثقافتهم، ثم دياناتهم مرسومة برموز لا تمحى.

بنى رواق إسنا من الحجر الرملى، و يبلغ طول الأحجار، التى تكون السقف، تقريباً سبعة إلى ثمانية أمتار، وعرضها مترين، وكانت مثبتة فيما بينها عن طريق السنة لازلنا نرى أثرها.

وكانت هذه الأحجار فحسب موضوعة بمضها فوق بعض وتلتحم كلها على مستوى طولها دون استعمال أى ملاط<sup>(٢)</sup> .

وتبلغ المساحة الداخلية والخارجية لرواق إسنا حوالى خمسة آلاف متر مربع، وهو ملئ بالرموز الهيروغليفية: وإذا افترضنا أنه تم نحت عشر المتر المربع فى اليوم الواحد، فقد استوجب تزيين الرواق كله خمسين ألف يوم، واستعمال ٣٥٠٠ متر مكعب من الأحجار.

ولا نقدر على إعطاء أى تفاصيل عن الطريقة التى أسس بها هذا الأثر ولكننا نشير فحسب إلى أن أساساته لم تخر من أى جانب، وأنه حافظ جيداً

---

(١) دراسة السيد فورييه عن الآثار الفلكية.

(٢) سوف نتحدث بشكل مفصل عن إنشاءات المعابد وعن المواد المستعملة فى الدراسة الشاملة التى سوف نقوم بنشرها حول العمارة المصرية.

على ثباته وتوازنه. ولكى نعطي مزيدا من المعلومات فى هذا الإطار، فقد وجب علينا القيام بأبحاث عديدة، ولكن قصر الوقت حال دون ذلك فهذه الأبحاث كانت مرتبطة بمشروع أكبر وهو إزالة كل البيوت المجاورة للمعبد والحطام الناتج عنها. فموقع هذا الأثر فى وسط مدينة من بين المدن الأهلة بالسكان فى مصر العليا. وهو الذى أصبح حيا خاصا بالفرنسيين، قد سهل هذه العملية حيث يوجد عدد كبير من العمال الذين تتم مراقبتهم بصفة مستمرة لذلك لم يكن من الممكن لهم القيام بعمليات التنقيب التى نقوم بها كما حدث فى أماكن أخرى حيث لم تتح تحركات الجيش أى مواقع خالية.

لكن ظروف الحرب فرضت على القائد تركيز قوته فى نواحي القاهرة، وترك ولاية إقليم إسنا لمراد بك.

وتم إخلاء مدينة إسنا. وبهذا فقدنا الأمل فى مشاهدة ظهور المعبد أو بالأصح إزالة الرديم، وفى تفحص أساسات، وارتفاعه فوق السهل وأعلى النيل، وفى جمع معلومات ثمينة حول فن البناء عند قدماء المصريين.

وكان شعورنا بالندم قويا لدرجة تجعلنا نفكر بأن هذا الأثر الذى أخذ يطمس شيئا فشيئا سوف يأتى يوم ويختفى للأبد.

فريما يأتى رحالة جدد إلى مصر العليا يوماً ما، وينغمسون فى أبحاث جديدة؛ هذا إذا استفادوا من المزايا التى تقدمها لهم أول أعمالنا وكذلك موقع هذا الأثر فى مدينة مهمة، إذن فإننا لانشك فى أنهم سيحصلون على نتائج ثمينة جدا. وسوف يجدون فى إسنا موارد بحثوا عنها طويلا.

على بعد ثلاثة أرباع فرسخ شمالى إسنا، وعلى بعد ألفين وخمسمائة متر تقريبا من النهر، عثرنا على بقايا لمعبد مصرى. وقد كان أقل أهمية من الذى يوجد داخل المدينة نفسها، كما أنه لم يحفظ بشكل جيد، ولا تدل أطلاله على قدم لقدمه لأن الهيئة التى كان عليها لم تكن نتيجة لقدم عهده بل ناتجة عن حدث قريب العهد انفصلت فيه أجزاء عديدة عن المعبد.

وقد أكد لنا سكان إسنا أن ذلك كان راجعا للحفر المتعدد فى أساساته تحت أوامر "إسماعيل بك" الذى كانت لديه آمال كبيرة فى العثور على الكتوز. السكان أنفسهم قالوا لنا بأنه قبل ذلك المهد كان المعبد على هيئته الأولى تقريبا، كما أن الألوان التى تغطى النقوش كانت لامعة ومحفوظة بشكل جيد.

وكان هذا المعبد قد أنشئ فوق تل صناعى ومرتفع، حيث إنه رغم الارتفاع الكبير لوادى النيل، فإنه يبقى أكثر علوا. كما أنه محاط بالأنقاض الناتجة عن تهدم الأجزاء العليا للمعبد، ويحطام الطوب والفخار القديم كذلك، فلا تدل نواحيه على أنها كانت معمرة بعد الحقبة التى كان مرتادا فيها. وموقعه الذى يوجد على مسافة بعيدة من النهر وعلى حدود الأراضى المزروعة لم يساعد على تأسيس مدينة : فقد كان دون شك مكانا للتقوى هيأته بعض الظروف الدينية لذلك، أو ربما كان محرابا اعتنى بصيانتته كبار كهنة المعبد الكبير لإسنا.

وفى هذه المرحلة، كان الكهنة - سواء عن طريق القناة أو عن طريق أى وسيلة أخرى - يأتون بكمية كبيرة من الماء لسد احتياجات الذين يسهرون على خدمة هذا المكان المقدس وكذلك للقوافل التى تقصده للحج. لكن عند اضمحلال الديانة المصرية لم تعد ضواحيه يسكنها أحد. وبعض الأعراب الذين يقيمون فى النواحي قرب السلسلة الليبية، كانوا نادرا ما يقومون ببعض الرحلات إلى هناك.

وهذا المعبد الذى يشغل اهتمامنا، يظهر وكأنه بنى بكثير من الاستمجال وكذلك الإهمال، فلم يؤسس بشكل جيد: فالأحجار غير منتظمة والقواعد لم تكن دائما فى المستوى نفسه ، وكذلك الوصلات لم تكن عمودية الشكل على الإطلاق. كما أنه تم وضع، وبدون أى حذر، ممرات فى سمك الجدران بين المداكين الرابع والثامن التى تشكل أحجارها<sup>(١)</sup> PARPAING، وهو الشيء الذى ألحق ضررا كبيرا بمتانة البنيان. كما أن الأحجار لم تكن ملتصقة فيما بينها بشكل كاف، لذلك كثير من الجدران انفصلت بعضها عن بعض.

---

(١) تعنى «PARPAING» فى المنشآت، الأحجار التى تشكل الواجهة الداخلية والخارجية للعائط الذى تكون جزءا منه.

ونشاهد فى داخل الرواق فتحة كبيرة يبلغ طولها مترا تقريبا، والأحجار التى يتكون منها السقف وجدت اعتدالا كافيا جعلها تبقى على هيئتها. أما الواجهة، فلم يحافظ عمودان منها على توازنهما، فأدى وقوعهما إلى تحطم جزء من السقف. وتحطم الكورنيش والعتب أيضا وتراكمت أحجارهما الكبيرة أمام المعبد، وتحمل النقوش التى زينت بها أجزاء كبيرة من المعبد وبالأخص القصر المجنح الذى يوجد فى الوسط.

وأخيرا، فإن المبنى الذى كان قديما خافيا وغامضا، أصبح حاليا سهل الوصول إليه وذلك عن طريق فتحات نفذت حديثا فى كل الجوانب.

وأمام المعبد، وعلى بعد بعض الأمتار، عثرنا على بقايا منشآت على شكل أحجار رملية كبيرة تم الكشف عنها منذ عهد قريب.

وقد ظننا فى بادئ الأمر أنها جزء من أساس بوابة، ولكن موقع هذه المنشآت واتجاهها نحو النيل جعلنا نشك فى كونها قناة كانت تأتى بمياه النيل. لكننا بالرغم من ذلك نعترف أن الأبحاث التى أجريناها فى هذا الموقع لتوضيح وجهة نظرنا فى إطار هذا الموضوع، لم تعطنا نتائج مرضية. لذلك، فقد مددنا التقيب إلى ما بعد هذه المنشآت، فمرفنا فحسب أنها وضعت فوق طبقة من الأنقاض وحطام الفخار.

رواق المعبد مرفوع بثمانية أعمدة يبلغ قطرها ١,٢٣ متر، ارتفاعها ٥,٦٥ متر، ويضم هذا أيضا التاج، وهذه الأعمدة وضعت فى صفين متوازيين للواجهة قاعدة التاج أقل سمكا من التى توجد فى إسنا، ونفس الشيء بالنسبة للمكعب الذى يعلوها. و فوق هذا الأخير وضع الحمل الذى يستند أحجار السقف، ويبلغ محيط هذا الجزء مرة ونصف من محيط العمود باستثناء الجزء الذى يوجد فى الوسط الذى يمثل ضعف الأجزاء الأخرى. و يبلغ العرض الداخلى للرواق سبعة عشر مترا، وعمقه سبعة أمتار ونصف .

وتم إدخال الأربعة أعمدة للواجهة فى جدران البراح وفى بوابة المدخل، وتلقى البوابة الرواق فى علو الثلاثين من الأعمدة.

وكانت البقايا قليلة جدا، حيث وجدنا صعوبات كثيرة فى تحديد المقاييس التى نعطيها.

ويبلغ طول الواجهة عشرين مترا، أما ارتفاعها فيبلغ سبعة أمتار ونصفا.  
وإذا أخذنا كقياس نصف القطر للجزء الأسفل من الممود، فستجدون  
المقاييس المتناسبة لمختلف أجزاء الارتفاع كالآتى:

قاعدة الممود  $\frac{2}{3}$

جذع الممود ٧

التاج  $\frac{2}{3}$  ١

الطبلية  $\frac{2}{3}$

العتب  $\frac{1}{3}$  ١

الكورنيش  $\frac{2}{3}$  ١

المجموع  $\frac{2}{3}$  ١٢

وقطر الممود فى الجزء الأعلى أقل من قطر قضيب القاعدة بجزء من اثنى عشر. وكذلك فى معبد إسنا الكبير، نجد قضيب يفصل العتب عن الكورنيش وينزل على طول زوايا المعبد ليشكل نوعا من الإطار للوحات الرموز الهيروغليفية.

وتظهر الواجهة البارزة للتيجان والكورنيش أقل تناسبا من واجهة المعبد الكبير لإسنا، كذلك تختلف جدران ما بين الأعمدة، فهنا لها نفس سمك الأعمدة والكرانيش توجد بالداخل كما بالخارج.

أما جدران الرواق، فهى عمودية بالداخل ومائلة فى الخارج بنسبة جزء إلى العشرين من علوها وحاليا فهى مجوفة فى أماكن عديدة.

وقد تم نحتت ممرات فى سمكها، كما سبق الذكر، وكانت هذه الممرات التى نجدها فى العديد من المعابد المصرية تستعمل، بدون شك، فى بعض الاحتفالات السرية التى عن طريقها كان الكهنة يخضعون الشعب لحالة من الرهبة والاحترام الذى كان تعتمد عليه قوتهم ومكانتهم.



صممت واجهة المعبد ببيروز داخل الرواق. ويقودنا الباب الذى فى الوسط إلى أول صالة، حيث تبلغ ثمانية أمتار على ثلاثة ونصف. وبالإضافة لباب الدخول، تحتوى هذه الصالة على ثلاثة مخارج، الأول فى اليمين والثانى فى اليسار. أما الثالث، فهو موجود أمام الأول. ويؤدى هذا الأخير إلى صالة ثانية تبلغ مساحتها ٩,٢٣ متر على ٢,٣٩ متر. وأكبر طول فى اتجاه عرض المعبد كله حيث تشغله هذه الصالة.

ومن الممكن أيضا الوصول إليها عبر المخرج الذى يوجد فى اليسار فى أول صالة، وكذلك عبر غرفتين صغيرتين تؤدى الأولى منهم إلى الثالثة وتوصلان إلى الصالة الثانية. وأولى هاتين الغرفتين تتصل بالخارج عن طريق فتحة صغيرة وضمت مؤخرا. وعن طريق الصالة الثانية نصل إلى الثالثة التى تهدمت كل جدرانها تقريبا، والتى تشكل قدس الأقداس انظر اللوحة رقم ٨٥ .

والباب الذى يوجد فى اليمين فى الصالة الأولى للمعبد، تؤدى إلى سلم يمكن استعماله للصعود إلى السطح وإلى غرفة صغيرة فى الخلف. ويلتف هذا السلم فى إطار مربع تبلغ جوانبه ٢,٧٩ متر والمحور ١,٠٩ متر مربع، وبخلاف السلم المعتاد عند المصريين، فقد كان محطما كله تقريبا وغير صالح للاستعمال.

لكن يسهل الصعود إلى السطح الذى لا يزال موجودا، وذلك عن طريق انحدار الحائط الجانبى فى الشمال.

والنقوش التى توجد فى هذا الأثر أقل جودة من التى توجد فى رواق إسنا، فهى لم ترسم جيدا ولم تنفذ بدقة . كان الرواق مزينا كله بالنقوش، أما المعبد فلم يكن كذلك. فلا نجد النقوش إلا على الباب الذى يؤدى من الصالة الأولى إلى الصالة الثانية. وقد نقش هذا الباب بشكل أكثر دقة من الرواق. وكل النقوش كانت ملونة، وقد حفظت ألوانها بشكل جيد أكثر من غيرها، فهى لاتزال نضرة ولا معة. ومن بين هذه الألوان نلاحظ على وجه الخصوص: الأحمر، والأزرق، والأصفر، والمذهب. وزينت الجدران الجانبية للرواق بنفس طريقة الرواق الكبير لإسنا.

تمكنا من رسم بعض الأجزاء المنمذلة فحسب. نلاحظ فيها بعض الرموز الهيروغليفية وثعابين أضيفت لها أيدٍ وأرجل رسمت أكثر من مرة.

أما الأعمدة، فهي مليئة بالنقوش : فى الجزء الأسفل تتعرف على الأزهار وعلى أوراق اللوتس المرسومة بدقة شديدة. ولقد رسمنا بعناية كل التيجان، التى يصل عددها إلى ستة، والتى زينت بزهرة اللوتس بكل أشكالها. وهذه التيجان شبيهة بالتى توجد فى رواق إسنا والتى لازالت تحافظ على شكلها.

ولكى نعطى فكرة صائبة عن هذه التيجان، فقد قمنا برسمها فى أوضاع مختلفة ثم وضعناها فى منظور حتى نتمكن من التأكد من أن الرسوم الهندسية فقدت جمالها وأناقتها فى هذه التيجان (اللوحتين ٨٥ و٨٦).

والنقوش التى شددت انتباهنا أكثر كانت تلك التى توجد فى سقف الرواق، ما بين الأعمدة والجدران الجانبية. فكانت تعرض فى جزئين رسم الأبراج. قمنا برسم كل اللوحة التى توجد فى اليسار عند المدخل. وبالرغم من بعض الحوادث التى تعرضت لها أحجار السقف، فإن كل الأشكال مازالت واضحة. نجد فى هذا الجزء، برج الأسد، والسرطان، والجوزاء، والثور، الحمل، ثم برج الحوت. والأسد هو أول برج نراه عند دخولنا إلى الرواق، وهو يواجه ظهره إلى الخارج. أما الحوت، فيوجد فى الداخل، وكل الأبراج الأخرى عرضت بالنظام نفسه الذى ذكرناه.

وفى الجانب الثانى من الرواق، لا تزال الأحجار التى نحت عليها الجدى والدلو، فى مكانها فى الداخل ، إذ لازلنا نرى نصف القوس، والحجر الذى يوجد عليه النصف الثانى من هذا البرج تحطم من النصف وسقط : وقد أخذنا الجزئين وقاريناها ببعضهما ثم قمنا برسمه. أما الأبراج الأخرى، وهى المقرب، والميزان ثم المذراء، فقد نقشت فى الأحجار المهدمة فى مدخل المبد. كانت أحجامها كبيرة جداً لدرجة منعنا من أن نقاربها من بعضها ونقوم برسمها، كما فعلنا ببرج القوس.

لكن بالرغم من ذلك، فإننا نؤكد أنه ليس من المستحيل جمع هذه القطع

وتركيبتها لأننا عندما كنا نشاهد هذه الأنقاض، رأينا جزءا من مؤخرة العقرب، وكفة من الميزان، وسنبلة العذراء. وللأسف الشديد لم تكن لهذه القطع بقية حتى نتمكن من إضافتها لرسوماتنا.

ونظن أن هذه الأبراج الثلاثة كانت تسير في النظام نفسه الذي توجد عليه الأبراج الثلاثة الأخرى، إذن فهذا الرسم الفلكي للبروج له نفس بداية نظيره برواق إسنا: يستهل بالعذراء، ثم يختم بالأسد والأبراج التي في اليمين تخرج من المعبد، والأخرى تدخل إليه، وهو الشيء الذي ينتج عنه أن كل هذه الأشكال تكون مسيرة دينية مستمرة تطوف حول الرواق.

وبمعزل عن الأبراج الفلكية الاثني عشر، نجد في اللوحة أشكالا أخرى عديدة نقابلها في معظم الأجزاء الفلكية لرواق إسنا (انظر اللوحة رقم ٨٧).

### معبد في شرق إسنا على الضفة اليمنى للنيل

في الجانب الشرقي لإسنا، وعلى الضفة اليمنى لنهر النيل وعلى مسافة ربع فرسخ تقريبا من النهر، توجد بقايا لمعبد مصري صغير.

يقع المعبد على تل من الأنقاض في أعلى السهل يتكون من حطام الطوب والفخار، وهو الشيء الذي يضاف عليها لونا أحمر ويجعلها تظهر من مسافة بعيدة.

ويدل الحجم الكبير للطوب الذي نجده في هذا الموقع، وكذلك شكله على قدم عهده، ويظهر البعض منه وقد تم حرقه إلى حد ما، والبعض الآخر يظهر أحمر اللون. وهناك كذلك جزء تم تحفيقه في الشمس. فمن المحتمل إذن أنه في جميع المنشآت يتم استعمال الطوب المجفف، ويفترض أن هذا التنوع في أشكال الطوب التي رأيناها يرجع سببه إلى حريق كان قد شب في المدينة ودمرها وهو الشيء الذي يفسر الطوب المحروق الذي يوجد على واجهة بعض الجدران. أما الذي يشكل سمكها، فلم يطرأ عليه أي تغيير. ولا يزال نبتنا بالهيئة التي كانت عليها في بادئ الأمر. كانت هذه الفكرة التي استوحيناها عند زيارتنا للموقع. أما المدينة القديمة، فلم يبق منها سوى الأنقاض وتمتد إلى بعيد نحو الجبل. ولا نلاحظ أي منشأة حديثة في نواحي المعبد.

ومساحة هذا المعبد هي أصغر من المعبد الذى يوجد فى الضفة اليسرى للنيل شمال إسنا. ويظهر أنه لم يكتمل، وكذلك النقوش التى يحتوى عليها. وكل ما تبقى من هذا المعبد هو رواق له ثمانية أعمدة وصالتان صغيرتان.

وفى الداخل، يبلغ عرض الرواق ١٢,٥١ متر وعمقه ٧,٢٨ متر. ويبلغ عرض الواجهة ١٥,٧٩ متر ارتفاعها من ٨ إلى ٩ أمتار. القضيبيب الذى يفصل العتب عن الكورنيش تنزل على طول زوايا المعبد وتشكل بذلك إطارا.

ولا يمكن الدخول إلى الرواق إلا عبر الجزء الأوسط من الستائر الحجرية.

أما باقى الأجزاء، فهى مغلقة بواسطة جدران يصل ارتفاعها إلى نصف ارتفاع الأعمدة، وقد حفظت هذه الجدران بشكل أحسن من جدران رواق معبد شمال إسنا : فتمكنا بسهولة من قياس كل الأجزاء. ويبقى الارتفاع الإجمالى هو القياس الوحيد الذى كان من المستحيل أخذه بسبب رديم المعبد. كما أننا لم نتمكن من القيام بمزيد من عمليات الحفر للوصول إلى أرضية هذا الأثر. وكل ما نعرضه فى اللوحة ٨٩ شكل ٢ وشكل ٢ هو عبارة عن مطابقة تقترب كثيرا من الحقيقة لأنها تتناسب كثيرا مع مقاييس الأعمدة والجدران التى أخذت من منشآت أثرية أخرى. وحسب هذه المطابقة، يبلغ الأعمدة ٦,٧٥ متر وبما فى ذلك تضم التاج وقطرها يبلغ مترا واحدا. وإذا أخذنا كوحدة قياسية نصف قطر العمود فتسجد نسب مختلف الأجزاء التى تم قياسها كالآتى :

من أعلى جدران بين الأعمدة إلى أعلى تاج على شكل رأس إيزيس

الجزء الثانى ٢

الجزء الثالث ٢

١  
٣

من أعلى جدران بين الأعمدة إلى أسفل التيجان ٥  
١  
٦

التاج ٢  
١  
٦

الطولية ١  
٧

العتب والقضيب  $\frac{1}{3}$  ١

الكورنيش والحلية ٢

.....  $\frac{1}{3}$  ١١

كورنيش جدران بين الأعمدة من أسفل القضيب إلى أعلى الأقراص

الموضوعة على رؤوس الحيات. ٢

وحتى الأرضية  $\frac{1}{3}$  ٤

.....  $\frac{2}{3}$  ١٧

وقد دمر جزء كبير من سقف الرواق وتبلغ جدران بين الأعمدة كلها ما يعادل قطر ونصف من العمود باستثناء الجزء الأوسط الذى يزيد عنها بنصف قطر.

وواجهة المعبد صممت بحيث تكون بارزة داخل الرواق. والجدار الذى يفصل بين جزئى المعبد سميك جدا : اكتشفنا بداخله فجوة تمر عبر أعلى باب المعبد وتمتد عبر امتداد الجدار نفسه، وعثرنا أيضا على فجوة أخرى مشابهة عند تقاطع إحدى الجدران المجاورة.

وأخيرا، عند الجدار الجانبى للرواق على اليمين فى المدخل، شاهدها فتحة مربعة الشكل مليئة بالأنقاض حيث لم نتمكن من دخولها، لكنه كان من السهل التأكد من أنها لا تتصل بالخارج : فريما كانت تستخدم للوصول إلى الممرات المنتشرة فى كل الحجرات، فحجمها الكبير كان يسمح لمرور رجل عبرها.

والصالة التى ندخل إليها عند خروجنا من الرواق يبلغ طولها ٣,٢٣ متر وعرضها ٤,٧٧ متر ويممزل عن هذا المخرج، ولها مخرجين آخرين: الأول فى مواجهة الثانى وعلى محور المعبد، أما الثانى فيوجد فى المدخل على اليسار، ويؤدى إلى صالة ثانية تبلغ مساحتها ٢,٧٨ متر على ٣,٨٠ وخلف هاتين الصالتين لا نجد سوى أجزاء من الجدران. وهو الشيء الذى يدل على أن المعبد كان له امتداد واسع، لكنها لا توفر أى إمكانية تساعد على استكمال الأجزاء الناقصة فى الرسم.

فهذه الأجزاء لا تدل على نظام ولا تناسب : حيث أننا إذا نظرنا إلى التصميم نلاحظ أن واجهة المعبد البارزة داخل الرواق لا تتطبق مع المنشآت الموجودة في الخلف.

وهذه الفرابة التي لا نجد لها مثيلاً، تجعلنا نشك في أن بعض أجزاء هذا المعبد أنشأت في عهود لاحقة.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن زخرفة المعبد غير مكتملة، وكذلك الواجهة. ونلاحظ المتب الذي يعلو الجدار الأوسط بين الأعمدة ، وجود جمران مجنح وضع في قارب وتتأمله وجوه عديدة. والأسقف ليست منقوشة. وإطار الباب الذي يؤدي من الرواق إلى المعبد، مزخرف، ونقدم في اللوحة ٨٩ جزءاً من زخرفته. وفي داخل الباب في الجانب الأيمن من المدخل، حددت بالأحمر، وبدون مربعات، أشكال عديدة. وقد لاحظنا رسماً يجسد أشكالاً متعددة لثور وطريقة الرسم هذه تتميز بجرأة جد ملحوظة.

ونجد في هذه الرسوم المخطوطة بصورة أولية نوعاً من الإحساس والتحديد النادرين، وهو الشيء الذي يدل على أن هؤلاء الفنانين كانوا متمرنين ويتمتعون بسهولة التنفيذ.

أما التيجان، فكانت كلها منقوشة، وتختلف تلك التي توجد في يمين ويسار باب مدخل الرواق عن الباقي: فهي تتكون من ٤ أشكال لنساء يضمن على رأسهن أغطية رأس طويلة ويستندن على جذع العمود. ويملو هذه الأشكال طبلية العمود التي تحتوى على أربع لوحات هيروغليفية، ويمتبر هذا تقليد غير دقيق لتاج معبد دندرة، وهو أيضاً أقل جمالاً من الذي استعمل في معابد جزيرة فيلة. أما التيجان الأخرى، فهي شبيهة بتيجان رواق إسنا، أحدهم يجسد صورة نخلة وهي أكثر دقة من التي نحتت على تاج المعبد الكبير لإسنا، حيث تم رسم كل من الجريد والبلح وكذلك أطراف أغصان النخلة التي تبقى حول الجذع عندما تستغل أوراقها.

وتوجد جبال السلسلة العربية على بعد ٢٠٠٠ متر تقريبا شرقى المعبد.

### دير قبطلى فى جنوبى إسنا

قادنا بعض المسيحيين الأقباط من سكان إسنا إلى ديرهم الذى يوجد على بعد ٢/٤ فرسخ

جنوبى المدينة. وهذه الكنيسة والدير الذى ينتمى لها، هم مشهوران بالمذبحة الرهيبة للمسيحيين التى جرت أحداثها فى عهد دقلديانوس، وتمتبر هذه الكنيسة مكانا يحج إليه الكثيرون، ويظهر أن لهذا الدير أهمية بالغة، والرحالة الذين سبقونا يتفقون كلهم على ذلك، كما أن الأطلال التى نشاهدها حاليا جاءت كلها كسند لشهاداتهم.

وأثناء زيارتنا لهذه المواقع، كان كل ماتبقى من هذه الأطلال قد تم ترميمه لكن يبقى دائما أن الذوق الرفيع لايسبق الأعمال التى قاموا بها. وأثناء رحلتنا كنا مشغولين جدا بإصلاح الخسائر التى ألحقها المماليك.

### الجغرافية المقارنة

إنه التعذيب الذى عانى منه ملايين المسيحيين فى وقت واحد فى نواحي إسنا أثناء تنفيذ الحكم الذى أمر به دقلديانوس، جعل دانفيل يشتق اسم إسنا من أثينا وتعنى البراقة.

لم نعرف أى شهادات تاريخية تدل على أن المسيحيين كان لهم نفوذ كبير فى مصر ليتمكنوا من تغيير أسماء المدن الأكثر أهمية كمدينة إسنا. ويظهر لنا أنه من المحتمل أن اسم إسنا هو الاسم المصرى القديم الذى تم الحفاظ عليه كاسماء: دندرة، كوم أمبو، أرمنت وأخرى، بينما الأسماء التى أطلقها اليونانيون قد نسيت كلها.

وليس هناك شك فى أن الأسماء اليونانية كلها لم تستعمل قط من طرف العرب حيث يعتبرون الوحيديين الذين يحافظون على الأعراف وعلى الأسماء القديمة وذلك راجع لانغزالهم وبساطة تقاليدهم.

ويضع دانفيل مدينة لاتوبوليس فى إسنأ، وهو الشيء الذى يحدد ذلك هو توافق خط المرض بين لاتوبوليس وبين أثينا. فالخط الأول أعطاه بطليموس والثانى أعطاه ابن يونس.

وحسب قولهم فهاتان المدينتان هما تحت ٢٥، بينما تبلغ درجة عرض إسنا كما سبق الذكر ٢٨' ١٧؛ ٢٥ ضمن المؤكد إذن أن ابن يونس قد أخطأ فى ٢٨' ١٧ وحسب بطليموس ويدون أى خطأ، تتناسب درجة عرض إسنا الذى حددها نوبيه تقريبا مع درجة عرض هيرمونثيس بما أن هذا المرض لا يختلف إلا بنسبة ٢٢' ٢٠.

ومن جهة أخرى يقول استرابون: إن سكان هيرمونثيس كانوا يقدسون جوبيتر، بينما من المؤكد أن معبد إسنا كما سبق الذكر كان مهدى للديانة المصرية الوحيدة التى أعطت لليونان فكرة جوبيتر آمون، فتم الخلط بينهما. كل هذه الظروف تجتمع لتجعلنا نعتقد أن مدينة إسنا هى هيرمونثيس القديمة. وأن لاتوبوليس تقع فى الجنوب. لكن وجهة النظر هذه تبقى مبهمة ولا تقدر تأكيدها وينتج عن ذلك أن قرية أرمنت التى تحتوى على أنقاض باقعة الأهمية هى التى توجد شمالى طيبة، لن تكون موقع هيرمونثيس القديمة لكن تطابق الأسماء يكون لصالح عكس وجهة النظر هذه.

ولن يبقى أدنى شك إذا اعتبرنا أن جدول دليل البلدان، الذى يرجع تقريبا لنفس عهد بطليموس يضع هيرمونثيس على بعد خمسين ميلا، أو ٧٣٠٠٠ متر تقريبا من دندرة إذا تبعنا ضفاف النيل، وينتج عن هذا بعض العمليات التى قام بها نوبيه وهى ٦٣٠٠٠ متر فى خط مستقيم من أطلال دندرة إلى قرية إرمنت وبهذه الصدف المحضة، يظهر الخطأ الذى ارتكبه بطليموس فى تحديد مدينة هيرمونثيس، ويقدر بـ ١٧' تقريبا.



إذا كانت درجات العرض التى أعطاهما بطليموس قد أخذت من دراسات  
فلكية، فالخطأ الذى ارتكبه فى تحديد موقع هيرمونثيس على خطوط العرض  
لا يؤثر على موقع المدن العليا، لكننا نعرف أن بطليموس دائماً يحسب درجات  
المرض والطول حسب المسافات التى تقاس عبر الأرض. والخطأ الذى ارتكبه  
بخصوص هيرمونثيس أصبح شائعاً.

وإذا قمنا بتصحيح ١٧ تقريباً على خريطة بطليموس، نجد أن لاتوبوليس  
أصبحت على خط العرض الذى حدده نوبيه والمسافات التى أعطاهما جدول  
تحديد البلدان، ويضع بطليموس ونوبيه، بين هيرمونثيس وأرميت وبين  
لاتوبوليس وإسنا تناسب جيد بحيث نضع لاتوبوليس فى إسنا كما فعل ذلك  
دانفيل.

ومن الغريب أن بطليموس وابن يونس وهما اللذان يستند إليهما دانفيل  
ضلالة عن درجة المرض الحقيقية لمدينة إسنا، وفى نفس الوقت وجهاء للنتيجة  
الصحيحة وذلك بارتكابهما الخطأ نفسه.

وعندما يقوم استرابون بتعريف المدن القديمة التى توجد شمال طيبة فإنه  
لا يعطى المسافات التى توجد بينهما، لكنه يجعلها فى وضع يمكن من معرفة  
مواقعها، وهذه تعبيراته:

"بعد مدينة أبولو تأتى طيبة وهى التى تسمى حالياً ديوسبوليس، وبعد طيبة  
نجد مدينة هيرمونثيس حيث يعبدون چحوتى وچوبيتر ويعتقون بثور مقدس، ثم  
تأتى مدينة التماسيح حيث يعبدون هذه الحيوانات ويعدها مدينة فينوس، ثم  
مدينة لاتوبوليس حيث يعبدون بالاس والحيوت لاتوس ونجد بعد ذلك مدينة  
لوسين ومعدها ."

لم يبق حالياً أى شك حول موقع طيبة، إذ يعرف بالحجم الكبير للأطلال التى  
نجدتها فى الأقصر، والكرنك، ومدينة هابو، والقرنة.

ويضع سترابون هيرمونثيس وكروكوديلوبوليس، أهروديتوبوليس ولاتوبوليس  
شمالى طيبة.

وتقع إسنا على بعد مسافة صغيرة أعلى موقع طيبة.

ويعتبر موقع مدينة إسنا، والمنشآت المصرية، واليونانية، الرومانية، والعربية التي نجدها على طول امتداد النهر، ثم ارتفاع تل الأنقاض الذي بنيت عليه المدينة، وعوامل أخرى، من الأسباب التي لاتجعلنا نشك أن هذه المدينة، كانت على مر العصور إحدى عواصم مصر العليا، إنها تضم أحد أجمل المعابد المصرية الذي يحمل أكبر مميزات المعالم الأثرية القديمة: وقد تم تعريف هذه المدينة على يد سترابون وهي إحدى اللاتي قمنا بتسميتها.

و لم يدخل سترابون في أى تفاصيل يمكن أن تحدد لنا أن نضع في إسنا إحدى هذه المدن وليس غيرها، لكن ما يقوله لايناقض رأى دانفيل، بل يساند ما استنتجناه من الدراسة المقارنة لبطليموس، لجدول تحديد البلدان، ثم للملاحظات نوبيه والأنقاض التي وجدناها في الضفة اليمنى لنهر النيل، أمام إسنا، يدل موقعها على أنها تنتمى لمدينة كونترالاتو، وأن إسنا هي لاتوبوليس القديمة، لأن في هذا الجزء من مصر العليا لا نجد سوى هذه الأطلال وكذلك أطلال إسنا، فهما متقابلتان بشكل مباشر على ضفاف النهر حيث لا يتناسب ذلك مع المواقع المشتركة لهاتين المدينتين القديمتين.

ومهما تكن هذه الأسباب التي قدمناها قاطعة لنبرهن على أن إسنا هي لاتوبوليس القديمة، فإننا لا نهمل أن نكمل وجهة النظر هذه أكثر احتمالا، وذلك بالبحث وبتبنيث المواقع التي تتلائم مع المدن التي وضعها الجغرافيون القدامى ما بين لاتوبوليس وطيبة.

هذه المدن هي أفروديتوبوليس وكروكوديلوبوليس اللاتي ذكرها سترابون، ثم أسفينيس التي تحدثت عنها ترجمة الإمبراطورية. بما أنها مجاورة لهيرمونثيس، وتيفيوم التي ذكرها بطليموس.

لقد لاحظ دانفيل بدقة أن مدينة أسفينيس تجد مقرها في قرية أسفون، حيث لها الاسم نفسه تقريبا باليونانية، وأنها تقع على بعد ثلاثة فرسخ شمالي

إسنا. ويقول ب سيكارد أنه عثر فى أسفون على بقايا معبد : لم نر منه سوى أكوام من الحطام، لكنها بالغة الأهمية حيث لا يمكن أن تكون سوى أنقاض لمدينة قديمة. ومن المحتمل أن المنشآت الأثرية التى رآها ب سيكارد قد غطيت بالرديم.

ولم يتطرق استرابون إلى أسفينيس، بالرغم من أنه يظهر أنه تعرف على أسماء مدن مصر العليا. ونعتقد أن هذه المدينة هى إحدى المدن التى عرفها استرابون تحت اسم آخر.

وكلمة أسفينيس ليست يونانية: إنه الاسم المصرى "أسفون" الذى غير اليونان آخر حروفه بحروف تلاثم مجارى الكلمات فى لغتهم، ولم يقفوا إلى هذا الحد بل غيروا الاسم كلياً وأصبحت أفريدوتوبوليس التى ذكرها استرابون.

وكلمة أسفون هى نفس كلمة إسفونج، التى تعنى باللغة العربية إسفنج، ويمكن أيضاً أن يكون مشتقاً من كلمة صوف وهى تعنى بالعبرية نفس كلمة إسفنج باللغة العربية، وأفروديت باللغة اليونانية تعنى "إنتاج المياه"<sup>(١)</sup>. وتعتبر اللغة العبرية القريبة أكثر من المصرية القديمة، وبدون أخذ كلمة أسفون من كلمة صوف، فإنه يتبين لنا أن هاتين الكلمتين لهما مصدر واحد وهو اللغة المصرية. وثبت دانفيل<sup>(٢)</sup> أن جزيرة سوفونج البحرى<sup>(٣)</sup> هى جزيرة أفروديتيس القديمة<sup>(٤)</sup>.

---

(١) إن الاسم العبرى «يم يوسف» كان قد أعطى للبحر الأحمر بسبب إنتاجه البحرى الذى كان بالغ الأهمية، كما كان للمرجان وجود فيه بكثرة.

(٢) أنظر وصف الخليج العربى ص ٢٢

(٣) سوفونج البحرى

(٤) ويشير م بروس فى رحلته إلى مصر العليا إلى بلد اسمه وودان يقع فى شمالى أتفلى فى نفس الضفة اليمنى للنيل وفى واجهة عدة جزر ويقول أن الاسم الكامل لهذا البلد هو «سوف الودان» وبعد ذلك فصل بين هاتين الكلمتين فأصبح الاسم المركب هو اسمين لقريتين منفصلتين، ويضيف بأن فى الضفة الغربية للنيل يوجد هرم بين سوف وودان. ويقول م. بروس أيضاً أنه فى غربى هذه القرية توجد مجموعة من الأنقاض ويضيف: «أظن أنها كانت بقايا أفريدو توبوليس التى كان إقليمها يمتد إلى الشرق، وسنجد فى خريطة محافظة مصر العليا فى شمال أطفنج، عدة قرى ذكرها م. بروس. ومن جهة أخرى النزلة، جزيرة مميزة، وقريتين على الضفة الشرقية للنيل، تسمى إحداها الصوف،=

ونستنتج كذلك ان أفروديتوبوليس التى أشار اليها استرابون هى نفس مدينة أسفينيس التى نرى أطلالها فى قرية أسفون. وبطليموس الذى عرفنا على تيفيوم، لم يذكر قط كروكوديلوبوليس، واسترابون عندما أعطى اسم كروكوديلوبوليس لم يتحدث عن تيفيوم لكن يضع هاتين المدينتين تقريبا فى نفس الارتفاع. ومن المحتمل أنه نفس المدينة ذكرها بطليموس تحت اسم تيفيوم. وذكرها استرابون تحت اسم كروكوديلوبوليس.

ومن إسنا إلى أسفون ومن أسفون إلى أرمنت، لم نشاهد على الضفة اليسرى للنهر أى أثر آخر للمدن القديمة التى تتناسب موقع تيفيوم أو كروكوديلوبوليس، لكن فى الضفة اليمنى، بين إرمنت وأسفون، وجدنا بقايا لمعبد مصرى يحتوى على نقوش لتماسيح عديدة. هذا المكان الذى يسميه سكان البلد طود والذى سجل بهذا الاسم فى خريطة دانفيل، هو حسب قوله، تيفيوم التى ذكرها بطليموس، ونقوش المعبد تدل على أن التماسيح كانت له عبادة بالغة الأهمية. هذا يصبح مؤكدا؛ إذا كان اسم طود له علاقة بإسم كروكوديل فى اللغة العبرية أو العبرية الشئ الذى لم يحدث. لكن من الممكن أن الاسم المصرى للمدينة لم يكن مناسباً لعبادة التماسيح حيث أعطاهم اليونان اسم كروكوديلوبوليس. ومما سبق ذكره، نستنتج أن كل المواقع التى تحدثنا عنها هى محددة بشكل جد مناسب، هيرومونثيس إلى أرمنت، كروكوديلوبوليس وتيفيوم إلى طود، أفروديتوبوليس أو أسفينيس إلى أسفون، كونترالاتو إلى الأنقاض التى توجد أمام إسنا، ثم لاتوبوليس إلى إسنا.

---

«والأخرى دودي». وقد تمت الإشارة إلى وجود أنقاض بين هاتين القريتين. ومن الواضح أنها الأنقاض القريتين التى أشار لهما م. بروس.

ويظهر أن موقع أفريدوتوبوليس الذى حدده م. بروس، هو أكثر تلاؤماً من الذى حدده دانفيل الذى لم يكن يعرف أنقاض الصوف، والذى اضطر لضمها إلى المدينة الأولى وهى اطفيح. وانطلاقاً من مسار رحلة انطونيانوس - عند الحديث عن بابليون فإنه يضع سيناس ماندراس على بعد ١٢ ميلاً، وأبعد أفريدوتو بولبي بمشرين ميلاً.. وتتناسب هذه المساحة كثيراً مع موقع الصوف بالنسبة للقاهرة القديمة، فهذه القرية التى يتناسب اسمها هنا مع أفريدوبوليس، يؤكد وجهة نظرنا بخصوص أسفون وأسفون.

## زمن بناء الآثار

من المستحيل تحديد الحقبة الزمنية التى أنشأت فيها المدينة التى أطلق عليها اليونان اسم لاتوبوليس والتى عثرنا على أطلالها فى إسنا . والفترة التى ازدهرت فيها هذه المدينة، وتألقت فيها المعابد التى وصفنا بقاياها هو . وفى هذا الإطار، إذا لم نتمكن من الحصول على نتائج إيجابية أو حتى تقريبية، فإننا على الأقل نستطيع مقارنة الآثار فيما بينها ووضعها فى ترتيب زمنى ، فهذا سيكون ذا منفعة كبيرة بما أنه سيساعد على متابعة انحسار الفن عن المصريين .

وإذا قيمنا أطلال إسنا من وجهة النظر هذه، وقارناها بتلك التى توجد فى مصر العليا، سنعرف بسهولة أن هذه المدينة هى من أقدم المدن .

إنها تقع فى الجزء الذى كان من أول البقاع التى عمرت فى مصر العليا : فعند النزول من النوبة، نجده أول مكان يتسع فيه وادى النيل ويوفر مساحة كبيرة من الأراضى الصالحة للزراعة .

وبدل الارتفاع المهم لتل الانقراض الذى بنيت فوقه المدينة الحديثة والمعبد المغطى بالبرديم ، على أنها كانت موجودة منذ قديم الأزل .

وإذا تفحصنا بدقة عمارة معبد إسنا، نجدها طبيعية وبسيطة ومقلدة بطريقة ساذجة: وتفتقر النقوش التى تزين المعبد إلى الليونة والدقة فى التفاصيل على عكس نقوش معبد دندرة ومعابد أخرى .

وأخيراً، فيمكن للأجزاء الفلكية أن تكون إما وسيلة لتحديد الحقبة الزمنية التى أنشئت فيها المعابد التى تحتويها، أو أنها تدل فقط على حالة المعارف المكتسبة من الأفكار الفلكية السابقة لعصر تشييدها، كما يدل الرسم الفلكى للبروج (زودياك) لإسنا على مرحلة سابقة لعهد رسم البروج فى دندره<sup>(١)</sup> للنقوش الفلكية البارزة التى توجد فى طيبة .

---

(١) انظر دراسة السيد هوربيه عن الآثار الفلكية .

ونستنتج أن معبد إسنا هو أقدم من معبد دندرة ومن عدد كبير من معابد الصعيد .

وإذا أجمعنا - وهو الشيء الذى يكون محتملا - على أن كل الآثار شيدت فوق تلال صناعية لها ارتفاع ثابت، حددته التجارب، حتى يتمكنوا من حمايتها من الفيضانات واتقاء الحوادث التى تنتج عن ارتفاع سطح أرض الوادى. فمن المؤكد أن هذه الظاهرة قد لاحظها المصريون.

وخلاصة الأمر أن هذه الآثار التى كانت أرضيتها قريبة لتصلها رواسب النيل، كانت هى الأقدم. هذا الافتراض يستند إلى ملاحظات تم القيام بها فى مختلف أنحاء مصر. أما الارتفاع الذى عينه المصريون لتعلية آثارهم أعلى السهل، فنعتمد أن تبصرهم للمواقب كان بعيد المدى، بما أن الأرض فى دندرة كانت مقاسة بشكل دقيق، لدرجة أن أرضية المعبد لازالت يبلغ ارتفاعها ٢ أمتار أو ١٥ قدما تقريبا أعلى من مستوى الأرض المجاورة.

ولم يكن من الممكن قياس ارتفاع أرضية معبد إسنا، لكننا لاحظنا هذا الارتفاع فى المعبد الصغير، فى الشمال، ويبدو أنه أعلى شيئا ما من مستوى الأرض المجاورة له. إذن فمن المؤكد أن مستوى سطح أرض الوادى قد ارتفع منذ عهد تشييد هذا المعبد الصغير، وهو الشيء الذى يدل على أنه من العهد القديم جدا.

بالإضافة إلى أن هذا المعبد يحتوى على رسم فلكى للبروج الذى يجسد هيئة السماء نفسها كالتى فى رواق إسنا .

هذه الاعتبارات لاتجعلنا نعتقد ان هذا المعبد الصغير له أقدمية أقل من قدم رواق اسنا .

ولا نظن أن كل أجزاء معبد كترالاتو شيدت فى العهد نفسه، حيث تظهر المنشآت التى توجد خلف الرواق على أنها أحدث من الرواق نفسه لكن هذا لا يمس بقدم عهد المدينة فى شيء وهو يتوافق مع عهد لاتوبوليس .



## الفصل الثامن

### وصف أرمنت

بقلم السيد. جومار

#### المبحث الأول: مدينة هيرمونثيس

إن المنشآت الأثرية لهيرمونثيس لا تقدم لنا شيئاً أكبر من معابد فيله، وإسنا وإدفو. فهذه الآثار تشد انتباه كل الرحالة وذلك بأناقة وجمال أعمدتها، وبالنقوش التي زينت بها، وأخيراً بالحوض الذي نظن أنه كان يستعمل كمقياس للنيل.

وقرية أرمنت التي خلفت مدينة هيرمونثيس والتي حافظت على ذات الاسم، تقع في سهل كبير على بعد ٦٠٠ متر<sup>(٢)</sup> شرقى النيل، وعلى بعد عشر كيلومترات<sup>(٣)</sup> من مدينة طيبة ونميزها من مسافة كبيرة بواسطة مئذنة عالية لها شكل البرج. وضعت جنوبى القرية أى فى الجانب الشرقى.

---

(١) لقد أُعطي أيضاً لهذا المكان اسم بلد موسى.

(٢) ثلاثمائة قامة.

(٣) فرسخان.



فى هذا المكان، لا يجرى النيل فى اتجاه الشمال بل فى اتجاه الشرق.  
وعلى بعد أربعمئة متر<sup>(١)</sup> شمال هذه المئذنة، نجد المعبد المصرى ليس بعيدا  
عن كفر ينتمى لقرية أرمنت. وهذا المعبد هو الوحيد الذى بقى وسط مساحة  
كبيرة من الأنقاض، يصل طولها إلى كيلومتر تقريبا أو ربع فرسخ صغير. والآثار  
الأخرى التى كانت موجودة بالمدينة هى الآن مدفونة أو محطمة كليا ونشاهد هنا  
وهناك حطام الأعمدة والتيجان.

وحول هذا المعبد توجد أطلال حائط كان جزءا من سور، وفى الوسط، نرى  
حوضا مستطيلا كان مكسيا بالأحجار. وفى امتداد محور هذا الحوض توجد  
طريق عريضة حافظها مليئة بالحطام وفى طرفها لاحظنا وجود أساس باب :  
ويظهر لى أن هذا الطريق هو بقايا لشارع رئيسى فى هيرمونثيس. وأخيرا  
وعلى بعد ٢٠٠ متر<sup>(٢)</sup> جنوبى المعبد وعلى بعد المسافة نفسها من القرية، نجد  
بقايا لمعبد آخر أحدث، ويظهر أنه كان يستخدم كنيسة لأوائل المسيحيين.

وإن مدينة هيرمونثيس فى مصر القديمة كانت مركزاً لإقليم منعزل عن  
إقليم طيبة بالرغم من قربها من العاصمة. بلىنى وبطليموس تحدثا عن هذا  
الإقليم، واسترابون يضمها بعد طيبة، ويقول أنها قد عبد فيها أبولو وجوبيتر.

وتحت حكم الأباطرة تم سك بعض الميدايات كما فى دول أخرى وتشهد على  
ذلك ميدالية يرجع عهدها إلى سنة ١٢٦ ق.م.

وتحمل اسم هذا الإقليم كما طبع فيها علامة العام الحادى عشر من حكم  
هاريان<sup>(٣)</sup>

ومن جهة تحمل صورة لرأس هذا الأمير متوجة بأوراق اللاور ومن الجهة  
الأخرى شخص يمسك رمحا وأسدا. وكان هناك فرقة رومانية عسكرت فى هذا

---

(١) مائتا قامة.

(٢) مائة قامة.

(٣) مذكرات أكاديمية النصوص، ص ٨٢ .

المكان الذى حافظ فيما بعد على الأهمية التى جعلت هذه مدينة أسقفية. والتاريخ اليونانى يقدم عدة أسماء لأساقفة مدينة هيرمونثيس<sup>(١)</sup>

ولازال شعب أرمنت فيه جزء من المسيحيين، حيث يوجد بها قبر مارجرجس أو سان جورج المزعوم وله قدسية كبير بينهم.

وتسود فى أرمنت كراهية شنيعة بين الطائفتين. وقد ظن الأقباط حين رأونا أننا جئنا لتدمير الديانة المحمدية من القرية قال لى أحدهم بدم بارد: متى سيقتل الفرنسيون كل هؤلاء البؤساء؟ فلم نجدهم متفقيين إلا لكى يبيعوا لنا الأنتيكات والميداليات التى كانوا مشغولين باستخراجها من الأنقاض. وعندما احتجنا لبعض الأشخاص للحفر داخل المعبد رأيت مسيحيين ومسلمين يشتغلون بهمة لكسب بعض النقود القليلة.

### المبحث الثانى: وصف معبد أرمنت

إن شكل هذا المعبد له شىء يميزه عن باقى معابد الصعيد التى ردمت أغلبها. أما هذا، فعلى العكس بقى منعزلا ولا توجد حوله أى مرتفعات، وأعمدته لازالت مرتفعة فى السماء<sup>(٢)</sup> إنه الوحيد الذى يذكر الرحالة الأوروبيين، من أول وهله، بالنسب الهندسية التى اعتادوا عليها. ويحاط المعبد بمدة منشآت من الطوب الأحمر وقبور حديثة، مربعة ودائرية الشكل، ومدرجة تحجب إحداها مؤخرة المعبد بسبب كبر حجمها.

تتجه وجهة المعبد نحو الغرب موازية تقريبا للنيل، ومحوره يشكل زاوية تبلغ أربعة وستين درجة نحو الشرق، مع خط الزوال المغناطيسى.

---

(١) مسيحيو الشرق، الجزء الثانى، ص ٦٠٩ - ٦١٠ .

(٢) انظر اللوحة رقم ٩١ .

أما طوله الذى يضم ساحة الأعمدة، فيبلغ تقريبا ستة وأربعين مترا<sup>(١)</sup>، وعرضه أكثر من ثمانية عشر مترا<sup>(٢)</sup> وأكبر الأعمدة يبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر مترا ونصفا (٣) وقطرها أكثر من متر وستة من عشرة<sup>(٤)</sup>

بنى المعبد من الأحجار الرملية، كباقي الآثار التى سبق لنا وصفها، لكن هذه الأحجار متجانسة ويظهر أنها تم اختيارها بعناية، لأن السقف مكون من أحجار كبيرة الحجم لم تتحرك من مكانها، و طول الواحدة منها يكفى لأن يغطى عرض السطح كله، أى نحو حوالى خمسة أمتار، أما عرضها فيبلغ مترين.

ومن بين المواد التى بنى بها الجزء الأمامى من المعبد نجد بعض الأحجار التى استخدمت فى منشآت مصرية أخرى حيث نلاحظ فى الوصلات الداخلية رموز هيروغليفية منحوتة بدقة. وقد ذكرنا شيئا شبيها بهذا فى فيلة، وسنرى أيضا أمثلة عديدة سوف تدل أكثر على أن الفن المصرى ترجع جذوره إلى عهد قديم الأزل. ومعبد أرمنت هذا الذى بنى به حطلم معبد آخر أصبح هو كذلك اطلالا، كما أن لون جدرانه وكذلك هيئته يدلان على أنه من أقدم المعابد التى تم تشييدها.

أما داخله، فيبدو أنه حفظ بشكل جيد. الجدران، والنقوش التى تزيينه، لازالت كما هى ابتداء من السقف إلى الأرضية التى تظهر وكأنها ردمت شيئا ما. وعلى العكس، فى الخارج يبدو التهدم كبيرا، لأنه قديما، كان المعبد محاطا بممر تحطمت أعمدته كلها وسقطت الأعتاب والكرانيش، وكذلك سقفه محطم فوق الأرض المليئة بالأحجار. وهكذا يبدو المعبد مجردا من أعمدته ومجرى بشكل غير اعتيادى.

---

(٢) حوالى ١٤٣ قدما.

(٢) ٥٥ قدما.

(٣) حوالى ٤٢ قدما.

(٤) حوالى ٥ أقدام.

وأمام المعبد كان يوجد فناء أعمدة ، حيث يوجد ستة منها فى الجهة الخارجية، لها ارتفاع أعلى من غيرها التى لم يكتمل إنشاؤها، لكنه لم يبق منها سوى واحد قائماً بكل ارتفاعه. وقد هدم كذلك جزء من جدران بين الأعمدة . وأخيراً أريمة أعمدة داخلية التى كانت تشكل جزءاً من هذه الجدران وهى محطمة تماماً، ولم أستطع معرفة وجودها إلا بعملية الحفر التى كنت أقوم بها <sup>(١)</sup> .

إننا لا نقدر أن نرجع أسباب الهيئة، التى يوجد عليها معبد أرمنت حالياً، لعوامل التمرية أو لبناء معيب، لأن كل ما تبقى محفوظ لا يدل على تدهور تدريجى ، بل نرى الآثار سواء أكانت محطمة كلها أم محفوظة كلها . إذن فهذا التحطيم بفعل اليد البشرية، لأن الجدران مليئة بالتجاويف التى قام العرب والفلاحون بحفرها لاستخراج الألسنة التى تربط بين الأحجار . وفى حائط قدس الأقداس من ناحية الشمال وفى مساحة صغيرة منه، أحصينا خمسين تجويفاً تقريباً . وتدل هذه الظاهرة على أن هذه الألسنة كانت أحياناً من المعدن : وبالتأكيد فإن العرب لا يعطون العناية الكبيرة لتدمير منشآت صلبه جداً، أو عمل ثقوب فى الأحجار الضخمة إذا كانت هذه الألسنة فحسب من الخشب . وقد تجنب المصريون، نوعاً ما استعمال الحديد فى منشآتهم وذلك لندرته .

ومهما كانت الهيئة المدمرة التى يوجد عليها معبد أرمنت حالياً، فإننا نعثر على كل أجزاء تصميماته . يبدو التقسيم بسيطاً جداً، لكن تجدر بنا دراسته لأنه يوفر أمثلة كاملة خاصة بالمعابد الصغيرة، أى التى كانت تقتصر فقط على صالتين أو ثلاثة ويطلق على هذا النوع من المعابد اسم تيفونيوم . يعملو أعمدته الأمامية مكعب مرتفع يوجد على كل واجهة صورة " تيفون " بنحت بارز <sup>(٢)</sup> ودون شك فإن الشيء الأكثر تميزاً فى هذا التقسيم هو الترتيبات الثلاثة للأعمدة <sup>(٣)</sup> التى لا تجدها فى أى معبد آخر، وأعمدة الرواق هى أصغرها حجماً، بينما تكون

(١) اللوحة (٩٤)، شكل ١، عند النقطتين aa .

(٢) انظر اللوحات ٩١ و٩٢ و٩٤ .

(٣) لا يجب أن نربط هنا هذا الاسم بالفكرة التى ترتبط بالممارسة أريد فحسب أن أشير إلى النسب الثلاث المختلفة لأعمدة المعبد .

الأعمدة الخارجية هي الأكبر حجما، وتنتمى أعمدة واجهة الرواق لحجم وسط بين هذا وذاك . ويتكون الرواق من ثمانية عشر عمودا<sup>(١)</sup> أما واجهة الرواق، فتضم أربعة عشر، والجزء الخارجى يضم ستة أعمدة. وقد استلزم مجهوداً كبيراً لإضافة سور إلى الرواق وكذلك المعبد. ويعد المدخل والجزء الخلفى منه أعرض من الجزء الجانبى الذى يبلغ قطرا ونصف قطر، وهذا ما نلاحظه فى كل الأنحاء، ولكن ما لم نشاهده فى أى مكان هو ممراً ضيقاً على الجوانب يبلغ متراً واحداً فقط<sup>(٢)</sup> .

فمن الصعب أن نعرف سبب الفرق الكبير الذى يوجد بين عرض المعبر بالمقارنة مع الرواق. والجزء المحصور بهذا المعبر يشكل المعبد. إذا صح القول، ويرسم جيداً معبداً محاطاً بالأعمدة كما أشرنا إليه فى معبد أدفو الصغير (انظر الفصل الخامس المبحث السابع) ويتكون داخل المعبد من ثلاث صالات يصل ارتفاعها إلى سبعة أمتار<sup>(٣)</sup> تقريباً. ونجد فى الأولى، على اليسار عند أعلى الجدار، نافذة على شكل منفذ يبلغ عرضه تقريباً متراً واحداً ثم يكون ضيقاً فى الجزء السفلى حيث يبلغ عرضه أقل من عشر المتر. وفى اليمين توجد سلالم ضيقة، استعملناها للصعود إلى السطح، ويبلغ عرضها ستة أعشار المتر<sup>(٤)</sup> وأدراجها قليلة الارتفاع كالتى فى إدفو وفى كل السلالم المصرية. والصالة الموالية هي الأكبر، وتوجد نيشة فى جدران الداخل لها، قليلة العمق ويعلوها كورنيش. والصالة الثالثة التى أسسميها قدس الأقداس هي أصغر من الأولى، ومن الملاحظ أن بابها وضع على الجانب محاذياً للجدار الجانبى. وفى داخل الصالة على إحدى الجدران نرى نافذة مربعة فى الأعلى يدخل منها نور ضعيف. أما حالياً، فقد أصبح النور أقوى بفضل الثقب الذى تكلمت عنه سابقاً.

---

(١) انظر اللوحة رقم ٩٤ شكل ١، فى الفراغ بين الحرفين b و P.

(٢) ثلاثة أقدام.

(٣) واحد وعشرون قدماً.

(٤) عشرون بوصة.

وعرض الفناء الخارجى لا يجعلنا نظن أنه كان مسقوفاً : فهو يعتبر معبداً مفتوحاً كالذى يوجد فى فيلة، بالإضافة إلى أننى استنتجت، بعد الحفر الذى قمت به أمام المعبد، أن الفضاء الذى يوجد فى الوسط، لا يحتوى على أعمدة<sup>(١)</sup>؛ إذن فهذا ليس الرواق الأول الذى اختفى مسطحة. إن هذه الساحات تشبه الدهاليز المخصصة للمعابد الصغيرة التى كانت ضرورية للاحتفالات المصرية، وكانت مصفوفة بالأعمدة فى المعابد الكبيرة.

وتعطى كل هذه المجموعة المكونة من الساحتين والمعبد منظراً جميلاً، وبخاصة تتابع الأجزاء حسب علوها ليشكل بذلك منظر هلال. ثم هناك سور يظهر أنه كان بكل هذه المنشآت. وهذا التخمين مبنى على وجود بقايا السور الذى تحدثت عنه سابقاً والذى يبعد عن المعبد بمترين أو ثلاث أمتار<sup>(٢)</sup>، وكذلك على الأبواب الجانبية - دون هذا السور- التى تمكن من الدخول إلى الدهاليز ثم إلى المعبد.

وقد وجب على أن أدخل فى هذا التفصيل حتى أتمكن من وضع تصور كامل لهذا الأثر الذى لا يمكن تخيله عند رؤية المعبد لأول وهلة. فقد تطلب التعرف على ترتيب أجزائه، القيام بمجموعة من الأبحاث والمقاييس الدقيقة، ثم وضع تصميم يجمع كل الخطوط الجزئية التى تفصل بين كل منشأة.

وظننت كذلك أنه حين وضع كل النسب الخاصة بالأنظمة الثلاثة للمعبد،

سيتمعرف القارئ على التسبيق الذى يسودها، وذلك بالاطلاع على النتائج

الآتية:

---

(١) انظر اللوحة ٩٤ شكل ١ عند النقطة p.

(٢) انظر اللوحة ٩٢.

١- في داخل المعبد بدءاً من القاعدة :

المقياس أو نصف القطر السفلي

٩	جذع العمود يضم المقياس
٢	التاج أو نصف القطر السفلي
٢	الطبلية
٣	العتب
١٣	العمود الطبلية
١٦	التكوين الكلي

٢- في جزء الوسط :

١٢	جذع العمود
٢	التاج
٢	الطبلية
١٦	العمود والطبلية
٢	العتب
٢٠	التكوين الكلي (١)

٣- في الجزء الخارجي :

١٢	جذع العمود
٢	التاج
٣	الطبلية
١٦	العمود والطبلية

وليست لدينا المعطيات لنعرف مقاييس المتب والكورنيش في الجزء الخارجى. ومن المحتمل أنه كان لكليهما قطران كما في جزء الوسط.

إذن فهما لا يختلفان في إجمالى النسب، بل في بدن الممود حيث إنه في الترتيب الخارجى كان له قطر أقل. والطلبية كان لها قطر أكبر حجماً ولا يوجد إلا حجم القطر الذى يختلف في نسبة من ١,٢٨١ م إلى ١,٦٢٤ م أى واحد على ستة تقريباً.

وإذا اعتمدنا على قياس كارتفاع المتب بما في ذلك الشريط الذى يساوى دائماً النصف كما رأينا في إدفو<sup>(١)</sup> ن نجد أن :

#### في المعبد نفسه:

بدن الممود	٥,٥
الكورنيش	١
الممود والطلبية	٥
التكوين الكلي	١٠

#### وفي جزء الوسط :

جذع الممود	١٢
التاج	٢
الطلبية	٢
القطر	١
الممود والطلبية	١٦
التكوين الكلى	٢٠

---

(١) انظر شرح اللوحة ٩٤ شكل ٣ .

(٢) انظر الفصل الخامس.



وفى هذه الحالة، يكون قطر العمود معادلاً للمتب. وهذا القياس متكرر داخل المعبد وسوف أوضح لاحقاً النتائج المهمة المرتبة هذه النسب القياسية. يعد منهج تزيين معبد هيرمونثيس بسيطاً جداً، وبالنسبة للمعبد نفسه فهو مطابق لـ تيفونيوم إدفو. وتبقى الزخرفة الخارجية متميزة.

### المبحث الثالث: نقوش المعبد

حيث يملو كورنيش الباب تتويج الأعمى وهذا الأخير لا يستعمل إلا فى الداخل، و اليوم أدى سقوط السقف إلى جملة كله مكشوقاً.

أما الأعمدة الأمامية، فلم تتحت، كما أن التيجان تم تحديدها فقط. ثم إن الطلبات التى من المفترض أن تتحت عليها صور لـ تيفون بقيت فى هيئتها. وهو الشيء نفسه بالنسبة للستائر الحجرية والأبواب التى توجد فيه، بالإضافة إلى أن الأحجار التى بنيت بها هذه المنشآت أقل تلويها. وليس هناك شك فى أنها بنيت فى عصر لاحق للمعبد نفسه، وهذا جدير بالملاحظة، حيث توجد بناية شبيهة بهذه المنشآت فى فيله ( المعبد الشرقى )، بقيت غير كاملة والنقوش فيها على شكل إطار فحسب. أما المعبد، فلم يبق منه شيء، إذ يبدو وكأن هذه الأبنية بنيت فى وقت لاحق. وتضم أعمدة الساحة الوسطى تيجاناً تختلف زخرفتها، لكن أمام كل عمود عموداً مماثلاً له، وأعتقد أننا لاحظنا وجود جريد نخلة فى وسط سيقان زهرة اللوتس. أما على جذع الأعمدة، فتوجد مناظر لأشخاص يقدمون أو يتلقون القرابين.

وإذا دخلنا إلى المعبد، نجد تناسقاً كبيراً فى إطار توزيع الصفوف الثلاثة للوحات التى تغطى الجدران، ولا زالت تحافظ على هيئتها أكثر من أى جهة

أخرى، وهو الشيء الذى يساعد على دراسة كاملة لكل مشاهد المعبد المصرى، فالنقوش غنية. أما الأشكال والرموز، فقد وضمت على شكل مجموعات فحسب (أنظر اللوحة ٩٤ شكل ٨، اللوحة ٩٦ شكل ٢ و اللوحة ٩٧ شكل ١).

ونرى لوحة تجسد صقراً واقفاً فوق مكعب وهو يفرد جناحيه وسط عدد كبير من زهور اللوتس. لكن يبقى الشيء الذى تم تعديله بنوع عال هو مجموعة من الأسرة لها أرجل أسد، يشكل رأسه طرف السرير ثم الذيل والأرجل والخلفية تشكل الطرف الآخر (اللوحة ٩٦ شكل ٢) ويرجع اختراع هذا النوع من الأسرة إلى اليونان وبعد ذلك انتقل إلى أوروبا حين بدأ فنانوها يفترفون لهذه النماذج من دراسات الآثار القديمة. لكن اليونان كانوا السابقين إلى ذلك بعد المصريين. ومن بين الآثار التى سميت عامياً الأترورية، وهى التى تتقارب من الأسلوب المصرى نجد أمثلة عديدة لهذا النوع من الأثاث. وفى عصور الأبطال، كان كل من قتل حيواناً متوحشاً يقوم بارتداء جلده. وحين يجلس يضمه تحته حيث تنطبق أرجل الأسد مثلاً على أرجل المقعد، ومن هنا جاءت الفكرة بنحت هذه الأرجل على شكل أرجل الأسد، وقد بدأ لى هذا حين تفحصت إحدى لوحات مجموعة تيشبين<sup>(١)</sup> وبالرغم من هذا اعتقد أن المصريين الذين كانوا أول من فكر فى هذا النوع من الأسرة لم يستملوه بمحض الصدفة، وأن أشكال الأسد تعبر عن معنى داخل لوحات هيرمونثيس التى سنتطرق إليها لاحقاً. وسوف أمر الآن إلى وصف النقوش التى تزين الصالات الثلاثة للمعبد.

نرى فى الأولى مشاهد عديدة منها : إيزيس ترضع ابنها حريوقراط وهى تتلقى مختلف القرابين وأوزوريس له رأس صقر وأمامه ثور متوج بقرص وكبش وإيزيس لها رأس أسد وحورس له قرون كبش<sup>(٢)</sup>.

---

(١) اللوحة رقم ٢٠ الجزء الثالث.

(٢) مقتطف من يوميات رحلة السيد فيلوتو، ويقول بوكوك أنه رأى فى سقف الصالة الأولى خمسة صقور أجنحتها مفرودة.

والصالة الثانية التى تعتبر الأكبر، هى مليئة برسومات متنوعة. يوجد فوق باب المدخل رسم كبير يتوسطه صقر جناحاه مفردان، ورأسه متوجة بتاج رمزى وقد نحت فى وسط عديد من سيقان اللوتس موضوعة على شكل مروحة. وامرأتان واقفتان أمامه وخلفه وأيديهما مرفوعة. ثم هناك شكلان مسلح بخنجر، وأخيرا رسمان حريوقراط أحدهما يمسك بمذبة، والآخر يرتدى قلادة ثمنية ويمسك صولجان وعلامة الحياة. واللوحة رقم ٩٤ شكل ٨ مرجع لمن يريد دراسة مختلف صفات هذا المشهد.

وفى الأسفل نرى لوحة غربية نوعا ما : أربعة نساء ترضع كل واحدة منهن طفلا، إحداهن تنظر إلى الثلاثة الأخريات و بجانبها بقرة واقفة فى نفس اتجاهها وبين قرونها وضع طفل وبالجانب الآخر حريوقراط يجلس فوق زهرة اللوتس كبيرة وهو ينظر إلى البقرة.

لقد سبق لى التحدث عن هذه اللوحة التى رسمت بشكل بديع، كما أنها تم تحديدها من جهتين بامرأتين لهما جناحان كبيران مفردان.

وفى جانبى الصالة، نشاهد عدداً كبيراً من اللوحات التى يصعب وصفها بكل دقة. قمنا بنقل أربع عشرة لوحة منها خمسة مشاهد كبيرة رسمت بأكملها. وسأقتصر على ذكر بعضها.

واللوحة التى نجدها متكررة هى التى نرى فيها إيزيس ترضع حريوقراط، ونراه أيضا واقفا على ركبتى أوزوريس الذى يمسكه من يده اليمنى.

وفى جهة أخرى، نرى إيزيس تحتضنه وتهديه حزمة من السيقان مسننة كالمنشار : وكاهن يقدم لها طفلا وضع فى سلة. وفى مختلف هذه اللوحات نرى أوزوريس تارة برأس صقر وتارة برأس آدمية.

ويظهر حريوقراط وكأنه يخرج من زهرة لوتس، شعره مجدول وعلى كتفه سوط وإيزيس تمد له يدها وتقدم له سيدة أخرى شارة الألوهية كل هذا يشكل لوحة تستدعى الفضول لذلك يجدر بنا دراسة معانيها الرمزية (انظر اللوحة ٩٥ شكل ١).

وفى الجانب الأيمن من الصالة، نلاحظ مجموعة من الأشكال تجسد حيوانات وضعت فوق قواعد مثل : ثعبان وقرود وكذلك قط الذى نادرا ما نراه منقوشاً<sup>(١)</sup> (اللوحة السابقة شكل ٤ و ٦). وهناك نقش بارز آخر لقط فوق صورة لمعبد صغير،

ويتلقى قربانا من رجل له رأس أبو منجل ويمسك بيده آنية ( اللوحة السابقة شكل ٥ ). وفى الموائد المنصوبة، نلاحظ قرابين مختلفة ومتنوعة تتكون من الفاكهة من المشروبات و الحلويات وكذلك المخبوزات بأشكالها المتنوعة، وأخيرا الطيور و حيوانات أخرى اللوحة السابقة (شكل ٦).

وقد وجدنا مرتين أسدا له رأس صقر يجلس ورأسه متوجة برموز القوة : هذا الرسم الذى وصفناه سابقا فى كوم أمبو وإدفو، له هنا ذيل تمساح (انظر اللوحة ٩٥ شكل ٢ و اللوحة ٩٧ شكل ١ ) والقاعدة التى يجلس فوقها مزينة برسم يمثل النصف الأعلى لرجل وهذا لم نره فى أى مكان آخر، وفى أحد هذه المواضع نرى تيفون يقف خلف القاعدة بطريقة هزلية.

ونلاحظ كذلك لوحة تجسد حريوقراط وهو محمول من اثنى عشر شخصا. والمنصة مغطاة بقماش مزين بكمية كبيرة من زهور اللوتس ولا نرى من الاثنى عشر شخصا، سوى الأرجل و الرأس (اللوحة ٩٧ شكل ٤٢). وفى أحد النقوش الكاملة نجد أربعة أشخاص يمسكون بأيدي بعض. أحدهم رجل برأس صقر والثلاثة الآخرون عبارة عن نساء تتوسطهن ولهن رأس أسد.. وكل هذا المشهد جدير بالفحص سواء بسبب عناصره أو بسبب طبيعة القرابين التى من بينها نميز معبدا. وتيفون يأخذ الوضع نفسه الذى تحدثنا عنه سابقا<sup>(٢)</sup> وقبل أن نمر إلى الصالة الثالثة، سأجعل القارىء يقف عند صورة زرافة وقد رسم هذا الحيوان فى معبد هيرمونثيس، وهو الوحيد فى مصر كلها الذى قدم لنا صورته

(١) وجدت فى مقابر منف تمثالا لقط من البرونز ونجد كذلك هذا الحيوان محنطا.

(٢) وفقا لبوكوك، يوجد فى سقف الصالة الثانية سبعة صقور مفردة الأجنحة وكبشان واقفان وجهًا لوجه وبأقي السقف مزين بالنجوم والرموز الهيروغليفية.

(اللوحة ٩٥ شكل ٧). إنها منقوشة في خارج المعبد في الجزء الخلفى منه، وحجمها يتناسب مع الأشكال الأدمية التى فى نفس الواجهة و ليس من المستحيل معرفة هذا الحيوان برقبته الطويلة، وحجمه الكبير وقامتة العالية، وذيله القصير، وأخيرا قرونه الصغيرة. إنه أحد الحيوانات المجيبة للمقارة القديمة<sup>(١)</sup> ونعرف أن قامتة تصل أحيانا إلى سبعة عشر قدما، ويصل طوله إلى اثنين وعشرين قدما. وتحتوى موزاييك باليسترين على رسم يشبه كثيرا رسم هرمونثيس: حيث إن طول رقبته وشكل رأسه يشبهان الجمل. ولكننا لم نره جزئيا مزركشا بتلك البقع الناصعة التى جعلت القدماء يسمونه الجمل الفهد، وعلى علماء الطبيعة معرفة كيف كانت الزرافة تجوب فى صحراء إفريقيا الجنوبية بينما هى الآن غير معروفة فى مصر، وكيف جسدها فى نقوشهم فى حين أننا لم نر الجمل فى أى رسومات أخرى: وهل أدت قامتها الطويلة وجسدها القوى وهدووها إلى جعلها حيوانا أليفا بدلا من الجمل؟ يبقى هذا فيه نوع من الشكوك حسب ما جاء به المؤلفون القدامى حول طبيعة هذا الحيوان مثل : هيلودور واسترابون، وكذلك أغلب الرحالة المعاصرين.

ويقول بوفون إن عدم التناسب الكبير لرجليها يقف حاجزا أمام استعمال قوتها، ثم أن جسدها ليست له قاعدة وخطواتها مهتزة وحركتها ثقيلة لا تقدر أن تثير الذعر فى أعدائها ولا أن تخدم أسياها<sup>(٢)</sup>.

والأكثر احتمالا، أنه تم اختيار الزرافة كشمار لبعض القدرات وبعض العادات المادية.

فلا توجد أى وجهة نظر تخص هذا المضمار، ويكفينى أن أوجه انتباه العلماء إلى حدث جديد وجدير بأبحاثهم.

---

(١) لقد قمت بقياس كل نسب هذه الصورة ووجدتها متطابقة مع التى يشير إليها بولون والرحالة الآخرون الذين رأوا الرواق فى مصر.

(٢) التاريخ الطبيعى ، المجلد ١١ ، ص ٢٧ ، باريس، المطبعة الملكية.

## المبحث الرابع: وصف حوض أرمنت

فى بداية هذا الوصف، ذكرت أنه يوجد حوض قديم مكسور الأحجار فى وسط هذا المعبد. ومحور هذا الحوض يوافق نصف طول المعبد كله<sup>(١)</sup>. ويتم النزول إليه عبر سلم يوجد فى الزوايا الأربع. وعندما نأتى من المعبد، يجب أولا نزول أول سلم يصل ارتفاعه إلى متر تقريبا والقاعدة التى بنى عليها المعبد تعلو الحوض بالارتفاع نفسه ويبلغ هذا المدرج أربعة أمتار ونصف عرضا.

ويبلغ طول الحوض ثلاثين مترا<sup>(٢)</sup> تقريبا، وعرضه ستة وعشرين مترا<sup>(٣)</sup> ومن الواضح أنه تم إنشاؤه بأيدٍ مصرية لكن هيئته الحالية لا تمرض بشكل جيد مقياس النيل القديم الذى يقال إنه كان موجودا فى أرمنت. ولم يترك الممود، الذى كان يشغل المركز وهو الذى أدعى بعض الرحالة المعاصرون رؤيته، أى أثر.

كما أننا لا نتمكن من التعرف على أى علامة تشير إلى الارتفاع المتوالى لمنسوب المياه عند فيضان النيل منذ قديم الأزل، وهو الشيء الذى قد تكون له أهمية بالغة فى التعرف على ارتفاع سطح الأرض وكذلك مجرى النيل.

وتوجد فى وسط الحوض، بركة عميقة شيئا ما، لا تزال تصل إليها الماء ليومنا هذا لتغسل فيها النساء ملابسهن، وترتوى منها القطعان. أما سلالم الزوايا فقد تحطمت أغلبها : وفى أحدها أحصينا سبعة عشر درجة ومن الواضح أنه كان يحتوى على أكثر، لأنه ما تبقى كان يصل فقط إلى عمق ستة أو ثمانى أقدام. وهذا بعيد عن الثلاثون ذراع التى يصل إليها فيضان النيل فى إقليم هيرمونثيس كما جاء به أريستيد العالم البليغ<sup>(٤)</sup>. ولا أريد هنا البحث عن

---

(١) انظر اللوحة ٩٧ شكل ٩.

(٢) ثلاثة وتسعون قدما.

(٣) ثمانون قدما.

(٤) أريستيد فى مصر.

وجهة نظرنا بخصوص هذا الادعاء الذى ناقضه أريستيد نفسه عندما يقول إنه فى "قنط" يصل ارتفاع منسوب مياه النهر إلى واحد وعشرين ذراعا، وفى فيلة يصل إلى ثمان وعشرين ذراعا ولكن عندما نعد فقط اثنين وعشرين فى نيلومتر أرمنت يكون عمق الحوض أكثر من عشرة أمتار<sup>(١)</sup> أسفل الضفة بدون اعتبار ارتفاع سطح الأرض. وقد ملئ هذا الحوض بالحطام الذى يصل تقريبا إلى ثلاثة وعشرين قدما، ولست مضطرا للقول بأن هذا الحطام هو مجرد ظاهرة ليست لها علاقة بالارتفاع الذى تسببه رواسب النيل.

بالإضافة إلى أن السلم لا ينبغي أن ينتهى عند وسط كل جهة من الحوض<sup>(٢)</sup>، ويظهر أنه كان يشغل طولها كله. لأن عشرة أمتار كارتفاع تتطلب ثمانين درجة سلم، وكما أننا لا يمكن إفتراض أقل من ٢ أعشار المتر أو قدم كمرض كل واحدة منها. وهو الشيء الذى يدل على أن عرض الحوض كله يبلغ ستة وعشرين مترا أو ثمانين قدما.

وتجعلنا المسافة الكبيرة<sup>(٣)</sup> التى توجد بين النيل وهذا الحوض أولا نشك أنه استعمل لقياس النيل، ثانيا لا يوجد أى من المؤلفين القدامى الذى أكد وجوده فى أرمنت ولا يوجد أى مقال بخصوص هذا الموضوع سوى مقال أريستيد الذى سبق وأن ذكرت<sup>(٤)</sup>.

لكن فى القديم كان يمكن للنهر أن يصل عبر قناة إلى هذه المدينة، بالإضافة إلى أننا شاهدنا مجرى النيل يمتلىء أكثر فأكثر فى اتجاه الضفة اليمنى فى كل مصر العليا وربما أنه فى القديم كان يجرى قرب أرمنت، فهل كان يمكن لأريستيد أن يعرف ارتفاع مستوى المياه فى هذه المنطقة بدون الرجوع إلى مقياس النيل.

---

(١) واحد وثلاثون قدما. انظر الدراسة حول المقاييس المترية عند قدماء المصريين، حيث طرحت بعض النتائج حول قياسات مقياس النيل ومعبد أرمنت.

(٢) تعرض اللوحة الحالة الرائنة للأشياء.

(٣) كيلو مترا واحدا أو خمسمائة قامة.

(٤) انظر ملاحظات السيد لانجليه حول رحلة نوردين.

وسأضيف بأن معبد هيرمونثيس يحتوى كذلك على صورة لزرافة حيث قمت برسمها فى ( اللوحة ٩٦ شكل ٢ ) هنا تظهر نائمة، لكن نتعرف عليها بقرونها الصغيرة. واللوحة التى يوجد فيها هذا الرسم ستكون خاصة لتسليط الأضواء على الدور الذى تلمبه الزرافة فى شمائر المصريين.

أمامها يقف ابن آوى، وفى الأسفل هناك صورة لتيفون يقف فى وجهة أسد، والأربع رسومات هاته تحيط بهيكل متوج بزهور اللوتس حيث يقف صقر مفروود الجناحين كما فى أعلى الباب فى الصالة الأولى.

وضمت هذه اللوحة فى أعلى باب قدس الأقداس ، وهى جزء من مشهد كبير يشغل الطول كله.

نرى إيزيس ترضع حريوقراط سواء فى شكل آدمى أو برأس بقرة، وكذلك رسوم كثيرة لنساء تحملن طفلا فى ايديهن أو تستمد للعناية بإيزيس.

وقد أشرت إلى شكل السرير الذى نراه فى هذه اللوحة، إنه سرير مزين برأس وأرجل الأسد وأسفله على اليمين واليسار توجد بقرة يرضع منها طفل صغير.

وأمام هذا المشهد هناك آخر أكثر بساطة وليس أقل أهمية : إنها إيزيس نفسها وهى تلد حريوقراط محاطة بمجموعة من النساء تساعدنها وتسعفها : ومن بينهن نرى مرضعة. ونرى جمرانا أجنحته مفرودة وأمامه قرص، يظهر وكأنه يطير فوق الطفل، واللوحة التى توجد فى الأعلى يشغلها أربعة عشر صقراً برأس امرأة، يوجد سبعة منهم فى جهة وسبعة فى الجهة الأخرى، يتقدمهم طائر وكم من المؤسف أن مثل هذه المواضيع التى تثير الفضول والتى ليس لها مثل فى كل الرسومات المصرية التى تفرنا عليها، لم يتم نقلها بكل رموزها الهيروغليفية.

واللوحة الأكثر أهمية فى المعبد كله هى التى تشغل سقف قدس الأقداس ( اللوحة ٩٦ شكل ٢ ) فى اليسار نرى صورة ثور، وفى اليمين صورة عقرب وبين هاتين الصورتين التى تشغل تقريبا أغلب اللوحة ويوجد رجل فى قارب، ووجهه



ملتفت نحو الثور ويرفع إحدى يديه، أمامه وخلفه كبشان يسيران في اتجاه معاكس وصقر برأس كبش، وجمران مزدوج له أجنحة الصقر مفرودة وأخيرا شخص يجلس في قارب وكل هذه اللوحة محاطة من الجوانب الثلاثة بصورة امرأة منحنية ويدها مفردتان، وجسدها عبارة عن شريط وزعت فيه بعض الأقراص وبعض الأشكال موضع آخر. لن أتطرق للوصف الدقيق لهذه اللوحة، لأننا سنجد لها موصوفة وصفا كاملا في موضع آخر.

ومن أول نظرة نتعرف على عديد من الصور السماوية الموجودة في هذه اللوحة، ونلاحظ أن الثور والعقرب هما الأكثر تميزا فيها، حيث إنهما موجودان على طرفي فلك الأبراج، بمعنى أنه إذا كان الثور في أحد الاعتدالين، يكون العقرب في الاعتدال الآخر وليس الموضوع أن نبين هنا أن هذا السقف هو إذن مخصص لرسم الاعتدالين. ويوضح السيد فورييه هذا الرأي في دراساته حول الآثار الفلكية. وسأتجنب الخوض في ظروف هذا الرسم التي تشارك كلها في نفس النتائج لأن هذه الأبحاث ستبعدني (١) كثيرا عن موضوع الدراسة التي أقوم بها، وسأكتفي ببعض الملاحظات حول اللوحتين التين توجدان في قدس الأقداس والتي تعرض إحداها ولادة حورس والثانية إرضاعه.

نعرف أن إيزيس كانت، عند المصريين، شعار الأرض الخصبة، وأن حريوقراط كان رمز الإنتاج والثمار الناتج عن ارتباط إيزيس و أوزوريس : وليس هناك شك في أن الولادة المنقوشة في قدس الأقداس (شكل ١ اللوحة ٩٦) هي رمز لظهور النباتات التي تخرج من الأرض المخصبة بمياه النيل وهذه الظاهرة تكون في مدار الشتاء، والجمران كما نعرفه يرمز إلى الأجيال، أما أجنحة الصقر المفرودة فتشير إلى معنى آخر حريوقراط يكون رمزا له، وفي مصر وفي مرحلة الإنبات أي في مدار الشتاء، يكون النهار أقصر من الليل، والشمس تكون في أقصر مشوارها، فكان المصريون يرمزون إلى هذا النجم بطفل صغير (٢) ومنذ هذا

(١) انظر الملاحظات حول السقف الفلكي لأحد مقابر الملوك.

(٢) بلوتارخ، إيزيس وأوزوريس.

العهد بدأت تتجه شيئاً فشيئاً في اتجاه نصف الكرة الأعلى، وقد اختيرت أجنحة الصقر كشمار للشمس وذلك للدلالة على سيرها الذي أصبح أكثر سرعة.

ونرى أنه من الجدير أن نقدم للقارئ هنا، مقالاً من كتاب "إيزيس وأوزوريس" الذي يمكن أن نعتبره ترجمة لهذه اللوحة، ولا يفوتنا أن نذكر الأهمية في التناسق الذي يسود بين الآثار الأثرية نفسها وبين المؤلف الذي عرف جيداً الديانة الفلسفية عند المصريين.

"يدفن أوزوريس عندما تغطي البذور داخل الأرض و..... من جديد يحيى ويعود الحياة، عندما تثبت البذور..... وعندما أحست إيزيس بحملها، قامت بارتداء قلادة حامية في اليوم السادس من الشهر، الذي يسمونه بؤونة، ثم أنجبت حريوقراط في مدار الشتاء تقريباً، قبل أن يكتمل، مع أولى الزهور وأولى النباتات<sup>(١)</sup> فولادة إيزيس هي رمز لمدار الشتاء والإنبات.

ويمبر إرضاع حورس في (اللوحة ٩٣ شكل ٢) المعروضة أمام ولادة إيزيس، في الوقت نفسه، على نمو النباتات (التي تتغذى في عمق الأرض) وعلى مرور الأيام بعد مدار الشتاء. ويظهر في هذه اللوحة حورس صغير السن ترضعه بقرة، أكبر سناً ويجلس على ركبتى إيزيس التي تعطيه ثديها، ثم ترضعه امرأتان لهما رأس بقرة، وأخيراً نراه جالساً على ركبة أربع نساء أخريات، وسنه أكبر، ويضع إصبعه في فمه، ويلبس قلادة على صدره، وهذا يعني أننا نراه يمر عبر كل مراحل الطفولة.

وتضع الأربع نساء اللاتي ذكرتهن، على رؤوسهن رمزين يجدر بنا استكشاف معناهما، فالذي يوجد في اليسار لا نراه في أية لوحة أخرى. أما المشهد الذي يوجد أعلى باب قدس الأقداس، فيبدو أنه يشير إلى المدار الصيفي، والصقر هو شمار للشمس، له أجنحة مفرودة ويضع على رأسه رمز القوة، وتدل أشعة اللوتس على فيضان النيل الذي يبدأ من مدار الصيف.

---

(١) ترجمة أميوت.

وأخيرا الأسد المسلح وهو الرمز البديهي له<sup>(١)</sup> وذلك لأنه فى عهد هيرمونثيس، يكون الاعتدال الربيعى تحت برج الثور، والخريفى تحت برج عقرب، فمدار الصيف يقع تحت برج الأسد. ولا يهدد السكين الذى يوجد بين مخالفه اللوتس، كالتى يمسكها تيفون فى يديه. وهذا الأخير وصلت يده إلى سيقان اللوتس حيث هم بقطمها، لكن يظهر أن الأسد يدافع عنها والصقر يفرد جناحيه عليها لحمايتها. ولا أجرؤ على إعطاء أى تخمين بخصوص الزرافة وابن آوى اللذين يوجدان فوق تيفون والأسد.

وهاتان اللوحتان؛ وخصوصا الأخيرة، تتوافقان مع اللوحة التى توجد فى السقف فى الدلالة على الحقة الفلكية نفسها، أى التى نجد فيها الثور السماوى كمقر للاعتدال والأسد للمدار الصيفى. هذه الحقة تم تأكيدها بصور مختلفة للأسد التى وجدناها داخل المعبد وأذكر منها:

أولا: جلد الأسد الذى يغطى الأسرة التى سبق لى ذكرها.

ثانيا: صور عدة لنساء لهن رأس الأسد فى لوحات مختلفة (اللوحتين ٩٥ و ٩٧ وغيرهما).

ثالثا: أسد له رأس صقر وذيل تمساح، صورة مركبة رسمت مرتين (اللوحتان السابقتان). والتى تدل على وجود مدار الصيف تحت برج الأسد: لأن الصقر كان رمزا للشمس والتمساح رمزا الفيضانات<sup>(٢)</sup>.

وهناك لوحتان ترمزان أيضا لمدار الصيف، إحداهما نرى فيها أربع شخصيات متماسكة الأيدي، وأحدهم له رأس أسد (اللوحة ٩٧) وأبو منجل يقف خلف صقران، وساق زهرة اللوتس كبيرة، ورموز عدة أخرى لها دلالة معينة، وأخيرا عين أوزوريس التى تشرف على المشهد كله<sup>(٣)</sup>. وفى اللوحة الثانية نرى

---

(١) انظر وصف أدو، الفصل الخامس المبحث السابع.

(٢) أوزاب، الكتاب الثالث، المقطع (١) وانظر أيضا وصف كوم امبو، الفصل الرابع، المبحث الثالث.

(٣) انظر وصف إدفو، الفصل الخامس المبحث الخامس.

فيها حريوقراط محمول في وضع النصر (اللوحة السابقة شكل ٢). ورمز الرجولة هنا هو شمار التلقيح، وزهور اللوتس التي زينت بها الأغطية هي رمز فيضان النيل.

ولقد سبق لى القول بأن مشهد إرضاع حريوقراط هو رمز لمدار الشتاء، وسأقدم الآن دليلاً آخر لتأكيد ذلك : هي اللوحة التي توجد أعلى الباب التي سبق وصفها ( اللوحة ٩٥ شكل ٨ )، نرى أربع نساء يقدمن أشداًهن للإله الصغير، حريوقراط يجلس فوق زهور اللوتس ويضع إصبعه في فمه. لكن بلوتارخ يقول بصفة إيجابية<sup>(١)</sup> بأن حريوقراط في صورة طفل صغير يجلس فوق زهرة اللوتس وأصبعه في فمه، يعبر عن الشمس في مدار الشتاء حيث تكون غير مشتعلة بشدة وخاملة.

واللوحة التي تلو اللوحة السابقة كانت كلها مخصصة لمدار الصيف، كما يدل على ذلك الصقر الذي يفرد جناحيه في وسط مجموعة من زهور اللوتس وخصوصاً صورة لمضو حريوقراط الذكرى في وضع الانتصاب وهي رمز للقوى التناسلية التي تولدها الشمس عندما يفيض النيل.

وهذا التوافق الذي نجده بين كل لوحات معبد هيرمونثيس يدل على أنها صممت رمزياً لإبراز أربع مراحل الأساسية من السنة الفلكية.

وتعرفنا الدراسة التي قمنا بها في هذا المعبد في إطار النقوش التي زين بها، أكثر عن الغرض منه، بالمقارنة مع كل التقارير التي وضعها المؤلفون بخصوص هذه المدينة القديمة.

ويقول استرابون في هذا المضمهر : " بعد طيبة توجد مدينة هيرمونثيس حيث يبعد جهوتي وجوبيتر، وحيث يرى ثور<sup>(٢)</sup> " .

وقد أراد ماكروب أن يبرهن على أنه في العبادات المصرية، تتعلق صورة الثور وصور الأبراج الأخرى للبروج بالشمس، حيث قال إنه في معبد أبولو الجميل،

(١) بلوتارخ، إيزيس وأوزيريس.

(٢) استرابون الكتاب ١٧ صفحة ٨١٦.

يقدم الثور رمز للشمس ويسمى باسيس<sup>(١)</sup> وسأتجنب ذكر الاستدلالات التي جاء بها.

ويوضح هذا المثال الوحيد لنا أن المؤلفين القدامى لم يتعرفوا جيدا على المعابد المصرية، لكننا لا نتعجب عندما نعرف أنه كان يحذر على الأجانب دخولها.

ويخمن جابلونسكى بأن اسم تم تحريفه إلى اسم باباسيس الذى يعنى، حسب قوله "أى الحارس". لكن كل ماكتبه بخصوص "ثور هيرمونثيس" الذى يظن أنه هو نفسه أنوفيس.

بدون تقديم أى استدلالات<sup>(٢)</sup> هو مجرد تخمين. وهذا ما يحدث للعلماء إذ يهتمون الآثار ويقتصرون على تحليل بعض التقارير المبهمة. وقد كتب استرابون وماكروب أنه فى هيرمونثيس كان يعبد أبولو وجوبيتر. وأنه تم ترجمة إلى اللغة اليونانية اسم إيزيس وأوزوريس اللذين رأينا صورهما فى داخل المعبد وقد أضافا كذلك أن الثور كان مبعجلا، لكن هذه الفكرة تكون جاءت من الصورة المعروضة فى سقف قدس الأقداس. ومن صورة البقرة المكررة مرات عدة، وكما أظن أنه من كل الحيوانات التى نقشت فى معابد مصر. وبالرغم من هذا، فإن مقال يبقى أكثر أهمية حيث يبرهن على أن الثور المنقوش فى السقف هو الثور نفسه السماوى وليس مجرد صورة عادية لحيوان.

---

(١) تقدم الديانة المصرية الثور ليشير إلى الشمس حقا، طبقا لأسباب متنوعة مختلفة ربما يكون الثور رمزاً للشمس كما هى الحال عند مدينة هيليوبوليس. ويطلقون عليه اسم نيتون، ويقدمونه بصورة كبيرة جدا، وقد يرحب بمجل أبيس فى مدينة منف بوصفه صورة للشمس، أو كما فى مدينة هيرمونثيس حيث يعبدون النور كرمز للشمس فى معبد الإله أبولو الضخم ويطلقون عليه «باكين» كإشارة لطبيعة الشمس نتيجة للمعجزات المتأزمة على سبيل المثال وخلال ساعة واحدة يمكنه أن يظهر الألوان وقد تغيرت، ويقال إن شعره الأشعث يزداد بعكس جميع الحيوانات، لذلك يبدو صورة طبق الأصل من الشمس إلى الجزء الآخر من العالم المشرق ماكريبوس. ساتورنوس، الكتاب الأول، الفصل ٢١، سنة ١٩٥٧.

(٢) أنوفيس كان كذلك اسما لمدينة فى مصر السفلى.

ويجب أن نتذكر أيضا أنه فى مدن منف وهليوبوليس . حيث كان الثور مقدسا. كان يوجد هناك مقياس النيل وقد سبق وأن بين جابلونسكى الملاقة التى توجد بين اسم الثور أبيس واسم الأعمدة المخصصة لقياس النيل. وهكذا، فإن المادة التى تضع قياسا للنيل فى أرمنت، حيث كان الثور كذلك مقدسا تكون قد تأكدت.

وسأختم مقالى هذا بملاحظة لا تقل أهمية؛ حيث لا يرتفع منسوب المياه حاليا إلا بمقدار سبعة أو ثمانية أقدام تحت حافة الحوض. وإذا أضفنا إليها نسبة ارتفاع سطح الأرض منذ القديم وارتفاع ثلاثة أقدام تقريبا وهى ارتفاع رصيف المعبد أعلى الحوض، سنرى إلى أى حد كان المهندسون الذين أنشأوا هذا المعبد يمتتون بتعليته فوق مستوى الفيضانات.

### **البحث الخامس، وصف مبنى شيد من أنقاض آثار أرمنت**

عندما نتوجه من قرية أرمنت إلى المعبد الذى قمت بوصفه نشاهد على اليمين بناية مرتفعة ونعرف من قبابها وشكلها الدائرى أنها لم تبني بأيدي مصرية. فالتصميم بسيط وجميل ويتكون من ساحة لها ممشيان طويلان من كل جانب، ولها صفان من الأعمدة وهى كل طرف غرف عديدة إحداها توجد فى الوسط وهى نصف دائرية ولها خمسة نوافذ صغيرة.

فهذه الغرف هى دون شك عبارة عن أديرة مسيحية. ونرى فيها أيضا الصليب على شكل زهور مرسومة على الجدران وبعض المخطوطات القبطية. وليس هناك أدنى شك أن هذه البناية هى بقايا كنيسة قبطية، بنيت فى العهد المزدهرة للمسيحية.

والجزء الوحيد الذى لا يزال قائما اليوم، هو الذى يوجد فى الجانب الشرقى (اللوحة ٩٧ ص ٥). أما الباقي. فقد دمر كليا.

ملئت الأرض بأعمدة كورنثسية كلها من الجرانيت، فالبعض منها على شكل قطع، والبعض الآخر لازال كاملا. ويبلغ قطر هذه الأعمدة قدمين تقريبا، والتيجان من الحجر الجيري والرملى، وبدن العمود فيه نوع من الإعوجاج والصقل غير متقن، و العتب، والعصابة، ومختلف حليات الزخرفة من الطراز اليونانى، فمثلا نرى أن الحلية من ورق الأفتنة التى وضعت فوق البناية صممت بشكل ردىء والشئ نفسه بالنسبة للقواعد والتيجان.

ولبناء هذه الكنيسة، تم استعمال مواد كان أصلها من الآثار المصرية، بعض الأحجار مليئة بالرموز الهيروغليفية تم قطعها بطرق عدة.

وهذه الرسومات نراها مقطوعة من كل الاتجاهات فقد كان هذا من الأشياء الغريبة التى قابلناها فى تلك الأطلال.

ونرى أيضا بعض الأجزاء مغطاة بالجص رسمت عليها نقوش عربية مازالت ألوانها محفوظة، والأجزاء المقوسة التى سبق لى ذكرها، لها لحامات عمودية ومتوازية، ولا تتجه نحو المركز، وتقويسها لا يوجد إلا فى الاتجاه الأفقى، إذن فهى بنايات عادية نحتت فيها نيشات.

ووجود أكثر من خمسين عمودا من الجرانيت فى مكان هو حدث جدير بالأهمية. فهل يمكن أن نظن أن المسيحيين الأقباط كانت لهم فى يوم من الأيام القدرة الكافية لصقل كمية كبيرة من الجرانيت فى محجر أسوان ؟

أو هل من المحتمل أن يكون المهندسون الذين بنوا هذه الكنيسة قد أخذوا هذه الأعمدة من بعض المباني اليونانية، كما أخذوا الأحجار المقطوعة من المعابد المصرية ؟

والحقيقة أنه ليس لدينا أى معلومات تخص هذه المنشأة. ربما تكون هذه الكنيسة قد حلت محل شئ كان قبلها فى نفس المكان، ولم يقوموا إلا بإنشاء المباني الدائرية الشكل من حولها.

وسأختم هذا الوصف بالفكرة التى ربما تكون قد طرحت على القارىء، وهى أن بناية جديدة أنشئت بحطام معبد كان منذ عهد قديم عبارة عن أنقاض، هى

الآن أكثر دمارا منه. لكن هذا الحفظ المجيب للأثار المصرية الناتج عن مهارة المنشئين، سيظهر جليا في آثار طيبة الكبيرة والمعديدة التى تراها العين من رصيف معبد أرمنت<sup>(١)</sup>.

### ضواحي أرمنت

#### ملاحظة حول بقايا مدينة تيفيوم القديمة

##### بقلم كوستاز

أبحرنا يوم ٢٢ سبتمبر ١٧٩٩ إلى إسنا التى كانت قديما لاتوبوليس، للنزول نحو طيبة : وانطلقنا عند غروب الشمس، واستمر الإبحار طوال الليل وعند الصباح فى ٢٣ سبتمبر، وجدنا أنفسنا فى طود وهى قرية توجد فى الجانب الغربى، فى واجهة إرمنت أى هيرمونثيس القديمة التى توجد على الضفة اليسرى ويشير دانفيل حسب ب سيكارد، إلى أن طود قد حلت محل تيفيوم. وأردنا أن نتحقق من وجود أثر لمدينة قديمة، فنزلنا إلى اليابسة فى منتصف النهار، واتجهنا نحو طود رغم رفض الأهالى لوجودنا، فكانوا يؤلفون مئات الأسباب لتغيير اتجاهنا. ويصممون على أننا لن نجد شيئا هناك ثم ينصحونا بالذهاب إلى الأقصر، إحدى القرى التى بنيت على أنقاض طيبة.

وعند دخولنا إلى طود وجدنا أحجارا ملثية بالرموز الهيروغليفية، فتأكدنا حينها أن الأهالى لم يكونوا صادقين معنا.

فالسكان الذين لم يسبق لهم أن رأوا الفرنسيين فى ديارهم، كانوا قد أُنذروا بوجودنا، ويرفضون الإجابة عن أسئلتنا. وبالرغم من ذلك، فقد استطعنا الوصول إلى أنقاض معبد : كانت مدهونة لدرجة أن أكواخ الطين الصغيرة التى تشكل القرية تحجبها تماما عن الأنظار، ولم يبق على سطح الأرض سوى غرفتين صغيرتين<sup>(٢)</sup> وغطيت وجهات الجدران الداخلية والخارجية بالنقوش البارزة

---

(١) انظر اللوحة ٩٧ شكل ٨ الخطوط المتجهة نحو الأقصر والكرنك كان من المفروض أن نعد طولها إلى فرسخين.

(٢) انظر اللوحة ٩٧ مستط هذه الأنقاض.



المصرية وبالرموز الهيروغليفية، ولاحظت وجود تمساحين أحدهما له رأس صقر. وصورة التمساح المحاطة بمظاهر التقديس نجدها متكررة فى معظم الآثار فى أعلى طيبة. ولم أراه أسفل تيفيوم وهذه الملاحظة تؤكد وجهة النظر التاريخية التى تمركز عبادة التمساح فى نواحي الصعيد.

ولكن صدق انشغالنا وهدفنا، وهدوء تعاملاتنا، قد أرجع الطمأنينة والثقة فى قلوب الأهالى، فاستضافونا وقدموا لنا اللبن الرايب، وأخذونا بأنفسهم إلى مساجدهم، ودعونا للدخول : إنه بناية بسيطة، وداخلها كأغلبية المساجد التى رأيناها فى مصر، تشبه كثيرا الدير، والأعمدة المحيطة رفيعة ومستديرة بشكل غير صحيح، والتيجان من الطراز العربى ومشغولة بشكل خشن، وبمض الأعمدة لها تاجها فى مكان الطبلية، وهو الشيء الذى يتناقض كثيرا مع بقايا الآثار المصرية التى سبق وأن فحصناها.

وأعمدة المسجد كلها من الحجر الرملى الهش ، باستثناء ثمانية منها كانت من الجرانيت، وقد لفت انتباهنا أحدها، حيث أقيم بقطعة من مسلة تم صقل زواياها لإعطائها شكلا آخر يناسب وظيفتها الجديدة، ولكن يبقى من السهل التعرف على هيتها القديمة بفضل الرموز الهيروغليفية التى لازالت ظاهرة على طول العمود. وتشهد هذه القطعة على أن مدينة تيفيوم كانت قديما كلها مزينة بالمسلات وهو الشيء الذى يجعلنا نظن أنه كانت ذات أهمية كبيرة.

وبعد أن أشبعنا فضولنا فى أنقاض تيفيوم، أخذنا الطريق ثانية إلى طيبة، حيث وصلنا بعد ساعتين من الإبحار، فسنحت لنا الفرصة لرؤية تمساح حى كان يقف مختبئا عند الضفة، وكأنه يستدفئ بأشعة الشمس، ويظهر أنه كان نائما، فأطلقنا النار فى اتجاهه فسارع إلى الاختباء فى الماء، ويظهر كما لاحظنا أن طوله كان يبلغ ثلاثة أمتار.

وتوجد طود أو تيفيوم على بعد أربعة كيلومترات فى جنوبى النيل الذى يجرى من الغرب إلى الشرق عند هذا المكان. ونجد فى الطريق قرية السالمية.

## الفهرس

٧	..... المقدمة
	..... الفصل الأول:
١٢	..... وصف جزيرة فيلة. بقلم ميشيل أنج لانكريه
١٥	..... المبحث الأول: الطريق التي تؤدي من أسوان إلى جزيرة فيلة
٢٣	..... المبحث الثاني: نظرة شاملة على الآثار
٢٥	..... المبحث الثالث: عن الجزيرة وعن موقعها في وسط النهر
٤٢	..... المبحث الرابع: عن المباني المستخدمة كطريق للمعبد الكبير
٥٥	..... المبحث الخامس: حول المعبد الكبير
٦٦	..... المبحث السادس: حول المعبد الغربي
	..... المبحث السابع: حول الانقراض الفريية وتلك الموجودة على الضفة المواجهة للنهر
٧٨	.....
٨٢	..... المبحث الثامن: عن المبنى الشرقي ، ومعبد صغير مغطى بالبرديم
٩٣	..... المبحث التاسع: منشآت يونانية ورومانية توجد في جزيرة فيلة
٩٥	..... المبحث العاشر: ملاحظات عن قَدَم المباني الرئيسية بجزيرة فيلة

## الفصل الثانى:

- ١٠١ ..... وصف أسوان والجنادل . بقلم.جومار
- ١٠١ ..... القسم الأول؛ أسوان وضواحيها
- ١٠١ ..... المبحث الأول: الموقع الجغرافى لأسوان
- ١٠٦ ..... المبحث الثانى: المدينة القديمة والمدينة الحديثة
- ١١٠ ..... المبحث الثالث : المعبد المصرى وباقى آثار أسوان
- ١١٣ ..... المبحث الرابع: ضواحي أسوان
- ١١٩ ..... القسم الثانى؛ الجنادل
- ١١٩ ..... المبحث الأول: ملاحظات عامة
- ١٢١ ..... المبحث الثانى: وصف الجندل الأخير والطريق المؤدية إليه
- ١٢٦ ..... المبحث الثالث: روايات الكتاب عن الجندل الأخير
- ١٣٥ ..... المبحث الرابع: الجنادل العليا

## الفصل الثالث:

- ١٤٣ ..... وصف جزيرة الفنتين بقلم.جومار
- ١٤٣ ..... المبحث الأول: وصف عام للجزيرة
- ١٤٨ ..... المبحث الثانى: المعبد الجنوبى
- ١٥٩ ..... المبحث الثالث: المعبد الشمالى
- ١٦٠ ..... المبحث الرابع: وصف حائط رصيف فيلة
- ١٦٥ ..... المبحث الخامس: العقيدة الخاصة سكان جزيرة الفنتين
- ١٦٩ ..... المبحث السادس: دراسات تاريخية وجغرافية

#### الفصل الرابع:

- وصف كوم أومبو وضواحيها ..... ١٧٥
- القسم الأول؛ بقلم . شابرول و . جومار ..... ١٧٥
- المبحث الأول: وصف الطريق من أسوان إلى كوم أومبو ..... ١٧٥
- المبحث الثانى: وصف مدينة كوم أومبو وآثارها ..... ١٧٦
- المبحث الثالث: معبد كوم أومبو الكبير ..... ١٨٠
- المبحث الرابع: معبد كوم أومبو الصغير ..... ١٨٨
- المبحث الخامس: وصف الطريق من كوم أومبو إلى إدفو ..... ١٩٠

#### القسم الثانى؛ بقلم روزيير كبير مهندسى المناجم

- وصف جبل السلسلة والمحاجر التى استخدمت منها مواد بناء المنشآت
- الرئيسية فى صعيد مصر ..... ١٩٣
- المبحث الأول: ملاحظات طبوغرافية ..... ١٩٤
- المبحث الثانى: ملاحظات عن مواد البناء المستخرجة من المناطق المحيطة
- بجبل السلسلة لتشييد المباني القديمة ..... ١٩٧
- المبحث الثالث: طرق استغلال الحجر التى استخدمها قدماء المصريين ..... ٢٠٣
- المبحث الرابع: عن عمليات استغلال المحاجر تحت الأرض وعن المقابر
- الموجودة فى المناطق المحيطة بجبل السلسلة ..... ٢٠٧
- المبحث الخامس: شكل المنطقة ..... ٢١٠

#### الفصل الخامس:

- وصف آثار إدفو بقلم . جومار ..... ٢١٣
- المبحث الأول: ملاحظات عامة وتاريخية ..... ٢١٣

- المبحث الثاني: وصف المعبد الكبير، حالته الراهنة وبنائه ..... ٢١٩
- المبحث الثالث: حول وضع المعبد الكبير ..... ٢٣٠
- المبحث الرابع: حول زخارف المعبد الكبير ..... ٢٣٩
- المبحث الخامس: دراسات حول الفرض من المعبد الكبير وعصر إنشاءه،  
استنادا إلى فحص اللوحات الرمزية ..... ٢٥٢
- المبحث السادس: حول صورة العنقاء التي عثر عليها بين نقوش المعبد  
الكبير وفي آثار أخرى ..... ٢٥٧
- المبحث السابع: حول المعبد الصغير ..... ٢٦١
- المبحث الثامن: بيان بالأبعاد الأساسية للمعبد الكبير ..... ٢٦٩

#### الفصل السادس:

- وصف أنقاض الكاب بقلم سان جينى كبير مهندس الطرق والكبارى ..... ٢٧٢

#### الفصل السابع:

وصف إسنا وضواحيها بقلم جولوا وديفيليه مهندسا الطرق والكبارى

- معبد إسنا الكبير ..... ٢٨٥
- معبد فى شمال إسنا ..... ٢٩٢
- معبد فى شرق إسنا على الضفة اليمنى للنيل ..... ٣١٠
- دير قبطى فى جنوب إسنا ..... ٣١٤
- الجغرافيا المقارنة ..... ٣١٤
- زمن بناء الآثار ..... ٣٢٠

الفصل الثامن:

- ٣٢٢ ..... وصف أرمنت بقلم. جومار
- ٣٢٣ ..... المبحث الأول: وصف مدينة أرمنت.
- ٣٢٥ ..... المبحث الثاني: وصف معبد أرمنت.
- ٣٣٢ ..... المبحث الثالث: وصف نقوش المعبد.
- ٣٣٧ ..... المبحث الرابع: وصف حوض المعبد.
- ٣٤٥ ..... المبحث الخامس: وصف مبنى شيد من أنقاض آثار أرمنت.
- ضواحي أرمنت:
- ٣٤٧ ..... ملاحظة حول بقايا مدينة "تيفيوم" القديمة بقلم.كوستاز



مراجعة وتقديم: منى زهير الشايب

ترجمة

د. منار رشدي

د. منال بشير

د. حمادة إبراهيم

إشراف

أ.د. فوزية شفيق الصلح

مدير التحرير

حسين البنهاوي



رقم الإيداع: ١١٣٦٣ / ٢٠٠٣

---

الترقيم الدولي : - 0 - 8593 - 01 - 977 ISBN.



تمت الطباعة بالتعاون مع  
شركة نهضة مصر للطباعة والنشر